

نفحة العنبر

في حياة إمام العصر الشيخ أنور

نحوى حياته العلمية ومفاخره السائرة ومآثره
الخالدة وشهائله الميمونة وآراء مشائخه وأماثل
عصره في نبوغه وكالاته وشئ من
فوائده علومه وشعره

تأليف

محمد يوسف بن السيد محمد زكريا البنوري

خادم الحديث النبوي بالمدرسة العربية الإسلامية بكرانثي ومديرها

وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق عفا الله عنه وعافاه

وجعل آخرته خيراً من أولاه

قام بنشرها



Made searchable using ScribeTools.com

سنة الطبع : ۱۳۸۹ هـ - ۱۹۶۹ م

تعداد النسخ : ۱۰۰۰ (ألف نسخة)

المطبعة : القادر برنتنك سينٹر

نوری مسجد - تین ہٹی
کراتشی - پاکستان

عن الكتاب : من غير التجليد : عشر روبیات

” ” مع التجليد : اثنتا عشرة روبية

الناشر : ادارة المجلس العلمی

بکراتشی

ص - ب - ۴۸۸۳

مقدمة الطبعة الثانية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن إمام العصر المحدث الكبير الشيخ محمد أنور شاه الكشميري ثم الديوبندي رحمه الله تعالى كان من أفراد هذه القرون الأخيرة وأفذاها ، ونابغة هذه العصور الذي يستحق هذه الأمة الحاضرة أن تتباهى به ، ما كان لمثلي أن يكتب حياة مثله ، وإنما يستحق أن يكتب حياته من كان متضلعا من هذه العلوم والمعارف ، وسابر أغوارها وأنجادها ، ووصل من حقائق العلوم إلى غايتها القصوى وحماها ، وأطال صحة أنفاسه الطاهرة على محبة ووداد ، وبصيرة وسداد ، ولكن القدر المحتوم قدر لي هذه السعادة الأبدية ، فوفقت إلى تأليف في حياته وترجمته قبل أربع وثلاثين سنة في شرح شباني وعنفوان فتوتي ، وما كان لمثلي أن تنجلي أمامي خصائصه البارعة ومزاياه الساطعة ، غير أن غرامي بعلومه ولوعى بخصائصه وإخلاص ودادي لشخصيته فتح أمامي حقائقه التي درستها بعد أكثر من ثلاثين عاماً ، ولم أزد غير وثوق وتأكيد لما أدركته من قبل وكشفت لي كرامته الباهرة أن أدركت حقائق من خصائصه ومزاياه في ريعان شباني ما لو كنت أدركتها وأنا ابن ستين سنة فصاعداً لكفى لي فخراً بحول الله وقوته ، ومن قدرة الله القدير على كل شيء أن سمعت شيئاً وسني لم يبلغ إلى عشرين ، فذقته بثلج صدر وبصيرة مثل ما أدوقه وأنا فوق ستين عاماً ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون

(ب)

ألفت ترجمته المختصرة وحياته العلمية وسميتها : ” نفحة العنبر في هدى الشيخ أنور “ ، عنيت فيها بأدابه وحياته العلمية أكثر من عنايتي بأحواله العامة وشأنه الطيبة كما هو دأب أكثر المؤلفين العصريين .

وقد لاقى جهدى الضئيل تقديراً وثناءً من الأكابر كأمثال حضرة حكيم الأمة التهانوى ومحقق العصر الشيخ العثماني والمحقق الشيخ كفايت الله الدهلوي مفتي الهند الأكبر ، وهنئوني بهذا التوفيق ، كل ذلك بفضل الله وكرمه ما كان يخطر ببالي مثله ، ولما سافرت إلى القاهرة في أول رحلة لي سنة ١٣٥٧ في صفر الحير وتشرفت بزيارة بحانة العصر المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري فقدمتها إلى حضرته ، فزارني بعد يوم أو يومين في منزلي بالقاهرة ، وقال : قرأت كتابك ” النفحة “ ووجدت كأن الشيخ مائل أمامي بخطب ، ومن العجيب أن حضرة شيخنا مولانا شبير أحمد العثماني كتب في جملة ما كتب عن الرسالة مثل هذه الكلمة ما لفظه بالأردوية :

” کتاب کے موضوع اور اسلوب جمیل نے مجھکو بالکل اپنے طرف جذب کر لیا ، پڑھتے وقت بلا سبالغہ یہ معلوم ہوتا تھا کہ گویا مرحوم کی تصویر آنکھوں کے سامنے کھڑی ہے ، اور خود گویا علامہ مرحوم اپنے خاص لب و لہجہ اور طرز ادا میں اپنے عقیدت کیشوں سے خطاب کر رہے ہیں “ .

ومن المبشرات أن صديقنا العالم الصالح مولانا عبد العزيز المرحوم قد رأى رؤياً حين فرغت من تأليف ” نفحة العنبر “ قبل أن يعلم أحد بإتمامه وأن يفض مسك ختامه : ” أن شيخنا رحمه الله جاء غرقتي التي كنت أسكنها في ” جامعة دابيل “ وجلس خارجها ، وأخذ يثنى على عضواً عضواً ، ثم طلب طيلساناً لي يشد على الرأس بدن العمامة فأخذه وشده على الرأس مثل العمامة وأثنى على ذلك الطيلسان بأنه في غاية الجمال “ .

(ج)

وأرى أن هذه البشرى رؤيا صالحة دلت على قبول هذه النفحة بحضرتة ، فهبت عليها نفحات من قبوله ، فله الحمد والنعمة ، وكفى لي بها سعادة وفخراً :

جهد المتيم أشواق فيظهرها * دمع على صفحات الخلد ينحدر

وأنا أدري أن حياة إمام العصر العلمية يحتاج إلى توسع أكثر من هذا ، وقديماً قلت : إن كان طرف ضئيل من حياته موضوع بحث فالجمال واسع جداً ، فكيف يمكن أن يحوى جزء وهو غير كبير حياة مثله نابغة الدهر وعبرى الأمة الحاضرة ، ثم أنى لمثل في شباني وفتوتى ! ثم كل ذلك في ظروف ضيقة وفرص مختطفة من أعمال الدراسة . بيد أن الله سبحانه القادر على كل شئ جعلها مقبولة واختطفته أيدي طلبة العلم في برهة غير طويلة ، وكنت أود أن أطيل البحث عن شئونه العلمية وشأله العامة ، وكان أرباب المجلس العلمى يحبون أن يعيدوا طبعها ، ولكن لم أوفق لما كنت أود ولم يوفتوا إلى ما أحبوا ، فطال الترقب وزادت الأشواق إلى أن جاء عهد الإعادة للنشر مرة أخرى في وقت وهنت قواى وازدحمت على الأشغال ، وفترت الداعية ولم أتمكن من الزيادة غير النظر في غضوناتها وشجونها ، نعم رغبت في أن يالحق بها ما كتبت عن إمام العصر الشيخ رحمه الله في مقدمة ” فيض الباري ” أو كلمات في محل آخر ليكافئ هذا الوهن ، أو شئ من فوائده النقدية والعلمية ليجبر هذا الكسر ويلم هذا الشعب ، وكنت احتذيت بعض قدماء الأئمة مثل المبرد في ” كامله ” والجاحظ في ” بيانته ” ، فجاءت فيها أمثال عربية أدبية جعلتها أرق أدباً في أنظار وأعمض وأدق في أنظار أخرى ، ولكن قل مقام إلا وذكرت فيه بعد المثل أو قبله كلمة من كلامي يشرحه أو يكون سياق يوضحه ، فن غاب عنه المثل ومعناه وما حواه لم يغب عنه مفهوم الكلام

وفحوه ، ومهما يكن من شئ فإتيان شئ يتفق عليه الأمة جمعاء خارج من طوق البشر ، وهكذا الدنيا . وصدق أبو الطيب حيث يقول :

لحمى الله ذى الدنيا مناخاً لراكب * فكل بعيد لهم فيها معذب .
ولنعم ما قال هو نفسه وأجاد ، وكان شيخنا رحمه الله يتمثل به أحياناً ،
وهى هذه الأبيات :

تخالف الناس حتى لا إتفاق لهم إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقليل تخص نفس المرأ سالمة وقيل تشرك جسم المرأ فى العطب
ومن تفكر فى الدنيا ومهجنه أقامه الفكر بين العجز والتعب

فإذن نقدم لمن له ولوع بحياة إمام العصر الشيخ وغرام بها تلك النفحة التى
هى نفحة من نفحاته رحمه الله فى حديقة أبهى من السابقة ورقاً وطباعة وصحة فى زى
قشيب وجمال بديع ، نرجو الله سبحانه أن يجعلها سلوة للمغرمين بحب الشيخ ،
كما نرجو أن يجعلها نزهة أدبية للذى يريد التنزه فى رياض من الأدب والشعر
واللغة ، فيشمنون منها نفحة ذكية عنبرية بفضل الله ، والله سبحانه ولى كل
توفيق ونعمة .

محمد يوسف البنورى

٢ صفر الخير سنة ١٣٨٩ هـ

المدرسة العربية الإسلامية

كراتشى رقم - ٥

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذى تواضع كل شئ لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شئ لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شئ لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شئ لقدرته .

اللهم اجعل شرائف صلواتك ونوامى بركاتك على سيدنا محمد عبدك ورسولك الخاتم لما سبق والفتاح لما أغلق ، هديت به القلوب بعد خوضات الفتن والإثم بموضيات الأعلام ومنيرات الإسلام ونائرات الأحكام ، فهو أمينك المأمون وخازن علمك المخزون ، وعلى آله وصحبه الذين لهم الآثار الباقية والباقيات الصالحات ما دامت العيون تسمح بالعبرات والقلوب بالحسرات.

أما بعد : فهذه نفثات صدر وقطرات قلم ، بل عبرات عين وحسرات ألم نهديها إلى علماء الأمة الحنيفية ، ولا سيما إلى فضلاء الممالك الإسلامية وأماثل البلاد العربية لتصدع لهم بكلمات من كتاب حياة رجل عظيم ضنت بأمثاله القرون وجادت بمثاله بعد دهور متطاولة .

كان برقاً تألق في ساهرة الهند فأضاءت منه أقطارها ، وانبعث شعاعه إلى أكناف الدنيا ، فاستنارت منه أنجادها وأغوارها ، فاشربت إليه الأعناق ، وأقنعت الرؤس وطمحت إليه الأعين ، فانطوى على عجل وغادرهم سامدين حيارى لا دراك لهم ولا حراك ، هو : الشيخ الإمام ، نسيج وحده ونابغة دهره ، إمام العصر ، ابن دقيق الأمة الحاضرة في دقة النظر ، ابن تيمية عصره في الاستبحار والتغلغل في العلوم ، عسقلاني الحديث في الحفظ والإتقان ،

جرجاني البلاغة ، وسيدويه العربية سيدنا ومولانا الشاه محمد أنور الكشميري
ثم الديوبندي ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه .

جاء والناس في غفلة من مزايا علوم الحديث ومن تخرج منطاط الأحاديث
وتنقيحه وتحقيقه ، راقدين عن فقه الحديث وأغراض الشارع ، حمادهم أن
يحفظوا ما راج بين القوم من التأويلات الركيكة والمحامل الواهية للنصوص ،
غير منتقدين لها على محك الفكرة الصائبة والبصيرة النافذة .

أتى رحمه الله والمشتغلون بالدرس والتأليف في زاوية الاقتناع من بحار
الأقوال ببرض النقول يسبحون في ضحضاح من المغقول والمنقول ، لادراك
لهم من اجتناء الأزاهير الفائحة من مريع رياض القدماء والاقتطاف من
ثمارها اليانعة .

نفع والعاكفون على العلوم في دلجة مطبقة من سبل الإرتقاء إلى ذرى
المجد السامى والشرف الأقصى ، غير منتفعين بمعادن السلف ودقائقهم القيمة
وتحقيقاتهم المضمونة ، والمكبون على الزبر كانوا يرجعون بالغيب ويرمون
في الليل ، لا يدرون طبقات المؤلفين ودرجاتهم ومواليدهم ووفياتهم ، فأضاء
رحمه الله مناهج التنصى عن المعضلات الغامضة والمشكلات الدقيقة حتى أصبح
لهم التحقيق والتدقيق على طرف النام وتغلغل في حقائق المدارك ومعارفها
ودقائق الأبحاث وغوامضها ، ففقد شواردها واستأنس أوابدها ، وغاص
البحار وشق الجبال ، فأخرج اللآلى الفاخرة والجواهر المضيئة فأصبحت
البواقيت والجواهر أرخص ما يكون في أسواق الدروس وأندية التأليف
والجامع العلمية .

وبالجملة فقد سحت مزنته الهطالة فساحت بحار وسالت أودية من غور
نقول أكابر القدماء وأماثل السلف في معضلات العلوم ، فسيح فيها بتحقيق

(ز)

نافذ واجتهاد مصيب وانتقاد رائق ، فاخضرت بقاء الجند وراحت في البلاد
نسائمها وتنضرت رياضها النضرة ، حتى فاحت الأزاهير وصاحت حمائمها ،
فقد هز القلوب وهيج الأفكار ولذت الأسماع وأرهف البصائر والأبصار ، حيث
بث الجواهر الغالية ونشر المعارف العالية ، ونفخ في الأمة الحاضرة روح
نهضة العلوم الإسلامية . تبدت له الدنيا بدلها وحديثها ، وغردت له بما
تشتهيه الأنفس وتلد به الأعين كعتان كشمير وحمائمها ، وعطرت معاطفه
شائم أزهارها وكمائمها ، فتولى عنها وتركها وراءه ظهيراً وأقبل إلى التوشح
بمطارف العلم والفضل بحرص صادق وقلب زكي وطبيعة وقادة ، تقياً نقياً ،
حتى أضفى العلم له دثاراً وتقوى الله له شعاراً ، وصدق فيه ما خاطب به
الشيخ الإمام النووي الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد رحمه الله بقوله :
لكل زمان واحد يقتدى به * وهذا زمان أنت لا شك واحده

فهذه قطرات ورشحات من غزير وابله وفوحات ونفحات من جميل
شمائله وفضائله ، أتيمن بذكرها الميمون استذرافاً للعبوات ، واستذكراً بالعبر ،
واقتراناً بمن سلف من أعيان الأمة وغبر ، وادكاراً لنعم الله تعالى على الوري ،
واعتباراً بماثر أفراد الملة فيما مضى . والله د الخليفة الراشد الإمام عمر بن
عبد العزيز الأموي رحمه الله حيث قال :

أنظر لنفسك يا مسكين في مهل
قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها
ففيهم لك يا مغرور موعظة
ومما قلت :

مادام ينفعك التفكير والنظر
لله درك ماذا تستر الحفر
وفيههم لك يا مغتر معتبر

فأثار علم أو مآثر فضلهم
وقد فارقوا عنا وأبقوا عيونهم
مدى الدهر تبقى لا تزال كفرة
فهل من عطاش تشتهي نفع غلة

(ح)

أسائل دهرآ من شائل فضلهم فهل نظرة في الغابرين بعبرة
فدع ذكر سلمى أوحديث سعادهم وهات حديث الراحلين ببرهه
وذرحب ليلي ثم سعدى وذكرها وهاك حديثا من كتاب وسنة

اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا
بالله العلي العظيم ، ونستعينك على فساد فينا ، ونسألك صلاح أمرنا كله ،
وصلى الله تعالى على إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة سيدنا محمد وآله
وصحبه وتبعه أجمعين .

هذا ، ثم إني كنت عزمت بأن أقتنع من هدى الشيخ رحمه الله وحياته العلمية
بما فيه مقنع وكفاية للمتفقدين ، بيد أن أصحاب المجلس العلمي قد أشاروا على
بإفصاح حياته العلمية بنوع بسط وإيضاح وإيراد شئ من سيرته العلمية ،
ليكون مقدمة مقنعة لكتاب "مشكلات القرآن" من مؤلفات الشيخ رحمه الله ،
بل لسائر مؤلفاته مبصرة في آدابه وخصائصه ، فن أجل ذلك أجلت قداح
نظري الكليل في أرجاء من باديته الفسحي ، والله الموفق ، ولتسم بـ: "نفحة
العنبر من هدى الشيخ الأنور" ، وإن شئت فسمها بـ: "نفائس الدرر من
أنفاس الشيخ الأنور" . والله المستعان ، وعليه الثقة والتكلان (١) .

* * *

(١) ولتسم في هذه الطبعة: "نفحة" العنبر من حياة امام العصر الشيخ انور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سلسلة "نسبه، نشأته وحياته الجميلة"، أعماله بعد الفراغ، تدرسه للعلوم وافتتاحه تدرسه "عربية" بد هلى عود الشيخ الى وطنه وتأسيس مدرسه "دينيه" سماها الفيض العام، زيارة الحرمين ولقاء صاحب الرسالة الجميدية، عزم التجرد والعزلة، اقامته بدارالعلوم الديوبندية وازدواجه، رحيله منها الى كيجرات الهندو اقامته بدا بيل برض الشيخ، اجله المحتوم دفنه بد يوبند

سلسلة نسبه .

هـي : ابن الشيخ معظم شاه ، بن الشاه عبد الكبير ، بن الشاه عبد الخالق ، بن الشاه محمد أكبر ، بن الشاه محمد عارف ، بن الشاه حيدر ، بن الشاه على ، بن الشيخ عبد الله ، بن الشيخ مسعود الزورى الكشميرى رحمهم الله تعالى .

وفى "المكتوبات" الخطية عند خالف الشيخ (مسعود) : أن سلفه جاءوا من "بغداد" إلى الهند ، ودخلوا "ملتان" ، ثم ارتحلوا إلى بلدة "لاهور" ، ثم إلى "الكشمير". هذا ما ذكره شيخنا رحمه الله نفسه فى أواخر بعض رسائله ، وكان كما قال سيدنا كعب رضى الله عنه :

ورثوا الكرامة كابرأ عن كابر
إن الكرام هم بنوا الأخيار

نشأته وحياته الجميلة .

كانت ولادته صبيحة يوم السبت السابع والعشرين من الشوال سنة ١٢٩٢ الهجرية بقرية "ودوان" (١) على زنة لبنان . من كورة "لولاب"

(١) بالواوين بينهما دال مهملة .

(نفحة العنبر م — ١)

بناحية شمالية من مضافات "الكشمير" (الواقع في أعدل أقاليم البسيطة ، أعنى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة) .

تربى في حجر والدته التي كانت يتيمه دهرها في الورع والزهد والعبادة ، في ظلال حنو والده الراشد المسترشد العابد الزاهد ملجأ القوم في النوائب وملأذهم في المهمات الدينية والدنيوية ، إلى أن قضى أربع سنين من عمره ودخل في الخامسة فأخذ في القراءة فحتم التنزيل العزيز ، وفرغ من عدة رسائل بالفارسية في عامين على حضرة والده ، ثم شرع الكتب الفارسية حسب ما توارث في أهل بلدته وتعاملوا به من كتب الأدب الفارسي من النظم والنثر ورسائل الإنشاء وكتب الأخلاق من مؤلفات الشيخ سعدى الشيرازي والنظامي والأمير خسرو الدهلوي والعارف المحقق الجاهي والمحقق جلال الدين الدواني وغيرهم ، فبرع فيها ما شاء الله وحوى علماً بتلك الكتب الفارسية والعلوم المتعارفة فيها حتى فاق الأمثال والأقران ، وأشير إليه في فضلاء بلده بالبنان ، وحصلت له ملكة في صياغة النظم الفارسي وإنشاء النثر ولم تتم له بعد عشر حجج .

ثم شرع في تحصيل العلوم العربية ، ففرغ من الصرف والنحو وقدر صالح من أكثر العلوم المتداولة من الفقه وأصوله والمنطق وغيرها في حولين فصاعداً . فلما ارتوى وتضلع من علوم الكشمير أزعجته لواعج الارتقاء على الرحيل وأغراه جذبات الوجد والإشتياق على تكميل العلوم واكتساب المعارف لبرد الهيام وإطفاء الغليل فشحن غرار العزيمة الصادقة للرحلة عن وطنه ومألفه ، فردعته أمه الحنون وأباه العطوف فودع بلدته الطيبة التي تحي القلوب والأرواح بنسائمه ، وتهتز الأعطاف بأشجاع حمائمها إلى أن وصل إلى بقاع "هزاره" (من حدود الفنجاب بالمغرب الشامي) وكان محطاً لرجال مهرة العلوم الدراسية والأساتذة المتقنين وحناق الفنون المتداولة ، فمكث فيها من أقطار شتى نحو

ثلاثة أعوام يطفى* وحره ويشفى صدره ، بيد أنه لم تنفع بذلك القدر نفسه ولم تنفع به غلته بل كان يزداد ظمأً وأواماً إلى درك حقائق العلوم ، وما كان أن يطمئن ما لم يصل إلى درك البحر الزاخر ، وهكذا حقيقة المعارف والعلوم إذا سرت في العروق وخالطت بشاشتها القلوب وامتزجت بالقرائح والأفكار لا ينطفى* الضرام والغليل ، وتنادى القريحة : هل إلى مزيد من سبيل .

وكان رحمه الله سمع صيت بعض الأفاضل بالديار الهندية ، فامتطى إليها صهوة الإرتحال ، وأخذ بيده عصا الترحال ، فقدر له التوفيق الإلهي ، وساقته الحكمة السرمدية والسعادة الأزلية إلى محط رجال الأكابر ومحطة أعيان الأمثال مهده العلماء الربانيين والأخبار الربيين ، شمس المعارف الإلهية وبدورها ، ونجوم العلوم الدينية ونورها ، إلى بقعة أضاعت منها بقاع الهند بعد ما أظلمت ، وانمحت منها ظلمات البدع بعد ما تراكت ، إلى بقعة جرت منها ينباع القرآن والسنة في الفيافي المجيدة ، وخلق بها صديق العلم والهداية بعد ما أحاطت بأكنافها دياجر المحدثات والجهل ، وأرخت بها سدول الغواية ، أعنى : دار العلوم الإسلامية والجامعة العظيمة الدينية بقريه ” ديوبند “ من مديرية ” سهارنفور “ (على شقة مائة ميل من بلدة ” دهلي “ عاصمة الهند إلى الجانب الغربي الشمالى) . وكان ساحتها مستنيرة بجها بذة العلوم الثقيلة والعقلية وفتاحلها ، وكان أكبرهم وأجلهم شيخ العالم مسند الوقت رحلة الأقطار شيخ العرب والعجم مولانا الشيخ محمود حسن الديوبندى رحمه الله تعالى ، وكان هو مرتوياً من علوم القرآن والسنة والحقائق والمعارف من قدوة الأمة وقطب الإرشاد حكيم الأمة المحمدية وزعيمها معلم الناس الخير والحكمة شيخ السنة مولانا رشيد أحمد الكنكوهى قدس سره . ومن بحر المعارف والحقائق من أوتى الحكمة وفصل الخطاب حبر الأمة ولسان الحكمة حجة الإسلام مولانا

محمد قاسم النانوتوى (١) ثم الديوبندى قدس الله روحه .
وقد خص الله المحدث العارف الكنكوهى بإصابة الفكرة وإعلاء كلمة
الحق ، ونشر السنة فى الأمة علماً وعملاً صار مداراً للفتيا ، وارتفعت إليه
مشكلات القضايا ومشتبهات المسائل والأحكام ، فهداه الله إلى الحق الأباج ،
ودار معه الحق حيثما دار ، وكان شيخ الطريقة دارت عليه طريقة السادة
الخشية ، وتواترت قطبيته عند العرفاء وأصحاب الكشف الصحيح .

وكان عندهم قطب الإرشاد ، فجرت منه أنهار السنة النبوية ، ونبتت
من قلبه ينباع السلوك والعرفان ، فجعله الله إماماً فى الشريعة ، إماماً فى الطريقة ،
جرد الشريعة عن البدعات الممتزجة بها ، وجرد طريقة السادة الخشية عن
الرسوم المحدثه فى أهلها من محافل السماع واستعمال آلات الطرب واللهو من
المعازف والمزامير وغيرها من المحتفلات المبتدعة فيهم بالهند ، ومنزجها بالسنة
الصفية حتى بدت فى قالب السنة زهراء ساطعة تطابق بها ظهرها وبطنها .

وأما الشيخ العارف النانوتوى رحمه الله فكان بجرراً لأسرار الشريعة
والتكوين ومعارف السنة النبوية ، ذب عن عقائد الشريعة المحمدية صولات
الملحدین وسورات الزائغين والمبتدعين ، لم يكن غلومه ومعارفه من الزبر
والأسفار والصحف والأوراق ، بل الله أودع فى قلبه نوراً أضاء منه علوم
الشريعة والحقيقة ، إذا توجه إلى إلقاء معرفة أو إيضاح سر خفى نرى أن
قلبه انفتحت كوته إلى عالم القدس فيتلقى منه ، ثم يجرى منها تلك المعارف
والعلوم على لسانه الصارم بما يبهز العقول ويحير الألباب ، وقد آثره الله
بمعارف سامية خلعت عنها كتب أكابر المحققين وأعظم الصوفية كأمثال
الغزالي والشيخ الأكبر أعرف المغاربة ، والفخر الرازى ، ثم ساعده

(١) نسبة إلى "نانوته" - بالنونين - قرية من كورة "سهارنפור" ، و"كنكوه" أيضاً
قرية من قراها .

التوفيق الرباني لإيضاح المشكلات وتفهم الغوامض حتى يجعلها مشاهدة رأى العين ويخال أخفى النظريات عند بيانه من أجلى البديهيات حتى وقائع الحشر وأمور المعاد حتى الجنة والنار وكمالاته الباطنة خارجة عن إحصاء أمثالى ، بل عن إدراك نظرائى ، وكان شيخ طريقته قطب العصر العارف إمداد الله الهندى مهاجر مكة يتعجب من إرتقاء مداركه ومدارجه ، ويقول : إن مثله كان قد يظهر فى القرون الماضية المباركة ، وكان العارف الكنكوهى والعارف النانوتوى رضىعى لبان فى تحصيل العلوم ، وخليلى صفاء ، وفرسى رهان فى طى منازل السلوك ، بايعا على يد ذاك الشيخ العارف الهندى ثم المكى الذى سلف ذكره قدس سره . وكان يقول : انعكس الأمر ، فكان من بدائع القدر أن بايعا على يدى وكانا هما أحق وأحرى بأن أبايع بأيديهما ، صدع به فى آخر رسالته "ضياء القلوب" (١) .

وبالجملة فكان العارف المحدث الكنكوهى شيخ السنة شريعة وطريقة ، هدياً وسمتاً ، علماً وعملاً ، ذوقاً وحالاً . والعارف النانوتوى إمام الحقيقة ولسان الحكمة . وأقرب المثل بهما ما قصه العارف الجامى رحمه الله فى "النفحات" عن "تاريخ اليافع" : أن تلاقى يوماً فى الطريق شيخ الطريقة العارف شهاب الدين السهروردى والشيخ الأكبر محى الدين ابن العربى ، فرنا كل إلى الآخر ومضى لسبيله ولم ينطقا بشئ ، فسئل الشيخ الأكبر عنه : كيف وجدته ؟ فقال : وجدته سنة مصطفىوية من الرأس إلى القدم ، وسئل العارف السهروردى عنه ، فقال : وجدته بحر الحقائق . هذا وقد لقب فى الأمة الشيخ أبوبكر الباقلانى

(١) وأرى أنه قال ذلك تواضعاً ، فإن العارف إمداد الله لا شك أنه وصل فى قوة نسبتة الباطنية إلى حد بعيد ، وإقامته بمرکز التجليات الالهية وهبته من المعارف الالهية ما لا ينتطح فيه عنزان ، وما ظهر من العلوم والمعارف من العارف النانوتوى كل ذلك انعكس للمعارف الإمدادية على قلبه وقلمه ولكن على كل حال مثل هذا الشئ وإن كان مبالغاً ولكن يعلم منه مقدار كمالاتهما الباطنة والظاهرة وترغيب الشيخ العارف فى الاستسقاء من يناييهما الفياضة منه .

المالكي رحمه الله بـ: "شيخ السنة" و"لسان الأمة"، فليلقب العارف الكنكوهي بـ"شيخ السنة". والعارف النانوتوى بـ"لسان الأمة". وأزيد عليه في تلقيبه بـ"لسان الحكمة". ولإمام العصر شيخنا في مآثر كل منهما قصيدة سأترك بها في سياق آخر إن شاء الله تعالى .

وبالجملة فكانا رحمهما الله نيرين في سماء بلاد الهند الداجية ، أحيا الله بهما آثار السنة النبوية بعد ما عفت أو كادت أن تعفو ، لتهاجم جمهور الناس على البدعات المتراكمة والرسوم المحدثّة الفاشية ، فرأب الله بهما الثأى ولم الشعث ولأم الصدع حتى أشرقت كواكب السنة والملة الإبراهيمية في دياجى المحدثات المدلّمة ، فأحمد لله على ما استأصل بهما شأفة أهل البدعة والهووى ، وأثمر سعيهما المبارك في هذا القرن بالهند ، فاستوى الدين على الساق ، وملأت بركاتها الآفاق . فكان العارف النانوتوى قد وصل إلى الرفيق الأعلى من قبل سنة ١٢٩٧ الهجرية ، وأما القطب الكنكوهي فكان بـ"كنكوه" يتداوى القلوب بإرشاده ويسترشد الضالون بنور رشاده ، فقرأ ما بقى له من كتب خواتم العلوم وأسفار الحديث ، واستفاد ما قدر له من العلوم والمعارف ، واصطاد ما سنج له من السوانح والبوارح ، وامتقاد ما تأتى له من الشوارد والأوابد ، وسمعت من حضرة شيخنا رحمه الله هذا صاحب الترجمة أنه يقول : قرأت "صحيح الإمام البخارى" و"السنن" للإمام أبى داود السجزي "والجامع" للإمام أبى عيسى الترمذى والجزئين الأخيرين من "الهداية" على شيخ العالم شيخنا المحمود قدس سره . وقرأت "الصحيح" للإمام مسلم بن الحجاج القشيري و"سنن الإمام النسائي الصغرى" و"سنن الإمام ابن ماجه القزويني" على الشيخ محمد اسحاق الكشميري رحمه الله . وأخبرنى بعض أساتذتى عن الشيخ رحمه الله أنه قال : اشتغلت خمس سنوات بتحصيل الكتب الفارسية ، وخمسة أعوام بقراءة كتب العلوم العربية ، تلك عشرة كاملة .

أعماله بعد الفراغ من التحصيل ، تدريسه العلوم ، وافتتاحه مدرسة عربية بدلهى .

فنبغ الشيخ رحمه الله فى العلوم روايتها ودرايتها فى شرح فتوته وإبان
شبيبته ، فترعرع شاباً تقياً ، حبراً ذكياً ، لا يدرك شأوه ولا يبلغ مداه ،
فاستشرفت إليه العيون بل القلوب ، فذهب إلى ”دهلى“ وفوض إليه الدرس
بـ ”مدرسة عبد الرب“ ، فدرس عدة شهور ، ولم يلبث حتى أن بعضاً من صلحاء
معارفه وأصدقائه ممن تفرس فى الشيخ مخاضات النجابة الباهرة ، وظن أنه عسى
أن يكون نظير نفسه فى المآثر العلمية أصر عليه وأبرم بأن يقوم وينتفض
لتأسيس مدرسة عربية بدلهى ، فاستجاب دعوته بعد ما شرح الله لها صدره ،
فقام لها بإخلاص نية مشمراً لها عن ساعد الهمة ، وافتتح مدرسة عربية فى
بلدة ”دهلى“ وساعده على ذلك بعض أهل الهمم العالية من أولى الخير وأرباب
الفضل ، فاصطفى ذلك الصديق لها مديراً وناظماً ، وسماها : ”مدرسة عربية
أمينية“ (١) حسب اسمه : محمد أمين غفرله ، وشاع صيتها بهذا الاسم فى أقطار
الهند إلى يومنا هذا ، فشرع هو نفسه فيه درس العلوم من أعظم كتب الفنون
من علوم شتى من : الحديث والتفسير والبيان والمعقول ، ولما خصه الله
بقريحة وقادة ومادة غزيرة ، وتغلغل فى مشكلات العلوم وعكوف على المطالعة
ليلاً ونهاراً ما لبث إلا وقد شاع قدره وفضله فى الأرجاء وهمى وبه فى
الجدباء ، فشدت إليه الرحال وتهافت عليه أصحاب الكمال ، وبقي على ذلك برهة
يروى الهائمون بزالال علومه ومعارفه حتى طالت فروع المدرسة وأينعت ثمارها ،

(١) هذه المدرسة من أشهر المدارس اليوم ببلدة ”دهلى“ ، وقد عم فيضها وبعد
صيتها تطوى سدارج الارتقاء ، وقد مضى عليها بضع وثلاثون عاماً . وازيد عليه :
الآن قد انقلبت الأحوال وانقسمت الهند إلى بهارت وباكستان ، والمدارس بدلهى
أكثرها قد اندرست آثارها وانطفئت أنوارها وبقيت عدة مدارس منها هذه المدرسة ،
وقد مضى عليها سبعون عاماً . منه .

وانتشرت أضوائها وأنوارها ، فتخرج عليه المتخرجون ، وتروى من فيضه المشتاقون .

عود الشيخ إلى وطنه ، وتأسيسه
مدرسة دينية سماها : "الفيض العام" .

ثم جذبه نفحة وطنية وأزعجه حنين إلى زيارة الوالدين ، ونزوع إلى القيام بواجب حقها ، فعزم الرحيل إلى مآلفه ومهواه ، وامتطى هوجاء الوجد والغرام ، وودع قلوب المحبين حسرة ، لابل شخص مغادراً للإشباح ومستصبحاً معه القلوب والأرواح ، وقد قال قائلهم :

وحب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الفؤاد هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلك

ثم لما أقام برهة "بكشمير" وعجم عودها واختبر أهلها خبراً وخبراً أحس أنه حواهم الجهل ، وشغفوا بالبدع ، وعضوا بالنواجذ على الرسوم المحدثه ، واندرست فيهم مآثر العلم ، وعفت معالم السنة ، وأجذبت رياضها ذات نضرة ، واقفرت حدائقها ذات بهجة حتى بلغ السيل الزبى وبلغ الدماء الفن ، فلو لم يتدارك الأمر سيكون ما يكون ، فأقلقه جداً ، فقام مستعيناً بالله لبناء مدرسة لتعليم الدين الحنيفي وتأيد المذهب الحنفي وخدمة السنة النبوية وتجديد معالمها وتشديد مراسمها ، فقدح الله زنده وأنجح مسعاه الجميل ، وبني مدرسة سماها : "الفيض العام" أقام بها ثلاث سنوات ، يحمى زمار الشريعة ويحدد معالم السنة ويعمر أطلالها ورسومها ، فدرس وأفقى ، ونصح الأمة قلماً ولساناً ، وأرشدهم إلى الصراط السوى والهدى المستقيم ، فانشعب صدعهم واستقام عوجهم ، وانقشعت سحاب الجهل المتراكمة ، وتلاأت آثار السنة النبوية بعد ما اختفت ، واستوصلت عروق البدعة بعد ما تأصلت .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله نفسه شيئاً من حال هذه المدرسة في كتاب له

إلى بعض معارفه ، وقد ظفرت به بما لفظه بالفارسية :

”كه فقير حقير در قصبه ”باره موله از كشمير“ بخيال خود
بغرض اشاعت علم دين واعانت مذهب امام اعظم رحمه الله طرح تعليم
فقه وحدیث نهاده بود ، اكثر نيك نهادان اين امر را نيك نهادند
وبعض اهل توفيق بقليل وكثير زاد سعاد را اسداد دادند الخ“

نعم ، وهكذا أولو العزائم العالية ، والهمم الجليلة ، وأصحاب المآثر
والجهود المباركة إذا استشعروا ملمة بالدين وحاذثة في الإسلام قاموا لحسم
عروقتها ودفع مكيدتها ، لا يمنعونهم قلة ذات يدهم ولا يصددهم عوز أنصارهم ،
فنجحوا وفازوا بجدودهم المثمرة التي تبقى على صفحات التاريخ على انقراض
الأعصار وتعاقب الأدوار ، فنالوا وجاهة عند ربهم ، وحازوا شرفاً في
الخلق أي شرف . وصادق المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
فتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

زيارة الحرمین ، ولقاء صاحب ”الرسالة الحميدية“.

ثم كان يزدد غرامه كل حين إلى حج بيت الله الحرام ، ويحرك أحشائه
تباريح الوجد إلى روضة سيدنا ومولانا نبي القبلتين ورسول الثقلين على
صاحبها ألف ألف تحية وسلام حتى وفق لقضاء منيته الميمونة بمصاحبة من
أعيان ”كشمير“ ، فكث ”بمكة“ — زادها مجداً وكرامة — عدة شهور
يطفأ ضرامه بالطواف والهاً باكياً ، ويلتجئ متشبثاً بأستار الكعبة الطاهرة
المقدسة في دلج الليالي داعياً ومنادياً . ثم حثه حادى الشوق إلى المدينة الطيبة
— زادها الله شرفاً وحرمة — فاستحث شمالال العزيمة وشد الرحال إلى روضة
النبي الأُمى القرشى الهاشمي محمد ﷺ ، فلبث برهة من الدهر يستفشي حمياه
برياها ، ولقي هنا الشيخ الفاضل حسين الطرابلسي الجسر ، مؤلف ”الرسالة
(نفحة العنبر م — ٢)

الحميدية“ و”الحصون الحميدية“ ، بل جاوره مدة ، ولاقى في عهده المبارك هذا رجالات من أكابر علماء البلاد الإسلامية وذاكرهم في مهمات المسائل ، واغتنم نوع فرصة لمطالعة أسفار نادرة ، ولا سيما من الحديث والتفسير في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله الحسيني والمكتبة المحمودية ، وكانت في ذلك العهد مشحونتان بالكتب النادرة في كل فن ، وقد ضاع الآن منهما كثير من الدخائر النفيسة ، فشهدوا بفضله ونوهوا بجلالة قدره ، ونال لديهم منزلة سامية (١) . وأجازه الشيخ الجسر بأسانيده في الحديث ، وكتب له ورقة الإجازة بيده ، وأثنى عليه فيها ثناء حسناً ، ونوه بشأته ما يدل على أنه وقع منه بمكانة علماء . وكنت قد طالعت تلك الورقة عند الشيخ ، وسأذكر تفصيل سند تحتوى عليه عند ذكر أسانيد الشيخ رحمه الله ، ثم عاد إلى وطنه بطوى في ضميره الرجوع إلى الحرمين والعود أحمد . وذلك سنة ثلاث وعشرين من هذا القرن الرابع عشر .

عزم التجرد والعزلة عن الناس .

فاجتمع إليه أعيان القوم ، واكتنفه شرفاء الناس ، وتعاوروه من كل جهة ، وألحوا عليه بالإزدواج ، وعرضوا له بناتهم ، وتنافسوا في الإيثار ، واستأثروه بعرض المزارع والحدائق ونقود الأموال ونفائس الأعراض ، ولم يكن أن يلحظ إلى عرضها ، فطوى عنه الكشح وأعرض وأبرم على تجريد نفسه من أمثال هذه العوائق والعلائق ، وخالها أغلالاً في عنقه وسداً منيعاً دون مآربه ، فاستوحش عن الخلق واستأنس بالحق ، وحاول أن يصرف همه بشرائره إلى طي مراحل العلم الشامخ ومنازل المعرفة القاصية ، حتى

(١) وكان من المكاتب الحكومية مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمة الله المدني من اغني مكاتب البلاد العربية تحوى على نفائس مخطوطه من بدائع الاسفار ، والمكتبة المحمودية ، وقد تضلع منهما جميعاً ورتب مذكرة من غررهما ، وما عدا هذين كانت مكاتب شخصية .

هجر زهرة الحياة الدنيا وبهجة نعيمها الزائل وعزم الهجرة عن أسرته ومنشأه
ومناه إلى الحرم النبوي على صاحبه صلوات طيبة وتحيات مباركة ، والله در
القائل :

إن لله عباداً فطنا	طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا	أنها ليست لحي وطننا
جعلوها لجة واتخذوا	صالح الأعمال فيها سفنا

إقامته بـ "دارالعلوم الديوبندية" وتوظيف التدريس بها .

فبلغ إلى "ديوبند" يريد زيارة شيخه الشيخ العالم مولانا محمود الحسن
قدس سره ووداعه ، فأخبره بما يريد من الهجرة إلى الحرمين — زادهما الله
تشريناً وتعظيماً — وكان شيخه رحمه الله تفرس فيه آثار النجابة الباهرة ،
وأنس منه مخايل الكرامة من قبل ، وسابر علمه وفضله وتقواه وورعه ،
وشاهد ما فطر عليه من الأخلاق الفاضلة والمناقب العالية ، من حسن صورته
وسيرته ، ونقاء طويته وسريرته ، ورأى أن معالم الحديث على وهى كاد أن
ينقض منارها ، وأن مراسم العلوم الدينية على خفاء عسى أن تعفو آثارها ،
وأنه لم يبق اليوم من حقائق العلوم الإسلامية وروح المعارف الشرعية إلا نفعها
ومثارها ، فلو لم يقم باعباء هذا الأمر الجليل ضليع عسى أن يحكم عليها
بالزوال والدثور ، وأن الفائت لا يستدرك ، وأنى يؤوب القارظ الغزى ،
وكيف يرد الدر في الضرع ؟ فلا جرم أن يؤخذ الأمر بقوابله ، فهكذا قشر
له العصا وأبصر أن الشيخ ممن يرتجى منه أن ينجز منه الكسر وتنسد به
للثلمة ، ويقوم به هذا الأود ، نعم ! وفي بعض القلوب عيون ، وأحس أن
أهل الهند أحوج إليه من غيرهم ، فأمل وجوده المبارك لخدمة الدين ومصائب
المسلمين ، فتكلم معه في دواعي الإقامة بديوبند ومصالح فسخ العزيمة ،

ورغبه في ذلك حتى أبرم عليه الأمر ، وكان رحمه الله لا يجتاز من أمره أدباً واحتراماً ، فألقى الشيخ عصاه واستقر بالإقامة رأيه ، وكان شيخه رحمه الله يدرس في تلك الأيام " صحيح الإمام البخارى " و " سنن الإمام أبى داؤد السجستانى " و " الجامع للترمذى " من الصحاح الستة ، وفوض إليه درس الكتب الثلاثة الباقية من الستة من " صحيح مسلم " و " سنن النسائى " و " سنن ابن ماجه " فكانت هذه فاتحة درسه بدارالعلوم الديوبندية إلى أن عزم شيخه الرحلة إلى الحرمين . وكان من أمره ما كان ، فاستخلفه على مقامه ، وجعله شيخ الحديث وصدر المدرسين بها ، فودع الأمانة أهلها ، وأعطى القوس باريها ، فبقى أعواماً مكباً على مطالعة الكتب ، ساجداً في بحارها ، متنزهاً في رياضها بورع وتقوى وقناعة وزهد ، مؤثراً للحمول في الناس ، ومستنكفاً عن نباهة الدنيا ووجاهتها ، فاستأنس بمراجع التوحيد والتفريد في عزلة وتجريد ، فكان ربه تبارك وتعالى أنيسه ، والكتاب سميره وجليسه ، وكان كما قيل :

ألقى الصحيفة كئى يخفف رحله والزاد حتى نعلمه ألقاها .
داعية تأهله بديوبند .

ثم إنه لم يكن أهل دارالعلوم على ثقة بإقامته ، وحاذروا منه أن يهاجر هذه المشغلة ، وعسى أن يقبل إلى ما أدبر إليه اليوم من الهجرة إلى الأرض المقدسة من الحجاز ، فخطب له حضرة ناظم الجامعة الديوبندية ومديرها خطبة في بيئة شرف وفضل من بيت السيادة الفاطمية ، ليكون سداً دون عزائمهم وشعباً لصدع الخطرة التى كانوا يحسونها ، فزوجوه بعد ما انقضت برهة وجعلوه صاحب أهل وعيال ، بل صاحب شكال وعقال (١) .

نعم : ع بذات قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

(١) قد اصر على الشيخ رحمه الله مراراً قبله للتزويج ولم يرض به .

فهكذا غلب القدر وروحان القضاء وجف القلم بما هو كائن ، ففضى فيها ثلث عمره ، والثلث كثير ، فجرت من قلبه وفيه ينابيع الحكمة ومناهل العلم والمعرفة ، حتى استفاد منها رجال من الأفاضل وأماثل العصر ، وتضلع من لا يحصى عدداً من الأصاغر والأكابر ، وتمتعوا بما وصل إليه كبراً عن كابر ، وتخرج عليه في تلك البرهة نحو ألني خريج ونيف ممن قرأ عليه أسفار الحديث . وبالجمله خدم الحديث والسنة ، وبث الجواهر والدرر بها ، وذب عن حوزة الملة الإسلامية ، ودافع عن حريم الديانة ، وسل في عهد إقامته بديوبند صارمه العضب لكمع عروق الثلة الباغية الطائفة المرزائية القاديانية (١) بلاغاً وإرشاداً ودرساً وتأليفاً ، واستحث الهمم المتوانية ، وحرص الجهود المتقاعدة من العلماء والطلبة وعامة الأمة المسلمة إلى مقاومة هذه الفئة الضالة المضلة ، ومكاملة هذه الكارثة الدهياء والبلية العمياء حتى أيقظ الرقود ونبه الغفلة من أصحاب الجرائد والمجلات بمكائد هذه الحادثة الفظيعة ودسائسها ، وسأعود إلى إيضاح هذه الأثرة الجليلة التي بها له منة عظيمة على رقاب الأمة المحمدية ما لا ينسى على تقادم الأزمان وتمادى الأعصار ، وكيف لا ؟ وقد عصم الدين عن فتنة عظيمة ، وداهية مفضعة ، وحمى حماه عن رزء مجحف وطامة كبرى ، والله المستعان في سائر طوارق الحدثان .

رحيله من دار العلوم الديوبندية ،
ووصوله إلى الجامعة الإسلامية السورتية .

ثم نشأ نوع تشاجر في ساحة دار العلوم الديوبندية ، وأصبح سبباً لأمر رأينا تركها أولى حذار أن يفرط القلم أو أن يطغى فتزل قدم بعد ثبوتها ، وصيانةً لعجالتنا هذه عن صمات وكس أو شطط فيتخذها الناس مهجورة

(١) طائفة تعتزى إلى زعيمها الدجال الكبير المرزا غلام احمد القادياني وتستشعر بعجزها وبجرها فيما سيلقى ان شاء الله تعالى .

ولم يكذب أن يأمن الملهوف في إظهار شكاته عن شطط أو فرط ، كيف ؟
وقد قيل : «إذا قرح الجنان بكت العينان» ، «ولنما الأعمال بالنيات» ، والقلوب
عنا محجوبة ، فنكل إلى الله ذوات الصدور . وقد قال عز من قائل : « ألا
إلى الله تصير الأمور » . علا أن القلب لا يحتمل ذكر تلك الملمات التي نزلت
بساحتها ، فإنها فجعت قلوباً وأكبباً ، بيد أن على ذلك تدور رحى الأيام ،
وتجول دون قطبها نوائب الزمان ، وإليه المفزع والمشتكى : والله در القائل :

عسى وعسى يثنى الزمان عنانه بتصرف حال والزمان عثور
فتقضى لبانات وتشفى حسائك ويحدث من بعد الأمور أمور

وقد تأذى الشيخ رحمه الله بتلك النوائب الكارثة ، وتألم بها قلبه حتى
لم يلتئم جروحه الثاعبة إلى آخر عمره ، وكان لا ينبس بها إلا قليلاً ، ومع
هذا إذا ذكر منها شيئاً تراه كأن قلبه يقطر دماً ، مع كونه صبوراً وقوراً ،
يقاسى الملمات ، ويعانى المرات ، لم نر له نظيراً ولا مثيلاً في هذه المزية كسائر
مزياءه . وإلى هذا أشار في بعض أشعاره فيما أرى ، حيث قال :

وهل من كسير البال آذاه دهره لقاءك إلا بالدموع السوائل
وقال : فقدت به قلبي وصبري وحياتي ولم ألق إلا ريب دهر تصرما
وقال : ومن عبرات العين ما لا أسيغه ومن غلبات الوجد ما كان دمهها
وقال : ومن نفثات الصدر ما لا أبشه ومن فجعات الدهر ما قد تهيجا
وقال : تكففت دمعى أو كففت عنانه وصار يجارى الدهر حتى تقدما

وأظن أن فتنة الثلة المرزائية كانت أذابت مهجته من قبل ، ثم أذاب ما
بقي منها هذه الوقائع الداهية ، فصار ضغثاً على إبالة ، وجميع ذلك أصبح
سبباً — إن شاء الله تعالى — لرفع درجاته في مقعد صدق عند مليك مقتدر .
فاستقال الشيخ رحمه الله لأجله منصب درسه ، واستغنى عنه وانزوى

عازماً للعزلة والتجريد ، ولكن لم يقتض القدرة الإلهية أن تذكره ، والناس
أصمدى إلى علومه ، والقلوب مجدبة مشتاقة إلى صوب منزلته ، فأكب
عليه الناس من كل جهة ، وتهافتوا عليه من كل صوب ، وكيف لا ! وشعاع
الشمس لا يخفى ، ونور الحق لا يطفى إلى أن علمنا ، واطمئنت به قلوبنا ، إن
ذلك التشاجر والتفرق كان من المصالح الكونية والأسرار الربانية ، وخير الأمور
أحمدها مغبة ، فبرزت شمس السعادة في فلك الكونيات ، واقتضت الحكمة
الأزلية أن تسقى منزلته بسيطة ”الكجرات“ .

كانت بسيطة ”الكجرات“ بقعة جرت منها ينابيع الحديث ، وكانت هي
أول بقعة تميزت بهذه المزية العظمى من بين سائر بقاع الهند وخططها ، وهذه
البقعة هي التي جادت بـ: الشيخ العارف بالله المحدث مولانا علي بن حسام الدين
المتقى المتوفى سنة ٩٧٥ الهجرية ، صاحب ”كنز العمال“ ، وهو كتاب حافل
في متون الأحاديث النبوية ، رتب فيه ”جمع الجوامع“ للشيخ الإمام
جلال الدين السيوطي على الأبواب ترتيباً أنيقاً ، والشيخ رحمه الله تلميذ
الشيخ ابن حجر المكي صاحب ”المصواعق المحرقة“ أولاً وشيخه آخرأ ،
ولبس ابن حجر الخرقة بيده .

ومن تلامذته : الشيخ عبدالحق الدهلوي المحدث ، صاحب ”اللمعات“
و”أشعة اللمعات“ و”مدارج النبوة“ وغيرها من زبر نافعة . ثم : الشيخ
المحدث محمد طاهر الفتني (١) الشهيد المتوفى سنة ٩٨٦ الهجرية ، صاحب
”تذكرة الموضوعات“ و”المغني“ في أسماء الرجال ، و”مجمع البحار“ في
غريب الحديث بل في لطيف شرح الأحاديث ، وهو حنفي لا شافعي ، كما
زعمه بعض الأفاضل . ثم الشيخ المحقق الشيخ وجيه الدين الكجراتي المتوفى

(١) الفتني - بفتح الفاء وتشديد التاء المفتوحة - المشناة الفوقانية - نسبة - إلى : ”پيران
پتن“ ، موضع بقرب أحمدآباد من بلاد كجرات .

سنة ٩٩٨ الهجرية ، صاحب التصانيف والخواشي على "المطول" و"التلويح" و"تفسير البضاوى" و"شرح التجريد" للإصفهاني و"شرح المواقف" و"شرح المقاصد" و"شرح المختصر" للعضد وغيرها . وغير هؤلاء العلماء الأعلام من العرفاء والمحدثين حتى غارت وفاضت هذه البحار الزاهرة ببقعتها ، وفقدت هذه الجواهر الفاخرة بساحتها ، فكان من سعادتها وحسن حظها أن عادت إليها الإرادة الأزلية منعطفة فأنزل عليها مزية الحديث هطلاء بعد ما ظلت محلاء ، فأصبحت ناضرة خضراء تترنم بحداثتها الزاهرة طلبة العلوم النبوية يضربون إليها أكباد الإبل من كل فج عميق مستفتئين بمناهلها العذبة ونميرها السائغ لواعج هيامهم وغرامهم ، فيا لزهائها وبهائها ، ويا لروائها وروائها ، وكيف لا ؟ وقد نهضت بعد كبوتها الطويلة وآلت إلى سالف مجدها الباهر ، وكان كما قال الإمام حجة الإسلام الغزالي قدس سره :

تركت هوى ليلي وسعدى بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل
ونادتنى الأشواق مهلاً فهذه منازل من تهوى رويدك فأنزل
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد لغزلى نساجاً فكسرت مغزلى

فكانت في قرية "دابهيل" من مديرية "سورت" مدرسة تدعى بـ "تعليم الدين" ، فأصر بعض أصحاب الهمم العالية والعزائم السامية على الشيخ رحمه الله بأن يشتغل بها في خدمة الملة ودرس الحديث حتى أجاب الشيخ رحمه الله مأمولهم وأسعفهم بمرامهم .

ومن المبشرات المباركة ههنا : أن مولانا الأجدد الورع العابد الشيخ أحمد مدير تلك المدرسة (طالت حياته) رأى في المنام — (١) بعيد تغزل الشيخ رحمه الله عن دار العلوم الديوبندية وقبيل عزم أهل الكجرات بدعوته إلى

(١) في أواخر العشرة الأخيرة من شهر رمضان سنة ١٣٤٦ الهجرية .

تلك المدرسة - : أن سيدنا ومولانا محمد الهاشمي رسول الله ﷺ قدمات بهدلي ونعني إلى سائر الأقطار والناس في هياط ومياط ، حواهم اضطراب شديد ، ووضع ﷺ على النعش ، فبينما هو في ذلك إذ يرى أنه ﷺ حتى مستلق على سرير في بقعة بين قريتي "دابيل" و"سملك" لكنه مريض ، فحاول أن يرفعه ﷺ في حجره استحصالا^١ لليمن بمساس بدنه المقدس ، فكلما يرفعه شيئاً ينوء به بدنه المبارك حتى يعي بأعبائه ، بيد أنه رفعه وناء به شيئاً بجهد ومعاونة . فقص رؤياه هذه على الشيخ العارف الورع الزاهد شيخنا ومولانا المفتي عزيز الرحمن الديوبندي قدس سره فقال : يا أسفى ! مات علم الحديث بديوبند ، وعسى أن يكون له نشأة بـ "دابيل" و "سملك" (١) فكان كما قال ، فكانت هذه النائية ثم قدوم الشيخ رحمه الله تأويل رؤياه وبشراه ، وكان هذا الشيخ أحمد - زادت مآثره - ذهب بعده بشهر إلى ديوبند لأجل دعوة الشيخ ، حتى فاز بأربه السامى ، ونال ما نال ، فبارك الله له في هذه السعادة الباهرة والمزية الزاهرة . وأولئك أولو العزائم العزيزة الحاج الفاضل محمد بن موسى السورقي ثم الإفريقي ، ووالده صاحب الشهامة والهمة العالية ، والحاج يوسف الكاردي من مشاهير أهل الثروة والدثور ذو الصدر الرحيب والساحة الغالية ، كلهم تكفلوا ألوف روية كل شهر لمرافق المدرسة ومصالحها ، ولم تلبث تلك المدرسة حتى سميت واشتهرت بـ "الجامعة الإسلامية" ، وأصبحت اليوم من أكبر الجوامع العلمية وأشهر المعاهد الدينية بساهرة الهند ، وامتازت من بين سائر الجامعات الدينية بحسن نظامها وإجادة أبنيتها وتشديد قصورها في بهاء منظر وزهاء ساحة ناضرة ، وأضحت اليوم مشيدة المباني رفيعة المغاني تنبعث أشعة قفافها البرقية في الدياجر نوراً وضياءاً ، وتهتز بها أفنان الشجر

(١) وكان هذا بعد شهر اذ ذهب بعزم دعوة الشيخ فقصها عليه مستعبراً أياها .

نضرة وبهاء ، وهبت في زوايا الهند روائح نسيمها حتى سمت بكمال درسها وحسن تعليمها ، لا يوازيها ولا يداينها جامعة علمية دينية غير ”دار العلوم الديوبندية“ ، ولا غرو فتلك دوحتها وهذى فروعها ، وتلك أدمها وهذى نسوعها ، وكيف لا؟ فمنها طالت فروعها ومنها نبوعها ، وقد أصبحت — والحمد لله — مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ، ينثال إليه الطلبة بل العلماء والفضلاء ، يشدون إليها الرحال ويضربون لها أكباد الإبل ، وأفئدة من السياحين تهوى إلى حج حرمها ، ورؤس من المشتاقين تقنع لمشاهدة علمها . ونحن نشكر عن جذر القلوب وصميم الأفئدة مساعي هؤلاء الكرام الذين أسدوا إلى جميع الأمة الإسلامية بإسناء هذه المدرسة وإعلاء منارها ونشر العلوم الدينية وإخراج ضارها ، ولا سيما حسن تولية مدير الجامعة بنقاء نية ، فشكر الله مسعاهم الجميل وإنفاقهم الجزيل ، وزادهم توفيقاً إلى الخيرات والبركات (آمين) .

هذا ، وبقي الشيخ — رحمه الله — فيها خمس سنين ، يجود بحره الزاخر بحقائقه ومعارفه الإلهية ، وتجري ينابيع السنة النبوية من فيه وصدره ، ويعظ الناس في الجمعيات والجامع الحافلة بعظات بليغة مؤثرة في النفوس ، حتى كنا نشاهد أن العيون تذرف دموعها ، وأن القلوب تكاد تطير صدوعها ، إلى أن أصبح كثير من الرسوم والبدعات المحدثه ببركته هباءً منثوراً ، ونبتت في كثير من القلوب محبة أهل العلم وخدمة الدين والذب عن حريمه بما تيسر وأمكن ، وكيف لا؟ وقد حضض الناس على الخير ، ودعاهم إلى الحق ، وأضحى نفسه لهم أسوة ، ورعاً وتقوى ، وعلماً وعملاً ، وزهداً في الدنيا وإيثاراً للآخرة ، فرحمه الله رحمة واسعة .

مرض الشيخ وأجله المحتوم .

وفي أثناء إقامته بهذه الجامعة غلب عليه داء الباسور ونزفه الدم ، فاستولت

الصفراء ووهنت القوى وسقطت شهوة الغذاء إلى أن حان أجله المحتوم، وتناقت نفسه إلى مرابع الحق وأحب لقاء الله ، فانتقل إلى الرفيق الأعلى بديوبند حين كان ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا ليلة الإثنين الثالثة من صفر سنة ١٣٥٣ الهجرية، فهكذا حان القضاء وضاق الفضاء وأصبحت الأماني المنوطة بوجوده غناءً وهباءً ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم ارحمه ، وعافه ، واعف عنه ، وأكرم نزله ، ووسع مدخله ، وأفض عليه شأبيب قدسك ، وآتسه بجوار أنسك . ع (١) :

مضى فأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه
تلك الرزية تستوهى قوى جلدى فالطرف تسهره والدمع تنزفه
فما له خلة في الزهد منكورة وما له شبهة في العلم تعرفه
وصلى عليه بالناس صلاة الجنائز في ساحة "دار العلوم" الشيخ الورع الزاهد
الفقيه المحدث مولانا السيد أصغر حسين الديوبندى طالت حياته النافعة ، شيخ
"سنن أبي داود" بدار العلوم ، وشيعت جنازته في عويل يذيب القلوب ،
وصياح يزعج الأحشاء ، قل ما شاهدته الناظرون مثله ، وكانت قاعة "دار
العلوم" ونواحيها غاصة بعصائب الواردين من بلاد شاسعة ، مثل "لاهور"
و"وزير آباد" و"أمرتسر" و"دهلي" وغيرها . ووصل إليهم هذا النبأ المفزع
والرؤى المحجف بوسائل التأليفون والأسلاك التلغرافية في دلج الليالى ، فأزعجهم
على الفرش الوطنية والمضاجع الوثيرة ، وقل مثل هذا المزدهم على صلاته
بديوبند ، وكان كما قال هو نفسه (٢) :

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما سرى علمه فوق الركاب ورفعا
وشيعه المخلوق من كل جانب فلم أر إلا الفضل كان مودعا
ولم أر مثل اليوم كم كان باكياً وما كان دمع القوم دمعاً مضيعاً

(١) هذه الأبيات من قصيدة رثى بها ابوالمظفر الأبيوردى الامام حجة الاسلام الغزالي .

(٢) في قصيدة طويله في رثاء شيخه مولانا شيخ الهند رحمه الله .

فدفن هذا البحر الخضم بـ "ديوبند"، بالجانب الجنوبي من المصلى ، في بقعة كان وصى بشرائها . وحدثني صديقي الحبر النحرير النطاسي الفاضل مولانا عبد الحق ، المدعو . بـ "نافع" ، أستاذ فنون الهيئة (١) ، وكتب الكلام وغيرهما بدارالعلوم الديوبندية : أنى كشفت عن محيا الشيخ رحمه الله عند صلاة الجنائز فرأيت أن أسارير جبهة الشيخ تتهايل في طلاوة وبهاء ، كأنه يتبسّم ويكاد يفتر ضاحكاً ، ويخيل أن سيفتح فاه بالنطق ، قال : فأعجبني هذا المنظر الرائع الجميل .

قال الراقم : وكأنه يتبسّم من بشارة الملائ الأعلى بروح وريحان ، وبلقاء رب غير غضبان ، ولا أدري هل ذلك كان شأنًا مثاليًا من شئون عالم المثال فأثر به صديقنا الفاضل ، أو لمعة انجلت في عالم الشهادة . ومن بدائع ما اتفق أن الفاضل الأديب الطيب محمد يامين أحد أساتذة الجامعة الإسلامية كان أنشد في حق الشيخ رحمه الله قوله من قصيدة طويلة له هذا :

لبي مجيباً لداعى الموت مبتسماً مستسلماً لقضاء الله فرحانا

وما كان له من علم بهذه الواقعة ، وليكن عجز الشعر عندي هكذا :
مستبشراً بقاء الله فرحانا

ورثاه فضلاء العلم والأدب وأماثل العصر وأصحابه بقصائد رنانة ترقب القلوب وتهيج اللواعج ، وسأزف للفضلاء من عرائسها ما يستجلب الدموع ويجذب للقلوب والله الموفق . فهذه حياة جميلة لهذا الإمام عبقرى الأيام ، وشذرة من مآثره الجليلة ، وعبرة من عبرات العين ، وبعد فعبرات حارة في العين وحسرات في القلب وزفرات في النفس ستهدي منها شذرات للأفاضل إن شاء الله ، وقد حان لي أن أشير إلى نبذة من مزاياه وخصائصه التي صار بها فرداً وحيداً في الأمة الحاضرة ، وبالله التوفيق .

(١) هذه الفنون أكثر ما يدرسها ولا فقد يدرس كتب التفسير وغيره أيضاً كـ "البيضاوى" واجزاء من "ابن كثير".

ايماض الى مزاياه ، صلاحه الفطرى وعزلته عن
الملاهي ، قوة ذكائه في ايام طفولته ، وبشارة بعض
العرفاء بانه سيكون غزالي عصره ورازي دهره ، افتاء
الشيخ ، وشروعه مطالعة الشروح ، استبحاره المدهش
وحافظته المجيرة ، وسرعه مطالعته ودقة نظره ودابه
في المطالعة . الشيخ و”مشكلات القرآن“ ، الشيخ
وخصائصه في الحديث ، ذكر بعض الوقائع وسرد مقالة
للشيخ ، الشيخ واسانيده في الحديث ، الشيخ والفقه ،
الشيخ والمذهب الحنفي ، درجته في سائر العلوم و
مطالعه كتب اكابر المحققين ، وعلمه ”بالتوراة“
و”الاناجيل“ .

ايماض إلى مزاياه ورشحة من مآثره .

وليعلم أن للشيخ رحمه الله مزايا نبيلة ومآثر جليلة فطرية وكسبية من
الصلاح ، والزهد ، والورع ، والتقوى ، والصبر على المكروه ، وحسن السمات ،
وعظيم الوقار ، والمواساة مع أهل الدين وحمة العلم ، والنفور من أهل الدنيا
وأصحاب الثروة ، والقناعة على الكفاف ، وقوة الحافظة ، وكياسة الذهن ،
وفرط الذكاء ، والاستبحار المدهش في العلوم المتداولة القديمة والجديدة ،
والإطلاع التام على العلوم الغريبة ، واستحضار جميع مشكلات العلوم
وغوامضها ، والعلم الحافل الواسع بدقائق الكتب النادرة الغريبة المطبوعة
والخطوط ، وعلو كعبه في الحقائق العالية والمعارف الإلهية التشريعية ، والملكة
الراسخة في صياغة الشعر المعجب الرائع في العربية والفارسية ، وإدمان النظر
في الكتب ليلاً ونهاراً ، وحسن إلقاء الكلام في الدرس ، كأنه در منشور
ولؤلؤ مكنون يتناثر من مبسمه ، والإنصاف البديع في اختلافات مذاهب
الأئمة المتبوعين والمجتهدين من علماء الأمصار ، وظرافة الطبع مع مهابة وجلالة ،

وغيرها من مآثر بديعة فائقة لا ينتطح فيها عنزان من غير مدافع ومزاحم بحيث لا يفري فريه ولا يبارى عبقرية ، وحقاً أنه لا يناضل ولا يبارى ولا يساجل ولا يجارى ، ولو سردنا نماذج من جميعها لطال بنا الخطب ، وأعياننا الحصر ولا تسع المجال ، وضاق نطاق البيان ، ولشططت مما أنا بصددده من الإيماضات والإيماءات إلى نفحاته وفوحاته محاولاً للإختصار ، وكيف فإن ذلك يفتقر إلى سفر كبير ، وأنى يتسنى في عجلة المستوفز وفرصة المستنجز ، بيد أنى لما وجدت مكان القول ذا سعة حاولت أن أثبت القول في مآثره السامية ، وهذا كما قال الجاحظ في "بيانته" : "ولكن المعانى إذا كثرت والوجوه إذا اقتنت كثر عدد اللفظ وإن حذفت فضوله بغاية الحذف" . فأنا الآن أستغنى بالطل من وابله والبرض من عده ، بل بقطرة من حياه ، ورشحة من داماء فضائله ومزاياه . والله در القائل :

إن الذى قلت بعض من مناقبه ما زدت إلا لعلى زدت نقصانا
وأجاد القائل :

إنما يبلغ الإنسان غايته ما كل ماشية بالرحل شمالا
وفقى الله لإيفاء الموعد وبذل المجهود لنيل المقصود ، وهو حسبي
ونعم الوكيل .

صلاحه الفطرى ، وعزله عن الملامى من بدء نشأته .

سمعت عن إخوان الشيخ دام فضلهم : أن الشيخ لم يرتع ولم يلعب في أيام صباه كعادة الصبيان ، ويكون صامتاً مطرقاً رأسه لم ينازع أحداً ولم يشتمه ، وإذا شرع في القراءة يكون مجتهداً فيها مشغلاً ليلاً ونهاراً ، من غير أن يعرف سامة وملال ، فكان الناس يتحIRON من شغفه بالعلم ورغبته عما يرغب إليه الصبيان ، حتى اشتهر فيهم أنه سيكون مهدياً موعوداً .

أقول : فإن لم يكن مهدياً موعوداً فلعمرى كان مجدداً لعلوم القرآن والسنة وسائر فنون الرواية . نعم ! إذا أراد الله أمراً يسر له أسباباً وأقام له رجالاً يذبون عن حوضه ويحمون حوزته ، فهكذا شهرته بالصلاح وشغفه بالعلم كانت من بدأ نشأته وصغره .

نعم نفس عصام سودت عصاماً * وبغير الله هو ترتق الفتوق
طفولة وبشارة بعض العرفاء بعاقبته السامية .

سمعت عن بعض إخوان الشيخ رحمه الله تعالى أن والده — أطل بقاؤه — انطلق به وبأخيه الأكبر ” يسين شاه “ إلى عارف معتكف في بعض نواحي ” كشمير “ ليدعولها بالبركة ، فلما رآه قال لوالده : ولدك هذا — مشيراً إلى الشيخ رحمه الله — سيكون عالماً كبيراً ، وعسى أن يكون له شأن ، وقال مشيراً لأخيه : وسيكون هذا شاعراً عظيماً . فكان الأمر كما قال العارف رحمه الله . فصار الشيخ أعلم عصره في العلوم لا يشق غباره ، وكان أخوه أشعر وقته في العربية والفارسية لا يدرك شأوه ، حتى سمعت من بعض إخوانه — ولعله المولى المحترم عبد الله شاه طال بقاؤه — : أنه نظم متن ” السراجي “ في الفرائض في بضع وعشرين شعراً .

قوة ذكائه في أيام طفولته ، وبشارة عالم ذى فراصة
وبصيرة بأنه سيكون غزالي عصره و رازي دهره .

سمعت من والد الشيخ — رحمه الله فيما أحفظ — : أنه لما افتتح عندي ” مختصر القدوري “ فكان يسأل عن مسائل كنت أعبي عن جوابها من غير أن أراجع الكتب المبسوبة ، فكنت أمنعه عن إلحاح الأسئلة حتى أعياني صنيعة ، وفوضت أمره إلى عالم آخر ، فهكذا كان يشتكى منه . وبلغني أنه حين كان يقرأ رسائل النحو والمنطق مر أمام عالم مضطرباً كتبه التي يقرأها

فدعاه وأخذ كتبه فرأى على هوامش رسائله أنه كتب عليها حواشي ما يورث العجب من شأنه ، فتحير من قوة ذكائه وحده ، وجودة فهمه وبراعته ، فعجى مرتجلاً على لسانه : بأنه سيكون غزالي عصره ورازي وقته : فصدق الله فيه فراسته الياضية ، وبصيرته ونوره . ومما قلت :

زنجشري عصره بل شيخ جرجان رازي عصر لنا حاشاي اطراء

الشيخ والإفتاء ، ومطالعة الشروح .

أخبرني الفاضل المحترم الورع مولانا بدر عالم دام فضلهم (١) أحد أساتذة الجامعة عن الشيخ رحمه الله نفسه أنه قال : كنت أفتي للناس بكشمير حين بلغت من عمري اثني عشرة سنة ، وكنت أطلع الشروح من كتب الفقه والنحو حين تم من سني "تسع حجج" . نعم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

استبحاره المدهش في علوم الرواية والدراية ، وحافظته
المخيرة للألباب ، وسرعة مطالعته ، ودقة نظره .

كان الشيخ رحمه الله آية من آيات الله العظام ، ونادرة من نوادر العصر ، إماماً في الحقائق والمعارف ، لا يساهم ولا يزاحم ، وقدوة لأماثل العصر الحاضر في حل الدقائق ومشكلات العلوم وغوامض الأبحاث العلمية والعرفانية ، بحيث لا يناضل ولا ينازع ، كان إماماً حجة في علوم القرآن وعلوم الحديث ، متقناً في كشف مغزاها وممرها ، وكان مداراً للأمة الإسلامية في إيضاح معناها ومبناها ، كان حافظاً موعياً لمذاهب علماء الأمة المحمدية مع التغلغل في تخريجها وتنقيحها ، واعياً لأقوالهم المختلفة الشتية ، قادراً على اختيار بعضها

(١) وقد توفي رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد في سنة ١٣٨٥ الهجرية في المدينة المنورة على صاحبها ألف الف تحية .

من بعض بترجيحها ، أحاط بالعلوم العقلية والفنون الحكيمة الحديثة والقديمة بالرأى الثاقب والحكم النافذ ، كان نقيب العلوم العربية والفنون الأدبية غائصاً في بحارها وغمارها ، فكم من عوارف هو أبو عذرتها ، وكم من معارف هو ابن بجدتها ، وكم من لطائف وغوامض قد أبدعها ، وكم من أسرار وحكم قد اخترعها ، وكيف لا ؟ وقد نشأ في بيت التقوى والعلم ، وامتاز بسلامة الطبع وفرط الذكاء وبراعة الفهم ، بل رزق أعدل الطبائع في بقعة تعد من أقاليم البسيطة ، ثم غذى بلبان الحكمة والعلم ، وساعدته سائر الأسباب المحتاج إليها للعلم . وقاده التوفيق الرباني إلى مهاد العلماء الربانيين ، فارتدى من مطارف أنواع العلوم والكمالات ، واعتم عمائم الفضل والمزية ، وتضلع من بحار الفضائل والفواضل في سائر أقطار الهند ، حتى ترعرع شاباً إماماً في العلوم ، بل بجرأ ذخراً ومزنة هائلة ، فنال من علوم التفسير وعلوم الحديث ثرياتها ، وبلغ في علوم اللغة أمداً بعيداً ، وسامى في العلوم الحكيمة وفنون الدراية مكانة الجوزاء ، ووصل في علوم البلاغة على طرف شاسع ، ورزق من علوم الحقائق حظاً عظيماً . ع :

شرف ينطح النجوم بروقيه * وعز يقلقل الأجيالا

وبالجملة كان إماماً في التفسير والحديث ، إماماً في الأصول والفروع ، مجتهداً في علوم الدراية ، حافظاً مستوعباً للطبقات والتاريخ والسير ، حتى صار رحلة في الأقطار لشرح مشكل الآثار ، ومسنداً ثبناً لمعاني منتقى الأخبار ، فأصبح لكل علم وفن عذيقه المرجب ، وجذيله المحكك ، لو كان في عصر الغزالي أو الرازي أو ابن دقيق العيد أو ابن تيمية الحراني أو ابن حجر العسقلاني لكان درة فاخرة من عقد تلك القرون المباركة ، بل شمساً نيرة من الشموس

(نفحة العنبر م — ٤)

المستنيرة اليوم على سماء التاريخ الإسلامي في عهد الارتقاء وعروج العلوم ،
فجمع الله له من شمل الفضائل والفواضل ما نكل الألسنة عن تفصيلها ،
وتلغثم عن بيانها ، ويتكفكف سنا المزبر عن تسطير جميعها ، فأثره الله بالقريحة
الوقادة ما خلت القرون عن أمثالها ، وأردفه بقوة الحافظة ما بلغ غاية ليس
دونها غاية ، حتى علمنا علم يقين ما أثر لنا من قوة الحافظة للمحدثين وسائر
السلف الصالح في العهد الغابر في كتب الطبقات والرجال والتاريخ ، بل كأنا
رأيناهم رأى العين ، فلم تبق لنا ريبة ولا خطرة من الوهم ، فقد أبدى الصريح
لنا عن الرغبة . بلغنى عن الشيخ الفقيه المحدث مولانا حسين أحمد المهاجر
المدني — شيخ الحديث اليوم بدار العلوم الديوبندية دام فضلهم — أنه قال :
سمعت حضرة الشيخ رحمه الله أنه قال : إذا طالعت كتاباً مرتجلاً ولم أرد ادخار
مباحثه يبق في حفظي إلى نحو خمس عشرة سنة ، ثم مع هذه الحافظة وفق
لغزارة المطالعة وسرعتها ما يتحير منها العقول ، حتى تطوى من بين يديه
ذخائر من المكنونات العلمية كل يوم ، حتى سمعت من بعض خواص معارفه :
أنه أول ما كان يطالع "مسند أحمد" المطبوع بمصر ، كان يطالع كل يوم
نحو مائتي صفحة منه ، مع غور وإمعان في أسانيده وحل مشكلاته . وسمعت
من حضرة الشيخ رحمه الله : أني طالعت أولاً "مسند أحمد" فلوخست منه أدلة
الحنفية والأحاديث المفيدة لهم في عدة أيام ، ولكن مع هذه السرعة كان
ينقل أحاديثه أينما احتاج له في المشكلات والمعضلات مع ضبط تام لأحوال
رواتها وطبقاتها ، ثم طالع "مسند أحمد" مرة ثانية في أواخر عمره لإلتقاط
أحاديث نزول سيدنا عيسى على نبينا وعليه السلام منه ، ثم مكثه الله من
حسن الإلقاء على الطلبة والإملاء على الإشهاد بجزالة التعبير ونفاضة التحبير .
وهالك أمثلة يسيرة من سرعة مطالعته ودقة نظره واستبحاره في سائر
العلوم النقلية والعقلية :

۱۔ طالع فی سنۃ ۱۳۲۱ من الهجرة کتاب ”فتح القدير“ للشيخ المحقق العارف کمال الدين ابن الھمام رحمہ اللہ مع التکملة فی بضع وعشرين يوماً ، وکتب تلخیصہ إلى کتاب الحج ، وأجاب عن إیراداتہ التي أوردھا علی صاحب ”الھدایة“ ، وناقش فیھا فی جزء لطیف ، کل ذلك فی تلك البرہة القصيرة ، ثم استغنى عن المراجعة لنقل مباحثہ فی جميع المسائل مدة عمرہ ، وكان رحمہ اللہ حکي لنا هذه الواقعة فی سنة ۱۳۴۷ الهجرية تحديثاً بنعمة ربہ ، وحثاً لأشواق الطلبة ولو أعجبهم إلى مطالعة الكتب ومقاساة الشدائد فیھا . ولفظه بالھندیة :

”چھبیس سال ہوئے پھر سراجعت کی ضرورت نہیں پڑی ، اور جو مضمون اسکا بیان کروں گا اگر سراجعت کرو گے تفاوت کم پاؤ گے“ انتھی۔

ھكذا سمعته أذناي ووعاه قلبي ، هذا وأنت تعلم أن كتاب ”فتح القدير“ من أصعب كتب الفقه وأدقھا ، يغوص مؤلفه المحقق رحمہ اللہ فی مسائل أصول الفقه والجدل والخلاف ومباحث الكلام وغيرها من نفائس العلوم بتخریج وتنقيح كتاب لا نظیر له فی مزایاہ وخصائصہ ، فادرہ الآن تذقہ فلن من لم یذق لم یدر ، وكان الشيخ رحمہ اللہ یقول : إنه ليس أصولياً نظاراً فی علماء المذاهب الأربعة مثل المحقق ابن الھمام ، وكتابه ”التحریر“ فی أصول الفقه من أصعب كتب الأصول .

۲۔ اختلف علماء ”کشمیر“ فی جواب مسألة وأفتوا بعضهم خلاف بعض ، وكان من حسن الاتفاق أن ورد الشيخ رحمہ اللہ بـ ”کشمیر“ (۱) فحضر

(۱) ولا یری بأساً بان اشیر الى شیء من حکایة هذه الواقعة : كان علماء کشمیر انقسموا فرقتین ، فرقة الى جهة فی مسالہ و فرقة الى جهة اخرى ، والمسالہ كانت مسالہ وقوع الطلاق وعدمہ ، وكان فصل الامر یحتاج الى تحقیق الواقعة ، وكان ارادہ الشيخ وجاء الفرقتان الى حضرته یرجو کل فريق الموافقة ،

الفريقان منهم لزيارته ثم انفصام تلك المعضلة التي تشتت فيها آرائهم وعرض كلا الفريقين فتاواهما مكتوبة في حضرته ، فأمرني الشيخ رحمه الله بتحرير الجواب بعد ما فصل لي الأمر ونقح ووضح ، وكان فريق منهم استدلوا لفتواهم بعبارة كانوا يأترونها عن ” الفتاوى العمادية ” (المخطوطة) ، فقال لي الشيخ رحمه الله : واكتب فيه : ” إني قد طالعت ” الفتاوى العمادية ” بنسخة مخطوطة صحيحة في ” مكتبة دارالعلوم الديوبندية ” فليس فيها هذه العبارة قط ، فلعل ما يأترونه إما تصحيف لعبارتها أو تدليس منهم لتأييد فتواهم “ فكتبت ذلك ، فتحير الناظرون ، وبهت المستدلون بها . وأمثلة هذه الواقعة أكثر من أن يحصر ويستقصى ، ولو أردنا استيعابها لأعيانا الالتزام وسئم الناظرون ، وإنما أردنا رشحة من رشحاته ونموذجاً من بدائع خصائصه . ولله در العالم العامل الورع الزاهد الشيخ المحدث مولانا محمد ادریس السکاندھلوی شارح ” المشكاة ” حيث قال في وصف حافظته وأجاد :
وقد صح عند الناس آثار حفظه * وقد حسنها جل أهل التفضل (۱)

وكان مضطراً إلى السفر من كشمير ، وما كان ينتهز فرصة للبقاء وتحقيق الواقعة ، فرايته متفكراً إلى الغاية ، فقلت للشيخ : ان وقتكم لا يتسع للقضاء حيث يحتاج إلى تحقيق الواقعة في نفس الامر ، فاكتفوا بالافتاء ، فتأمل وجه الشيخ وزال تفكره ، ودعاني ، وبين تحقيق الحكم في الجانبيين بادلته من ظهر قلبه على راس لسانه ، فكتبت ما اراده الشيخ بتفصيل ، فاعجبه ولم يغير فيه حرفاً وإنما غير ما كتبت من وصف الشيخ بقولي : ” وقد طالع الشيخ الجبر البحر مولانا محمد انور شاه ” الفتاوى العمادية “ ، وقال فيه : الخ . فقال : هات القلم ؟ واخذه فمحا منه كلمة : ” الجبر البحر “ ، وقال بلهجة الغضب : لا اسمح لك في كتابه وصف لي غير ” مولانا محمد انور شاه “ ، ولفظه : (آپ کو صرف ” مولانا محمد انور شاه “ لکھنے کی اجازت ہے) سبحان الله العظيم ، هكذا كان تواضعه ، فلم يمح شيئاً غير وصفه . فرحمه الله ورفع قدره . منه .

(۱) ولو قال مقامه : ” وحسنها الاعلام اهل التفضل “ ، لكان احسن .

ولكن أرى فيه الغرابة واضحاً * أقول كقول الترمذى المجال
حديث غريب ما عرفناه أسنداً * سوى وجه شبه الأنور المتهلل
وفي الباب عمن لا يعد ويحصر * ولا خلف فيه للمحقق ومبطل
٣- سمعت من حضرة الأستاذ محقق العصر الحاضر المفسر الحاذق
والحدث البارع مولانا ومقتدانا الشيخ شبير أحمد العثماني — طال بقاؤه ، شيخ
الحديث اليوم بـ ” الجامعة الإسلامية ” صاحب ” فتح الملهم شرح مسلم ”
وغيره — أنه قال : قد اعتاص على حل فتنه سيدنا داود على نبينا وعليه
الصلاة والسلام عند تحرير ” فوائد التنزيل العزيز ” فتصفحت أسفار القوم
من جميع مظانها ، وأجبت قداح النظر في أنجاده وأغوارها ، واستنفدت جهدي
في الاستقراء البالغ ، حتى بقيت في حل هذه العقدة العويصة نحو خمسة
عشر يوماً ، فما صادفت ما يشفي صدرى وينقع غلتي بما يناسب جلالة
شأن الأنبياء عليهم السلام وعصمتهم ووجاهتهم ، وما يلائم نظم التنزيل
المعجز وسياقه البليغ ، حتى عييت بها فراجعت حضرة الشيخ الأنور — رحمه
الله — وكان مريضاً ذا فراش ، وكشفت له عن الحال والداء العضال ،
فقال رحمه الله مرتجلاً مقتضباً :

أخرج أبو عبد الله الحاكم في ” مستدركه ” أثراً لابن عباس رضي الله عنه ،
وهو يفيد في انحلال هذه العقدة ، فراجع له لعله يشفي صدرك ، وهو أحسن
ما روى في هذا الباب وأقرب إلى سياق التنزيل . قال شيخنا المحقق :
فراجعته وتأملت ، فسقى غلتي وشفى علتى وانحلت به عقدتى ، وجعلت في فوائد
التنزيل عليه مدار حل العقدة ، وقررتة وفصلته ، ثم أريته الشيخ رحمه الله
ففرح واستبشر واستحسن تطبيقى له بنظم التنزيل العزيز . هذا وكم حل من
مثل هذه العقد المعضلة أشكال انحلالها على الأفاضل والأذكياء من المدرسين
والمؤلفين ، بل على شيوخه وأكابره ، فله منة عظيمة على رقابهم ، وكـ

هكذا أصاب الخبز ، وطبق المفصل ، فكفى وشفى ، وروى وأروى ، والله
در صديقنا الفاضل مولانا محمد يوسف السكاملفوري ، حيث قال في حقه :
كم هكذا صدرت خوارق عادة * عنه وجاحدا من العميان

فهذا أكبر مؤلف في العالم في العصر الحاضر ، تربو مصنفاته على مئتين ،
حتى فاق في كثرة التصانيف على الشيخ جلال الدين السيوطي حكيم الأمة الشيخ
الفقيه العابد الزاهد مولانا الشاه محمد أشرف على التهانوي طال بقائه (١) ، كان
يسئله عن أمور في غوامض المسائل ومشكلات الفتاوى ، وسنشير إلى شيء
منها . وهذا الشيخ الفقيه الحبر المحدث مولانا خليل أحمد السهارنفوري ثم
المدني رحمه الله (٢) صاحب "بذل المجهود شرح سنن أبي داود" كان يسأله فيما
يشكل عليه في تأليفه شرحه هذا من باب الرواية والدراية ، وهذا شيخه المحقق
العارف مولانا محمود الحسن الديوبندي قدس سره ، المعروف بـ "شيخ الهند" (٣)
كان ربما يقول له : هل لأحد في ذلك قول ؟ وهل عثرت لأحد على حل هذه
المشكلة ؟ اعترافاً بسعة علمه وغرارة مطالعته وتبحره وإطلاعه الواسع . وهذا
الشيخ مولانا محمد ظهير حسن النيموي (٤) رحمه الله المحدث الشهير ، صاحب "آثار
السنن" كان يستفيد من الشيخ رحمه الله بالتراسل والتكاتب في غوامض الحديث ،
وكان يستعين منه في تأليف كتابه "آثار السنن" ، وكان يعرض عليه ما يؤلفه
قطعة قطعة ، هكذا سمعت عن حضرة الشيخ رحمه الله . وقال في كتابه "نيل
الفرقدين" (٥) :

"وقد كان الشيخ (النيموي) المرحوم حين تأليفه ذلك الكتاب
يرسل إلى قطعة قطعة حتى إنني كنته مرافقاً فيه ، وزدت عليه أشياء

(١) وقد توفي رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد في سنة ١٣٦٢ الهجرية .

(٢) المتوفى سنة ١٣٤٦ الهجرية . (٣) المتوفى سنة ١٣٣٩ الهجرية .

(٤) وقد توفي رحمه الله في حدود سنة ١٣٢٢ الهجرية . (٥) ص ٥٦

كثيرة بعده اهـ (١) .

فناهيك بأمثال هؤلاء أعلام العصر شهوداً عدولاً قولاً وعملاً ،
وكثيراً ما رأينا في جملة من أسفاره في بلاد الفنجاب أنه كان يجتمع لزواره
طوائف من المشايخ والعلماء المدرسون المكبون على مطالعة الفنون ليلاً ونهاراً ،
ويسألونه حل ما أشكل عليهم في أى كتاب من أى علم كان ، فرجل
يسأل في الفقه ، ورجل في الحديث ، وعالم في معضلات النحو ، وآخر في
دقائق العلوم الإلهية والطبيعية وغيره في العلوم الآلية ، وواحد في التاريخ بل
في مبهمات ومشكلاته ، وآخر في سير المصنفين وعاداتهم ، هكذا واحد بعد
واحد ، فتارة يخاطب هذا وتارة يجاوب هذا ، وتارة ذلك ومرة ذلك ،
فيشتفي ويشفي ، حتى ترى أنه بجر عجم ، أو مزنة تهمة ، أو واد يسيل ،
إذا شرع في الحديث خلت أنه لا يحسن غيره ، وإذا شرع في استطراد
غوامض الفقه ظننت أنه لا يعلم غيره ، وإذا شرع في البلاغة ودقائقه حسبت
أن الشيخ عبد القاهر رحمه الله عاد منشوراً ، هكذا كان حاله في دقائق العلوم
ومعارفها ، فما ظنك بتوابعها العامة ومساثلها المشهورة ، وذكرني حاله هذا
ما ذكر الحافظ ابن القيم في "هداية الحيارى" (٢) في حق حبر الأمة
عبد الله بن عباس حيث قال : قال عطاء بن أبي رباح : ما رأيت مجلساً قط
أكرم من مجلس ابن عباس أكثر فقهاً وأعظم جفنة ، إن أصحاب الفقه عنده ،
وأصحاب القرآن عنده وأصحاب الشعر ، يصدرهم كلهم في واد واسع .

وقال (٣) : وقال الأعمش : كان ابن عباس إذا رأيته قلت : أجمل الناس ،

(١) كان الشيخ رحمه الله إذ ذاك شاباً لم يظهر للناس صيته ، والمحدث النيموى كان شيخاً
بازلاً ، ومع هذا كان هذه معاملته ، ويدل هذا على تواضعه العلمي وتقديره للرجال ، ورفع
الله قدرهما . منه .

(٢) ص - ١١٨ المطبوع بمصر . (٣) في ص - ١٩٩

فإذا تكلم قلت : أفصح الناس ، فإذا حدث قلت : أعلم الناس . وقال الحافظ ابن القيم نفسه في حق هذا الخبر (١) : وكان بحراً لا ينزف : لو نزل به أهل الأرض لأوسعهم علماً ، وكان إذا أخذ في الحلال والحرام والفرائض يقول القائل : لا يحسن سواه ، فإذا أخذ في تفسير القرآن ومعانيه يقول السامع : لا يحسن سواه ، فإذا أخذ في السنة والرواية عن النبي ﷺ يقول القائل : لا يحسن سواه ، فإذا أخذ في القصص وأخبار الأمم وسير الماضيين فكذلك ، فإذا أخذ في أنساب العرب وقبائلها وأصولها وفروعها فكذلك ، فإذا أخذ في الشعر والغريب فكذلك ، انتهى كلامه .

ولعمري ما وجدت أحسن ولا أوضح مثلاً بالشيخ رحمه الله ومآثره وخصائصه من هذه العبارة الجامعة لهذا الحافظ في حق حبر الأمة ، فلا ريب أن شيخنا رحمه الله كان حبر الأمة وبحرها ، فكان عالماً بمنابت القصيص جمع الله له شمل الفضائل والفواضل ، ولقد صدق القائل :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

نعم ! لو لم تكن هذه النظائر بين أعيننا لما تيقنا ما أسلف لنا علمائنا الغابرون في حق السلف ، والآن بحمد الله كشف الغطاء عن أبصارنا فبصرنا اليوم حديد ، نرى صدق جميع ذلك ، وثلجت بها صدورنا ويلم بها شعنا ، فيالها من أمة هذه الأعلام والأخبار في آخرها ، فإذا يكون الظن بأولها ، وهذا معنى قوله ﷺ : « مثل أمي كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره » رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه ، أو كما قال ، فنظر ﷺ إلى مآثر هذه الأمة وفضائلها في آخرها فاستكثرها فأعجبته فتناسى فضائل أولها ، وكيف لا يكون فضل باهر وشرف زاهر لعهد النبي ﷺ وقد قال ﷺ : « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، فالسابقون السابقون أولئك

المقربون » فسيحان من أقام في الأمة لخدمة كتابه ودينه والذب عن حريمه وحماء رجالاً في بدء هذه الأمة المختارة ونهايتها ظاهرين. على الحق ينشرون العلم ويخدمون الإسلام ويصلحون ما أفسده الناس حتى يأتي أمر الله ، هذا وكانت قد انعقدت حفلة تأبين عظيمة بالجامعة الإسلامية بعد وفاة الشيخ رحمه الله تعزية وورثاء، وقد ألقى شيخنا محقق العصر مولانا العثماني — طالت حياته (١) — فيها خطبة باللغة الأردنية مؤثرة بليغة ناجعة، فبكى وأبكى حتى ذرفت العيون ووجلت القلوب ، وقد قيل : « عين عرفت فذرفت » ، أريد أن أهدي للناظرين طرفها وأزف إليهم عرائس أ بكر الكلمات التي التقطتها من تلك المقالة الناجعة ، فإنها كلمة كشفت عن وجوه مخدرات مآثر الشيخ لثام الشك والارتياب ، بحيث يرتاح لها أولو البصائر والألباب ، فدونك كلمة جامعة ملخصة مترجمة إلى العربية ترفل في أذياها وتبدو للمشتاقين بحسنها وجمالها . قال أطال بقاؤه :

أيها السادة ! قد أرخيت اليوم على العلم والفضل سدول الظلام ، إذ قد نزلت داهية عظيمة أصبحت أرباب الفضل والعلم قاطبة بها يتامى ، ما أريد أن الطلبة وأصحاب التحصيل أصبحوا يتامى بل العلماء والشيوخ وأساتذة الطلبة أضحووا يتامى ، فقدوا من يقوم بحل مشكلاتهم ، بلية قد غشيت العالم الإسلامي بأسره ، لم يبق لنا اليوم من يحل لنا مشكلات القرآن وغوامض الحديث ، فإلى من يرجع في المعضلات ، ومن نستطب سقامنا ، قد تزلزل اليوم أساس العلم ، وانهد عمود الملة الإسلامية ، فهذه ثلثة لا يرجى سدادها . رب مسائل معضلة قد أعوزني دوائها فاستقرت لها أسفار القدماء

(١) وقد توفي رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد في سنة ١٣٦٩ الهجرية فرحمه الله ورضى عنه وارضاه .

وتصفحت بها زبر كبار المحققين ، فلم أفر بما يشفي غليل صدرى ،
فراجعت حضرة الشيخ الأنور — أنار الله مرقده — فشفى صدرى
بكلمات مختصرة جامعة منقحة تطمئن به النفوس وتقر به الأعين
وتسكن إليه القلوب ، أو أرشدنى إلى زبر وأسفار يكون هنا
الحيص عنها ، فيكون الأمر كما يقول ، وهكذا كلما كان يسأل
عن دقائق المسائل ما بلغ الغاية دقتها ومما تعسر على الأذكياء
المتبحرين انفصامها ، يجيب عنها ارتجالاً ، من غير روية وإمعان
نظر ، كأن قد حل جميع هذه المشكلات من زمان مديد ،
وفرغ عنها مطمئن القلب ، فقد رزقه الله علماً وسيعاً أحاط بسائر
مشكلات العلوم من جميع جهاتها . اشتهر فى الناس أنه كان قوة
حافظته ومواظبته المطالعة ليلاً ونهاراً وتبحره فى العلوم فقيده المثل
وحيداً ، ولكن الذى هو أكبر مزاياه عندى أنه كان خبيراً
مطلعاً على أرواح العلوم وحقائقها ، وهذه هى غاية معارج العلم
ونهاية مدارجه . لو سألتى أحد : هل رأيت الحافظ ابن حجر
العسقلانى ؟ وهل لاقيت الحافظ تقي الدين ابن دقيق العيد ؟ أو
سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام رحمهم الله ؟ فلو أجبتهم
بقولى : نعم ، لكنك صادقاً تشبيهاً واستعارةً ، ولا غرو ،
فإنه كان متصفاً بتلك المزايا التى امتازوا اليوم بها فى الأمة ، ولو
سمحت الأيام بوجوده فى تلك القرون المباركة لعد فى طبقتهم ،
ولكان مثلهم اليوم فى الأمة الحاضرة ، فأحسن أن اليوم قد توفى
الحافظ ابن حجر ، والحافظ ابن دقيق العيد ، وسلطان العلماء ،
وأحرمتنا من استفادة علومهم وبركاتهم اليوم .

ثم فوق ذلك ما جمع الله فيه من الورع والزهد والتواضع وحسن

الخلق شمائل كريمة قلما تجتمع في عالم ، وإن اتصف بها أحد واجتمعت فيه هذه الملكات والشمائل الحسنة فنأين لنا وجهه كوجه الشيخ الأنور ؟ حيث تنبعث أشعته ويتهلل جبينه ، وتقر العيون بمرآه ، وتشرح الصدور بزورة محياه ، وكثيراً ما رأينا في الأسفار أن الناظرين في الحفلات والمواظ والمناظرات كما كانوا يتحIRON من تلاطم علومه وسعة معلوماته كذلك يندهشون من حسنه البارع وجماله المعجب ، بل الكفرة والمشركون كانوا يتأثرون من نظرة إلى محياه . ولقد صدق القائل :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد
كان في بدء عمره لا يتوجه كثيراً إلى حقائق التصوف ، ولكن غلب عليه في آخر العمر الإنهاك والاستغراق في بيان الحقائق والمعارف ، حتى قد يصمد بحقائق عالية ومعارف مضمونة تحير البصائر وألباب الفحول ، ثم فوق جميع ذلك مصابرة على الشدائد ومكابדתه في المصائب ، وقد جربنا ذلك في فتنه اختلافات "دارالعلوم الديوبندية" فتحيرنا لضبط نفسه وشدة صبره واستقامته واستقلاله ، فاعتقدنا كمالاته بعد المسابرة والتجارب أزيد مما كنا نعتقدها من قبل . وقد صدق القائل :

الصدر من يلقي الخطوب بصدوره * وبصبره وبحمده وبشكره

انتهت كلمة الشيخ العلامة الحبر العثماني دامت بركاته ملخصة وقد امتنعت فنصت وجمعت فأوعيت ، وكشفت الحجب فصدعت ، ولا تلحقك غفلة من أن هذه المقالة ليست من أحد تلامذة الشيخ رحمه الله ولا من مسترشديه وأصحابه ، بل هذه مقالة من بلغ الغاية القصوى في كمالاته وفضائله ، ومن

هو مساهمته في شيخ ومعاصره ، في عمر شجرتان من روض واحد ، سقيتنا بماء واحد (١) ، فله دره ثم لله دره ، كيف صدع بالحق وكشف بالصدق ، جزاه الله عنى أولاً ثم عن سائر المسلمين خير ما يجازى به عباده المحسنين ، وسنذكر كلمته الجامعة الأخرى مما ذكره في ”فتح الملهم شرح الصحيح لمسلم“ في سياق آخر إن شاء الله تعالى .

الشيخ ودأبه في المطالعة .

لم يكن دأبه في المطالعة كأكثر علماء هذا العصر من أن يطالعوا الكتب عند الافتقار إليها في الفتوى أو التأليف أو التدريس ، فيراجعون فيما يحتاجون إليها من ذلك الموضوع خاصة ، أو يتفقدون ما أرادوه من مظانه ، بل كان دأبه في المطالعة أنه كلما تيسر له كتاب ، مخطوطاً كان أو مطبوعاً ، سقيماً كان أو سليماً ، في موضوع علمي ، أي موضوع كان ، من أي مصنف كان ، فيأخذه ويطالعه من أوله إلى الآخر بتمامه ، من غير أن يبقى شيئاً أو يذر ، نعم كان حل جهده ومسعاة في أن يطالع كتب المتقدمين ثم كتب أكابر المحققين من القرون الوسطى . وقد حان أن ألقى على الناظرين نماذج من علومه وتوغله في المضائق .

الشيخ رحمه الله ومشكلات القرآن .

قد أومضت إلى دأب الشيخ رحمه الله في المطالعة ، وحاولت بحول الله أن أبدي شيئاً من دأبه في حل مشكلات القرآن وبيان المشكل منه ، ثم إهداء نقححات مسكية من معدنه وفوحات شذية من حديقته الغناء لانتشاق أرواح الناظرين ، والله الموفق والمعين .

(١) إشارة الى تفاوت المراتب مع كون منبهما واحداً شيئاً على ما اراده الله سبحانه في تنزيله العزيز في قوله: ”يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الاكل“ . سنه .

وليعلم أن "القرآن المجيد" كلام الله، خضعت لعلومه ومعارفه أعناق عقلاء العالم في كل عصر من الأعصار ، وسجدت لآياتها جباه الفضلاء من أولى الألباب والأفكار ، فأبصار العلماء قد قصرت دون معارفها ، وبصائر العرفاء قد حسرت وراء عوارفها ، فإنه لعلو شأنه الأسمى في الغاية القاصية التي ليست ورائها غاية ، فأصبح عزيز المنال صعب المدرك وراء الإدراك ، وأعيان من الأمة قد بذلوا جهودهم المشمرة وجدودهم المنجحة في شرحه ما يتعلق ببلاغته المعجزة ، وغريب اللغة ، وعلوم العربية ، والفقه ، والرواية ، والأسرار التكوينية ، والحقائق الإلهية ، ما لا يكاد يحصر ويستقصى ، وأتوا بدائع وروائع ما يخرج العقول ويشده الفحول ، بيد أن الكلام كلام الله . أين مقدور البشر من إيفاء حق كلام خالق القوى والقادر ، وقد قال نبينا ﷺ : « كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : "إنا سمعنا قرآناً عجياً يهدي إلى الرشد فأمننا به" ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » رواه الترمذي في "جامعه" من حديث الحارث الأعور (١) . فانظر إلى هذا الوصف الجامع الذي خرج من مشكاة النبوة ، فلم يترك رسول الله ﷺ شيئاً من وجوه محاسنه إلا وقد أشار إليه ، فالذي هذا شأنه كيف تنقضي بدائعه وعلومه .

وكان شيخنا رحمه الله هذا إمام العصر ، يقول : لا ريب أن حق القرآن

(١) كذا في "جمع الفوائد" للفاضل المغربي .

ليس مما يقوم بإيفائه المخلوق ، ولكن مع هذا لم ينفك ، وأوسعهم فيه ما كان أحق هو به وأمله .

وكان يقول : والأعنى في تفسيره هو حل نظمه الجزيل بحيث يستغنى عن تكلفات وتقديرات ، ويبقى تعبيره المعجز على سداجة فطرية ، أوفى بالقرض بما يقتضيه جزالة التنزيل وفخامة شأنه الجليل .

وكان يقول : حوار القرآن لم يحى على سرد الجزئيات على نسق كتب الفتاوى أو تقسيمها على المواد والتعداد ، كما في الكتب الجديدة من مؤلفات العصر ، وإنما جاء على حوار العرب بعطف بعض على بعض ، فكثير الاختلاف في أن موضوع الآية الثانية مثلاً أهو موضوع الأولى ؟ أو أعم ؟ أو أخص ؟ أو متعلق به بتعلق آخر ؟ ولا يخفى أن الأمر المهم فيه هو هذا . وكان يقول : ليس موضوع القرآن استيعاب التاريخ والوقائع كلها ، فالإيجاز في مقام والإطناب في آخر ، والتقديم في أجزاء الواقعة في موضع والتأخير في آخر الحكم وأسرار ربما تقصر عنها الأفسكر ، وللتنزيل في ذلك خصائص دقيقة تحتاج إلى غور بعيد وتدبر طويل .

وكان يقول : إن مشكلات القرآن تربو على مشكلات الحديث ، بيد أنى أتأسف على أنه لم تخدم الأمة "القرآن" مثل خدمة الحديث ، وكان الاعتناء به أهم منه بالحديث .

وكان يقول : إعجاز نظم القرآن أقطع عندي من طلوع ذكاء حين ذر شارقها ، لا يتزعزع بتشكيك مشكك ، وهذا لأن الذكاء ينبجلى قرصها للأبصار قبيل شروقها من الأفق الحقيقي بعدة دقائق ، كما حققه أهل الفلسفة الجديدة ، فيحتمل أن الذكاء لم تطلع عند شروقها ، غير أن القرآن لا يحتمل لدى شيئاً مما يأتى عن إعجازه .

وكان يقول : إعجاز القرآن عندي يحوى إعجاز تراكيبه وأساليبه في

إيجازه وإطنابه ودلالته على المغزى وافتنانه على وجوه شتى ، ليس فيه للشبهة مساغ ولا للريبة مجال ، فإعجاز القرآن عندى يقين لا يدوره شك ، وثلج صدر لا يشوبه ريبة ، ” وليست وراء عبادان قربة “ ، بل اللفظ المفرد الذى نزل به القرآن لو اجتمع الثقلان وتظاهر عليه أهل الأكوان بأن يأتوا بالأوفى منه فى موضعه لعجزوا وخابوا .

وأن القرآن ربما يكشف الحقائق الغامضة بتغيرات مفردة بتحيرها أو لو الأذواق السليمة العالية (١) :

إذا ذاقها من ذاقها يتمطق

فيجل شأنه الجليل من أن يكون فيه حرف زائد أو تقديم وتأخير من غير رعاية نكات دقيقة تدق عن الافهام ، فحاشاه ثم حاشاه عن ركافة لفظ أو زيادة حرف ، وحقاً ما يقول الشيخ رحمه الله : فإنه كان من البلاغة بمنزلة علياء شامخة ، تشخص دونها الأبصار والبصائر ، فكانت البلاغة خلطت بلحمه

(١) وكان يقول : نظم القرآن العزيز لا يستوفى الالفاظ لمحض العبارة والتعبير بعد ما فهم المقام والمصداق . وقال فى ” تحية الاسلام “ ص - ٣٩ : ومن رزقه الله ذوقاً فى القرآن وحفظاً فى العربية يعلم انه ليس يجرى على الحوار العامى بل له طريقته تميزه فى انتقاء الالفاظ ، واللاحظ فيها الى اصل وضعها ورعايته حقائق ما وضع لها ، ولذا يتعذر وضع لفظ فيه بدل لفظ ، وذلك للجهل بحقائق الاشياء وما يفى بحق المقام اه . وكان يقول : التكرار فى القرآن انما يكون بقدر مشترك وبقدر مغاير ، وقلما يكون مكرراً محضاً ، ولو لم يكثر الاول لما سهل تفسير بعضه ببعض ولا توفير مآخذ الاحكام والفوائد ، اريد به انه يؤخذ من لفظ حكم ومن لفظ آخر آخر فى موضوع مشترك فيصير كمتن صرف ، ويؤخذ من التكرار الاعتناء والاهتمام بشأن ذلك المضمون كما يقال : ذكرت الصلاة ازيد من تسع مائه مرة . وكان يقول : ويدل القرآن العزيز بما لا يرتبط بعضه ببعض علماً و هو ان الامور التى قصر علمنا عن ابداء المناسبة فيها بينها ارتباطات وعلائق لا يحيط بعلمها الاعلام العيوب ، ونظيرة الادون قصورنا عن فهم مناسبات بين احكام الفقه ، وان بينها ساسله و يفهمها المجتهد الفقيه ، فهى عندنا جزئيات منتشرة وعنده منضبطة تحت اصل . منه .

ودمه ، وأضحت له صفة نفسانية سرت في عروقه حتى أصبحت غذاء لروحه السامى .

وكان يقول : قد أودع الله في طبيعتى معياراً لمعرفة البلاغة ، فلا أقلد فيها أحداً ، وربما إذا حكى قولهم : ” لم يدر إعجاز القرآن إلا الأعرجان “ عقبه بقوله : ” وأنا ثالثهما “ ، وربما قرنه بسجعة : أحدهما من زمخشر والآخر من جرجان (١) .

ثم اعلم أن الشيخ رحمه الله كان يثنى كثيراً على ” نظم الدرر في تناسب الآى والسور “ للشيخ إبراهيم بن عمر البقاعى ، الشافعى ، من أرشد تلامذة الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى ، وكان يرشدنا إلى مزاياه البارعة ، وينوه بشأنه ويقول : لا يوازى خدمته للقرآن فيما أرى خدمة غيره له ، وهو فى ذلك سباق غايات وصاحب آيات بينات ، وكذا كان يثنى على ” كشف الأسرار “ لبعض أفاضل المعتزلة (وكلاهما غير مطبوعين) .

وكان يثنى على ” مفاتيح الغيب “ أى ” التفسير الكبير “ للإمام فخر الدين خطيب الرى ، ويقول (٢) : إن الإمام يغوص فى علوم القرآن ومشكلاته ، لم أر مشكلاً من معضلاته إلا والإمام تنبه له ، غير أنه ربما لا يظفر بما تقنع به النفوس الصادية وتنشرح به الصدور الصافية . فهكذا كان الشيخ رحمه الله ينبهنا على تلك التحقيقات المتينة والتدقيقات الرصينة . سألته عما قيل فى تفسير الإمام : ” فيه كل شئ إلا التفسير “ كما حكاه الشيخ جلال الدين السيوطى فى ” إتقانه “ ؟ فقال : لعله قول من غلب عليه الرواية ، كان يريد رحمه الله كأنه قول محدث دمه استطراد الروايات من الأخبار والآثار فقط ، من غير ملاحظة إلى سائر مزايا التنزيل العزيز . ولفظه بالأردية : « كسى راوى مزاج شخص كا قول هوگا » . وبلغنى أنه قال مرة :

(١) قد جاء هذا البيان بأبسط من هذا فى مقدمتى ” مشكلات القرآن “ : ” يتيمه البيان “ فلتراجع منه . منه .

(٢) ومن لفظه بالهنديہ : ” قرآن کے مشکلات میں کھبتا ہے “ . منه .

ذلك القول ظلم في حق الإمام ، هذا ، فلعلك دريت من هذا التفصيل شدة
عناية الشيخ رحمه الله بمشكلات التنزيل العزيز والغوص في حقائقه الفائقة
ومزاياه الرائقة ، فهكذا صرف برهة من عمره في حل مشكلاته .

وكان يتلو القرآن في رمضان بغاية تدبر ، فكان يمضي يوماً قسيطاً من
بعد صلاة الفجر إلى الأصيل في جزء واحد ، وربما كان يتوقف في آية عدة
ساعات يمرى اخلاف فكره ، وربما كان يبقى سنين في التأمل في بعض
المشكلات حتى يبلغ إلى درك البحر فيخرج اللآلى المكنونة ، وكان من
شريف دأبه إذا عن له مشكل من مشكلاته يتوخى لحله أسفار أعيان من
الأمة الذين لهم عناية قوية بأمثال هذه العويصات ، فإن فاز بشيء أحال عليه
في مذكرته ، وإلا فكان يطيل الفكر ويرسل النظر ويبعد الغور والتأمل ،
فإذا سنىح له سانح أو بدا بارح قيده ، فاجتمعت في ”مذكرته الخاصة بالقرآن“
مادة جمّة غزيرة . ولم أحاول ههنا استقصاء الكلام واستيفاء الجهد واسترسال
القلم ، بل أردت أن آتى بشذرات من صريفها ، تمثيلاً لما أسلفته ، ودليلاً
لما ألقيته . وقد عزم ”المجلس العلمي“ اللقائم بـ”دابيل“ أن يخرج للأمة هذا
العلق النفيس والمضنون الغالى ، بعد أن يقاسى العناء ويبلغ العنت في ترتيبه
وجمع حوالاته الغزيرة ، بيد أن ذلك أمر خطير يحتاج إلى سعة المدة ، فنرتقب
متى يسطع هذا البدر اللامع على جبين العلم في دياجر الهند (١) .

والآن أريد أن أذكر ههنا مثالين من ذخيرة مذكرته بلفظه على الهيئة
الموجودة في مذكرته ، ليكون للناظر حجة وبرهاناً على ما ذكرته ، وإنما

(١) والحمد لله قد ظهر ذلك العلق النفيس وسمى بـ”مشكلات القرآن“ ، ولى
عليه مقدسه ”مبسوطة“ في نصف حجم ”نفحة العنبر“ ، ولكن بالأسف فقدت
نسخه ويحتاج الى إعادة الطبع . منه .

اقتنعت بالمثالين منها فقط ، ثم ما كان فيها مختصراً اختصاراً للبحث . والله
الموفق والمعين .

١- قوله تعالى : «وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين»

هو بالنصب ، عطف على المغسولات ، بتقدير فعل يصل إليه ،

أو باختيار التضمين ، كما خرجوا عليه آيات ، وأسلوب القرآن
عليه كثير بالإحالة على الفهم في تقدير ما يصدق في المقام ويرتبط
به الكلام ، لا استيعاب ما لا يحتاج إليه لمحض تصحيح الإطلاق .

وإن كان بالجر فالمسح هو الإفضاء بالماء إلى المحل ويصدق

على الغسل ، وليس ههنا اشتراك لفظي بل معنوي يعين جزئياته

خصوصية المحال ، كالنضح للبحر بموج بالنسبة إليه ، وللبحر

والثوب مثلاً ، ومنه النقل عن أبي زيد الأنصاري : «تمسحنا» ،

أى توضأنا ، وقول العرب : «مسح الأرض المطر» . والباء

للإيماء إلى الماء ، كما في «فتح الباري» عن «القرطبي» .

وأما إمرار اليد المبتلة فعرف حادث بعد ما تعورف المسح على

الرأس والخفين ، وإنما عبر بالمسح ليدل على أن هذا القدر لا بد

منه ، وإنه أقل ما يجب في وظيفة الرجلين ، وليبقى مادة لمسحهما

في بعض الحالات ، وهو حال التخفف والوضوء على غير حدث

للقيام إلى الصلاة ، وكان صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة ، فلذا لم يقيد

الآية بالحدث ليبقى مادة له ، وهو قول على رضى الله عنه عند

الطحاوى وغيره : «وهذا وضوء من لم يحدث» ، وأصله عند

«البخارى» (١) — من الأشربة من باب الشرب قائماً — فقسم

الأربعة إلى مغسولين وممسوحين ، وهذان سقطا في التيمم . وفي

وضوء بين وضوئين في لفظ عند "مسلم" (١) في صلاة الليل عن ابن عباس رضي الله عنه ، وفي لفظ : « ثم غسل وجهه ويديه ثم نام » ، فحسن جمع الرجلين مع الرأس في العنوان ليبقى مادة هذه الصور ، فوظيفة الرجلين الغسل ، ولهذا غياه بقوله : « إلى الكعبين » ، ولا يرتبط بالمسح أصلاً ، لكن عبر عنه بالمسح ، وهذا العنوان أثر وظهر في صور ، لأن المراد في قراءة الجر هو حالة التخفف ابتداءً ، نعم لو لم تكن هذه القراءة وكان صرح بلفظ "الغسل" كان فيه توهم إن لم تبق للمسح صورة ، ثم لو جاءت الأحاديث بعد التصريح به في الآية بالمسح كانت معارضة وجرى تشاجر ، فأبقى بالعنوان مادة له وعدة وإيماء يظهر في محله ، وهذا أسلوب معجز . والحاصل أنه لو لا هذه القراءة لم يذهبوا إلى المسح في بعض الصور أيضاً ، كما لو لم يكن قوله تعالى : « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » — وإن كان منسوخاً — لم يذهبوا إلى الفدية في بعض الصور ، فإبقاءه ولو منسوخاً يفيد ويظهر فيها ، فما من منسوخ إلا وفي إبقاءه في التلاوة فوائد ثم إن فريضة غسل الرجلين كان قبل نزول الآية بنحو ثمانية عشر سنة ، فأثت بالإيماء إلى صور ، وقد تردد بعض السلف بعد نزولها في المسح على الخفين حتى بلغهم الأمر فلم يفهموا غير الغسل ، وأخذوا المسح من الأحاديث (١) . هذا ويجوز على تقدير الجر إضمار فعل مناسب أو اعتبار التضمين أيضاً ، وقيل : النصب على المعية ، وتكون أمراً واحداً معتبراً بين اثنين في القيام أو الوقوع لأمرين . وكنت ويحيي كيدى واحد * نرعى جميعاً ونراى معا (موارد)

ومنه: "جاء محمد والحميس" و"جاء البرد والجباب" و"استوى الماء والخشبة" و"لوتركت الناقة وفصيلتها" "لوخلى وطبعه" و"مالك وزيداً" و"لوخلى وشأنه" ، مما اعتبر فيه المجموع من حيث المجموع لا الجميع . ولعله منه: «إن أراد أن يهلك المسيح عيسى بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً» وجميعاً بمعنى معاً . «فأجمعوا أمركم وشركاءكم» (١) . «يا جبال أوبي معه والطير» (٢) . كأنه على مسألة القدوة عندنا بالجواب بعده ، ونحوه من سورة "ص" . ولعله منه: «فذرهم وما يفترون» ، «ذرني ومن خلقت وحيداً» ، «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث» و«ذرني والمكذبين» . ولعل من هذا الباب: إياك والأسد ، نحو ما في "جمع الجوامع" ، شأنك والحج ، إغراءً وتحذيراً ، ولم يسند الإستواء إلى الخشبة والطريق والنيل لكونها من قبل كذلك فنصب .

وبالجملة هو في النصب على المفعول معه ، وفي الجر أيضاً على المعية لا التشريك فاعلمه ، وتكون في عطف المفردات أيضاً كما في واو الصرف والمعية كما في: "ولما بلغ معه السعى" وكما في "أسلمت مع محمد" . ثم رأيت سيبويه صرح به (٣) . فتدل على أنها قرينان تثبتان معاً وتسقطان كذلك ، وقد ظهر هذا الاعتبار في حديث: «يكفيك الوجه والكفان» عند البخاري وغيره . ولعل الجر على الجوار لمثل هذه النكتة ، لا مجرد توجيه إعراب ، بل على حد: "أنت أعلم ومالك" ، بالرفع ، نحو مالك وزيداً ، من حذف الخبر في "المغنى" ونجث الواو ، و"العمدة" من إيجاب التكبير وافتتاح

(١) "البحر" ص - ١٧٩ ج - ٥ (٢) "البحر" ص - ٢٦٣ ج - ٧

(٣) في صفحة ١٥١ و ١٣٨

الصلاة، والقسطلاني . وراجع "الفوائح" (١) و "تنوير الحوالك" (٢) مرفوعاً من كتاب عمرو بن حزم . و "المسند" (٣) . وإنما اختار لفظ "المسح" لأن الغسل على صرافة معناه ، وقد كان معمولاً عندهم في الوجه واليدين من قبل ، وليس تعبدياً بخلاف الرأس والرجلين ، فإنهما تعبديان ، فيناسب هناك لفظ يقرب الإصطلاح كالوضوء ، فيقال : تمسح بالماء اغتسل ، وللصلاة توضأ . قال أبو زيد : المسح في كلام العرب يكون مسحاً ، وهو إصابة الماء ، ويكون غسلًا ، يقال : مسحت يدي بالماء إذا غسلتها ، فهو كالألفاظ الشرعية المصطلحة عليها ، لأنه لم يكن مسح الرأس وغسل الرجلين معمولاً عندهم ، ولا يقال أن الاعتبار لمناطق الحكم لا لصورة اللفظ كما في "التحرير" (٤) ، لأنه قد يكون خلاف ذلك كما في "المسلم" (٥) وهو في "التحرير" (٦) . والغسل باب واحد . والمسح يخرج على وجوه من إزالة الأثر (والتبريك كما في «فسبح باسم ربك العظيم» ، «اجعلوها في ركوعكم» مع أن الأسماء الحسنى كثيرة ، ذكره في "نيل الأوطار" ، وكاختيار صاحب "الهداية" ، أستعيد بالله ، وراجع "المسند" (٧) ، وهو توسع واختصار) "على وجه ميسر من ملاحقة" ، راجع "المستقصى" (٨) ولا بد وذلك كلفظ الصلاة ، وفي "الفتح" من الوتر : واستحباب غسل الوجه واليدين لمن أراد النوم وهو محدث ، ولعله المراد بالوضوء للجنب (٩) .

- (١) ص - ٣٨٥ ج - ١ (٢) ص - ٢٠٤ (٣) ٢٢٣ و ٣٦٦ ج - ١
 (٤) ص - ٢٢٥ ج - ٣ (٥) ص - ٢١٨ و ٢٢٧ ج - ١
 (٦) ص - ٢٢٠ ج - ١ (٧) ص - ٧٨ ج - ١ (٨) ص - ٣٣١ ج - ١
 (٩) ص - ٣٣١ ج - ٣

٢- قوله تعالى : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » . وهو نحو قوله تعالى في " المائدة " : « قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم » ، ونحوه لا يرد على من قال : أن التحريف قد وقع في كتب العهد القديم والجديد ، لأن القرآن العزيز مهيمن على الكتب السابقة ، فما صدقه منها كالنبوات وأحكام الجنايات وغير ذلك فهو صادق ، وما كذبه منها كقولهم : عزير ابن الله ، والمسيح ابن الله فهو كاذب ، وما سكنت عنه نسكت عنه ، وكذا علمنا في الحديث . ثم لو قال تعالى : إيتوا بالحصّة الفلانية من " التوراة " لكان تطويلاً بلا طائل ولم يكن نافعاً في الإلزام ، إذ كانوا يقولون : يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ولو أعلن أنا لا نسميه "توراة" لمكان التحريف فيه لانسحب على كلها وهو خلاف الواقع ، فكان الأتفع الأخصر أن يلزموا بما كان صحيحاً من تلك الكتب ، ويكذبوا فيما حرفوا منها لا ترك أسمائها . وراجع " ذيل الفارق " (١) و " الفتح " (٢) و " هداية الحيارى " (٣) من هامش " الذيل " . والحاصل أن المراد : فأتوا بالتوراة من هذا المقام . وقال قبله في " المائدة " أيضاً : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديده من الكتاب ومهيماً عليه » ، ولعله لهذا جمعها البخارى في التفسير وفي ما نحن فيه ولا يريد جميعها ، واسمها يطلق على الكل والجزء كاسم القرآن فاعلمه . والواقع أنها إسم لكتاب الله الحق من جانبه لا للصحيفة الموجودة في أيديهم ، فكل موضع كان منها

حقاً استشهد به ، وما كان مدسوساً كشف حاله ، أو الكتاب نوع من علمه وكلامه تعالى لا الصحيفة ، كما ذكر في قوله تعالى : « وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب » أو المراد أحكامها بعضها ، كما ذكره في مقدمة « الحقاني » . والوجه في تعظيم « التوراة » حين أتى بها كالوجه في طواف عمرة القضاء مع كون الصور فيه ، وكتعظيم كتاب من الفنون الباطلة فيه آيات من القرآن ، لا كما زعمه صاحب « أنوار أحمدي » وعلى هذا فن استدلل على اطلاق الإبن بالكتب السابقة فقد أُلحِد . وراجع « الفتح » (١) و « الرسالة الأولى » من رسائل الحافظ ابن تيمية (٢) ، وراجع « الفتوحات » (٣) و « اليواقيت » (٤) و « روح المعاني » (٥) .

هذا ، وياليت شعري بمن يقدر في سويداء قلبه هذه المكابدة البالغة والتفقد الأقصى ، والتصفح الذي ينتهي إليه مقدرة البشر ويستوقف لديه مطايا الفكر ، فهل في النادية من يقع ذلك في قلبه موقعاً عظيماً ؟ وهل من مقسط يحكم بالعدل ؟ فكم من ليال بات فيها مسهداً لمشاهدة دقق الكواكب من سماء التحقيق ! وكم من ساعات أصبح فيها مضطرباً متمللاً لحل هذه العقدة ، واستقادة هذه الشوارد القاصية ، بتدقيق أنيق وحس مصيب ! فن لي بقلب ذكي حساس أحاطت به أضلاع حنية فيحس أنه كيف استخرجها من مدافنها ؟ وكيف أثارها من أماكنها ؟ وكيف نسقها ونضدها ؟ وأرجع كل شبه إلى موقعه الملائم ، فيا لجهود بشرى استغرق في بحار كلام الله جل شأنه وعظم برهانه ، فجزاه الله عنا وعن سائر المستفيدين خير ما يجازي عباده

(١) ص ٣٧٦ ج ٣ - (٢) ص ٨٠ - (٣) ص ٤٦١ ج ٣ - (٤) ص ١٠٥

(٥) ص ٦١٥ ج ١

المحسنين ، وصلى الله تعالى على خاتم النبيين وصفوة الخلائق سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ والحديث .

طالع رحمه الله من الحديث وما يلحق به ما تيسر له من كتب متون الحديث بعد الصحاح الستة من : "مسند الدارمي" و"مسند أحمد" و"منتقى ابن الجارود" و"مستدرك الحاكم" و"سنن الدار قطني" و"مصنف ابن أبي شيبة" و"مجمع الزوائد" للحافظ نور الدين الهيثمي و"جامع الصغير" للسيوطي و"كنز العمال" للشيخ العارف المحدث حسام الدين علي المتقي ، وما قدر له الله مطالعته من كتب الحديث من المطبوعات والمخطوطات في زوايا الهند وديار الحرمين مالا يعلمه إلا الله .

علا أني لم أورد الإحصاء والحصص ، ولو أريد حصر جميع ما وصل علمي إليه من سماعي عن الشيخ صراحة أو إشارة ، أو ثبت عندي من إلقائه وإملائه في الدروس ، أو الحوالة عليه في رسائله ومؤلفاته لضاق بنا النطاق ، وإنما أردنا إبراز جمل وقطع منتشرة تنظيراً وتمثيلاً ، ليكون للمشتاقين الغافلين عن هديه وهداية وبرهانا ودليلاً .

وطالع من شروح الحديث ما يربو عددها على مئتين . وقد طالع مما يتعلق به "الصحيح" للإمام البخاري فقط نحو ثلاثين شرحاً بين كبير ذي أجزاء ضخيمة وبين صغير وبين ناقص وكامل ومطبوع ومخطوط ، وفيها مثل "فتح الباري" في ثلاثة عشر جزءاً ، وجزء من مقدمته ، و"عمدة القاري" للحافظ العيني في أحد عشر جزءاً ، و"إرشاد الساري" للتسطلاني في عشرة أجزاء . وكان طالع "العمدة" في شهر رمضان من العام الذي أراد قراءة "الصحيح" على شيعته من شهر الشوال بـ "ديوبند" . ثم كان يطالع مع

درس الصحيح في عهد تعلمه "فتح الباري" درساً درساً ، وكانت مطالعته تجري مع الصحيح سواء بسواء ، بل قد كان يسبق مطالعة "الفتح" على درس الصحيح بكثير ، وسمعت من الشيخ رحمه الله نفسه : أني مرضت في تلك الأيام سبعة عشر يوماً ولكن لما حضرت في الدرس رأيت أنه لم يصل الدرس إلى موضع بلغت إليه مطالعتي . وكان طالع "الصحيح" للإمام البخاري ثلاث عشرة مرة مثله من غير أن يلاحظ ما بين السطور وما في الهوامش ، فكان يطلع كل مرة على علوم وحقائق لم تخطر بباله في المرة السابقة ، وكان يحسب كل مرة أن نفدت دقائقه ومزاياه ، وكانت ما لها من نفاذ ، حتى عجز عن استنباط حقائقه محصاة محصورة ، إذ كان بحيث تفتح عليه كل مرة أبواب علم ومعرفة ما لم تفتح سابقاً ، كان يقول رحمه الله : فكأنه (أى "صحيح البخاري") كانت عيناً ثائرة من المعارف والعلوم تنبع منها ساعة فساعة ، فتركته إذ أبيست عن نفاذها ، فسبحان الله ذى الآلاء يعطى ما يشاء لمن يشاء ، فجري المذكيات غلاء ، وقطعت جهيرة قول كل خطيب . والله در القائل :

لاتحسب المجد تماًراً أنت تأكله * لن تلحق المجد حتى تلحق الصبراً

وكان يثنى كثيراً على "شرح الحافظ ابن حجر" ويفضله على سائر الشروح على "الصحيح" للحفاظ المتقنين من الحنفية والشافعية ، وكان يقول له : حافظ الدنيا ، وهذا اللفظ اشتهر اليوم بالسنة الطلبة والمدرسين ، وكان تعجبه سعة اطلاعه ، ثم تناسق كلماته ونظام تحريره واتقان صناعته ، ومع سعة اطلاعه وتبحره المحير للأنظار يتعقب عليه بأمور لا تحصر مما يتعلق بالرواية ، ويستدرك عليه أشياء نفيسة في أكثر المباحث ، ثم قد يتعجب من ذهوله

وغفلته في بعض المواضع ، وربما يقول : ههنا شيء كذا وكذا لم يذكره الحافظ في "الفتح" ، وتنبه له في "التلخيص الحبير" فقال كذا. وكذا ، أو يقول : تنبه له في "تهذيب التهذيب" في ترجمة فلان . وهكذا كان صنيعة في الدرس والتأليف ما تحار له العقول والأفهام ، ولكن كان يشكو ويشتكى منه صنيعة في اعتصام مذهبه في كل صحيح وخطأ ، والتزام إحقاق رأى الشافعية في كل مقام ، وكان يستنكره من جلالة قدره ونباهة أمره ، وهذا مع أنه ينكر في مواضع على الحافظ البدر العيني بأنه لم يصب في الرد على الحافظ ، حتى إنه رأى في المنام فيما يراه النائم الحافظ البدر العيني فشكا إليه صنيعة مع الحافظ ابن حجر وقال : لم تنتفع الأمة بصنيعك هذا مع الحافظ . ولفظه :

"آپ کے اس طرز سے امت کو کچھ نفع نہیں پہنچا" .

فأجابه الشيخ العيني بأن سل عن الحافظ (ابن حجر) أولاً : لماذا اختار صنيعة ذلك ؟ يعني أنا الدافع وهو البادي ، فقال الشيخ : فسكت إذن ، وكان يجيب الحافظ في المواضع التي لم يقدر الشيخ العيني على الجواب ، أو لم يوف حق الإيفاء ؟ وكان يقول : الحنفى لا يستغنى عن "العمدة" . وكان يقول : إنه يأتي بغرر النقول من كتب القدماء ما تقر به الأعين . وكان يقول : إن المجلدات الأولى تحتوى على علوم وحقائق ومزايا لا توجد في أى شرح . وكان يقول : لم يقدر عالم على أن يأتي من عنده بشيء جيد نفيس ، فليأت بنقول من كتب أعيان الأمة مثل ما يفعله البدر العيني .

خصائصه ومميزاته في شرح الأحاديث التي تتعلق بمسائل مذاهب الأئمة وغيرها

اعلم أن للشيخ رحمه الله مميزات بديعة وخصائص فائقة في شرح النصوص التي تتعلق بالمذهب من "القرآن" والسنة ، تدل على تغلغل الشيخ في دقائق الكلام ، وغوصه في المزايا اللطيفة ما يكفي على براعة هذا الشيخ البارع للمتبصر الخاذق والمتفكر الماهر الخبير بعلوم المشايخ الغابرين والسلف الصالح رحمهم الله تعالى برهاناً وإيقاناً ، ذوقاً ووجداناً ، نومض إليها إيماضاً بالارتجال والله المؤفق .

١- منها : أنه كان حماداه وجل مسعاه في مثل هذه النصوص التي يعتصم بعراها أهل كل مذهب من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية أن يطلع أولاً على غرض الشارع منها وتعيين محط الكلام وتحقيقه ثم تنقيح مناطه وتخرجه غير محتفل بعدم وفاقها مع المذهب الحنفى ، فلم يكن صنيعه كعمامة علماء العصر بأن ينفذ وسعده ويستفرغ جهده في توفيقه مع المذهب ويأول فيه تأويلاً وإن لم يساعده صرافة نظم الكلام ، وخرج عن حاق اللغة ، بل كان التأويل عنده غير جائز بحيث يخرج عما يتبادر إليه الطبع السليم ، فكان ينزل نظم القرآن وسياق الحديث بأعلى ما ينزل عليه من الفصاحة والبلاغة ، ويتفقد له محملاً صحيحاً يقتضيه سوق الكلام وأصل اللغة ، ولا يقدر فيها تقديرات ، فإن ذلك كان ينزلها عن السذاجة الفطرية والبلاغة المعنوية ، نعم لو لم يوافق المذهب الحنفى الحديث فإن وجد في الباب ما كانت للمذهب مسكة وعروة بغيره فكان يستدل به بالمعارضة ، وإن كان هنا عنده شرح لطيف فيشرحه به بحيث تبقى على صرافة اللغة وحوار العربية . وهاك نهضة من أمثله حتى يتضح المقصود وينكشف الغطاء ويبدى الصريح عن الرغبة :

المثال الأول : أول حديث في "صحيح البخارى" حديث النية ،

قال صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات الخ » ، طال فيه نزاع القوم وكثر فيه الشغب بين الحنفية والشافعية ما هو مشهور ، حتى إن الحافظ البدر العيني في "العمدة" حبر أوراقاً كثيرةً تأييداً لمذهبه ، فقال الشيخ رحمه الله : إن كل ذلك تكلفات لم يردّها الشارع ، وجميع ما سطره وحبروه بمعزل عن غرض الشارع ، ومراده الصحيح المنقح : أن اعتبار الأعمال عند الله بحسب النيات والعزائم القلبية ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، يعنى إن صورة أعمال الخير تعتبر إذا كانت من نية خالصة وقلب سليم ، فالعمل الصالح في الظاهر إذا لم يرد به صاحبه وجه الله كالعلم أراد به صاحبه المماهة والمراء ، أو الجهاد أراد صاحبه إظهار شجاعته وبسالته أو محض الغنيمة ، أو الإنفاق أراد صاحبه رياء الناس ، فلا عبرة لها ، بل قد حبط كل ذلك عند الله ، فليس له أجرها ، بل عليه وزرها ، ويتفاوت مراتب الاعتبار بتفاوت مراتب النية قوةً وضعفاً وخلوصاً وغشاً ، فهذا لا تعلق له بمحل النزاع ومورد الجدل من تقدير الصحة أو الثواب ثم التفريعات عليه . ثم كان يبدى الشيخ ههنا في شرحه نكات لطيفة ومباحث شريفة ليس هذا موضع بيانها .

المثال الثانى : قوله صلى الله عليه وسلم : « المستحاضة تتوضأ لكل صلاة »

فاستدل به الشافعية أن المستحاضة يجب عليها الوضوء لكل صلاة ، والحنفية قالوا بالوضوء عليها لوقت كل صلاة ، واختاروا أن "اللام" للوقت ، ويؤيده رواية في "مغنى ابن قدامة" ، ولكن كان للشوافع فيه مساغ بأن يقولوا : المراد من الوقت الساعة التى تشغلها الصلاة ، لا مطلق الوقت الذى هو ظرف للصلاة ، فلذا أجاب الشيخ جواباً نفيساً ، وشرح الحديث شرحاً لطيفاً ، وقال : الغرض من الصلاة هنا وقتها ، وإنما سمي الشارع وقتها بإسم

الصلاة لأجل تسمية الأوقات بأسماء الصلوات حسبما جرت به عادة أهل العرف ، فلا حاجة إلى التقدير في نظم الكلام ، وصار التعبير أفصح ما يكون ، وبقي مراد الحنفية على حاله ، وأصبح الحديث لهم دليلاً واضحاً .

المثال الثالث : من التنزيل العزيز قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة » الآية ، فعامة أهل التفسير من العلماء لما رأوا أن الوضوء غير واجب على غير المحدث فلا يستقيم الأمر مطلقاً لكل أحد فقالوا بالتقدير في نظم الآية الكريمة ، وصدعوا بأن المراد : إذا قمتم إلى الصلاة وأنتم محدثون الخ . فقال الشيخ رحمه الله : القول بالتقدير في نظم الآية مما يفضى إلى انحطاط النظم القرآني عن البلاغة التي بلغ هو إلى ذروتها العلياء والغاية القصوى ، بحيث ليس فوقها غاية للمتطلب ، فلو قلنا بالتقدير فيها وزعمنا أن المعنى لا يستقيم بدونه لانجر هذا إلى القول بقصور التعبير القرآني في تأدية المعنى المراد ، وذلك عوار بين في الكلام البليغ ، وكيف بالذكر الحكيم الذي لا مطمح للعقول وراء فصاحته ، ولا مطمح للبلغاء في الوصول إلى أدنى مرتبته ، بل المراد عندى الأمر بالوضوء لكل أحد مطلقاً ، ثم يختلف مراتب هذا الأمر بحال المأمور المكلف ، فإن كان المأمور محدثاً فلا جرم يجب عليه الطهور ، وإن كان غير محدث فاستحب له ، وكيف كان هو مأمور على كل حال ، واختلف مراتب الأمر باختلاف أحواله ، فليس هذا قول بعموم المشترك وإن كان سائغاً عند الإمام الشافعي ، ولا قول بعموم المجاز كما جوزة الحنفية ، ولا قول بالتقدير ولا حكم بالتأويل ، فاعتبره ترشد إلى الحق إن شاء الله تعالى . وسيأتى لذلك تحقيق وبسط في فوائد الشيخ رحمه الله .

المثال الرابع : قوله ﷺ : « من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر » . واختلاف الأئمة فيه مشهور شائع في الزبر . قال الشيخ رحمه الله : غرض

الشارع منه توبيخ وتهديد ، فكأنه كفر صورة إذ لم يبق بينه وبين الكفر فرق ، وبين العبد وبين الكفر الصلاة ، فحكم الشارع بكفره زجراً له . وتوبيخاً وتقريراً له على ارتكاب هذا الفعل الشنيع ، لا أنه كفر في الواقع ، فإن الشريعة ناطقة على الأمور التي عليها مدار الإيمان ومناطق التصديق والإذعان ، فلو أولنا حكمه الصريح بتقدير الاستحلال لفات غرض الشارع من التهيب والتهديد المطلوب ، ولو أبقيناه على الظاهر من غير إبداء هذه النكتة البديعة لبطل ما صدعت به النصوص الكثيرة والأدلة المتظاهرة . هذا توضيح غرض الشيخ فيما أرى والله أعلم . وناهيك بهذه الأمثلة والنظائر إيضاح المرام .

٢- وهنـها : أنه كان رحمه الله لا يعتد بعموم العبارات والمدلولات اللغوية ، فكان يدير مناط الكلام على الأغراض لا الألفاظ ، فكان لا يجيب الشافعية من جانب الحنفية بالعمومات في مقابلة الخصوص ، فإن العام عنده ظني كما هو عند الشافعية وطائفة من محققي الحنفية ، فكان لا يستحسن العام في مقابلة الخاص .

وقال رحمه الله في "نيل الفرقدين" (١) : "والوجه أن العمل بالعمومات والاطلاقات إنما ينبغي حيث لا يكون لخصوص النوع عدة من الدليل ، وإذا كان لنوع منضبط عدة من الدليل في خصوصه فلا ينبغي هناك أن يترك الخصوص لعموم" .

وأيضاً قال : والرجوع إلى العموم عند فقد الخصوص قد استنبط مما قاله النبي ﷺ للسائل في زكاة الحمر ، ومع هذا فقد يعذر من عمل بالعام مع وجود الخصوص ، كما وقع لبعض الصحابة في ترك الصلاة عند ذهاب إلى بني قريظة ، ولم يكن ينشأ احتمالاً محضاً في النص للرد عليهم بحيث يرده

الطبع السليم ويمججه الذوق الصحيح ، فإن ذلك عنده كان شنيعاً جداً ، وكان يقول : غرض المتكلم إما أن يكون أعم من المنطوق والمدلول المطابق أو أخص أو مساوياً ، فكان يحمله على محمل صحيح يوافق الغرض المسوق له الكلام .

وهنهما : إنه إذا تكون في مسألة روايتان على الإمام أبي حنيفة رحمه الله (١) أو قولان من المشائخ الحنفية ، كان يختار منهما ما يوافق الحديث الصريح الصحيح من غير تكلف وتأول ، وربما كان هو من النوادر ، فإن لم يكن في الباب حديث صريح ، أو كان الأمر دائراً في البين يرجح ما يوافق مذهباً آخر من المذاهب الأربعة ، ولعله كان المقدم حينئذٍ مذهب الشافعي ثم مالك رحمه الله فيما أرى والله أعلم ، فإن لم يكن لذلك مساغ كان يجتهد ويسعى في تقريب المذهب إليه ليرتفع أمر الخلاف رأساً ، أو يهون أمره ويخفف وقره ، وهذا خلاف صنيع أكثر علماء العهد الغابر والعصر الحاضر ، فإنهم يشمرون عن ساعد الهمة للنزاع ويقومون للجدال ، ويأخذون عند الاختلاف ما كان أبعد كل البعد من أقوال المذاهب الأخر ، ثم يضطرون إلى التكاليف الباردة التي لا مساغ لها في الباب ، ويضربون في الحديد البارد ، فيصبح الفريقان على طرفي النقيضين ، نعم المعتبرون في كل عصر تكون ثلة ، والمتبصرون أقل عدداً ، "وخالات الناس بالدهناء قليلة" . ولقد صدق السموأل حيث قال :

تغيرنا أنا قليل عديدنا * فقلت لها : إن الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياها مثلنا * شباب تسامت للعلی وكهول
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم * وليس سواء عالم وجهول

(١) ومن مصطلحات الشيخ رحمه الله إذا كانت المسألة مأثورة عن الإمام سماها : "الرواية" ، وإذا كانت من المشائخ سماها : "قولا" ، ولذا قد راعيت تعبيره في الإفصاح . منه .

ودونك أمثلة مختصرة ليتضح المقصود اتضحاً ، والله المستعان :

المثال الأول : إنه اختلف العلماء في تثليث المسح كتثليث الأعضاء المغسولة ، فأثبتته الشافعية ونفاه الحنفية ، ثم قال الشوافع : إنه سنة كتثليث غسل سائر الأعضاء . ومن الحنفية من قال بكونه مكروهاً ، كما في ” المحيط ” و ” البدائع ” ؛ وقال بعضهم : إنه بدعة ، كما في ” الخلاصة ” ؛ وقال بعضهم : ليس مكروهاً ولا سنة ولا أدباً ، كما في ” الفتاوى الحانية ” ؛ ورجحه في ” البحر الرائق ” ، حكاه الطحطاوى في ” شرح مرقى الفلاح ” ؛ فقال الشيخ رحمه الله : روى حسن بن زياد عن الإمام : أنه مستحب ، فاختار هذا لا ما ذكره ..

المثال الثاني : إن الترجيع في الأذان كرهه عامة الحنفية ، وذهب الشافعية إلى سننيتها . قال : والمختار عندى الجواز من غير كراهة ، وإنما هو مرجوح لما قامت عنده دلائل من السنة والآثار وغيرها ، ليس هذا موضع إحصاءها .

المثال الثالث : قوله تعالى : « أو لامستم النساء » الآية . اختار الحنفية أن الملامسة بمعنى الجماع فيوجب الغسل ، وذهب الشافعية إلى أنها بمعنى المس واللمس فيوجب الوضوء عندهم ، وهو عند الحنفية غير ناقض للوضوء . فقال الشيخ رحمه الله : الشافعية وإن أخذوا منها اللمس ولكن قيدوه ببعض القيود والشرائط ولم يذروه مطلقاً ، فقليل : إن هذا إذا كان بشهوة ، وقيل : إذا كان بغير ظهر الكف أو بلا حائل إلى غير ذلك ، فلنا أيضاً أن نخصص مراده ببعض الماصدقات ، فقال رحمه الله : المختار عندى أنها بمعنى المباشرة الفاحشة ، فيجب الوضوء على كلا المذهبين ، فارتقى رحمه الله درجة

من مسلك الشافعية ونزل درجة من مختار الحنفية ، واختار حداً مشتركاً بين المذهبين ليرتفع الخلاف بين البين . وقال : ثم يندمج . عندى فى المباشرة الفاحشة الجماع والملازمة بالمباشرة الفاحشة ، فالمباشرة أعم منهما ، فى الأولى الغسل ، وفى الثانية الوضوء ، وليس هذا اشتراكاً ، وإنما هو قريب من عموم المجاز ونوع مستقل ، قال به الشيخ . وسيمر بك بعض تفصيله فى ضمن فوائد الشيخ رحمه الله فارتقبه .

٤ - وفتها : إنه إذا ثبت أمر فى حديث وكان ظاهر الرواية مخالفاً له استمسكاً واحتجاجاً بحديث آخر ، فن عادات عامة المشايخ الحنفية أنهم لا يجوزون العمل به فى مرتبة من المراتب ، وكان الشيخ رحمه الله يجوز العمل به فى مرتبة خلاف الأولى . ومن أمثله : الترجيع فى الأذان ، والجهر بالتأمين ، والإسرار به ، والفاتحة خلف الإمام للمؤتم فى السرية ، ورفع اليدين عند الركوع والقيام عنه ، وما شاكلها ، كل ذلك كان جائزاً عنده ولكنه كان خلاف الأولى . قال الشيخ رحمه الله : كنت رأيت فى ” البدائع ” أن رفع اليدين فى غير التحريمة مكروه تحريماً — كما يشهد به سياقه من غير خفاء — فكان فى قلبى منه شئ ، وكنت أتمنى أن أفوز بنقل من الأكابر خلافه حتى رأيت بعد خمس وعشرين حجة أن الإمام أبا بكر الرازى الجصاص صرح فى ” أحكام القرآن ” فى ضمن بحث استطراداً من مسائل رؤية الهلال : أن الخلاف فيه فى الأولوية ، فبرد غليل صدرى وسكن جأشى . ولفظ الشيخ رحمه الله :

”حق تعالى جزاء خير دے دل ٹھنڈا کر دیا“

وقال : ثم رأيت فى نقول آخر من الأكابر أن الخلاف فى سائر المذكورات

في الأولوية . فذكر الشيخ البدر العيني في "مباني الأخبار شرح معاني الآثار" (مخطوط) عن أبي عمر صاحب "التمهيد" : أن الاختلاف في التبشيد وفي الأذان والإقامة وعدد التكبير على الجنائز وعدد التكبير في العيدين ورفع الأيدي عند الركوع والرفع في الصلاة ونحو ذلك كله اختلاف في مباح آه . قال الشيخ رحمه الله : ومثله ذكر الحافظ ابن تيمية في "فتاواه" و"منهاج السنة" ، وابن القيم في "الهدى" . وربما كان يقيم الشيخ المراتب في شيء تشديداً وتخفيفاً ، فيحمل كل حديث على محمله . مثاله : مسألة العورة ، هل الركبة من العورة أو ليست منها ؟ والخلاف فيها مشهور . فقال الشيخ رحمه الله : الركبة عورة في نظر الشريعة ولكنها أخف من الفخذ ، ثم الفخذ أشد منه ، فكشفه يكون أشنع وأقبح من كشف الركبة ، ثم ما فوق الفخذ أغلظ منه فيتحمل كشف الركبة في بعض المواضع لا ما فوقها ، فهكذا كان يطبق في الأخبار .

٥. وهنهما : إذا وردت روايات عديدة من الإمام في مسألة ولم يرجح أحد منها عنده بدليل قوى وبرهان بين فكان يوفق بين سائر روايات الإمام كما يوفقون في روايات النصوص المتعارضة إذا لم يعلم بينها التقدم والتأخر ، نعم هناك مسالك ، قيل : بتقديم الترجيح ، وقيل : بتقديم الجمع ، كما في "التحرير" للشيخ العارف المحقق ابن الهمام . ثم بالنسخ ، كما تقرر في موضعه .

مثاله : قال الشيخ رحمه الله — فيما ألقاه علينا في درس "الموطأ" لمالك ، وفيما أملاه على الطلبة في درس "الجامع الترمذي" — : اختلفت الروايات عن أبي حنيفة رحمه الله في وقت الظهر على أربعة وجوه :

الأول : ما ذكره أصحاب المتون من الفقه الحنفي : أن آخر وقت الظهر إلى

المثلين ، يعنى إلى أن يصير ظل كل شئ مثليه سوى في الزوال ، وذهب صاحب "النهاية" شارح "الهداية" إلى : أنها ظاهر الرواية ، وتبعه ابن عابدين الشامي في "رد المحتار" . وقال الشيخ رحمه الله : هذا غير صحيح ، إذ صرح صاحب "البدائع" بأن آخر وقت الظهر ليس في ظاهر الرواية ، والعبرة "للبدائع" ، وكيف يصح فإن لم أجده في "الجامع الصغير" و"الكبير" ، ولا "الزيادات" و"المبسوط" من كتب محمد رحمه الله . هلا أنه قد صرح شمس الأئمة في "مبسوطه" بأن محمد رحمه الله لم يذكره في "مبسوطه" .

الثاني : إن وقت الظهر إلى المثل الأول فقط ، وبعده وقت العصر ، وعزى هذا في عامة كتب الفقه الحنفى إلى حسن بن زياد عن أبى حنيفة ، وعزاه شمس الأئمة إلى محمد بن الحسن رحمه الله .

الثالث : إن وقت الظهر ينتهى بانقضاء المثل الأول ، ثم العصر من الثالث ، والمثل الثانى مهمل ، وعزوه إلى أسد بن عمرو .

الرابع : إن وقت الظهر إلى المثل الأول فصاعداً ما لم يصل إلى المثلين ، ومتى وصل الظل إلى المثلين دخل وقت العصر ، حكاه الشيخ البدر العيني في "شرح الصحيح" ، وصححه الإمام الكرخي .

فقال الشيخ رحمه الله : قد تنقح عندي بعد تنقيب وبحث تام أن المثل الأول مختص بالظهر ، والثالث بالعصر ، والثاني مشترك بينهما (١) واشترك الوقت ثبت عن بعض السلف أيضاً ، كما حكاه الطحاوى ، وكذا ثبت عن مالك والشافعى وأحمد رحمهم الله في عدة صور ، وههنا تفصيل لا يسعه المقام ، وذكر نبذ منه في "العرف الشدى" من شاء فليراجع (٢) .

(١) وهذا عين ما ذكره ابو عمر في "التمهيد" ، وكأنه هو . منه .

(٢) قد استوفيت هذا البحث وامثاله من الابحاث في "معارف السنن" في شرح "جامع الترمذى" فليراجع . منه .

٦- ومنها : إنه ربما كان يختار في شرح الحديث شرح الشافعية أو ما يقرب منه ، ثم كان يجيبهم عن الحنفية ليكون الجواب أوكد وأقوى ، ويكون ألزم لهم ، وهذا بخلاف دأب عامة علماء الأحناف ، فإنهم يختارون لأجل التفريعات على شرحهم نقيض ما اختاروا في شرحهم .

هــالله : قوله ﷺ في زكاة الإبل والغنم : « ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع مخافة الصدقة » ، هل المراد من هذا الجمع في الحديث الخلطة في الجوار فقط — أى الإتحاد في المسرح والمراح والم حلب وغيرها — أو المقصود خلطة الشيوع ؟ — أى الإشتراك في الملك — فذهب الشافعى ومالك وأحمد إلى الأول ، وأبو حنيفة والبخارى وابن حزم إلى الثانى ، فخلطة الجوار مؤثرة في الحكم عندهم لا عندنا .

فقال الشيخ رحمه الله : المراد عندى ههنا الأول ، لا كما قاله الشيخ ابن الهمام وغيره : أن المراد الثانى . والغرض من النهى : أنه أمر لغو لا يجديهم شيئاً ، فإنها غير مؤثرة لا أنها مؤثرة ، فمنعهم لذلك . قال الشيخ رحمه الله : ومما يدل على ذلك ويستأنس به قوله ﷺ بعده : « وما كان من خليطين فيتراجعان بالسوية » ، فالمراد من الخلطة في هذه العبارة خلطة الشيوع ، ولعل الشارع غير أسلوب التعبير لهذه النكتة ، فعبر عن خلطة الجوار بقوله : « ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع » ، وعن خلطة الشيوع بقوله : « وما كان من الخليطين » ، وسماها خليطين ، ولعل هذا التعبير يرشدك إلى ما أردناه إن شاء الله تعالى .

وأيضاً من أمثله : أنه اختلف الحجازيون والعراقيون في حرم "المدينة" ، فأثبتـه الحجازيون وأنكره العراقيون ، ثم جعل الفريق الأول حكم حرم المدينة كحرم مكة سواء بسواء ، فقال الشيخ : قد نطقت الأحاديث بحرم

المدينة ، فإنكاره مما لا يليق ، ولكن أحكام الحرمين غير سواسية ، فلهجرح مكة من الأحكام ما ليس لحرم المدينة ، والتفصيل لا يحتمله المقام .

٧- هـ : إنه كان رحمه الله لا ينيط شرح الأحاديث المشكلة أو المتعارضة على لفظ واحد أو طريق واحد ، بل كان يتفقد جميع ألفاظه المروية ويتوخى فيها لفظ الشارع عليه السلام ، فإن الرواية بالمعنى شائعة في الأحاديث ، وإنكارها مكابرة جلية ، وكـ من أحاديث في " صحيح البخارى " نجده لألفاظها روعة وبهاء وفصاحة تدل على أنها من كلمات من أوتي جوامع الكلم ، ومن هو أفصح من نطق بالضاد ، ثم هذه الأحاديث نفسها إذا رويت في السنن لم يبق لها تلك الروعة ولا ذاك الجمال مثل ما كان لها حين رويت بلفظ " الصحيح " للبخارى أو مسلم ، كل ذلك لإتقان رواة " الصحيحين " . فكلما كان الراوى أتقن وأحفظ كانت الطلاوة في لفظه أكثر ، فالأحاديث المشتركة في الصحيحين والسنن تفاوتت بالفصاحة والنصاعة تفاوتاً بيناً ، وامتازت من بينها امتيازاً جلياً ، بل قد تتفاوتت الفصاحة في " صحيح البخارى " و " الصحيح " لمسلم ، وقد أرشدنا إلى ذلك شيخنا رحمه الله ، وكـ من اختلافات المذاهب نشأت هكذا من إناطة كل فريق مذهبه على لفظ خاص وطريق خاص . فكان الشيخ رحمه الله يجمع سائر الألفاظ المختلفة من طرق شتى ، ثم كان يشرح الحديث شرحاً لطيفاً تنشرح منه الصدور وتطمئن به القلوب .

هـ : قوله ﷺ : « من أدرك من الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس فقد أدرك الصبح الخ » اختلف الأئمة والعلماء في مراده الصحيح ، فذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعى وأحمد إلى أن هذا خاص بالمعذور كالنائم وغيره ، وأنه لا تفسد الصلاة بطلوع الشمس وغروبها في أثناءها . واضطربت فيه أقوال الحنفية من المحدثين والأصوليين ، كما هو مشهور في الشروح لفقهاءنا

الحنفية . فقال الشيخ رحمه الله : إن ما ذنب إليه الأئمة الثلاثة فمشكل ، فإنه لا قرينة على تخصيص الحديث بالمعذور قط ، وما أجاب به الحنفية فلا يشفي الغلة . والذي يظهر لي أن الحديث صدع بمسألة الجعاعة لا الأوقات ، فايحمل على المسبوق . وبدل عليه أن الحديث روى بطرف في مواضع :

الأول : ما رواه مسلم في " صحيحه " عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » ، وفي طريق آخر له بلفظ : « من أدرك ركعة من الصلاة مع الإمام الخ » ، فهذا صريح في أنه أراد به المسبوق .

الثاني : ما رواه أبو داؤد في " سننه " بلفظ : « من أدرك الركعة فقد أدرك الصلاة » ، وصححه ابن خزيمة .

الثالث : ما رواه النسائي في " سننه " بلفظ : « من أدرك ركعة من الجمعة الخ » .

الرابع : ما ذكر أولاً ، أخرجه الترمذي بذلك اللفظ . وقد اتفقوا في المواضع الثلاثة أنه في حق المسبوق ، فليكن في هذا الموضع الرابع أيضاً في حق المسبوق ، ثم كان الشيخ رحمه الله يبين تخصيص الصبح والعصر في ذلك الحديث ، وكانت له على ذلك المحمل شواهد وقرائن لا يتحمل المقام ذكرها (١) . وكان الحافظ ابن حجر رحمه الله استدلل لذلك الحديث تأييداً لمرادهم بحديث عزرة بن تميم عن أبي هريرة مرفوعاً : « إذا صلى أحدكم ركعة من الصبح ثم طلعت الشمس فليصل إليها أخرى » ، وعزاه إلى النسائي في " الكبرى " . فقال الشيخ رحمه الله : قدسها الحافظ في بيان مراده ، وهذا حديث واحد قد روى بطرق كثيرة تزيد على عشرين طريقاً ، واختلفت

(١) ومن أراد استيفاء البحث فليراجع الى " معارف السنن " من تأليف الفقير الى الله تعالى البنوري يجد هناك ما يشفي الغليل ، وبالله التوفيق . منه .

الفاظه . فخمس منها في "مسند أحمد"، وخمس منها في "سنن الدارقطني"، وثلاث في "سنن البيهقي"، وطريقان في "صحيح ابن حبان"، وطريقان في "المستدرک"، وطريق عند النسائي في "الكبرى"، وطريق عند الطحاوي، وطريق عند الترمذي، وطريق في "طبقات الحافظ شمس الدين الذهبي". ومدار الكل على قتادة، وتبين عندى بعد الفحص البالغ والتتبع الكثير: أن الحديث يتعلق بسنة الفجر، فمن لم يدرك وقتها قبل طلوع الشمس فليصلها بعد طلوعها، ولفظ عزرة بن تميم عن أبي هريرة لا يوفي المقصود، وفيه شيء ولم يتنبه له الحافظ في "الفتح" وتنبه له في "تهذيب التهذيب" في ترجمة: عزرة بن تميم (١)، فقدح في رواية تميم بتفرد قتادة عنه، يريد أنه لم يخرج به هذا اللفظ عن تميم غيره ولم يتابعه أحد، فرواية قتادة عن تميم غير محفوظة عنده.

وهذه: إنه كان يعنى كثيراً بأن لا نضطر إلى تخصيص المورد من حكم النص وإن كان مدار الحكم على التعليل على سبيل الطرد والدوران، لئلا يلغو حكم النص في بادي الرأي، وأما جمهور شراح الحديث من الحنفية لا يختلفون به مهما كان التعليل على الدوران، فكان الشيخ رحمه الله إذا تيسر له مرجح من رواية نادرة من الإمام أو قول من أحد من أصحابه وإن كان غير معروف بينهم وغير متوارث فيهم يستمسك به في مثل هذه المواضع وإن كان العمل به في مرتبة من المراتب. مثاله: قوله تعالى: «فلا يقربوا المسجد الحرام» الآية. اختلف الأئمة في دخول الكافر المسجد على ثلاثة أقوال: أجازة الإمام الشافعي في غير المسجد الحرام، ومنعه مالك في المسجد الحرام وغيره سواء بسواء، وجوزه الحنفية فيه، وبالأولى في غيره اعتباراً

بالتعليل ، وإذ ليس فليس . فقال الشيخ رحمه الله تعالى : قال محمد رحمه الله في " السير الكبير " : لا يجوز دخول المشرك في المسجد الحرام ، فليستمسك ههنا بقول محمد رحمه الله ، فإنه ألصق بالقرآن ، وأقرب إلى مذهب مالك ، وأوفق بمذهب الشافعي .

٩- ومنها : إنه كان لا يدير حكم الحديث على حال الرواة فقط ، فإن ذلك ليس له كثير اعتبار ، فأهل كل مذهب يهدمون حجج أهل المذهب الآخر بجرح الرواة ويحملون به الطرف المقابل ، وإن الحرب بينهم سيال ، ومن ذا الذي نجا من رواية الحديث عن جرح وتعديل ، فلو كان المدار على هذا القدر لأشكل على أهل كل مذهب إثبات مقصودهم ، ولضاق عليهم نطاق الاستدلال ، فلذا كان الشيخ رحمه الله لا يكثُر في بحث الأدلة هذا القليل والقال ، وقد قال رحمه الله في أول رسالته " نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين " : ولم أكثر من نقل كلامهم في الرجال وما فيه من كثرة القيل والقال ، لأنه ليس له عندي كبير ميزان في الاعتدال ، وبعضهم يسكت عند الوفاق ويجرح عند الخلاف ، وإذا دعيت نزال ، وهذا صنيع لا يشفي ولا يكفي ، وإنما هو سبيل الجدل إلى آخر ما قال رحمه الله .

وقال في رسالته هذه (١) : والناس فيه (أى في عد مواضع الرفع) على آرائهم يتعللون في ما لم يأخذوا به ويناضلون عما أخذوا به ، والذي ينبغي أن يعتقد فيه أن ما صح سنده اصطلاحاً ثم وجد عمل بعض السلف به فهو صحيح في الواقع لا يسمع فيه إعلال وتعلل ، كما يفعلُه الناس من النقد عند الخلاف والمساخطة عند الوفاق آه .

وقال رحمه الله في " فصل الخطاب " : وبعضهم يأخذ الخصم بالاحتياط .

(١) "نيل الفرقدين" ص - ١٣٥ و ١٣٦ .

ويحاسبه بالنكير والقطمير ، فإذا جاء وقت قضائه أخذ بالسخاوة والسباحة ،
فيما كس في الاقتضاء ويسامح في القضاء ، وهو أيضاً سمج من المعاملة اهـ .
فله دره ما أنفذ نظره ! وما أعدل فكره ! .

٥ = وهنوها : إن الشيخ رحمه الله كان يعتنى أشد اعتناء في إفصاح
منشأ ما وقع بين الأمة من الاختلاف البين في الأعمال التي جرى التعامل
بها متوارثاً في الأمة على رؤس الأشهاد . مثاله : مسألة رفع اليدين وتعيين
مواضعه ، ومسألة الوتر وتعيين ركعاته ، ومسألة صلاة الجمعة وشروط
أدائها ، وماشاكلها . فهذه عبادات توارثت في الأمة ، وشاع بها التعامل
من عهد النبوة ثم وثم إلى عهدنا هذا ، فتتضي كل يوم أو كل أسبوع مرة أو
مرات على أعين الناس وعلى رؤس الأشهاد ، فكيف اختلفت فيها الأمة
سلفاً وخلفاً قديماً وحديثاً ، وكيف تشعبت آرائهم ، وكيف تطرق إليها
الاحتمالات البعيدة مع كونها مشاهدة محسوسة عياناً ، ولم لم تنفصم عراها ؟
فقال إمام : رفع اليدين عند التحريمة فقط ، وقال آخر : وكذا عند الركوع
وبعده . وقال إمام : الوتر ركعة وثلاث وخمس إلى تسع ، وقال آخر : ثلاث
لا تزيد ولا تنقص . قال إمام : الجمعة لا تصح إلا في المصر ، وقال آخر :
تصح سواء كانت في الأمصار أو القرى سواء بسواء . فكان الشيخ رحمه الله
يعتني في انفصام هذا الاختلاف المدهش ويقربه إلى أذهان العامة حتى يعرف
ويعلم كل أحد أنه لم يكن بد من هذه الاختلافات ولم يكن محيص عنها ،
وأن أصحاب المذاهب معذرون فيها ، وهذا أمر مهم جداً ، وكيف لا ؟ فلو
لم يكن عنها مخاصم لأفضى إلى سوء الظن بالتعامل والتوارث ، وإنه أقوى
حجة في الباب ، فانهدام ما بني عليه أساس الملة ضرر عظيم في الدين ،

فوضع لذلك رسائله حتى بين الصبح لذي عينين ، وحصحص الحق لكل هين ولين ، وانجاب ما حدث في البين ، ولكن الأسف كل الأسف أنه لم يتم ما أراده في الجمعة ، فحال قضاء الله دون الأمانى ، فتوفى الشيخ وبقيت الرسالة بتراء ناقصة . ع :

وكم حسرات فى بطون المقابر

فهذه عشر خصائص للشيخ رحمه الله تنقحت عندي بارتجال واستعجال من غير تنقيب رسائله والمراجعة إلى أماليه ومذكراته ، فخذها تلك عشرة كاملة .

فهذا ما تيسر لى من إحصاء آدابه وعاداته فى شرح الحديث بالإجمال ، مستفيداً لها من دروسه ومستنبطاً من رسائله ، لم يصدع بجميعها الشيخ رحمه الله صراحة وإنما أنا تنبهت لها والله الحمد . ولم أرد فيها إنهاء البيان ، علا أنى كتبت هذه السطور وأنا على خجل مما عراني محل من مزايا الحديث ، وقد مضت أعوام على ما كنت تمتعت أياماً من فيوض الشيخ رحمه الله ، فخلت برهة ولم أوفق بعد إلى شغل علم الحديث ، فمثلى كمثلى رجل صفر الراحة خاوى الوطاب ليس عنده قوت يومه ولا كفاف وقته وقد هم أن يبسط للناس مأدبة جفلى ويهيئ لهم من أطعمة متنوعة ما كان منها ألد وأحلى . فرحم الله امرءاً عذرنى ولم يعذلى . وما أغرانى على هذا إلا الحرص بإبراز بعض جواهر الشيخ رحمه الله إلى العالم الإسلامى ليعرفه من لم يعرفه ويقدره من لم يقدره ، فإن قصرت فى إفصاح المرام فمن ضعف وفتور ساقه العجز إلى ، وإن كفيت قدراً وأدبت أمراً فذلك من فضل الله على . وكيف ما كان فليس أقل من تكون إيماضات إلى مآثر الشيخ رحمه الله ، ورواعد وبروقاً تنبئك عن سحب هطالة ووبل مدرار ، وقد قيل فى المثل : "الجحش لما بذك الأعيار" وناهيك بها أيها المتبصر الخبير دليلاً وبرهاناً على نباهة قدره وجلالة

أمره ، وإنه كان إمام الأمة الحاضرة بعصره ، ومع هذا فأرجأت التفصيل والبسط إلى فرصة أخرى إن ساعدتني الهمة والحال والله الموفق والمعين (١) .

تبيينه :- اعلم أن تلك المحامل للأحاديث الممثلة بها وإن جنح إليها البعض في بعض منها فإنما هو من إبداء احتمال وتصوير مقال من غير برهان ودليل أو استناد إلى أصل جليل . وأما الشيخ رحمه الله فابتكر أصولاً وآداباً منه ثم فرع عليها ما رآها انفصاماً لعرى الاختلافات وتضييقاً لساحة النزاعات ، فأسند كل شيء إلى أصله وشكلاً إلى شكله . علا أن أكثرها مما تفرد به الشيخ رحمه الله وسبق إليه ، وكثيراً ما رأينا أن الشيخ رحمه الله اختار مسلكاً من عنده ثم نجده في بعض كتب القوم ما لم يطبع ولم يصل إلى مطالعة الشيخ رحمه الله فخلناه من توارد الخواطر ، وحاشاه أن ينتحل من كلام غيره ، فقد جربنا تثبته واحتياطه وورعه تجربة قاطعة ، ولا يقوم جهل أحد حجة علينا وعلى علمنا ، وكم من متواردات للشيخ رحمه الله ، فكان يقول : ظننت كذا وكذا ثم رأيت من فلان وفلان ، علا أن مجرد التعبيرات الرائقة المؤثرة مما يرفع الكلام منزلة سامية ويلبسه أبهة ورونقاً ، ويخلف في النفوس الزكية أثراً جميلاً حميداً ، وقد رأيناه في ذلك سباق غايات قاصية ، ودونك شيئاً منها :

قال الحنفية : ” لا يجوز الزيادة على كتاب الله بنجر الواحد “ ، وكان في التعبير نوع جفاء وإخلال ، فقال الشيخ رحمه الله : وليعبر بأنه يجوز الزيادة بنجر الواحد على كتاب الله ، ولكن لا في مرتبة الركنية والشرطية بل في مرتبة الوجوب ، أي لا في مرتبة القطعية بل الظنية . فمراده أنه إذا ثبت أصل شيء

(١) وقد وفقت والحمد لله في ” معارف السنن “ إلى قدر غير قليل من افكاره الصائبة ، فمن اراد استيفاء امثال هذه المسائل فليراجع ” معارف السنن “ ، وقد تم طبع الى الان منها طبع اربعة اجزاء . منه .

بدليل قطعي فليثبت شرائطه وأركانه أيضاً بقاطع ، نعم إذا ثبت أصل شئ بالظني فإثبات أركانه وشرائطه بالظني صحيح عندنا ، فافهمه والمقام لا يتسع التفصيل .

قال الحنفية : ” إن القدر القليل من الأشربة والأنبذة ما عدا الطلاء والسكر والنقيع والخمر يحل على قصد التقوى على العبادة ويحرم على قصد التلهي “ . ومرادهم من القليل الغير المسكر ، فغير الشيخ تعبيرهم وقال : ” إنه يحرم ما عدا الأربعة أيضاً إلا القدر القليل منها لغرض التقوى على العبادة “ ، فتأمل مناط التعبير ومحط الفائدة بينهما ، أين تعبيرهم من تعبير الشيخ ؟ وإن البون بينهما لبعيد ، فتعبيرهم مشعر بأن الأصل في القدر القليل من غير الأربعة هو الإباحة ، وإن الحرمة بعارض التلهي ، وتعبيره يشعر بأن الأصل فيه أيضاً الحرمة ، وإنما الإباحة بعارض التقوى على العبادة ، فإذاضحى التقوى مثل التداوى ، فليدار الكلام فيه ، فهل يجوز التداوى بالمحرم ؟ فلو استقرت وجدت أكثر الأحاديث فيه مؤيدة للإمام أبي حنيفة رحمه الله إن شاء الله ، فأين تعبيرهم من تعبيره ؟ وأنى سهيل والسها ؟ نعم وإن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحراً . ثم إنه ليس مدار تلك الخصائص على تلك الأمثلة ، بل إنى أوردتها حسب ما تسنى لى ارتجالاً مما كنت شغفت به أذنى عنه رحمه الله . بيد أن تلك الخصائص الرائعة إنما الشيخ أبو عذرتها ، وهو الذى طبق عليها الغوامض من معانى الأخبار ، وجعلها مناطاً ومداراً لشرح جملة من الآثار بعد ما قلب فيها أفكاره اللطيفة للاكتناه بحقائقها وأغراضها دون ظواهر ألفاظها ، فعين محامل صحيحة صريحة من غير تكلف وتأول ، ولا إخراج لها عن صرافة اللغة أو العرف الشائع ، بل لأجل إبقائها على سداجة فطرية وحلاوة ذوقية يطرب لها العقول ويهتز لها الفحول ، فاعرف قدرها فى جذر قلبك وجذد فؤادك ، وإنما هى قطرة من بحاره

الزاحرة ونفحة من شميم أزهاره الناضرة ، فلا أحد يباريه في هذا المضمار ، ولا يجاريه في هذا المجال ، هذا وصلى الله تعالى على سيد الكونين نبي الحرمين رسول الثقلين سيدنا محمد وآله وصحبه وبارك وسلم إلى تكور الملوك واختلاف الجديدين .

تذييل وتكميل

واقعة من مآثر الشيخ رحمه الله ، ناسب سردها بالإجمال في هذا الباب . كان الشيخ رحمه الله يؤثر الجمول ، ويجتهد أن لا يشتهر صيته ، وله في ذلك وقائع بديعة غريبة ، فكانت جواهره لم تتلأأ بعد في بدء عمره وشرح شبابه ، فاتفق أن انطلق إلى بعض نواحي "دهلي" ، وكان هناك رجل يدعى العلم ، بل كان أذاع : « أنى حافظ عصر في الحديث » ، وكان لا يقلد أحداً من الأئمة ، وكان يشنع كثيراً على متبعي الأئمة المجتهدين ، وكان وقاحاً جريئاً ، طويل اللسان ، ينال من الأئمة ، ولا سيما كان يقع في شأن الإمام أبي حنيفة ، فكان أعلن في تلك الأيام للمناظرة مع الحنفية ، فصادف قدومه تلك الأيام ، فذهب إليه للمناظرة ، فقام الشيخ رحمه الله في حفلة غاصة بالعلماء ، وأعلن على رؤس الأشهاد وقال : أيها المدعى سل منى ما بدا لك من الفقه والحديث وغيرهما ؟ وكل ما سأجيبك به يكون من اجتهادى ، فأنا مجتهد هذا العصر (١) ، ولكن من عجيب الاتفاق أن وافق اجتهادى في جميع مسائل الشريعة الإسلامية الإمام أبا حنيفة رحمه الله ، فسل ما شئت ترى بديعاً إن شاء الله ؟ فأطرق رأسه مفحماً واجماً ، فبهت ودهش ولم يستطع أن يلوك كلمة . فقال الشيخ : بلغنى أنك تقعقع بالشنان : " أنى حافظ الحديث " ، (١) ان الشيخ لم يكن مدعياً للاجتهاد ، بل قال ذلك تبكيتاً له والزماً كما سياتى عليك بيانه . منه .

ويحك ، وهل رأيت حافظاً ؟ وهل تستطيع أن تسبر قدر الحافظ ؟ فهذا أصبح الكتب بعد كتاب الله ” الصحيح “ للبخارى ، فكم لك فيه من أحاديث وعيتها ؟ وكم لك علوماً فيه دريتها وتليتها ؟ فاقراً أنت علينا من ” الصحيح “ عن ظهر قلبك ، أو أقرأ أنا ؟ فقال ذلك المدعى : اقرأ أنت ؟ فقال الشيخ رحمه الله : استمع أيها المدعى ، فأخذ الشيخ رحمه الله يقرأ من بدء ” الصحيح “ عن ظهر قلبه كما هو بين عينيه حتى قرأ منه أوراقاً متسقة منتظمة ، فقال : هل يكفيك أو أزيدك ؟ فحير العقول وأدهش الفحول . وقال : سبحان الله رجل يدعى حفظ الحديث وفقه الدين وطال لسانه في الطعن على أئمة الدين وهذه بضاعته بين أيديكم وأيدي سائر المسلمين ، فأخزاه الله على رؤس الحاضرين ، فولى هارباً من الحفلة ، واختفى وكواه فوق النواظر ، فكفى وشى . فهكذا نجى الله المسلمين من شره ببركة هذا الجبر الوحيد في العالمين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين . واشتهر بهذه الواقعة صيته من بعد ، فكانت هذه أول مناظرة له ، وكما هكذا وقعت له وقائع مجيرة هي له من على رقاب الأمة الإسلامية .

واقعة أخرى : تشتمل على نماذج من علوم صدره رحمه الله عند قدوم الشيخ العلامة السيد رشيد رضا المصرى بـ ” دار العلوم الديوبندية “ .

قدم العلامة الفاضل السيد رشيد رضا مدير مجلة ” المنار “ وصاحب ” التفسير “ إلى ” دار العلوم الديوبندية “ سنة ١٣٣٠ الهجرية ، فانعقدت عند قدومه حفلة ترحيب ، فسأل هذا الفاضل من أحد أساتذة الجامعة الديوبندية قبيل انعقاد الحفلة عن طريقة درس الحديث بها ؟ فأجابه : إذا فرغ القارئ من قراءة الحديث يبين الشيخ ما يتعلق به من المباحث العلمية والنكات الرائعة ، فإن كان الحديث متعلقاً بالأحكام الفروعية الفقهية يبين الشيخ مذاهب الأئمة

وأدلتهم ، فإن كان مذهب الإمام الكوفي مخالفاً من الحديث في بادی الرأي يوفق مذهبه به ويبين تطبيق المذهب بالحديث ، فاستبعد ذلك هذا الفاضل وتعجب منه وقال : وهل ذلك في كل حديث ؟ فقال : نعم ، فاستنكر واستشكل هذا الصنيع وقال : هل الحديث حنفى ؟ وكيف يمكن ذلك ؟ وهل هذا إلا عصبية ما لها من سلطان ؟ فانعقدت حفلة ، وكان الشيخ رحمه الله أراد أن يشهدا وحكيت له في أثناء طريقه هذه الحكاية ، ولعل الشيخ أراد إلقاء شيء مما زوره في نفسه ملاماً لإكرام الضيف ، ولكن تبدل دأبه وأراد أن يلقى كلمة تكشف له الستر عن تلك الطريقة السنية الفائقة ، فأخذ الشيخ في البيان بعربية ناصعة فصيحة ، فكان كالبحر الذخار أو الغيث المدرار ، حتى وقع ذلك في قلب الشيخ رشيد رضا ، وأريج ما اختلج في صدره ، حتى قام واعترف بمآثر الشيخ رحمه الله وتأثره من علومه وفضائله ، ومدحه مدحاً سنياً ، وأثنى عليه ثناءً وافياً ، وأقر بأن تلك الطريقة طريقة حسنة مثلى . وقال في مقالة طويلة ألقاها : لو لم أر هذه الجامعة العلمية ومثل هؤلاء الأبحار والأعلام لرجعت من الهند حزينا ، ولما رجعت إلى مصر صدع بكل ذلك في جريدته ” المنار “ ، ومما قال في جريدة ” المنار “ : علا أننى رأيت في ” مدرسة ديوبند “ التى تلقب بـ ” أزهر الهند “ نهضة دينية علمية جديدة ، أرجو أن يكون لها نفع عظيم ، وقال : ما قرت عينى بشيء في الهند كما قرت برؤية ” مدرسة ديوبند “ ، ولا سرت بشيء هناك كسرورها بما لاح لها من الغيرة والإخلاص فى علماء هذه المدرسة ، وكان كثير من إخوانى المسلمين فى بلاد الهند المختلفة يذكرون لى هذه المدرسة ، ويصف رجال الدنيا منهم علماءها بالجمود والتعصب ، ويظهرون رغبتهم فى إصلاح تعميم نفعها ، وقد رأيتهم — والله الحمد — فوق جميع ما سمعت عنهم من ثناء وانتقاد ، إلى آخر ما قال .

فدونك الآن ملتقطات تلك المقالة المرتجلة الرائقة وتلك الكلمة الرائعة التي ألقاها الشيخ رحمه الله في تلك الحفلة ، وهي تحتوى على جواهر غالية من نفحة : ” هدى الشيخ الفقيه العارف القطب الكنكوهي رحمه الله “ ، ورشة من ” مآثر الحجة العارف مولانا القاسم النانوتوى رحمه الله “ ، وفوحة من ” مناقب الشيخ الإمام الشاه ولي الله الدهلوى رحمه الله “ و ” تذكرة أولاده “ .
وفيها إيضاح : ” تنقيح المناط “ و ” تخريج المناط “ و ” تحقيق المناط “ مع الشواهد والأمثلة ، بتنقيح وتحقيق أنيق ، وفيها : البحث على حديثي القلتين ، والكشف عن مسألة الفاتحة خلف الإمام ، وحل العقدة من مسألة رفع اليدين ، والتأمين ، وصلاة الكسوف ، وبيان أصول الأئمة الأربعة ، وطرق استدلالهم ، وبيان أن الحق في موضع الاجتهاد واحد أم متعدد ، وغيرها من الإشارات بإجمال موضح واختصار معجب موعب .

قال الشيخ رحمه الله :

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد :
يقدم الخویدم فی الحضرة السامية تحية الإسلام حياكم الله تعالى ،
إنا آنسنا منكم مخائل الكرم والاعتناء بحالنا ، وأحسننا بنهضة
إسلامية عطفت عليكم وعلينا ، وأنا أحوج إليكم منكم إلينا ،
هؤلاء أساتذتي وأكابرى وذخائرى عند الله فى يومى وغدى ،
أمرؤنى بأن أمثل لكم شكراً على إسداء الخير ، وتشريفكم إيانا
بالقدوم المبارك ، أحسن الله إليكم وإلينا ، ورفع درجاتكم فى
الدين والدنيا والآخرة ، آمين وبه نستعين .

مولانا ! إن حديثنا حديث ذوشجون ، والشئ بالشئ يذكر ،
إن بلادنا هذه على شقة بعيدة ومسافة شاسعة من بلاد الإسلام ،

كـ ”العراق“ و”الشام“ و”مصر“ ، فكانت شعائر الإسلام على وهى
ومناثر العلم على خفاء إلا ما شاء الله وقليل ما هم ، وإن عصابتنا
هذه عصابة على طريقة قديمة ليست بحديثة ، إسنادنا في الدين
متصل بالمصدر الكبير ، والبدر المنير ، والإمام الشهير ، الشيخ
الأجل ولى الله بن عبد الرحيم الفاروقى الدهلوى ، وحال الشيخ
أظهر من أن يذكر ، فقد شرقت تصانيفه وغربت ، لكن
بعض أحوال الشيخ يحتاج إلى أخبار شفاهية وواقعات تلقيتها
من مشائخنا .

كان من أمر الشيخ رحمه الله أنه أتقن العلوم الدينية ومبادئها
أولاً على والده العلامة الشيخ الهام عبد الرحيم ، ثم رحل إلى
الحرمين زادهما الله شرفاً وتكريماً واستفاد من علمائها وفقهائها ،
ولازم الشيخ أبا طاهر الكردي في الحديث ، واجتهد فيه حتى
صار الطرد والعكس في الباب ، وكان الشيخ أبو طاهر يقول :
تلقن الألفاظ منا وتلقنا المعنى منه ، يريد بذلك تبين ملاحظ
الحديث وتعيين مراد الشارع ، ثم رجع الشيخ ولى الله إلى بلاده
واشتغل بإصلاح ما أفسد الناس من سنة النبي الكريم ﷺ ، وكان
الله أودع في صدره نوراً ينظر به عواقب الأمور ، فتفرس أنه
ستقوم الحرب بين الحق والباطل ، فاستعد رحمه الله للدفاع عن
الدين والذب عنه ، فلما أعد لذلك أن ترجم ”القرآن العزيز“
باللسان الفارسية سماه : ”فتح الرحمان“ ، جرده عن الإسرائيليات
بأسرها ، أراد بذلك تمهيد التوحيد ، ثم شرح ”الموطأ“ (لمالك

رحمه الله) وسماه : "المسوى" على طريقة فقهاء الحديث مع تحقيق المناط وتنقيحه وتخريجه ، أريد بذلك ما اصطلاح عليه علماء الأصول .

فتحقيق المناط : أن يصدر حكم من الشارع في صورة جزئية ثم يثبت ويحقق ذلك في سائر الجزئيات من نوع تلك الصورة ، مثاله : تقويم جزاء الصيد ، فتعرف القيمة في جزئ جزئى هو تحقيق المناط ، وليس ذلك بقياس ، فلذا يشترك فيه الخاص والعام ولا يحتاج إلى الاجتهاد .

وتنقيح المناط : أن يصدر حكم من الشارع في صورة قد اجتمعت هناك أمور ، وانفقت بعض تلك الأمور مناط ذلك الحكم وبعضها لا دخل لها فيه ، فتعرف الأمر الذى هو العلة لتنقيح المناط . مثاله ما في الحديث عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « أتى رجل النبي ﷺ فقال : هلك ! قال : ما شأنك ؟ قال : وقعت على إمراة في رمضان ، قال : فهل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا ، قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا ، قال : فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا . » الحديث . فنقح أبو حنيفة ومالك مناط ذلك الحكم وجوب الكفارة كون ذلك الفعل مفطراً ، كان جماعاً كما في هذه الصورة أو أكلاً أو شرباً بعد أن يكون عمداً ، فكونه جماعاً في هذه الصورة أمر اتفاق كسائر الإتفاقيات . وذهب أحمد والشافعى إلى أن المناط هو كونه جماعاً ، فلا يعدى الحكم إلى الأكل والشرب . واحتج بحديث آخر عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ، « من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخصها الله لم يقض » .

عنه صيام الدهر» حمله على الأكل والشرب عامداً ، وقال :
لم يقض عنه صيام الدهر .

وتخريج المناط : أن يصدر حكم من الشارع في صورة تجتمع
هناك أمور يصلح كل واحد منها للعلية ، فيرجح المجتهد أمراً
من بين تلك الأمور للعلية ويجعله مناطاً . مثاله : حديث النهى عن
الربا في الأشياء الستة ، اجتمع هناك أمور : القدر ، والجنسية ،
والطعم ، والتمنية ، والاقتيات ، والادخار . فذهب أبو حنيفة
إلى : أن مناط الحكر هو الوصف الأول ، والشافعي إلى : أنه
الثاني ، ومالك إلى : أنه الثالث ، على ما أدى إليه اجتهادهم .
فالفرق بين تحقيق المناط وتخريجه أن في الأول اجتمعت أمور
لا دخل لها مع المناط ، فنقح المجتهد المناط ، وفي الثاني اجتمعت
أمور كل منها صالح لأن يكون مناطاً ، فرجح المجتهد أحدها لأن
يكون مناطاً . وتنقيح المناط وتخريجه وظيفة المجتهد يزاحم فيه
بعضهم بعضاً .

ومن الأمثلة فيه أيضاً حديث : « مفتاح الصلاة الطهور
وتحريمها التكبير وتحليلها التسليم » . فذهب أكثر الأئمة إلى ركنية
صيغة التكبير والتسليم ، وخرج أبو حنيفة المناط فيه كون الأول
ذكراً مشعراً بالتعظيم وكون الثاني خروجاً بصنع المصلي وقال
بفرضية هذين ، لكن ثبتت مواظبة النبي ﷺ على صيغة التكبير
وصيغة التسليم ، فليكونا واجبين . وقد التزم الشيخ ابن الهمام
وجوب صيغة التكبير ، والمشهور أنه سنة ، وقد تحقق فيهما الذكر
المشعر بالتعظيم والخروج بصنع المصلي ، كتتحقق الكلى في الجزئي ،
فليكونا فرضين ، وعلى هذا القياس أمثلة كثيرة ، فهذا ما

راعه الشيخ ولي الله في شرح "الموطأ"، واختار فيه أيضاً فقهاً
جامعاً ، وقد حقق الشيخ أيضاً في كتابه "الإنصاف في بيان
أسباب الاختلاف" و"عقد الجيد في مسائل الاجتهاد والتقليد" :
أن الحق في موضع الاجتهاد متعدد ، وحكاة عن الأئمة الأربعة
وارتضاء ، وأريد بموضع الاجتهاد أن لا يكون هناك كتاب
ولا سنة متواترة ، فالحق هناك متعدد ، وإذا كان هناك قاطع
فليس بموضع اجتهاد ، والحق هناك واحد وهو الموافق لذلك
القاطع ، فمن وافقه وافق الحق ، ومن خالفه خالف الحق .

وصنف الشيخ رحمه الله في حكم التشريع والعقائد الحققة تصانيف
صارت لكل آت نبراساً ومقياساً ، منها : "حجة الله البالغة"
و"البدور البازغة" و"التفهيمات الإلهية" و"الخير الكثير" وغير
ذلك ، ثم تبعه على ذلك أولاده وأحفاده ، فمن أولاده : الشيخ
الأجل والصدر الأكمل الشيخ عبد العزيز ، ثم الشيخ رفيع الدين ،
ثم الشيخ عبد القادر . ثم خلف الشيخ عبد العزيز حفيده مفيد العصر
ومسنده المشتهر في الآفاق الشيخ محمد اسحاق ، وابن أخيه نخعي
السنة العلامة الجليل الشيخ محمد اسماعيل ، وكان الشيخ عبد العزيز
يتلو : «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحاق»
نفع الله بهما هذه البلاد . دارس الشيخ محمد اسحاق حديث النبي ﷺ
فصار رحلة الأقطار . وصنف الشيخ محمد اسماعيل كتباً في الفرق
بين السنة والبدعة الظلماء ، فأحيى السنة حين كانت أميتت ، ومات
شهيداً رحمه الله . وقد تلمذ على الشيخ محمد اسحاق شيخ مشائخنا
الشيخ عبد الغني ، صار مداراً لرواية في عصره ، وارتحل آخرأ إلى

المدينة الطيبة وصار سند تلك البلاد وكثر الأخذ عنه هناك (١) ،
وتلمذ على الشيخ عبدالغنى شمس الإسلام والمسلمين العازف الحافظ
الحقق الشيخ محمد قاسم النانوتوى ، مؤسس هذه المدرسة العالية
وبانيها ، والفقيه الحافظ المجتهد الولي الشيخ رشيد أحمد . صنف
الشيخ محمد قاسم كتباً في المعارف والحقائق ، وكتباً في الرد
على المخالفين من الماديين والدهريين ، فنفع الله به كثيراً ، وقد
كنت أنشأت هذه الأشعار في منقبة :

قفا يا صاحبي على السديار * فمن دأب الشجى هو ازديار (٢)

وكثر الفتيا ، وازدحت المسائل على الشيخ رشيد أحمد حين
التبس الحق بالباطل ، فأجاب فيها بالصواب ، كان فقيهاً مجتهداً ،
فأخذنا ذلك إماماً في الأصول ، وهذا إماماً في الفروع . وتنفع
لنا منها علم منتقح مبيض .

ثم لما استولت الأجانب على هذه البلاد وقامت الحرب بين
الحق والباطل أسس الشيخ محمد قاسم هذه المدرسة العالية ، فنفع
الله بها كثيراً جزاه الله خير الجزاء .

وغاية المدرسة درس الحديث وفقه الحديث ، وكان يرى
أن المبادئ ضرورية ، والضرورى يتقدر بقدر الضرورة ، حتى
إن الشيخ رشيد أحمد حظر الفلسفة وحجر عنها في بعض السنين

(١) سبحان الله ، ما أبدع حكمته في بريته ، جاء الشيخ ولى الله بعلوم الحديث
الى الهند ثم ذهب بها من الهند الى المدينة الطيبة الشيخ عبد الغنى !
فاعتبر ثم اعتبر ، فان لله حكماً وصالح خفيّة دقيقة غامضة في خلقه
واسره يخلق ما يشاء ويختار . منه .

(٢) هذا مطلع قصيدة طميلة الشيخ رحمه الله في مناقبه . منه .

في هذه المدرسة . فهذا إسنادنا وطريقة مشائخنا في الحديث وفقه الحديث طريقة معتدلة مثلى يتوسطون بين الأطراف . أزيد بذلك أن للأئمة الأربعة أصولاً أربعة أكثرية ، وذلك أن الإمام مالكاً يأتسى بعمل أهل المدينة ، بل قد يرجعه على الحديث المرفوع . والشافعي يأخذ بأصح ما في الباب . وأحمد يأخذ بالأصح والصحيح والحسن والضعيف إذا كان ضعفه يسيراً ، ويجوز هذا وذلك ، وعلى هذا وضع "مسنده" ، وأبو حنيفة يأخذ بهذه الأقسام وينزل الأحاديث على محمل ، فلذا كثرت التأويلات عند الحنفية ، وكثرت الجروح على الرواة عند الشافعية ، والشافعي رحمه الله أول من أبطل الاحتجاج بالمرسل إلا إذا اعتضد ، وإمام ذلك الصنعة الإمام الهمام البخاري رحمه الله قد أخذ أصل مالك والشافعي رحمه الله وركب بينهما ، فيأتي بأصح ما في الباب ، ويراعى مساعدة عمل السلف ، فلذا لم يأت بحديث يعارض حديثاً في كتابه ، ولم يخرج في الكسوف إلا حديث الركوعين ، مشياً منه على أصله . واعتمد مسلم رحمه الله على ثقة الرواة ، فأخرج حديث ثلاث ركوعات وحديث أربع ركوعات ، بل حديث خمس ركوعات أيضاً موقوفاً على أمير المؤمنين على رضي الله عنه ، فالبخاري قد انتقى واتبع مسلم القاعدة . فمشائخنا يتوسطون في مثل هذا ، لا يأخذون بالتشدد ولا بالتساهل ، ويوجهون الأحاديث المتعارضة بتوجيهات يكاد يقبلها من يسمعها . مثاله : حديث القلتين ، فقد رواه يزيد بن هارون ، وكامل بن طلحة ، وهديبة بن خالد ، وإبراهيم بن الحجاج ، عن حماد بن سلمة ، وهؤلاء حفاظ أثبات ورواة ثقات ، بلفظ :

« إذا بلغ الماء القلتين أو ثلاثاً لم يحمل الخبث » ، فيقال فيه :
إن هذا ليس بتحديد شرعى ، فقد قال : « القلتين أو ثلاثاً »
بالتنوين ، فهو تقريب وإحالة على خلوص أثر النجاسة من جانب
إلى جانب ، وذلك أصل مذهب أبى حنيفة وصاحبيه ، صرح
بـه الشيخ ابن الهمام والشيخ ابن نجيم ، وقد سلمت الأحاديث
المتعارضة لحديث القلتين ، كحديث النهى عن البول فى الماء
الراكد ، وحديث النهى عن إدخال اليد فى الإناء إذا استيقظ ،
وحديث ولوغ الكلب فى الإناء . ومثاله أيضاً أحاديث القراءة
خلف الإمام ، فإنهم لما استدلوا على ترك القراءة خلف الإمام
فى الصلاة بقوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له
 وأنصتوا لعلكم ترحمون » وبقوله ﷺ : « وإذا قرأ فانصتوا »
وبحديث : « من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة » أو لوا
حديث : « لا تفعلوا إلا بأمر القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لم يقرأ بها » ،
وذلك أنه لم يصح فى شأن نزول الآية شئ من الروايات ، فالعبرة
لعموم اللفظ ، وأيضاً فقد روى البيهقى فى كتاب القراءة عن
عن الإمام أحمد أنه أجمع العلماء على أن هذه الآية فى القراءة فى
الصلاة . وحديث : « إذا قرأ فانصتوا » حديث صحيح ، صححه
أحمد بن حنبل ، ثم صاحبه أبو بكر الأثرم ، ثم مسلم فى باب
التشهد من حديث أبى موسى الأشعرى ، وأحال به على حديث
أبى هريرة ، ثم صححه ابن خزيمة ، والحافظ أبو جعفر ابن جرير
الطبرى ، والحافظ أبو عمر ابن عبد البر ، والحافظ ابن حزم
الأندلسى الظاهرى ، ثم الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ،
ثم خاتم الحفاظ الحافظ ابن حجر العسقلانى فى « الفتح » ، وهذا

من حيث الإسناد . وأما من عمل السلف والأئمة فقد عمل به جماعات من الصحابة ، ومالك ، وأحمد ، وأبو حنيفة . والحدِيث إذا كان رواته ثقات ثم ساعده العمل عمل السلف فهو صحيح بلا ريب ، لا يقدح فيه قدح ولا يؤثر فيه جرح ، وحديث : « من كان له إمام فقرأه الإمام له قراءة » حكاه الشيخ ابن الحام عن "مسند أحمد بن منيع" وصححه ، فإن سنده على شرط الشيخين ، ولم نقف إلى الآن على علة فيه . وإسناده : أخبرنا اسحاق بن يوسف الأزرق ، قال حدثنا سفيان وشريك عن موسى بن أبي عائشة عن عبد الله بن شداد عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ الحديث ، وقد ساعده الموقوف عند الترمذى ، والمرسل عند آخرين ، فإذا هو صحيح ، فوجه شيخنا مشائخنا الشيخ رشيد أحمد حديث عبادة من طريق محمد بن اسحاق ، وسياقه : « لعلكم تقرأون خلف إمامكم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله نهذه هذا ، قال : لا تفعلوا » الحديث . فقال : هذا دليل الإباحة لا دليل الوجوب ، وإنهم كانوا يقرأون بغير أمر منه ﷺ ، ولذا سأل بقوله : « لعلكم تقرأون خلف إمامكم ؟ » ، فلما قالوا : نعم ، قال : « فلا تفعلوا إلا بأمر القرآن ، فإنها سورة متعينة من بين سائر القرآن لا غيرها من السور » ، فعلم النبي ﷺ إباحتها خلف الإمام بكونها متعينة من بين السور لاصلاة بدونه ، وظهر عدم كون الصلاة بدونها في حق الإمام والمنفرد ، وأثر ذلك في الإباحة في حق المقتدى ، ومسألة الإباحة والكراهة مختلف فيها عند الحنفية ، وإن اتفقوا على عدم الوجوب وقالوا في مسألة رفع اليدين وجهر آمين : أنه

قد صح رفع الجهر عن النبي ﷺ وعن الصحابة ، وقد صح ترك الرفع بإسناد صحيح عند أبي داود ، والإخفاء وقد صح ترك الرفع عن أمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين علي رضي الله عنهما ، وكذا صح الإخفاء بآمين عن جماعة من الصحابة والسلف الصالح ، فليكن كلا الأمرين سنة ، وإنما يبقى الشأن في الترجيح ، هذا والله الموفق للسداد في المبدأ والمعاد .

ثم تلمذ على الشيخ محمد قاسم شيخنا العدل الحجة مسند وقته الشيخ محمود حسن متع الله المسلمين بطول بقائه ، وهو شيخ المدرسة الآن ، وعليه المدار في الإسناد في هذه البلاد ، وهو على طريقة مشائخه ساعده التوفيق الإلهي في التوفيق بين المتعارضات وحل المشكلات . مثاله ما قال لي مرة : إن تعدد الركوع في الكسوف قد ثبت عن النبي ﷺ لأمر اختص به ، ولكن أرشد الأمة إلى وحدة الركوع فقال : « صلوا كأحدث صلاة صليتموها من المكتوبة » فراجعته وقلت : إن السادة الشافعية يحملون التشبيه على عدد الركعتين لا على وحدة الركوع ، فقال : إن هذا هو جعل البديهي نظرياً ، فإنه إذا كان النبي ﷺ قد صلى الكسوف بتعدد الركوع بنفسه على أعين الناس ورؤس الأشهاد و كان يشرع بتعدد الركوع للأمة فلم ترك الإحالة على ما شاهدوه وعدل إلى التشبيه بالصحيح ؟ وما ذلك إلا أن التعدد كان لعارض ، وأرشد الأمة إلى المعروف في الصلاة ، والله الموفق والمعين ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

انتهت تلك المقالة البليغة الجامعة لشتات المباحث النفيسة ، فاغتنمها

(نفحة العنبر م — ١١)

فإنها غنيمة باردة ، ولا تنفس أيها المتبصر الدارى والمتفكر الوارى هذه المقالة
بعلوم الشيخ التى حوته صدره ، فإنه قطرة من بحر لا ساحل له ، وهل تغنى
القطرة من البحر الخضم ؟ هيهات ذلك ، بل أريناك نموذجاً من مكامن
صدره وشذرة من معادن قلبه ، هكذا كان يسمح بها قطرة قطرة عند
الحاجة ، فالجرع أروى والرشف أنقع ، ولكن إن فتحت عين بصيرتك
ورطنت بالنصفة سريرتك علمت أن تلك القطرة بحر ، أو تنبئك عن بحر يمدد
من بعده أبحر ، وهو القائل :

متى ما جئت تستسقيه قطراً * تجدد بحراً يطعم على البحار

وليكن منك على ذكر أن الشيخ رحمه الله هذه مقالته المرتجلة المحتوية
على إتقان صنعته وحناقته وتغلغله فى مزايا الحديث وأسرار اختلاف
الأئمة والرأى الصائب فيها ، وهو فتى يافع ، بلغ من عمره ثلاثين سنة ،
فما ظنك بما أبدعته قريحته الوقادة ؟ وإلى أى منزلة بلغت حمته السامية فى
دوره الأخير ؟ فكان يزداد فضله وعلمه ساعة فساعة ، وينبغ يوماً فيوماً ،
وقد استكمل بعده نحو هذا العمر ، فلتكن على بصيرة . ولنعم ما قيل :

تناهت علاء والشباب رداؤها * فما ظنكم بالفضل والرأس أشيب
فرحم الله امرأ ذاق وادرى ، فله العبر والبصائر ، ومن لم يذق لم يدر
مثل سائر . والله در شيخنا حيث هو نفسه القائل :

وما هى إلا عبرة ، ثم عبرة * تجدد عهداً بالديار الموائل
وما هى إلا ذكررة ثم فكرة * تمثل شيئاً من حديث الأمائل
نعم عند ما قد هبت العيس واسترت * يدار حديث من شجون الأوائل

وأمثال هذه المزايا والخصائص الحديثية التى ذكرناها كانت بين عيني
العلامة الفاضل السيد رشيد رضا المرحوم ، حتى صدع فى مقدمة " مفتاح

كنوز السنة “ بكلمات صادقة حيث قال :

” ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضى عليها بالزوال من أمصار الشرق ، فقد ضعفت في ” مصر “ و ” الشام “ و ” العراق “ و ” الحجاز “ منذ القرن العاشر للهجرة حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر آه .

ثم إن هذه ملتقطات من تلك المقالة ، فما ظنك بأصل المقالة ؟ والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ولنكبح شكيمة المزبر عن هذا البحث ، فهذا ختام الكلام والله الموفق .

الشيخ وأسانيده في الحديث .

اعلم أن من خصائص هذه الأمة الإسناد في الدين ، فيسندون كل ما يدينون به عن كبار الأمة كابراً عن كابر وماجداً عن ماجد طبقة بعد طبقة حتى ينتهي السلسلة إلى قائد الخير ورسول الرحمة سيدنا ومولانا محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين خاتم النبيين إلى جبريل الأمين إلى رب العالمين جل ذكره وعز اسمه وعظم برهانه ، لم تجد أمة من الأمم في أكناف البسيطة ومناكبها بهذه المثابة ، فحملة العلم في كل عصرٍ بذلوا جهودهم بل مهجهم لهذه الأثرة الجليلة والخدمة العالية والمزية السامية ، وهذا الذي أوصل علوم الحديث إلى ثنائين علماً فصاعداً ، وقد أشار إلى ذلك إلهنا الحق وربنا الخبير العليم في فاتحة ”سورة النجم“ من نظم التنزيل العزيز ، وفي ”سورة التكويد“ حيث يقول الله جل ذكره في ”سورة النجم“ : (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى) وقال : (ما كذب الفؤاد ما رأى) ، وقال في ”سورة التكويد“ : (إند لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين قطع ثم أمين) . فكل هذا تعديل للسند

وتوثيق للراوى . ألا فليراعه البصير على مغزاه والفاضل الخبير على مرماه ! وكذا أشار إليه مولانا ونبينا الصادق المصدوق رسول الله ﷺ بقوله : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » ، ولذلك ترى أولى الأرواح القدسية والنفوس الطيبة والأنفاس المباركة يتهافتون على الأسانيد تهافتة العطاش الهيم على الزلال السائغ والشمير البارد فى المواجر الحارة والظواهر ، فقد شرقوا لها وغربوا ، يتروون من سلسبيلها العذب ، ويتنعمون بنسائم روضه الرحب ، وكان قصارى أمانيتهم أن يفوزوا بسند عال ، حتى إن هذا إمام دار الهجرة الذى كان تضرب إليه أكباد الإبل ، كان يقول : سند عال وبيت خال ، وشيخنا الأجل قدس سره نظير من نظرائهم ، اقتفى بهديهم واقتدى بهداهم رحمه الله ورحمهم ، وأفاض علينا من بركاته وبركاتهم ، ولهذا نشير ههنا إلى أسانيده التى اطلعت عليها والله المستعان .

الاسناد الأول : لسائر كتب الحديث عن شيخه وشيخ العالم المحدث البارع مولانا الشيخ محمود حسن الديوبندى المدعو بـ "شيخ الهند" قدس سره ، ثم لإسناده طرق :

الأول : عن الحجة العارف مولانا محمد قاسم النانوتوى الديوبندى ، وعن المحدث الحجة مولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، كلاهما عن الشيخ المحدث الشاه عبدالغنى الدهلوى نزيل المدينة المنورة .

الثانى : عن الشيخ المحدث مولانا أحمد على السهارنفورى محشى "صحيح البخارى" .

الثالث : عن الشيخ العارف مولانا محمد مظهر النانوتوى .

الرابع : عن الشيخ المحدث القارى مولانا عبد الرحمن الفانى فقى .

وهؤلاء الأعلام الشاه عبدالغنى ، والمحدث السهارنفورى ، والمظهر النانوتوى ، والمحدث الفانى ففى كلهم عن الشيخ الأجل المحدث الشاه محمد اسحق الدهلوى ، عن حبر الأمة المحدث العارف الشيخ عبدالعزيز الدهلوى ، عن والده الشيخ الإمام الحجة قطب الدين أبى الفياض أحمد المدعوب "الشاه ولى الله الدهلوى" ، عن الشيخ أبى طاهر المدنى ، عن والده الشيخ ابراهيم الكردى ، عن الشيخ المزاحى ، عن الشهاب أحمد السبكى ، عن الشيخ النجم الغيطى ، عن الشيخ زين الدين زكريا ، عن عز الدين الشيخ عبدالرحيم ، عن الشيخ عمر المزاغى ، عن الفخر بن البخارى ، عن عمر بن طبرزد البغدادى ، بإسناده إلى الحافظ الحجة أبى عيسى الترمذى صاحب "الجامع" . ومن شاء الاطلاع على أسانيد الشيخ عبدالغنى وأحوال رجالها فليراجع إلى "البانع الجنى فى أسانيد الشيخ عبدالغنى" ، وقد طبع بحيدرآباد مرة ، وأخرى بديوبند .

الاسناد الثانى : عن شيخه الشيخ المحدث الصالح محمد اسحق الكشميرى المتوفى بالمدينة مهاجراً سنة ١٣٢٢ هـ ، عن الشيخ السيد نعمان الآلوسى ، عن والده أعلم بغداد الشيخ الحبر مولانا محمود الآلوسى البغدادى صاحب "روح المعانى" بالإسناد المثبت فى ثبته ، وهذا هو الإسناد الذى يقول لأجله شيخنا رحمه الله فى بعض مؤلفاته : "قال شيخى بواسطتين محمود الآلوسى فى "روح المعانى" فاغتنمه" .

الاسناد الثالث : عن الشيخ حسين الطرابلسى الجسر صاحب "الرسالة الحميدية" و"الخصون الحميدية" بإسناده إلى الشيخ السيد أحمد الطحطاوى المصرى شارح "الدر المختار" و"مراقى الفلاح" ، استجاز عنه الشيخ رحمه الله بالمدينة المنورة زادها الله شرفاً وتعظيماً ، كما أومأنا إليه فيما سلف .

فهذا ما اطلعت عليه من أسانيده من هؤلاء المشايخ الذين كانوا غرر عصرهم ومسانيد وقتهم قدس الله أسرارهم وأشاع في العالمين أنوارهم وبركاتهم . وقد أجازني شيخى رحمه الله بأسانيده هذه كلها فله الحمد والمنة ، ثم له جزيل الشكر وحسن الثناء ، وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الجزاء .

الشيخ والفقيه ، ونبذة من خصائصه فيه .

طالع من الفقه وما يتعلق به تصانيف الإمام محمد بن الحسن الشيباني من كتب ظواهر الرواية و"الموطأ" وكتاب "الآثار" وكتاب "الحجة" له ، بضبط وإتقان وغاية فكر وإمعان ، ثم شرح الإمام شمس الأئمة السرخسى "المبسوط" ، وهو شرح لكتب ظاهر الرواية التي جمعها الحاكم الصدر الشهيد في كتابه "الكافي" و"شرح السير الكبير" له ، ثم ما تيسر له من تصانيف الإمام الطحاوى من "شرح معاني الآثار" و"مشكل الآثار" و"المختصر" له في الفقه ، وقد قال فيما أحفظ والله أعلم : إني طالعت "مختصر الطحاوى" نحو عشرين مرة ، ومع ذلك لم يشتف صدرى في مواضع كثيرة ، فهكذا طالع من كتب الفقه هذه الكتب المطبوعة بمصر والهند المتداولة بين أيدينا اليوم ، ثم من الكتب الخطية ما تيسر له ، حتى سمعت عنه نفسه رحمه الله : أفتيت بكشمير للمفتيين والعلماء في الفتاوى المشكلة وفي التي تكون آراؤهم فيها مختلفة ثلاث سنين كاملة ولم أفتقر لمراجعة كتاب في تلك البرهة . ثم لم يكتف في الفقه بمطالعة الفقه الحنفى بل طالع من كبار كتب الفقه المالكي والشافعى والحنبل ما يقضى العجب ويورث الحيرة ، وكانت أكثرها غير مطبوعة عند ذلك ، فهذا كتاب "بدائع الصنائع" لأبى بكر الكاسانى و"البحر الرائق" لابن نجيم و"النهر الفائق" لأخيه و"رد المحتار" للشامى و"كتاب

الأم “ للإمام الشافعي وغيرها من مبسوطات الفقه كلها . كانت بمرأى عينيه ، طالعتها وأمثالها سطرّاً سطرّاً حرفاً حرفاً ، وكان يثني كثيراً على كتاب “ الأم “ وعلى ذكوة الإمام الشافعي حتى قد يقول : إني كلما أطلع كتاب “ الأم “ يقع في قلبي أن الإمام الشافعي رحمه الله من أذكاء الأمة .

وكان يقول : أقدر على تلخيص كتبهم أيّ كتاب كان إلا كتاب “ الأم “ ، وكان يثني على “ البدائع “ كثيراً ، فكان يقول : إن مؤلفات العراقيين من الفقهاء الحنفية أثبت وأتقن من تصانيف الخراسانيين ، ولكن “ البدائع “ مع أن مؤلفه ملك العلماء أبا بكر الكاساني من الخراسانيين ولكنه في الثبوت والإتقان مثل مؤلفات العراقيين ، بل فاق حسناً على سائر كتب فقهاءنا الحنفية رحمهم الله ، كتاب بديع إن طالعه عالم بالغور والإمعان لصار فقيه النفس ، وهو أنفع للمدرسين والمؤلفين منه للمفتيين .

وكان يقول : لا يجوز لأحد أن يفتي ما لم يطلع “ البحر “ أو “ رد المحتار “ بأسره أو كتاباً مبسوطاً آخر من مبسوطات الفقه الحنفي ، نعم صدق من قال : لا تقعن البحر إلا ساجحاً .

وكان رحمه الله يقول : إذا ثبت في أمر قول أبي حنيفة رحمه الله فلا أرجع إلى قول الصاحبين ، وإذا لم يرو عن الإمام شيء فما وجدته مروياً عن الإمام أبي يوسف آخذه ولا أنتظر قول الإمام محمد ، وإذا لم يثبت شيء عن أبي يوسف فأعمل على قول محمد ولا ألتفت حينئذٍ إلى أقوال باقي المشايخ الحنفية ، وإن لم أجد عنه قولاً فإن كان عن الإمام الطحاوي قول فأتمسك به . وإذا اختلف العراقيون ومشايخ ما وراء النهر فأختار ما ذهب إليه العراقيون ولا ألتفت إلى تصحيح المشايخ وترجيحهم عند الاختلاف ، إذ ربما يختلف التصحيح ، بل العبرة عندي إذن لقوة الدليل .

وكان يقول رحمه الله : لا أقلد أحداً من الأئمة في سائر الفنون العقلية والعقلية إلا الفقه ، فإنني أقلد فيه الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ، فلي رأى مستقل في كل علم إلا الفقه ، وكثيراً ما إذ أغوص في تخريج أقوال الأئمة المجتهدين فقد يقصر خبي عن إدراك مدارك الاجتهاد وأتخير لدقة مداركهم وبعد كنهها .

قال الراقم : تبصّر واعتبر بهذا القول من هذا الشيخ الذي كان حبر الأمة في عصره ، لو رأيت حين كان يخوض في غمار الفقه ويغوص في بحاره وطفق يبين تخريج أقوال الأئمة ومنشأ اختلافاتهم وترجيح بعضها على بعض لرأيت سيلاً يهمل أو بجرأ يموج . وتمثل لديك قول المتنبي :

ووجه البحر يعرف من بعيد * إذا يسجو فكيف إذا يموج

ولقلت : كأن روح فقيه الأمة وإمام الدين والدنيا نعمان الكوفي تدندن في حلقوم الشيخ الأنور ، ولكن مع هذا الفضل الباهر الذي كان يدهش العقول ويحير الفحول يعترف بهذا ، فما ذلك إلا لغور كنه مدارك الفقه ، ووعور مسالكه وصعوبة مراحلها . وهذا دليل بين وبرهان ساطع على وصول هذا الفقيه الحبر إلى أقصى مدارك العلم ومعارج الديانة ومدارج الإنصاف ، فدع السفهاء والجهلة الذين زعموا أن الاجتهاد أمر سهل هين لين يقدر به كل من أحاط بكتاب ” بداية المجتهد ” لابن رشد الفقيه المالكي أو الحمقى الذين يزعمون أن كل أحد يقدر على الاجتهاد بالعبور على ” القرآن ” وظواهر الأخبار ، فيحرم عليه تقليد مذهب أحد من أعيان الأمة ، فيظنطنون هؤلاء في كتاباتهم ومؤلفاتهم طنين الذباب ، ويرمون العلماء الربانيين بعوائهم كالذئاب . ومنشأ كل ذلك الجهل عن معرفة مراتب السلف والقصور عن فهم مداركهم ، وفوق كل ذلك الحمق والسفه البين العوار . وهذا داء أعبي

الأطباء دواءه ، فيقال لهذا الذى يقع بالشنان ويجمع من غير طحين :
هلا ادعى ابن رشد الفقيه الاجتهاد بسبب هذا الكتاب ؟ ولم لم يعد فى زمرة
المجتهدين ؟ ولم يعزو نفسه إلى المذهب المالكي ؟ وكيف يقلد فى الفروع ؟
وهل يسوغ التقليد لمن بلغ رتبة الاجتهاد (١) . نعم هو رجل فقيه النفس
بعيد الغور ، له مزايا جلية هو فريد فيها ، وقد أحسن إلى الأمة الإسلامية
بإبراز هذا العلق النفيس ، غاص فى منشأ اختلافات الأئمة ، ونبّه على أنه
كيف تشعبت الآراء وتطرق الاحتمالات وتنوعت الأدلة ، فعرفها وفهمها ،
لا أنه صار مجتهداً مطلقاً فى المذهب بهذا القدر ، فإنه لا يكفى هذا القدر فقط
ولا يشفى ، نعم وليس القوادم كالحوانى ، فإذا لم يكن هو نفسه مجتهداً فما
ظنك بمن يستفيد منه حتى يبلغ به قلة الاجتهاد الشائخة التى تبقى العين دونها
حسرى وما تنفع الشعفة فى الوادى الرغب ، فليستقيم المرء وليتزود التقوى ،
ولا يتبع الحوى ، فإنه قد أضل وأردى ، وليعرف لكل شئ قدره ، وليعط
كل ذى حق حقه . علا أنه لخص كتابه هذا من كتاب "الإستدكار" لحافظ المغرب
ابن عبد البر ، فالفضل أصله يرجع إلى أصله وإن كان هو موفقاً فى التلخيص
والإجادة ، وهو إمام وفضله أكثر ولم يعد هو فى المجتهدين بل عد من كبار
المالكية وحفاظ الحديث وكفى به مزية وفضلاً . وأما الفريق الآخر فنطوى
الكشح عن خطابه ، فإن هؤلاء بلغت سفاهتهم إلى غاية وأمد بعيد حيث
يستنكفون عن إتباع الإمام أبى حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعى والإمام
أحمد فقهاء الأمة المحمدية ، ثم يقلدون أقوال ابن حزم وابن تيمية وابن القيم ،
بل القاضى الشوكانى ، وبل النواب المعزول البهوفالى من هو أدون منهم
(١) ولم يصرح جده الفقيه صاحب "المقدمات" مجتهداً وهو كان أحسن به .

بمراتب من حيث لا يشعرون، فيستمسكون بعراهم ويعتصمون بأقوالهم وآرائهم الشاذة ويزعمونها حياً سماوياً لا يتغير ولا يتبدل، وكأنهم معصومون غن الخطأ والسهو، وأن الحق لا يتجاوز رأيهم ولا يعدو مظنونهم، فيا للعجب. ويا للأسف! هداهم الله وإيانا بفضله، ونجانا من غوائل الهوى، ووفقنا لإتباع أئمة الهدى، ولو لا مخافة التطويل والخروج عما أنا بصددته لصدعت بالبحث وبينت عوار هذا القول الشنيع وسقيت الصدى وشفيت الصدر وبردت الغليل، والله يقول الحق ويهدي السبيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ودونك الآن مثالين ليتضح لك دأب الشيخ رحمه الله في أبحاث الفقه:

المثال الأول: قال شيخنا المحقق في "فتح الملهم شرح صحيح مسلم": قال علامة عصرنا الفاضل الكشميري أطال الله بقاءه (رحمه الله): أن قولهم: "الكفار مخاطبون بالمعاملات" إن كان المراد به الخطاب ثواباً وعقاباً في الآخرة فمسلم لا شك فيه، وإن كان المراد الخطاب صحةً وفساداً في أحكام الدنيا فليس هذا عندي على الإطلاق، فقد صرح في "الهداية": إن الكافر إذا تزوج بلا شهود أو في عدة كافر — وذلك في دينهم جائز — ثم أسلم أقرأ عليه عند أبي حنيفة رحمه الله، لأن الحرمة لا يمكن إثباتها ههنا حقاً للشرع، لأنهم لا يخاطبون بحقوقه، ولا وجه لإيجاب العدة حقاً للزوج، لأنه لا يعتقده. وصرح الشيخ ابن الهمام رحمه الله أن المسلم إذا باع من الحربى ميتة أو خنزيراً أو قامره وأخذ المال يحل كل ذلك عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله تعالى، ولو كانوا مكلفين بالمعاملات بحسب الصحة والفساد لم يصح النكاح في الصورة الأولى ولم يحل ذلك المال في الصورة الثانية، ولهذا نظائر أخرى تقف عليها بعد التتبع البالغ، فكما أنهم استثنوا من العقوبات حد الشرب كذلك ينبغي تقييد المعاملات أيضاً بشئ يخرج أمثال هذه الفروع المنصوصة عليها في كتب

الفقه اه . وهذا تفصيل لا بد من المصير إليه والله أعلم. انتهى (١) .

المثال الثاني: اختلف الأئمة في مسألة المصرة، والحديث فيها مشهور، فذهب مالك والشافعي وأحمد وأبو يوسف إلى : أن التصرية عيب يرد به المبيع ، ثم عن أبي يوسف روايتان في رد صاع من التمر معها أو قيمة اللبن ؟ وقال أبو حنيفة ومحمد : لا يرد ، والحديث وارد عليهما . فاختر الحنفية في الجواب مسالك واضطروا إلى العمومات في مقابلة الخصوص من الآثار والنصوص ، وأحسن من أجاب منهم الإمام الطحاوي في ” شرح معاني الآثار “ ، وهو أول من أجاب منهم ، فعارضه بحديث « الخراج بالضمان » ، وهو حديث قوى ، وليراجع تفصيل جوابه من كتابه ، فقال الشيخ رحمه الله : جواب الطحاوي وإن كان أحسن مما استدلو به من العمومات والقياس واتبعه المتأخرون غير أنه أيضاً لا يجدى حسب تفصيل فقهاءنا الحنفية رحمهم الله ، حيث قسموا العيب في مسألة خيار العيب إلى ثمانية أقسام ، فإن الزيادة إما متولدة من المبيع أو غير متولدة ؟ وكل منها إما متصلة أو منفصلة . فهذه أربعة أقسام ، وكل منها إما قبل القبض أو بعده ، فصارت ثمانية . والذي يحمل عليه حديث الخراج بالضمان عندهم هي الزيادة الغير المتولدة ، فكيف يجدى استدلاله العام الذي يحتمل وجوهاً ومحامل ؟ ثم قال : والذي تحقق عندي أن الحديث من باب الديانة لا من باب القضاء ، فتجب الإقالة على البائع ديانةً ، فإن مدار القضاء على الظواهر لا السرائر ، فالسرائر لا سبيل إلى علمها ، وحينئذ يوافق الحديث مسائل الحنفية أيضاً ، فقد صرح الشيخ ابن الهمام في ” الفتح “ من باب الإقالة : أن الغرر قولى وفعلى ، وعلى الأول تجب الإقالة قضاءً ، وعلى الثانى ديانةً ، ولا ريب أن ههنا غرر فعلى ، فتجب الإقالة ديانةً ، ولم أر من تنبه له ، وقد صرح فى ” الوجيز “ و ” التهذيب “ و ” الحاوى “ : أنه يرد فى

مثل هذا عند التراضى ، (فصار من باب الديانة أوقريباً منها) . ومما قلت :
زيادة المنفصل المتولد * أوعكسه متعيب لم يرد
ثم فى "التهديب" و"الوجيز" * "حاوى" الجواز بالتراضى يحمل
والفرق بين القضاء والديانة قد سلمه الشافعية أيضاً فى كثير من المسائل .
هذا ما استفدته ولخصته من "العرف الشدى" و"فيض البارى" من تقارير
الشيخ رحمه الله فى درس الحديث ، ومن شاء التفصيل فليراجعها ، والله الموفق
وبه نستعين .

الشيخ وسعيه فى خدمة المذهب الحنفى .

لعلك فهمت مما أسلفنا من آداب الشيخ ومزاياه الخاصة أنه قد تغلغل فى
فقه الحديث النبوى ووصل إلى أسرار الفقه وأغراض المجتهدين بالدعوة
العليا والغاية القصوى ، فهذا الشيخ الإمام حبر الأمة قد خدم المذهب النعمانى
برهة طويلة فى دروس الحديث ، دروس "سنن أبى داود" و"جامع الترمذى"
و"الصحيح" للبخارى وغيرها ، وفى رسائله المؤلفة فى المواضع المهمة ما سندكرها
إن شاء الله تعالى ، وفى مجالسه ومحافله ومواعظه وخطبه ، فكم من أحاديث قد استدل
بها له ! وكم من آثار احتج بها له ! وكم من المسائل الجزئية فى الفقه الحنفى قد
رخص بنيانها ! وكم من قواعد كلية وضوابط عامة للمذهب أسس عمرانها !
وكم من غوامض ودقائق وصل إليها فكره ! وكم من سوانح وقتية جاد بها
نظره وسمح بها لسانه ، وقد قضى نحو ثلاثين عاماً وهو شط عمره الشريف
فى خدمة مذهب إمامنا ومقتدانا الإمام القطب الذى تدور حوله رضى الفقه
من فقهاء الأمصار الإمام الكوفى أبى حنيفة التابعى رحمه الله ، فحاز كنوزاً
وذخائر من الدلائل والشواهد والآثار والتابعات ، وكان قد يجرى على مقوله
كان الله خلقنى لتأييد مذهبه ، وقد يقول : قد أسست بنيان الحنفية بحيث

لا يفنى مذهبهم مائة سنة إن شاء الله . وضبط ذلك في مضابطه وجمع فيها ذخائر لو بسطت اليوم مرتبة منتظمة مفصلة على الطريقة التأليفية على الأوراق ، وجمعت نقول الأسفار التي أحال عليها برمز صفحاتها لبلغت أجزاء كبيرة مما يتعلق بالفقه الحنفى فقط دون سائر العلوم ، فلو أمعن خبير عاقل في مساعيه الجميلة وآثاره الباقية الصالحة لاعترف بمن هذا الشيخ ، ولاعترف بأن وجوده كان تأييداً ربانياً للمذهب النعمانى بدا في هذه القرون المجيدة والعصور الماحلة . وكان يقول : ما رأيت مسألة في الفقه الحنفى لم تكن له حجج مؤزرة أزيد من مذاهب الأئمة أو مساوية لها ، ألهم إلا في مسألة الخمر ، فإن دلائل الجمهور فيها غالبية كثيرة لم أفز لقول الإمام بشئ يقاوم براهينهم ، وكان يذكر مسألة أخرى نسيتهما الآن . وكان ينبه الطلبة تنبيهاً عظيماً بأن لا يذهب وهلكم إلى ضعف مذهب إمام من الأئمة المجتهدين ، فكلهم أئمة قدوة ، ولنا فيهم أسوة ، ولكل وجهة هو موليها . فهذا حاله من خدمة المذهب الحنفى ، نعم جذب الزمام بريض الصعاب ، ومن طلب عظيماً خاطر بعظيم . ع : إذا كانت النفوس كباراً * تعبت في مرادها الأجسام .

درجته في سائر العلوم العقلية والعلوم الغريبة والعلوم العربية، ومطالعة زبر المحققين ، وبيان بعض فوائده.

لما كان التعطش إلى درك حقائق العلوم والوصول إلى ذروة سنامها دأبه الطبيعى وعادته الفطرية أنفذ وسعه وسعى سعياً حثيثاً في مطالعة كتب أئمة الفنون من سائر العلوم من كتب الفلسفة الطبيعية وأسفار الفنون الإلهية وكتب الحقائق والتصوف وتحصيل العلوم الغريبة من : النجوم ، والرمل ، والجفر ، والموسيقى ، والقيافة ، وفنون الهندسة ، والرياضى بفنونه من : فن الربع المقنطر ، والربع الخليل ، والأسطرلاب ، والمناظر ، والمرايا ، وما عداها مما يتعلق به .

وهكذا في علوم العربية وعلوم البلاغة ، فطالع "كتاب سيبويه" وعدة شروحه ، وكان بعده من أصعب كتب العربية بل أصعبها على الإطلاق ، وطالع من الفلسفة "الشفاء" و "النجاة" و "التعليقات" و "الإشارات" لابن سينا وشروح "الإشارات" للإمام الرازي و "المخدول الطوسي" و "المحكم" . وطالع "القبسات" و "الأفق المبين" من تصانيف باقر داماد الفيلسوف الحاذق الرافضي ، وطالع تصانيف الصدر الشيرازي الشيعي من كتاب "الأسفار الأربعة" وغيره . وكان يقول : هو حاذق في الفلسفة والتصوف بلغ فيهما الغاية ، وطالع "دائرة المعارف" للبستاني و "دائرة المعارف" لفريد وجدي حرفاً حرفاً . وكان يطالع "تفسير الطنطاوي" جزءاً جزءاً كلما يطبع منه جزء ويصدر ، وطالع من كتب الفلسفة الجديدة مما ترجم إلى اللغة العربية من اللغة الفرنسية والإنجليزية كالدروس الأولية وغيرها ، فحوى علماً عظيماً بالفلسفة الجديدة وآراء المعاصرين ، ويقول : "تفسير الطنطاوي" احتوى على ذخيرة عظيمة من العلوم الحديثة والفنون الجديدة ، وكان يقدره من هذه الجهة فحسب ، وكان رحمه الله حصل اللغة الإنجليزية في نحو ستة أشهر حتى قدر على التحاور فيها والاستفادة من كتبها ، بيد أنه رنحت عنها نفرة عظيمة في قلبه ، فما ندس بعده بكلمة منها ، ولم يطالع شيئاً منها حتى لقي الله تعالى . وأحاط علماً بكتب المحققين من جميع العلوم من تصانيف الحافظ ابن تيمية والحافظ ابن القيم في جميع الفنون ما تيسر له ، وتسانيف الحافظ ابن حجر العسقلاني وتسانيف الشيخ الأكبر الإمام محي الدين ابن العربي ، وطالع "الفتوحات المكية" من تصانيفه مرتين بغاية الإمعان وإتباع النفس ، وطالع تصانيف الإمام حجة الإسلام الغزالي ، ومؤلفات الإمام فخر الدين الرازي ، ومصنفات الإمام الحجة الشاه ولي الله الدهلوي ، ومؤلفات المحقق العارف مولانا القاسم النانوتوي وغيرهم من المحققين قبلهم

وبعدهم ، فاحتل السهاد لمطالعة أسفار هؤلاء المحققين الراشدين ، وكابد وقاسى الشدائد حتى أتعب نفسه ، فكم من ليال لم يوطئ فيها جنبه الفراش وتجافى عن المضجع فى خوض غمارها ، وله فى ذلك خوارق يتحير منها العقل والخيال . نعم وقد قيل فى المثل : و” بالخض يبدو الزبد“ . ولقد صدق القائل :

لا تحسب الجهد تماًراً أنت تأكله * لن تلعق الجهد حتى تلعق الصبرا

فحصل من ذلك على علوم منقحة صحيحة . ثم وفقه الفيض الإلهى لطريقة سوية معتدلة بين اختلافات العلماء ، ورزق فهماً ثاقباً ورأياً صائباً فى جميعها . وصدق فيه قول قائلهم :

وكان من العلوم بحيث يقضى * له من كل علم بالجميع

وقد أحاط بكتب الأناجيل وأسفار العهد العتيق مع شروحه وما يتعلق بها من الكمارى والتلمود ، وكان يفهم العبرية ، وكان طالع ” التوراة “ بالعبرية ، وكان يحفظ عدة آيات من التوراة مما يتعلق ببشارة رسالة سيدنا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، وقد جمع مائة بشارة من العهد العتيق والجديد فى ليلة واحدة احتاج لها صبيحتها فى مناظرة مع بعض التسييسين بكشمير حتى بهره فأفحمه فظل واجماً . وهاك بشارتين مما سمعت منه رحمه الله من تلك البشارات بالعبرانية فى درس ” صحيح البخارى “ :

١- ” نأبى مقريخ مشخيش كاموخ بأقيم لخ ألوهخ إلا وتشاعون “ (١) .

٢- ” يهو مسينائى باوظارح مساعير كوفيعه مهر باران “ (٢) .

(١) يعنى : نبى من فربك من اخيك كمشلك يقيم لك الهك اليه تسمعون .

(٢) يعنى : جاء الله من سيناء (إشارة الى ”توراة سيدنا موسى عليه السلام“)

وظهر من ساعير (جبل بالشام إشارة الى نبوة سيدنا عيسى عليه

السلام) واستعلن من فزان (جبل بمكة) إشارة صريحة الى نبوة

سيدنا خاتم الانبياء محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم) .

ولذا قد شأهدنا أن كل من سألہ فی آی علم من العلوم الی أسلفنا ذکرها حتی الطب وغیره وجد عنده علماً عظیماً منه ما یشالج به صدره وتقر عینه ، وكان یرجع منه علی شفاء وطأئینة فائزاً ، وكثیراً ما رأینا أنه إذا سألہ أحد عن مشكل فلم یتأمل فیہ بل كان جوابه علی رأس لسانه و مقولہ ، وربما أطرقت کبرق خاطف ثم یشرع فی التحقیق وحل أطرافه ما كان یورث الحیرة .
ولله در القائل :

أبدأ علی طرف اللسان جوابه * وكأنما هنی دفعة من صیّب
یغدو مساجله بعز صافح * ویروح معترفاً بذلة مذنب

وقد رأینا غیر مرة : إن كان یحضر عنده أحد من الأفاضل بتألیف له فی موضوع خاص قد طالع له جمیع المظان بتنقیب تام ، ثم كان یفوز منه بعلم جدید لم یدركه ولم یصل إلیه مع التبع البالغ والاستقراء التام ، و”عند النطاح یغلب الكبش الأجمل“ وكان یثنی كثیراً علی تبهر الحافظ شیخ الإسلام ابن تیمیة ، ولكن مع هذا كان یقول : هو عندی غیر حاذق فی المعقول ، نعم عنده ذخائر فی المنطق والفلسفة ، وفی كل علم من النقول ما یدهش العقول ، وعلمه بالعربیة غیر ناضج ، ولنفظه بالأردویة (عربیة كچی هے) (۱) . وكان یتعجب من تغافل الشیخ الأكبر فی العلوم قاطبة وحذاقته فی الفنون الحکمیة العقلیة . وكان یقول : لا یفهم أحد الجزئین الأولین من كتابه ما لم یكن له باع واسع فی العلوم الغربیة أيضاً . نعم : ”العلم داماء لا یقطع بالإرماث“ . وكان له رأى بدیع فی المحاکمة بین العلماء ، فكان یوفی كل أحد حقه ویقدره قدره بغایة عدل ، وكان یقول : قد تعصب ابن رشد المالكی فی رد ”تهافتة

(۱) وكان یقول : انه ذخار ولكن یظن رایه وحیاً سماویاً ، وتارة كان

یقول باللغة ”الأردویة“ : ”اپنی گنتے ہیں دوسرے کی نہیں سنتے ہیں“ یعنی : یقول ولا یسمع كلام غیره . منه .

الغزالي“ (١) ، وتحكم ولم يصب في بعض المواضع . نعم الإمام الغزالي أيضاً لم يؤد حق الرد في بعض المواضع . وهكذا كان له بدائع عجيبة واستدراكات على الفنون والعلماء وتعقبات لطيفة عليهم ، وسند ذكر نبذاً منها . وبين رحمته الله لكل أحد من هؤلاء المحققين خصائص عجيبة مما تحققت عنده بممارسة مؤلفاتهم بعد التجربة الكاملة . وبالجملة كان إماماً محققاً في العلوم كافة خبيراً مطلعاً على مشكلات الفنون ، كان قد تدارس جميع هذه المشكلات برهنة طويلة وحققها ونقحها . وقد قلت سابقاً وأقول ثانياً : إن الشيخ رحمه الله كان آية من آيات الله العظام لو لم نره لما اطمئنت نفوسنا بما يؤثر إلينا من هدى علماء الأمة الذين مضوا ولم نتيقن بأنه كيف يوفق أحد لمطالعة مجلد أو مجلدين كبيرين في يوم واحد أو ليلة واحدة . نعم وكم من أسرار وحكم في العالم لله العلي العظيم يبسط لعباده الأيام ويبارك لهم في الأوقات ، وقد قال هو رحمه الله في قصيدة له في حقائق إسراء النبي ﷺ :

وأبدى له طي الزمان فعاقه * رويداً عن الأحوال حثاه ما جرى

فكان الله خلقه لذلك وكل ميسر لما خلق له . ومن العجائب أنه مع كثرة مطالعته بهذه المثابة لم يطالع قط مدة عمره متكتاً ولا مستلقياً ولا مضطجعاً ،

(١) ”تهافت الفلاسفة“ ، كتاب للإمام الغزالي ، الفه رداً لاباطيل الفلاسفة“ ،

بحث فيها عن عشرين مسالة من خزعبلاتهم ، واكفرهم في ثلاث مسائل :

مسالة ”قدم العالم ومسالة“ انكار حشر الاجساد ومسالة ”علم الواجب

بالجزئيات على الوجه الكلي“ ، ثم جاء ابن رشد المالكي الفقيه الفلسفي

المتوفى سنة ٥٩٥ هجرية فرد على الامام وسمى كتابه : ”تهافت التهافت“ ،

ثم جاء الشيخ خواجه زاده وحاكم بينهما بامر السلطان محمد الفاتح الاول .

وطبعت هذه الثلاثة مجموعة بمصر ، وللمحقق العارف الجاسي ايضاً محاكمة

بينهما ، وللشيخ علاء الدين ايضاً رسالة في المحاكمة سماها : ”الذخيرة“ ،

وانها طبعت بدائرة المعارف حيدرآباد دكن . منه .

(نفحة العنبر م — ١٣)

هكذا سمعته أذنأى منه وجرت به في عهد المزاملة والملازمة بل كأين ما رأيناه
جالساً على صدور قدميه نحو أربع ساعات فصاعداً في مجلس واحد . وأصبح
ذلك سبباً لداء الباسور وابتلائه به ، وقد كنت أنشأت أبياتاً في بعض مآثر
الشيخ قدس سره في عهد الاشتغال بالتحصيل ، وأحاول أن أهدى منها نبذة
للناظرين والله الموفق والمعين .

أبيات للراقيم في مآثر الشيخ رحمه الله تعالى

بحر العلوم فما بحر يشاكله	يروى الأغلة منه كيفما شاءوا
حبر وحيد فما حبر يناطحه	بحر يمج إذا الصادين ما جاءوا
بحر عميق فما شئ يسايره	ويستقر بأقصى مائه الماء
في العلم أقدامه تعلو ذرى قلل	له الوجاهة عند الله علياء
حنادس الجهل من إرشاده محيت	فالليل منهزم والشمس شرقاء
تشفى سحائبه أكباد صادية	يطفى بزورته وجد وحرأ
أحيى القفار بمزن العلم هامية	إن القلاة بجود المزن خضراء
ثبت وقدوة أعلام وعمدتهم	وحجة لهم في الأرض بيضاء
شيخ إمام وثبت حافظ ثقة	حاز المآثر فينا وهى زهراء
شيخ الشيوخ إمام القوم قاطبة	ورحلة لهم في العصر قصواء
كم من محور علوم غاص لجنتها	علم الحديث له في القوم سياء
فسمته الصمت أو فكر لمعرفة	درس ونصح وإرشاد وإفتاء
فلا تعد ولا تحصى مآثره	وكيف تحصى سبب الفضل وطفاء
لو نقبوا الأرض لم يوجد له شبه	والعين من مثله عشواء حسراء

هذا وقد تبين لك كفلق الصديق إن شاء الله أن الشيخ رحمه الله وصل
في المآثر العلمية الباهرة إلى الذروة العليا ، فإننا قد بشنا لك ، وستنبث نماذج

عن استبحاره الجامع في العلوم قاطبة ، ولكن ساعدته المراحم الإلهية والألطف الخفية الربانية بأن فوض إليه درس كتب حديث النبي ﷺ ، فكان يدرس في دارالعلوم الديوبندية ” صحيح مسلم “ و ” سنن النسائي “ و ” سنن ابن ماجه “ عند وجود شيخه رحمه الله ، ثم فوض إليه ” صحيح البخاري “ و ” السنن الجامع “ للترمذي و ” سنن أبي داود “ ، ثم اقتصر درسه على الأولين فقط نحو عشرين سنة ، ثم بقي في آخر عمره درس ” الصحيح “ للبخاري فقط ، فكانت من سعادته وحسن حظه أن مضت أنفاسه الطيبة في الأنفاس القدسية النبوية فصحبت أنفاسه المباركة الأنفاس الطاهرة النبوية . والله در القائل :

أهل الحديث هم أهل النبي وإن * لم يصحبوا نفسه أنفاسه صحبوا

فلذا اشتهر في العالم الإسلامي بـ ” المحدث “ و ” شيخ الحديث “ ، فصار له الحديث شعاراً ودثاراً ، وإن فوض إليه درس علم آخر من علوم البلاغة أو علوم الفلسفة والمنطق وغيرها لصار فيها عالماً مفرداً شامخاً في العالم ، ودعى في العلماء نظاراً أصولياً أو فيلسوفاً محققاً ، وإلى هذا أشرت في أبيات لي في رثائه :

وقد كانت سعادته بحق * تبدى في الحديث لدي اذكار
وإلا كان تحريراً وحريراً * وغواصاً سبوحاً في البحار

وهذا أمر قد انجلي عند مستقيديه كالشمس في رابعة النهار ، فلا تلتحقك ريبة ومرية ، فإن الحق أبلج والباطل للجلج . والله الموفق والمعين .

الشيخ وخصائص درسه، الشيخ والتاليف، الشيخ
وبعض فوائده العلمية، الشيخ والشعر، الشيخ
والفتنة، المرزائية، الشيخ ونبذ من شمائله
العامة، مقاله تاريخيه لبعض الافاضل، الشيخ
وثناء امثال العصر.

الشيخ وخصائص درسه وشيوع طريقته المبتكرة.

كان للشيخ رحمه الله مبتكرات طبيعية في الدرس ما يحار له العقول وتأخذ
بمجامع القلوب والعقول، ولا بدع فإنه كان محققاً ومتقناً في العلوم والمعارف
كافة، فكان رحمه الله إذا أخذ في الإلقاء يواصل الكلام، فلا يتلثم فيه
ولا يتلجلج من غير أن يلحقه فتور أو احجام، ولم يكن يفتقر إلى استدراك
عثرة في اللفظ أو تكرار في النطق، ولا يتخلله سكوت ولا حصر ولا بهر،
فكان يحذر المسائل الدقيقة حذراً ويسرد المباحث الأنيقة سرداً، تراه بحراً
يموج بعبابه حتى تعجز مهرة الكتاب عن ضبط كلامه واستيعابه، ينتقل
حده من مسألة إلى مسألة ومن علم إلى علم، وينشأ بينهما تناسباً دقيقاً للحام،
ويفرغه في بديع أسلوبه بحسن سبك وانسجام.

وأهمات خصائصه التي وعانا قلبي ووصل إليها فكري أصدع بها
محصة منقحة:

الأولى: إنه كان يذكر جميع المباحث المتعلقة بالحديث من بيان مذاهب
علماء الأمة وأدلتهم مع ترجيح بعضها على بعض بغاية إنصاف وعدل، وبيان
فوائده ومزاياه، ثم إن كان له أدنى تعلق بمسائل علوم آخر يذكرها، والشئ
بالشئ يذكر.

الثانية : إنه كان يأخذ المسائل والمباحث من كلام أكابر علماء تلك
الفنون فيذكر نحو سيديويه وأقوال معاصريه ، ولا ينحط من نحو ابن هشام
والمحقق الرضى ، ولا يذكر في البلاغة إلا قول الشيخ عبد القاهر الجرجاني
والعلامة الزمخشري ، ولم يكن ينحط إلى أقوال العلامة التفتازاني والخطيب ، بل
كان لا يرضى بتعابير السكاكي في "المفتاح" ، نعم ربما يذكر أشياء في البلاغة
للشيخ تقي الدين السبكي وابنه الشيخ بهاء الدين السبكي من كتابه "عروس الأفراح"
فتمعجبها ، وكان يقول : قد فاق تقي السبكي على ابن تيمية في علوم البلاغة والعربية ،
بل كان لا يقدر رأيه في هذه الفنون مع اعترافه بتبحره المدهش ، وكان يأخذ
اللغة من كلام الأئمة ، كالجوهرى في "الصحيح" ، والأزهري في "التهذيب" ،
والراغب في "المفردات" ، والزمخشري في "الفائق" ، ولم يكن ينزل عن
طبقة "القاموس" ، وهكذا في سائر العلوم مع تعقبات واستدراكات لطيفة
برأى صائب يقبلها الذوق الصحيح ويدعن لها المنصف البصير .

الثالثة : إنه كلما أحال على كتاب أو مصنف — وكان ذلك أول
مرة — فكان يذكر جملاً نفيسة بحال ذلك المصنف أو ذلك الكتاب ، ويذكر
خصائصه البديعة التي لا يجدها المتفقد في مطاوى كتب الطبقات ، ليكون
الطالب على خبرة وبصيرة نافذة ، وينبه الطلبة على ما كان فيه من المزايا
ليكون له عوناً عند الحاجة .

الرابعة : إنه كان يعتنى بأن يحل مشكلات العلوم والعقد التي اعتاص
انحلالها على القوم ، فيجر الكلام إليها بأدنى مناسبة .

الخامسة : إنه كان يحاول أن ينشأ في الطلبة ملكة راسخة في العلوم وسوادد
كامل يتمكن به من حل المعضلات ، وكان ينبئهم على أنه كيف ينبغي
الإرتقاء إلى مدارج شائخة في المعارف والعلوم .

السادسة : إنه كان يهيج رغبتهم إلى خدمة الدين ، وأن لا يجعلوا العلم وسيلة إلى معاشهم ولا ذريعة إلى المباحة والتمارى ، وأن يبذلوا مجهودهم في نصرة الحق والذب عن حياضه بكل ما أمكن ، ويمكن في قلوبهم أن المطلوب من العبد العمل الصالح دون العلم فإن العبد لم يخاق له ، وكان عنده رحمه الله شرف الإنسان بالعبودية دون العلم .

فهذه أمهات أغراضه في درس الحديث ما تنقح عندنا ، ولا نستطيع أن نستقصى محاسن درسه الجزئية من حلاوة الكلمات ، وعذوبة الفقرات ، وجزالة التعبيرات ، وتنقيح المشكلات ، بنمط بديع مفهم ملخص ، وجذب الأفكار والتوجيهات إلى درسه بشرائها ، وغيرها من المزايا الرائعة ما يحصر اللسان ويقصر القلم عن البيان ، بحيث يطرب الآذان وينشط الأذهان مما يتعلق بمشاهدة الأبصار ، وتعيي دونها مهارى الأنظار ، بل رمزنا إلى ما كان يجرى مجرى الأصول والأمهات الموضوعة والقواعد الكلية المتقررة .

وبالجملة فكان بجرأ ينحدر أو وادياً يسيل أو برقاً يسرى ، قصارى جهده أن يقيّد شوارد المسائل ، ويفتح المغلقات التى أقفلت أبوابها على الأمثال والجهاذة . فكانت درراً تناثرن من فيه وصدره بحر يقذف بمكامنه وخوافيه ، ولله دره حيث قال نفسه مشطراً لبعض الأشعار :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا * وسالت بطاح عندها بالمسائل
وقفت بها صبحي وما ثم موقف * ولكنه من عهدنا بالمنازل
فدع عنك نهياً صريحاً في حجراته * وهات حديثاً ما حديث الرواحل

وهذا الذى صدعنا به من خصائصه في الدرس صار سبباً لحرمان كثير من الطلبة والمستفيدين ومنشأ لإخفاقهم ، فإنه كان يضيق نطاق فهمهم عن درك تلك المسائل ولا يتسع وعائهم لضبطها ، ومع هذا فأعلن بكل واد وناد

على رؤس الأشهاد لكل حاضر وباد من غير مخافة لوم العاذلين والحق : أن البصيرة النافذة والتجربة العلمية والحذافة التامة التي تستفاد في عدة دروسه للبصير الحاذق والذكي المتفقد لا يفوز بها أحد في درس آخر وإن صرف عمره وبذل مجهوده ، فكانت دروسه نزهةً للخواطر وبهجة المسامع والنواظر ، تحتوى على غرائب الكلام وطرف الأبحاث ما نأخذ بالألباب ، وتحير القلوب ، والله يقول الحق وهو يهdy السبيل .

فهذه مآثرها الفائقة التي انتهت إليها المشاهدة بالأنظار والأبصار ، وأسندت للناس بصحاح الأخبار والآثار ، وما يوم حليلة بسرو الله المستعان . ثم لم يكن عليك غمة من أن هذه الطريقة التي ابتكرها من نقل نقول متكررة في الدرس وجمع مواد وافرة في الباب لم تكن رائجة في الهند قبله ، فرحمه الله كان هو أبو عذرتها وابن بجدتها ، وكان قبله المدرسون يذكرون شيئاً ولا يذكرون مأخذه ، بل كانوا يضمنون به ويحسبونه متاعاً فاخراً ، ذلك مبلغهم من العلم إلا من شاء الله وقليل ما هم ، فجاء رحمه الله وأيقظ الناس من رقاد الغفلة ، ونبتهم على تحقيقات أكبر المحققين مما سبقت إليه أقلامهم ، وبث فيهم جواهر علومهم التي سمحت بها أذهانهم وأفهامهم ، فكشفت الحجب وزال الغطاء وانشق الظلام وفلق الصديق وأضاءت لهم سبل التحقيق وطرق البحث والتدقيق ، مع تشذيب وتهذيب وتنقيف وتقويم ، فهذا هو الذي طبق الخافقين ذكره ، وأظهر فضله وقدره ، فشاعت اليوم بأكثر المعاهد العلمية طريقته العذراء في الدروس والتأليف ، فيحذون حذوه ويقتفون أثره ، ولكن أين الاستبحار كاستبحاره ؟ وأين الاستحضار كاستحضاره ؟ وأين ذلك الرأي الثاقب والقريحة الوقادة ؟ ثم أين تلك النصفة والديانة ؟ فناء ولا كصداء ، وفقى ولا كمالك ، ومرعى ولا كالسعدان . وقال قائلهم :

وما كل زهر ينبت الروض طيب * ولا كل كحل للنواظر إثم

وقيل :

وما كل مخضوب البنان بثينة * ولا كل مصقول الحديد يمان

ومن العجائب والعجائب جملة أن الشيخ رحمه الله لم يكن من دأبه المطالعة بالليل لما يدرسه بالنهار كما هو دأب عامة المدرسين ، فلم يكن يطالع لشيء مما كان يلقيه في الدروس ، حتى سمعت منه : ” أنى ما طالعت الكتاب الذى يقرأ على فى عمرى قط “ ، فتقوة الحافظة كانت أغنته عن ذلك ، فكفاه ما طالع فى بدء عمره ، وأغنائه الصباح عن المصباح ، لا أنه كان يالحقه الونى أو الكسل أو الملل من المطالعة ، بل جميع أوقاته كانت عامرة بمطالعة الأسفار وزبر المحققين . نعم قد كان يزور فى نفسه هنيهة لئلا ينتشر الكلام ولئلا يتسع مجال البحث كثيراً ، وليكون ما يلقيه منضبطاً محدوداً حتى يستطيع المستمعون والمستفيدون أن تنهضوا بأعبائها ، ولو لا ذلك لأعجز القوم عن التلقى ، فإنه كيف يسد البحر الذخار ، وكيف يوكأ على العيون الثرثرة .

فائدة : قال ابن خلدون المغربى فى مقدمة ” تاريخه “ : ” ولقد سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله تعالى يقولون : شرح كتاب البخارى دين على الأمة ، يعنون أن أحداً من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار الخ “ قال الحافظ شمس الدين السخاوى - تلميذ الحافظ ابن حجر العسقلانى - فى ” الضوء اللامع “ : إن ذلك الدين قضاه شيخنا الحافظ شيخ الإسلام ابن حجر رحمه الله بشرحه لـ ” صحيح البخارى “ ” فتح البارى “ . وبلغنى عن شيخ العالم مولانا شيخ الهند محمود الحسنى رحمه الله يقول : لم يوف الحافظ حق تراجم الصحيح . قال الراقم : لو كمل ما حاوله مولانا شيخ الهند رحمه الله من شرح أبواب الصحيح وتراجمه لقضى دين التراجم إن شاء الله ، والأسف أنه لم يكمل ما حاوله ، ومع هذا فالقطعة التى ألفها وطبعت

اليوم صارت للمستفيدين نبراساً ومقياساً . وهكذا قال الراقم : أن درس "صحيح البخارى" بحيث يكون حاوياً لمزاياه الكامنة ومعارفه الرائقة لم يكمل في كثير من الأزمنة، ولا سيما الأزمنة المتأخرة حيث طارت مآثر الآثار أدراج الرياح ، وسالت بأعناق مطاياها البطاح ، فكان درسه بحيث يكشف خباياه ويعم مزاياه ديناً في رقاب علماء الأمة المحمدية ، فقضى هذا الدين شيخنا رحمه الله وأوفاه ، ونقح مبناه ومعناه ، وحقق مرماه ومغزاه ، فكم من المسائل الكلامية كانت فيه مخبوءة، وكم من مزايا الحديث كانت محجوبة، وكم من لطائف وأسرار رائعة وحكم ومعارف عالية كانت فيه مكنوزة ، فرحم الله شيخنا حيث شتف آذان الأمة الحاضرة بحليها ، وسمح بمضنوناته التي هي جواهر غالية كانت في صدره . وصدق فيه قول البحترى :

وإذا تألق في العيون كلامه الـ * محمود خلت لسانه من عضبه
وإذا دجت أقلامه ثم انخنت * برقت مصابيح الدجى في كتبه
حكم فسأحها خلال بنانه * متدفق وقلبيها من قلبه
فكأنها والسمع معقود لها * شخص الحبيب بدا لعين محبه

هذا وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ والتأليف ، وبيان خوضه في الحقائق .

اعلم أن الشيخ قدس سره لم يرد قط من ريعان عمره أن يؤلف رسالةً أو كتاباً ، بيد أنه لم يبرح عاكفاً في جمع الأوابد وقيد الشوارد في برنامجه ومذكرته ، وكان ينفذ وسعه في حل المشكلات التي لم تنحل من أكابر المحققين ، فكلما سنع له شئ من مثل هذه المعضلات كان يستمرى لحله أخلاف طبعه

وفكره ، فكان يكتب ويقيد من سوانح الوقت وبوارحه ، وإن كان في كتب القوم شيء ينحل به عقدها أحال عليه برمز الصفحة إن كان مطبوعاً ، وهكذا كان ديدنه ودأبه من شرح عهده بمطالعة كتب القوم ، فلم يغادر علماً إلا وله في حل عقده تحريرات وبدائع تحقيقات ، واجتمعت لديه نفائس من ذخائر ثمينة على تحقيق مشكل واحد ما يحير الألباب والأفكار. وقد أسلفنا ذكر دأبه الشريف في مطالعة الكتب ، فكما تيسر له كتاب من أى مصنف كان من أى علم كان يطالعه من البدء إلى الختام ، وكان رحمه الله يقول : ” ربما طالعت مجلدات ضخمة من كتاب ، غير أنى لم أفز بشيء جديد وعلم حديث ، فكنت أتأسف على ذلك ، وربما ظفرت بشيء يسير أو فائدة جديدة فاغتنمت وحسبت أن سعيي أثمر “ ، حتى سمعت منه رحمه الله يقول : ” طالعت جميع مؤلفات الشيخ المحدث عبد الحق الدهلوى المطبوعة وما تيسر لى من المخطوطة ، ولم أحصل فيها بشيء من علم جديد إلا مسألة واحدة (١) .

فهكذا كان دأبه في المطالعة لا كعلماء العصر يطالعون مؤلفات علم أو علمين أو مما يفتقرون إليه في التدريس أو التأليف أو الإفتاء ، نعم وليس القوادم كالحوائى ، فكما اطلع على شيء نفيس وتحقيق عال وحاول ضبطه في مذكرته كان يقيده بالكتابة ، وله في ذلك أصول :

الأصل الأول : إنه كان يقيد ما ينحل به عقدة من مشكلات القرآن والحديث أو الفقه والأصول وعلم الحقائق والكلام والتوحيد وغيرها ، أو يفيدها في الحل استشهداً وتنظيراً .

الأصل الثانى : إنه إذا سنع له دليل للمذهب الحنفى أو ما يفيده في التأييد والاستشهاد ، أو كان له نوع ارتباط به على ما انتقل إليه حذسه وربما

(١) قال الراقم : وهذه المسألة كنت حفظتها من الشيخ وقيدتها في مذكرتى وهى ليست عندى وقد نسيته الان . منه .

ينحى على الناس فكان يقيده .

الأصل الثالث : إذا كان له تحقيق خاص في مسألة أو حل مشكل خلاف ما ذهب إليه الجمهور ثم سئح له فى أثناء مطالعته شئ يقيده أو يؤزره أو كان دليلاً على ما يرومه كان يقيده ، كسألة العماء ، ما ماهية العماء ؟ وهل هو قديم أو حادث ؟ وهل هو الوجود المنبسط أو غيره ؟ وماذا أريد به فى قوله صلى الله عليه وسلم : « كان الله فى عماء » من حديث رزين العقيل فيما رواه الترمذى فى « جامعه » ؟ وكسألة الروح والنفس وما يتعلق بهما من تحقيقات وتنقيحات لم تسمعها الآذان ، وكحقيقة التجلى ، ومسألة المعية الدهرية ، والسبقة الدهرية ، والمعية السرمدية الأزلية ، والمعية الزمانية ، وكيفية إفاضة الوجود من البارى جل ذكره على المقدورات الأزلية ، ومسألة صدور الحادث المادى من القديم المحرد ، وحقيقة عالم المثال ، وحقيقة درجات الجنة ، وطبقات النار ، وكيفية تكونهما ، وتحقيق استحالة هذه الأعمال الدنيوية بإشباح جزائها فى الآخرة سواء بسواء ، وصيرورة هذه الأعراض بعينها جواهر فى دار الآخرة ، وعدم فناء الأعراض ، وحقيقة التشكلات البرزخية وتصويراتها ، وتحقيق عدم انقراض الذكر من العباد المؤمنين فى القبر وفى الجنة إلى أبد الآباد وغيرها من باب الحقائق الغامضة والمعارف الإلهية ، ومشكلات العلوم ومعضلات الفنون مما يشكل استقصاؤه . فهذا ما تنقح لى ملخصاً من ضبط أصوله وعاداته ، وأشياء آخر هنا يمكن اندراجها فيها .

ثم له فى تقييده وجوه :

الوجه الأول : إنه إن كان شيئاً سمح به صدره يذكره بلفظ موجز وتعبير منقح من غير مزيد البسط والإطناب .

الوجه الثانى : إنه إذا كان تحقيقاً لغيره ففيه وجوه : فإما كان ينقله

بلفظه ، أو كان يلخصه في عبارته ، أو كان يحيل عليه بالمراجعة برمز الصفحة إن كان المنقول عنه مطبوعاً ، وإلا يكتفى بمجرد الحوالة . فهكذا قد اجتمعت عنده ذخائر من حل جميع المعضلات العلمية ، وعلى ذلك جبلت فطرته السليمة من بدء نشأتها ، لم يحاول تأليفاً للإشتياق أو لإفادة القوم أو لإذاعة صيته في العالم ، بل كأنه لم يتفرغ له أو لم يردده إشاراً للخمبول . وربما يقول : كفى لهم من التحقيق والعلم أن خاضوا في بحار علوم السلف واستفروا جهودهم وأتعبوا نفوسهم ، علا أنه قد ندرت البضاعة العلمية وخذلت اللواعج الطبيعية ، فإذا يغنيهم ما نذكر لهم اه . فلو عزم على تأليف لغرض من تلك الأغراض التي بينها لك لسالت بطحاء العالم بعلومه وتحقيقاته ، ولاستنارت أنواره اللامعة في أرجاء البسيطة ، ولملأت الدنيا معارفه شرقاً وغرباً ، ولنالت فضلاء العصر ضالتهم عجباً وعرباً ، فمدار الكنانة على معلاها ، وفخار الحلبة بمحرز مداها . بيد أنه قد بعثته على تأليف عدة رسائل الضرورة الدينية والخدمة الإسلامية لما تألم قلبه وتصدعت كبده ، وسندكرها . ورتب رسائل في بعض مهمات الحديث من المسائل الاختلافية بين أرباب المذاهب ، ملتحظاً لها من ذخائر مذكرته بإصرار وإلحاح من تلامذته وأصحابه ومستفيديه ، ذباً عن حريم المذهب الحنفى ، ودفعاً لطعن الحساد والجاهلين . وبالجملة هذه الرسائل المذهبية كانت درراً مبعثرة في مذكرته وبرنامجه ، رتبها نوع ترتيب على شكل تأليف ، ولذا تراها مشحونة بالإحالة على الكتب من غير سرد جميع عباراتها ، ولو رتب رسائله تلك على عادة مؤلفي العصر الحاضر أو على عادة المواعين بالبسط والتفصيل لصار كل رسالة منها في مجلدات ولا ريب ، علا أن طبيعته أيضاً كانت مولعة بالإيجاز والإختصار ، ولعل رحمه الله قد ظن أن الإيجاز كمال في التعبير ، فبلغ إلى ذروة سنامه وأقصى غايته حتى صار فيه نسيمج وحده ونظير نفسه ، وربما تشمئز منه الطبائع التي لم تستأنس بالمشكلات والغوص

في الغمار، ووقع بعض في صنيعة هذا وعابوا عليه ديدنه هذا ، نعم هان على
الأمس ما لاقى الدبر ، وقد صادق المتنبي حيث قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً * وأفتنه من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه * على قدر القرينة والعلوم
وأيضاً قال :

إذا كانت النفوس كباراً * تعبت في مرادها الأجسام

ومع هذا الإيجاز والإكثار من الإحالة قد بث في كل مؤلف علوماً
ومعارف وحكماً وحقائق ما يطرب السامع والآذان ، وينشط القلوب والأذهان
وأنا أعلن على رؤس المنائر أن كل موضوع ألّف الشيخ فيه لو توخى أحد
شيئاً زائداً في الباب من جميع كتب القوم ونقّب ونقّح وتفحص وتصفّح لحاب
وعجز إلا ما شاء الله ، فإن الشيخ رحمه الله قد أوعب واستوعب وأنى بالعجب
العجاب فأغرب وأطرب ، وزاد على كل موضوع على من سلف ، وأبدع من عنده
بدائع وغرائب لمحت بها أفكاره اللطيفة حتى لم يترك لشفرة محزاً ، ولا في الأمر
مساغاً ، والعيان أصدق شاهد ، فترى إن شاء الله تعالى كل مسألة ألّف فيها
الشيخ رحمه الله كلاً الحابس فيه كالمرسل إذ أمعنت فيها بصرك وبصيرتك ونقّيت
عن كدر الحسد سريرتك والله الموفق والمعين .

ثم إنه لما خصه الله بالقرينة الوقادة والنظر الدقيق والفكرة اللطيفة ذكر
شيئاً بشئ لأدنى تأييد أو استشهاد عميق ، أو لوّح إلى تزييف وعرض إلى
إسقاط قول وأكثر من الإحالات على الكتب واستغزر من الدلائل والشواهد ،
فلذا قد يشكل الوصول إلى غور مرامه والبلوغ إلى كنهه ، لأنه كلما وسع
العلم وسال في المناكب والأطراف ودق الفهم وغار الفكر في الدقائق ولطفت
الطبيعة وقوى الحدس واستشعر بالخبائيا في المقام لا محالة يتسع مجال الكلام

ونطاق البحث بحيث تنوء بالعصبة أعبائه وتنشأ في المقام المناسب اللطيفة والإرتباطات البديعة حتى يتعسر تعيين المناط وعماد الكلام ، نعم يحتوى مثل هذه التصانيف على فوائد شريفة وأسرار عالية وحقائق مضمونة ومعارف سامية ككتب شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الحراني ، ومؤلفات أرشد تلامذته الحافظ ابن القيم الجوزية ، وكلام الله تبارك وتقدس ، وأصح الكتب بعده بمرئى منا ومشهد ، فالمتكلم يتكلم حسب ما يليق برتبته وجلالة قدره وسعة علمه وجودة ذهنه ودقة فهمه وغناء طبيعته.. وفوق ذلك إن الله تعالى جعل مخلوقه على أنواع غير محصورة ، ثم خص كلاً منها بخصائص ومميزات ، فالطبائع مختلفة والأذهان متفاوتة ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ، ولكن يا لحفى ويا أسفى على أن الشيخ رحمه الله قضى نحبه ولم يخلف على أثره نادرة من تصانيفه من شرح "صحيح البخارى" أو "جامع الترمذى" ، أو أمأً من الأمهات الست ، أو كتاباً كالنذكرة له على نحو "بدائع الفوائد" للحافظ ابن القيم ، و"النذكرة" للقرطبي ، أو "الأمالى" للسيد مرتضى الزبيدي ، و"الخواص" للسيوطي ، و"الأمالى" للشيخ ابن حاجب المالكي ، ولو كان لكفى وشفى ، وأغنى عن إتعاب النفوس ، ولقرت به العيون وبرد الغليل ، فمات ولم تظهر أسرار دقائمه ، ولم تطلق عتاق خزائنه ، وقد عزم على شرح مبسوط على "جامع الترمذى" في آخر عمره ، غير أنه لم يمهله هجوم الأمراض وقلة الفرص حتى اخترته المنون وحن أجله المحتوم ودفنت منيته في جدث الثرى معه ، فحال الأجل دون الأمل ، وحال الجريض دون القريض :

ولم يتفق حتى مضى لسبيله * وكم حسرات في بطون المقابر

ومع هذا إن الرسائل التي ألفها في المواضيع المختلفة وطبعت ووصلت إلى

أيدي القوم، وما طبع من بعض "أباليه"، وما كان يلقى في الدرس خير علوم
ظهر على وجه البسيطة تطمئن به النفس وتنشرح به الصدر، ويلم به شعث
القلوب تحتوى على لب المباحث ومغزاها راق مبنها ومعناها، يفهم واسطة
العقد بين تصانيف القوم إن شاء الله تعالى، وسيعود بأوفر حظ من خاض
فيها. ولصدق فيه ما قيل :

العين عن قرة والكف عن صلة * والقلب عن جابر والسمع عن حسن

وقد حان أن نذكر مؤلفاته للناظرين والمشتاقين، ولا نطول الكلام ههنا
بعد هذا التمهيد الإجمالي والإشارة إلى عاداته وخصائصه وآدابه في التأليف
بذكر نماذج، منها فترجى إنهاء البيان فيها إلى نهضة أخرى. غير أني أريد
أن أذكر شيئاً من فواتحها وخواتمها وجملاً بمقتبسة من خطبها، ليدل الناظرين
على ما كانت للشيخ من مكانة علياء شامخة وقدم راسخة في حقائق العلوم وغوامضها،
فإن على فواتح كتبه دلائل بادية وبيّنات للبصير الناقد والخبير المحقق، فإن
المحنك لا تنزع له العصا، والعافل تكفيه الإشارة، والله المستعان وعليه التكلان :

١ - فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب (١).

جزء متوسط تم في ١٠٦ صفحات، أوله :

"ألهم لك الحمد حمداً دائماً مع خلودك ولك الحمد حمداً لا منتهى
له دون علمك الخ".
ثم قال :

"أما بعد فهذه أطراف وجمل من الكلام في حديث الفاتحة
خلف الإمام، من طريق محمد بن اسحاق، وبيان ما فيه من

(١) تأليفه في سنة ١٣٣٨ الهجرية. منه.

ملاحظ السياق ، كشفاً عن مغناه ومبناه ، ورشفاً عن مغزاه
ومعناه ، لم أتفرغ لإيضاحها إيضاحاً كنت أرتضيه ولا إلقاءً
على النجى على ما يكفيه ، نعم مداخل بحث هي شعوف وذكرة ،
لا تغنى عن مزاولة ريضة وأعمال فكرة ، والشأ في الاعتبار
الآتية في الكلام شأ واسع ، والمسافة من العلوم العربية سفر
شاسع ، والموضوع خير كله ، نعم إن غرضي أن أحصل على
غرض الشارع أولاً ، والشأن في الغرض ، ثم لم أخرج عن
أقوال أصحابنا وإن نزلت عن بعضهم إلى بعض ، ولا ينبغي لعاقل
أن يفسد دينه بدنياه ويجعل عاجلته على عقباه ، وما توفيقى إلا
بالله ، وهو حسبي ونعم الوكيل . ولتسم بـ ”نزل الرفاق في حديث
محمد بن اسحاق“ أو بـ ”فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب“ آه .
وقال في خاتمته :

”فاعلم أني ما كتبت هذه السطور بقصد الرد على الشافعية ،
وإنما كتبتها ليعلم وجه الحنفية في اختيار الترك ، فكنت من المنصتين
لا المنازعين ، فإن كنت ممن يستطيع القيام بالفرق بين هذين
المقامين فراعهم وصانني خلفي وأجزني ولو بفتاحة الكتاب فإنه
لا صلاة لمن لم يقرأ بها وحيا الله المعارف (١) :

مساخ من جر الرفاق على الثرى * وطاقات ريحان جنى ويا بس
وقفت بها صبحي وجددت عهدهم * وإني على أمثال تلك الحابس
آه .

(١) سبحان الله ما أبدع هذه الكلمات العالوية درر وحكم نشرت من قلم الشيخ
رحمه الله ، أجل فيها قداح نظرك تزذك علماً إلى علم و نوراً فوق نور ،
نعم صدق من قال : كلام الملوك ملوك الكلام ، وهكذا جميع كلماته
تحتوي على مغزى الكلام ، ولذا نبث منها شيئاً هدياً للناظرين والله الموفق
والمعين . سنه .

٢ - خاتمة الخطاب في فاتحة الكتاب

جزء لطيف بالفارسية في الموضوع السالف ، ألفه في يوم أو يومين في شرح شبابه وابتداء عهده بالتدريس في دار العلوم الديوبندية ، من غير مراجعة كتاب ، وعليه تقرّبط لشيخ العالم شيخه مولانا محمود قدس سره ، أننى عليه وعلى دقة نظره وعلى إجادته ، ليس الآن بين يدي حتى أذكر صدره ، وأما ختامه فيما أحفظ فهذا :

وإذا كنت في المدارك غراً * ثم أبصرت حاذقاً لا تمار
وإذا لم تر الحلال فسلم * لأناس رأوه بالأبصار

٣ - عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام أو " حياة المسيح بتمن القرآن وشرح الحديث الصحيح " (١)

جزء متوسط حافل ، كمل في ٢٢٢ صفحة ، بدايته :
" الحمد لله الذى جعل الحق يعلو ولا يعلى ، وجعل كلمته هى
العلياء ، وترك الباطل زبداء رابياً ، يذهب جفاء أو هواء ،
وكلمته هى السفلى ، وعاقبته هى السوأى الخ " .
ثم قال :

" أما بعد فهذه سطور أو فصول سميتها : " عقيدة الإسلام
في حياة عيسى عليه السلام " ، كنت أملتتها على الطلبة على
طريق العجالة ، والآن في ثانی عشر شهر رمضان سنة ثلاث
وأربعين من المائة الرابعة عشر كتبتها على سبيل الرسالة ، وفق

(١) ألفه في رمضان سنة ١٣٤٣ الهجرية . منه .

الله الأمة المحمدية كلها للرشاد والسداد ، وجذبهم عن الزيغ والإلحاد ، ويحذركم الله نفسه ، والله رؤف بالعباد الخ” .

وختامه :

”ليبك اللهم ربى وسعديك، صلوات الله البر الرحيم والملائكة المقربين والنبیین والصديقين والشهداء والصالحين وما سبغ لك من شئ يا رب العالمين ، على محمد بن عبد الله خاتم النبیین ومسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين الشاهد البشير الداعى إليك بإذنك والسراج المنير وعليه السلام ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب آم” .

سمعت عن الشيخ رحمه الله : ”إني أردت في هذه الرسالة أدلة حياة سيدنا عيسى عليه السلام ونزوله قرب القيامة ، ما استنبطت من القرآن صدعاً بها أو إشارة إليها ، ولم أرد سرد الأحاديث في هذا الباب واستيعابها ، نعم ذكرت قدراً منها استطراداً ، وأفردت جزءاً آخر لسرد الأخبار والآثار مستوعبة محصاة” .

ثم إني وجدت فوق نسخته المطبوعة بخطه : ”حياة المسيح بمنى القرآن والحديث الصحيح” .

٤ - تحية الإسلام في حياة عيسى عليه السلام (١)

سفر متوسط بدیع جاء في ١٥٠ صفحة ، فاتحته :

”الحمد لله الذى أيد الحق وشيده ، وأعلى مناره ورفع رأياته بحيث صفقت بين أجنحة الملائكة ونصر أنصاره ، والصلوة

والسلام على نبي الهدى الخ .

ثم قال :

”وبعد فهذه حواش تفتر عن لؤلؤ رطب وعن شنب ناهيك
عن شنب وتبسم عن بشر ونشر ، كافيك من أصل ومن إرب ،
وتطابق لك عن بلج جبين وثلج يقين وشرح صدر ونور
مبين ، أخذت من العربية أعربها وأعربها ، ومن نكات البلاغة
أعذبها وأطربها ، يقدر قدرها من غنى بعلوم البلاغة والبراعة ،
أو كان جلي في تناول قصبات السبق والبراعة في اريحية تبحان و
المعية موفق معان ، علققتها على رسالتى ”عقيدة الإسلام فى
حياة عيسى عليه السلام“ ، وسميتها : ”تحية الإسلام فى حياة
عيسى عليه السلام“ ، تضمنت تفسير آيات فى إفحام ذلك الملمخ
العنيد والشيطان المريد الكاديانى الكداني المتنبى الكافر عند
الأقاصى والأداني ، وإخراجه من العلم والفهم والدين والإسلام
والهدى ، وإلحاقه بالشيطان الرجيم ، وإيقاعه فى هوة الردى ،
والله الموفق والمعين ، وبه نستعين ، وذلك سنة ١٣٥١ الهجرية ،
خدمت بها أهل الحق وأعوانه ، وآل العلم وإخوانه ، وادخرتها
عند الله تعالى فى الآخرة والأولى الخ .

ومما قال فى خاتمته :

”فمن ادعى أن الله سبحانه سماه بكذا وكذا يسلمه من اتبعه
على الإلحاد فى الأسماء ، وأما أن يصدق الأسماء المعروفة لغيره
على نفسه وأنه المراد بما فى القرآن والحديث ، فهو كفر وإلحاد منه ،
لا يتبعه فيه إلا من أعمى الله بصيرته — إلى إن قال — : ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

٥ - إكفار الملحدين في ضروريات الدين .

رسالة حافلة تمت في ١٢٨ صفحة بدؤها :

”الحمد لله الذى جعل الحق يعلو ولا يعلى حتى يأخذ من مكانة القبول مكاناً فوق السماء الخ“ .

ثم قال :

”أما بعد فهذه رسالة في واقعة فتوى قصدت بها النصيح والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، سميتها : ”إكفار المتأولين والملحدين في شئ من ضروريات الدين“ ، آخذاً للإسم والحكم من قوله تعالى : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون عابنا ، أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ، إعملوا ما شئتم . إنه بما تعملون بصير » .

وقال في ختمها :

”فكان موضوع الرسالة ما ذكرنا لكن في أثناء التأليف انجر البحث عند الكلام في مسألة التأويل إلى نقول آخر ، والشئ بالشئ يذكر ، فانضم إليها أطراف وذيول لعلمها تفيد الناظرين ، فليس من الدين أن يكفر مسلم ولا أن يغمض عن كافر ، والناس في هذه المسألة في هذا العصر على طرفي نقيض ، ولقد صدق من قال : إن الجاهل إما مفرط أو مفترط ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وهذا آخر الرسالة وختام المقالة ، وما أريد بها إلا دعوة صالحة من طلبة العلم بحسن العاقبة وخير الخاتمة — إلى أن قال — :
وقد وقع الفراغ من جمع هذه الرسالة في أسابيع من سنة ١٣٤٣ الهجرية

(ألف وثلاثمائة وثلاث وأربعين من الهجرة) .

٦ - التصريح بما تواتر في نزول المسيح (١)

رسالة لطيفة كملت في ٤٤ صفحة ، جمع الشيخ رحمه الله فيها أحاديث نزول عيسى عليه السلام من جميع المظان من كتب الحديث مما انتهى إليه نظره الواسع وفكره الغائر ، وطالع لتخريجها مجلدات كثيرة من المسانيد والجوامع والصحاح والمعاجم مستوعبة ، حتى جمع سبعين حديثاً في هذا الباب بين صحاح وحسان ، وقد زاد قدراً كثيراً على من سلف من الأمة ممن حاولوا فيه التألف ، حتى إن القاضي الشوكاني لم يقدر في رسالته "التوضيح فيما تواتر في المنتظر والمهدى والمسيح" بأن يجمع أكثر من تسعة وعشرين حديثاً مع سعة إطلاعه ، وكثرة الذخائر القيمة من كتب الحديث في بلاده ، وضم إليها من آثار الصحابة رضي الله عنهم في هذا الباب ما اطلع عليها ، وهي نحو ثلاثين أثراً ، فجاءت رسالة مائة حافلة في بابها يتيمة بين أترابها ، رتبها أحد أصحابه مفتي دار العلوم الديوبندية محتر منا ومولانا الفاضل محمد شفيع الديوبندي دام فضلهم ، بدئت بقوله :

"الحمد لله الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجبر ولا يجار عليه الخ"

وختمت بأثر وهب بن منبه : « وظنوا أنهم قتلوا عيسى وصلبوه » .

٧ - نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين

جزء حافل كمل في ١٤٥ صفحة بقطع متوسط ، افتتح بقوله :

"الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك

(١) الفها حين الافاسه" بديوبند . منه .

ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً الخ". ثم قال: "أما بعد فهذه نبذة في مسألة رفع اليدين قبل الركوع وبعده وبين السجدةتين وبعده الركعتين وما يدور من النظر والمعنى فيها في البين ، سميتها : " نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين " ، ما قصدت بها إخمال أحد الطرفين ولا يستطيعه ذو عينين ، وإنما أردت بها أن بيد كل واحد من الفريقين وجهاً من الوجهين ، وهما على الحق من الجانبين ، وليس الاختلاف اختلاف النقيضين بل اختلاف تنوع في العبادة من الوجهتين ، وكل سنة ثابتة عن رسول الثقلين تواتر العمل بهما من عهد الصحابة والتابعين وأتباعهم على كلا النحرين ، وإنما بقي الاختلاف في الأفضل من الأمرين ، ولو لم يكن للمرء ضيق صدر لوسع الجنين ، وقد بين الصبح لذى عينين ، وإذا تقاعس أحد وتفاوط آخر حل البين في البين ، ومن سلك طريق الجدل رجع بخفى حنين ، وقد أتعب الناس مواعهم الداخلية فصرفهم ذلك عن تعديل الكفتين ، هذا ومن لى بالهين اللين ، يستن مع الإنصاف شرفاً أو شرفين ، ويجارى معه طلقاً أو طلقين والله الموفق وبه نستعين . ثم إنى أكثر من الإحالة على كتب الحديث وإن لم أنقل من لفظها إلا من بعضها ، وذلك تحسن في الحديث لإكثار المخارج ، وإن أحوج الناظر إلى مراجعة من خارج ، فإن شاء أحد فليراجع وإلا فلا ينزع ، ولم أكثر من نقل كلامهم في الرجال وما فيه من كثرة القيل والقال ، لأنه ليس عندى كبير ميزان في الاعتدال ، وبعضهم يسكت عند الوفاق ويجرح عند الخلاف ، وإذا دعيت نزال ، وهذا صنيع لا يشفى ولا يكفى ، وإنما هو سبيل الجدل ، نعم

اعتنيت بتعيينهم وإفادة معرفة عينهم ، فيستطيع الناظر من المراجعة والمطالعة ، ويتمكن من تخمير رأيه لا بالمسارعة ، وحسبي الله ونعم الوكيل ، وكان ذلك سنة ١٣٥٠ من المائة الرابعة عشر حين إقامتي بمدرسة تعليم الدين بدابهيل في نحو من شهر ، ألفتها من قطعات كانت اجتمعت عندي والله ولي الأمور اهـ .

وقال في خاتمته :

” لا يخفى أن هذا البحث في هذا الشأن يحوج إلى طول ممارسة وكثرة مراجعة إلى الأصول والمتابعات والشواهد والاعتبار والتطريق ، وإذا كان بين السياقين اشتراك ومغايرة أيضاً فيحوج إلى أنه حديث واحد أو حديثان ، ومعرفته من أصعب المراحل ، وإذا كان واحداً فهل يأتي هناك ترجيح أو توفيق ؟ أو هو زائد وناقص ؟ أو ذكر كل ما لم يذكره الآخر ؟ ثم ينشعب كل بحث إلى ما لا يكاد ينفصل ، وفي كل ذلك للناظر حدس ووجدان ، ثم اختلاف مناسبات الطبائع والقرائح فوق ذلك كله ، ثم من المعلوم أن لترادف في المفردات عند المحققين ، وكذا في المركبات ، فضرب زيد عمرأ ، وضرب عمرأ زيد ، وزيد ضرب عمرأ ، كلها تراكيب متغايرة في المعاني الثواني ، وكذا : زيد قائم ، وقائم زيد ، وزيده القائم ، والقائم زيد ، فلا يمكن الرواية بالمعنى بحيث لا يغير أصلاً ، وقد شاعت ، فهذا أيضاً مرحلة ، وقد ذكره في ”الفتح“ من باب جوامع الكلم من كتاب الاعتصام ، فهذا ونحو هذا وفوق هذا يكون سانحاً وبارحاً ، فلا بد للناظر أن يعمل فيه رأيه لإيلاء وإيضام ، ثم كان الغرض إبراز شيء مما في المقام ، وبحثاً تحليلياً عما تصور من التركيب في الإفهام ،

وإنه ليس هم المدعى ونحن المدعى عليهم في كل ما يرام لا توجيه
رد إلى الأعلام أو نقض أو إبرام ، نعم ربما أخذتني كلمة أريحية
في أثناء الكلام والناظر لما عنده قدامه ووراءه مناسبتة السابقة
لاتركه ورأيه ، فليعذره وليعذرني ولا يجبره ولا يجبرني :

خليلى غضا ساعة وتهجرا * ولو ما على ما أحدث الدهر أوزرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى * ويتلو كتاباً كالمجرة نيرا
ولا خير في حلم إذا لم يكن له * بواذر تحمى صفوه إن يكدر
ولا خير في جهل إذا لم يكن له * حلیم إذا ما أورد الأمر أصدر
تذكرت والذكرى يهيج للفتى * ومن حاجة المحزون أن يتذكرا

والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام
على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين اهـ .

٨ - بسط الیدين لنیل الفرقدين

سفر لطيف جاء في ٦٤ صفحة ، افتتحه بقوله :

”الحمد لله عدد خلقه وزنة عرشه ورضا نفسه ومداد كلماته ،
والصلاة والسلام على رسوله ونبيه محمد وعلى آله وصحبه وأتباعهم
وتبعهم الذين هم إسناد الدين ومن رواته وهداته وبعد فإنه لما طبعت
رسالة ” نيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين “ جعلت على عادتي
أحلق إحداق في أوراقها وأقلب أجفاني في أغصانها وأقيد ما
يسنح من شئ بعد شئ ، أويدور بالبال ما بين الغنيمة والفيئ ،
حتى حصلت عدة أوراق وعدة أسباق ، لا تكاد تلتفي تلك الفوائد
بدون إمعان وإيغال ، ونص فوق العنق وتقريب وإرفال ، فوقع

العزم على إشاعتها أيضاً وإذاعتها خشية أن تلحق بالعدم ، كالأثار
فى وطأت القدم ، والله الموفق ، وسميتها : ” بسط اليدين لنيل
الفرقدين “ ، وذلك سنة ١٣٥١ الهجرية . ومعلوم أن شأن التوفيق
والتطبيق بين الروايات المتعارضات ، ليس أن يقوم الموفق مقام
الراوى ، ويوفق من جانب الراوى بين روايته ورواية غيره بحيث
يبقى مزعومه ومبنى عبارته محفوظاً ، ويتفق مع رواية غيره ،
فإن هذا أمر يقل ويندر ، بل لا يكون فى لفظ راوٍ ونظر إلى لفظ
غيره ، ولا عنده علم به ، ويبنى كل على ما عنده من العلم غير
مراع إلى ما عند الآخر ، فيجهد المتأخر ويجهد أن يوفق بين
المتعارضات بحيث تعود كلام ناقل واحد ، ولا يمكنه ذلك فى
الأكثر ، ولا يمكن أن ترجع خواص تركيب عبارة مع خواص
تركيب آخر أمراً واحداً لا فرق بينهما ، بل إنما شأن الموفق
كالمؤرخ ، يلتقط الإثباتات من مجموع النقول ، ويوفق بينهما من
عنده ويرتب برأيه ، فيأخذ الإثباتات كلها ويجعلها سلسلة ، وتبقى
خصوصيات العبارات متغايرة كما كانت ، ومما كنت قبلته (١) :

أمن عهد ربع طالما كان أبكما أجبت بدمع حين حي وسليما
ووجد تراه زورة بعد زورة على غصص الأزمان نادى وأبرما
وقفت بها صهي فجادت عهدهم عسى أن عهداً ناء أن يتوسما
تهلل وجه الصبح بفترضاحكاً عن الشجر حتى كاد أن يتكلمما

(١) كنت هكذا وجدته بخطه فوق الرسالة ” من هذه القصيدة العصماء ، ولا علاقة
لهما بما ذكره الشيخ فى خطبه ” رساله ” ” بسط اليدين “ فليقتبه . منه .

تباشير صباح أوتباشير مبسم تنفس عن روح وبشر تنسما
وما ثم إلا من حديث قديمه وتحديث أشجان ووجد تكلم
وربع قواء كادما أبشه وأسقيه دمع العين أن يتبسما
فقدت به قلبي وصبري وحيلى ولم ألق إلا ريب دهر تصرما
ومن عبرات العين ما لا أسيغه ومن غلبات الوجد ما كان همها
ومن نفثات الصدر ما لا أبشه ومن فجعات الدهر ما قد تهجما
فأذكر أزمان الرفاق وأنشئ على كبدي من خشية أن يتحطما
تكففت دمعى أو كففت عنانه وصار يجارى الدهر حتى تقدما
فهل ثم داع أو مجيب رجوته يجاملنى شيئاً دعا أو ترجمما
ولله حمد الشاكرين وشكرهم رضى نفسه ما كان أكرم أرحما

وأنا الأحقر الأواه محمد أنور شاه الكشميرى عفا الله عنه اهـ.

واختتمه بقوله :

” وهذه الاحتمالات كالتقادير الممكنة الاجتماع ، فهذه ليست مذهباً له وإن ذكرت فى كتب المذهب ، أو اختار احتمالاً منها متأخر ، وهكذا الأمر فى حكم ترك القراءة خلف الإمام ، هى احتمالات عقلية وإن اختار الشيخ ابن الهمام الكراهة فلا يقال أنه مذهب ، وكذا الأمر فى ترك رفع اليدين وإخفاء آمين ، وحكم المتأخرين لا يقال أنه مذهب ، وكذا مذهب الشافعى فى القراءة من الجانب الآخر ، ومثل هذا قديقع فى المجتهدين بالنسبة إلى الشارع ، وفى المقلدين بالنسبة إلى إمامهم فاعلمه ، فإنه مهم غاية اهـ .

٩ - كشف الستر عن صلاة الوتر (١)

جزء مفرد فى مسألة الوتر ، استكمل فى نحو ٩٨ صفحة ، مفتحه :

”الحمد لله الواحد الأحد الوتر الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد - إلى أن قال - : وبعد فهذه رسالة في الكشف عن مسألة الوتر وما فيها من الاشتباه العظيم لأهل العلم والذكر ، سميتها ”كشف الستر عن صلاة الوتر“ سايرت بها مع الخالص الرفاق ، من شظف نجد إلى ريف العراق : أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بطاح عندها بالمسائل وقفت بها صحي وما ثم موقف ولكنه من عهدنا بالمنازل وقال :

فإن شئت فادع الخير والخير للذي هداك وأهدى من حديث المسائل وماهى إلا عبرة ثم عبرة تجدده عهداً بالديار الموائل وماهى إلا ذكرة ثم فكرة تمثل شيئاً من حديث الأمانل وقال :

وهل من كسير البال آذاه دهره لقاءك إلا بالدموع السوائل
وهل ثم داع أومجيب مرافق بواد وناد فاصطنعه وسائل
نعم عندما قد هبت العيس واسترت يدار حديث من شجون الأوائل
فدونك شيئاً دون شئ وإنه لإتحاف أحناف فهل من محاول

ومعلوم أن الأمر يحتاج إلى ذوق ودراية ، وفقه في النفس واعتبار ورواية ورواية ، والمرء إذا لم يعط من نفسه شيئاً من الجدة والاجتهاد لم يفده بحث الناس فيما استراد من المراد ، ومن لم يذق لم يدرك مثل سائر ، وإذا ذاق وادري فله من تلقائه حكم وبصائر ، وبعد هذا كله فكل أمر من الله بدؤه وهو إليه صائر“ .

ومختمه : ولنقم عن المجلس بكفارته : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك اه“ .

١٠- ضرب الخاتم على حدوث العالم (١)

رسالة منظومة في نحو أربع مائة بيت في مسألة : إثبات الصانع الحكيم ، وعلمه المحيط ، وقدرته التامة ، وإرادته الأزلية المستقلة .

قال الشيخ في المنهية عليها : ” سبحان الذى تعطف بالعز وقال به ، وله العظمة والكبرياء ، كتب على كل شئ غيره حكم الدثور والفناء ، واستكثر لنفسه بالقدم والبقاء ، سبحانه ما أعظم شأنه وأكبر سلطانه وأثار برهانه وإن كان وراء الوراء ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم الأنبياء محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم اللقاء ، أما بعد ، فهذه أبيات لى فى إثبات الواجب تعالى شأنه ، وقدم أسمائه وشئونه وحدث ما سواه من كتم العدم من عالم الإمكان وما فى غضونه وغصونه ، ورفع الفاعل الإلهى ، وخفض الفاعل الطبعى ، وتوهمية المادة ، والواحق المادية ، ودحض المعدات والأسباب العادية ، وتوجيه الأذهان والآذان إلى مسبب الأسباب ومالك الرقاب ، ذوقاً ووجداناً ، ودليلاً وبرهاناً ، وعلماً وعرفاناً ، وبصيرة وإيقاناً ، يقدر قدرها من غنى بهذه المسائل ورمى إلى مفاوز الأفكار والخيال ، لم أتفرغ لإيضاحها وشرحها ، ولم أر أيضاً رأى إعدامها وطرحها ، فأفرغتها معرفة كذلك فى قالب الطبع ، اتكلاً على صرامة الرأى وسلامة الطبع من الناظر الدارى والذكى الوارى والقارئ القارى ، وسميتها : ” ضرب الخاتم على حدوث العالم “ ، وكلما ذكرت فى الحواشى رقم الصفحة ولم أذكر الكتاب فهو من ” الأسفار “ (الأربعة للصدر الشيرازى من أرشد تلامذة باقر داماد ، صاحب ” الأفق المبين “ و ” القبسات “) . فليراجع إليها وقد كان ذلك سنة ١٣٤٥ هـ ، ١٤٠٠ هـ . وحدثنى الشيخ قدس سره أن موضوع الرسالة سر د أدلة

إثبات الباري جل شأنه ، ولما كان في عنوان إثبات الباري نوع شناعة وقباحة فلذا لم أرتض به وغيرت عنوانه إلى حدوث العالم ، والمفاد واحد .
وقال رحمه الله : ذكرت في هذه المنظومة روح ما عندهم في الإلهيات والطبعيات القديمة والجديدة .

وقال رحمه الله : نقبت في هذه المسألة جميع ما عندهم ، واستقرت جميع كتبهم ، واطلعت على رسائلهم المفردة في هذا الموضوع ، وسابرت فيه أقوالهم وآراءهم ، وحدقت فيها بصرى وأجلت قبيها قداح نظرى ، فلم يأت أحدٌ بما يسمن ويغنى من جوع ، حتى إن محققنا الجلال الدواني ألف فيها رسالة مفردة سماها : ” الزوراء “ ، والحق أنه لم يأت بما يشقى ويكفى على أصولهم ، بل لا ينجع ولا ينجع ، ولفظه فيها : ” بـ مغز “ . ولهذا شمرت لها عن ساق الجد فمخضت زبدتها واخترت نخبها ، وأومضت إلى أشياء لم يتنبهوا لها أصلاً اه ، هذا وابتدأت بقوله :

تعالى الذى كان ولم يك ما سوى	وأول ما جلى العما بمصطفى
مسبب أسباب ومالك ملكه	فن آخذ مهوى ومن آخذ هدى
فسبحان من برهانه كل آية	وفى كل شأن منه شأن قد اختفى
وسلسلة الأسباب سلسلة هوت	ربطنا بها شيئاً فشيئاً إلى المدى

واختتمت بقوله :

فيخذ في حدوث العالم البحث موعباً	وهاك نكات فيه لم تلفها فها
وتوهية الأسباب والمادة التى	يغالط فيها الناس بادئ ما بدا
فصورت في الأبيات تمثال فكرتى	وذكرت معنياً بأمثالها الحمى
أنا الأحقر المدعو أنور شاه من	مضافات كشمير جزى الله من جزى

١١ - مرقاة الطارم لحدوث العالم

رسالة لطيفة في تقرير حدوث العالم وتقريبه إلى الأذهان بنظائر وبيّنات وشواهد ، كملت في ٦٢ صفحة . بدأها الشيخ بقوله :

” الحمد لله الحى القيوم حمداً ببقى ببقائه ويدوم من أزل الأزل إلى أبد الأبد ، والصلاة والسلام على جملة رسله وأنبيائه ، وسيا خير خلقه وخيرة أنبيائه محمد وآله وأصحابه بدون حد وعد ، أما بعد ، فهذه رسالة ومقالة في مسألة حدوث العالم التى هى من قديم الزمان تحديثاً وحديثاً ، قد سعى الناس فيها قديماً وحديثاً سعياً حثيثاً ، لم يثبت فيها للناس قدم ، وأن كيف الوجود بعد العدم ؟ وكيف يعقل حدوث الزمان ؟ ومن أى حين ابتدئ به من الأحيان ، وما كان حين لم يكن من التامدى المتوهم فى الأذهان . وهذه الرسالة من نفثات صدرى ونتائج فكرى ، لعل المعنى بها يقدر قدر من عنى بها وعانها ويحرز ما أتعب به نفسه من الأفكار وبلى بها وقاساها ، وما أبدى من فرق الصديق وصديق الفجر ، ولقد صدق من قال : إن من لم يذق لم يدرك ، وسميتها : بـ ”مرقاة الطارم لحدوث العالم“ . ثم إن الدلائل على الحدوث إنما سردها فى قصيدتى ”ضرب الخاتم“ ، وقد طبعت وشاعت ، وإنما أردت بهذه الرسالة تصوير حدوث الزمان وتقديره وتقريبه إلى الذهن وتيسيره ، والله الهادى لا هادى إلا هو ، وذلك سنة ١٣٥١ هجرية اهـ .

وختمها بقصيدة له فى هذا المبحث مطلعها :

وذاك اصطكاك عالم الخلق بينه * وعالم أمر عن طوارئ قد خلا

وهذه الرسالة البديعة لما قدمتها إلى شيخ الإسلام الشيخ مصطفى صبرى متكلم عصره بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هجرية فقال بعد مطالعتها : لقد تحيرت من دقة نظر صاحبها وثلج صدره بهذه العاوم ، وكان لى رأى فى مسألة كلامية

ظننت أنى لم أسبق إليه فرأيت أن الشيخ قد سبقنى إلى مثاليها ، وإنى أفضل هذه الوريقات على هذا الكتاب " الأسفار الأربعة " ، وكان الكتاب أمامه ، ثم أثنى على الشيخ كثيراً وذكر ذلك فى كتابه " موقف العقل والعلم " ، وأرى أنه فى الجزء الثالث منه ، ولم أر أحداً فى طوائف أهل العلم أنه قدر هذه الرسالة مثل تقديره ، نعم إنما يعرف ذا الفضل من الناس ذووه .

١٢ - " سهم الغيب فى كبد أهل الريب "

والإسم التاريخى : " قسى سهم الغيب "

رسالة وجيزة تمت فى ٢٢ صفحة ، ألفها الشيخ رحمه الله فى ريعان شبابه إذ بلغ من سنه إلى عشرين عاماً وشئ حين الإقامة بدلهى ، دفاعاً عن حوزة الملة الحنيفية ، كان رجل من قاطنى بريلى قدم دلهى وألف رسالة فى إثبات أن لسيدنا خاتم الأنبياء ﷺ علماً محيطاً بجميع الكليات والجزئيات مما كان ويكون من غير فرق بينه وبين علم علام الغيوب إلا فرق العرضية والذاتية ، وشنع على أهل الحق والهدى بما تقشعر منه الجلود وتنشق الأكباد ، فصنف الشيخ رحمه الله رسالته هذه للذب عن الحنيفية السمحة ، فكوى على شفتيه وألتم فى فيه حجراً ، وقد جرى الشيخ فيها على ديدنه ، فكان بدل اسمه ووطنه ، وعزا الرسالة إلى عبد الحميد الدهلوى ، واختلق هذا الإسم ، ولم يكن له مصداق ، فعزى الشيخ رسالته إلى عبد الحميد البريلوى كفاحاً سواء بسواء ، هكذا أنبأنى رحمه الله بكشمير ، افتتحها بقوله : " سبحان الذى يسمع ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء الخ " ، والرسالة بالأردوية ، واختتمها بقصيدة له فى مدح أهل الحق والهدى أئمة الفضل والتقوى الشيخ القطب العارف مولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، والشيخ الفقيه المحدث مولانا شيخ الهند محمود الحسن الديوبندى ، والشيخ المحدث مولانا خليل أحمد

السهارنفوری رحمهم الله تعالى ، مطالعها :
 ليسفر صباح الصديق والحق والهدى * ليعمل الصواب المحض وليمكن الدجى
 ومقطعها :

هم الركب خذ آثارهم وامش أثرهم * فهذا الصراط المستقيم إلى الرضى
 اهـ .

۱۳ - كتاب في الذب عن قرة العينين

كتاب بديع حافل ، ختم في ۱۹۶ صفحة ، ألفه الشيخ رحمه الله في عهد
 الإقامة بدلهي ، لم أظفر إلا بنسخة منه ، وقد ضاعت منه أربعة أوراق من
 صدره ، ومنشأ تأليفه أن للإمام الحجة الشاه ولي الله الدهلوي — صاحب " حجة
 الله البالغة " و " الخير الكثير " و " البدور البازغة " و " التفهيمات الإلهية " و
 " إزالة الخفاء " وغيرها — كتاباً نفيساً في تفضيل الشيخين على الختئين سماه :
 " قرة العينين في تفضيل الشيخين " ، فقام للرد عليه أحد من الروافض الجهلة
 وصنّف كتاباً فأزعج الشيخ رحمه الله ، فألف كتابه هذا في انتصار " قرة العينين "
 والذب عن حمى الملة الإسلامية والاعتصام للحق الصراح ، واحتوى على غرر
 المسائل وبدائع النقول المفحمة ، وكان الشيخ رحمه الله يحيل عليه في بعض
 الأبحاث ، وهذه الكتب الثلاثة كلها بالفارسية . قال الشيخ في خاتمة كتابه :

" این ست آخر کلام معترض که بغایت مصارحه و مکافحه جواب دندان
 شکن و داده شد ، قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان
 زهوقاً . اما باشد که در اثناء مطارحه گاهی سخن بطور مجاراة مع
 الخصم گفته و مسایرت وی و ارخاء عنان در الزام و افهام او نموده
 باشیم ، امید از ناظرین آنکه هر مقالی را بر محل خود فرود آرند ،
 و لكل مقام مقال ، توفانا الله تعالى على حقيقته الديانه والا طاعه
 وطريقه السنه والجماعه " ، وحشرنا معهم آمين ثم آمين آه .

۱۴ - خاتم النبیین (بالفارسیه)

رسالة هى خاتمة تصانيفه ، بسقت فروعها فى ۹۶ صفحة ، ألفها رداً على الفئة القاديانية والفئة المرزائية الكيدانية ، وهى تفسير لقوله تعالى : (ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبیین) ، أودع الشيخ فيها نكات وأسراراً وهبية ما يرهف الألباب والبصائر ويروح القلوب والخواطر ، احتوت على حقائق سامية ربانية وبدائع حكم إلهية يبهت لها الخيال وتحر لها العقول ، ستحسن أوان مطالعتها أن المزنة السحاء يهطل بديمها أو أن البحر الذاخر يسمح بعبه ، وأيم الله إن محاسنها الجليلة تأخذ بالقلوب ، لا أدرى بأى وصف أصفها ، درر فاق بهائها ، وغرر شاع ضوءها وسناءها ، وزهر فاح أريجها وراق زهائها ، لله من حكم يمانية سمح بها صدره ، ولله من معارف عالية نثرت من سنى قلمه رسالة مقوله ، ولله در القائل :

الله در كتاب كاسه درر * ينال من حاز معناه به رتبا

صدرها رحمه الله بقوله :

”حمد وشكر نامحدود بر رب معبود راكه خالق كون ومكان وزمين
و زمان است ، وصلاة وسلام نا معدود بر سرور كائنات وهر موجودكه
رسول الله وخاتم النبیین وغايت كن فكان است . وبر آل واصحاب وى
وكافه است مرحومه وانجاب وى “ :

بىخود آئى خویش نامش خداست	خدای كه داوار روز جزا ست
بوى هست شد هرچه سوجود هست	بدست وى این هست بالا وپست
دگر جمله این دفتر آیات اوست	وگر نيك بينى همون ذات اوست
پس از نوبت خواجه دوسراست	باین بارگه اینكه بانگ دراست
عليه الصلاة و عليه السلام	محمد كه بد فتح و ختم پیام
همه بود تمهید او غایت است	وجودش كه خود آیت ورايت است

(نفحة العنبر م — ۱۷)

وختمها بقوله :

حق تعالى برامه " مرحومه رحم كناد واز الحاد وزندقه اين لعين
نجات دهاد اه " .

ولكن هذا ختام الكلام في سرد مصنفاته الجليلة المطبوعة ، وقد كفت
جری اليراع في مجال التعبير وقنعت بالأهم فإن الوقت أقصر والضرورة
أقدم ، ومع هذا فقد صبرت وصابرت فإن الشوق يغلب والدواعي تتجاذب
والجمال فسيح والقلم مساعد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . هذا
وقد أطلت بعض الإطالة في سرد بعض عبارات الشيخ والاعتباس من قبساته
ونفثاته ، والاعتطاف من حدائقه وروضاته ، فإن ذلك يفتح على البصير المحرب
أبواب العلوم إن شاء الله تعالى ، وسيقدر قدرها اليهفوف الحاذق والنطاسي
الماهر ، والله الموفق والهادي إلى الصواب .

العرف الشذى لجامع الترمذى

ويناسب أن يلحق بكتبه المؤلفه المطبوعة "العرف الشذى لجامع الترمذى"
فإن ذلك مما ألقاه الشيخ رحمه الله في درس "جامع الترمذى" ، وضبطه أو ان الدرس
أحد أصحابه بغاية السرعة والارتجال ، ونحن ندرى أن من الحال أو يقرب
منه أن يضبط عند الدرس جميع ما كان يثنه من العلوم والمعارف بحيث لا يغادر
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فإن ذلك غير مقدور لأحد ، وكيف وكان
بحراً لم يكن له ساحل ، ومع هذا كله لو سلمنا فلاستيعاب الضبط مشكلات
أخر ، فمنها ما يتعذر فهمه ارتجالاً ، ومنها ما يتعسر تلخيصه بداهة ، ومنها
ما يشكل تعريبه مقتضياً ، فلا محالة تقع في مثل هذا الضبط أغلاط في النقول
والإحالات على الكتب ، وانحراف في الأبحاث ، وإلحان في العبارات ، وأما نفاسة
التحبير ونقاء التعبير وغير ذلك من محاسن التأليف فأبعد به في مثل هذه
المرتجلات ، علا أن ضابطه لم يتحرر تأليفاً أو كتاباً ، ولم يحاول إبراز شرح

في الحديث ، بل تحرى استفادة نفسه ، فإن الذهن يغفل والحافظة تنسى والشوارد تند والفوائد العلمية سوانح وبوارح ، والقلم حباله لمثل هذه الأوباد ، فضبطه لنفسه ، ثم سنج لبعض الحرصاء على علوم الشيخ أن يطبعه في تلك الصورة لتعم فوائده لعلماء الأمة ، وكيف ما كان ، فإن هذا الإملاء وهذا الملتقط من الإلقاء علق نفيس احتوى على لباب ما في الباب من شرح المشكلات وغوامض الحديث ، والإعلام على مخارج الأدلة والروايات ، والإستطراد لمستندات الحنفية مما اطلع به في كتب القوم أو فتح عليه والاستكثار من غرر نقول أعيان الأمة من كبار المحدثين الذين هم أساطين الحديث وسلاطينه ، كالخطابي ، وابن عبد البر ، والحافظ فضل الله التوربشقي ، وعز الدين بن عبد السلام ، وابن دقيق العيد ، وابن سيد الناس اليعمرى ، والطبي ، وابن تيمية ، وابن القيم ، وبرهان الدين المغلطاي ، والبرهان الحلبي ، والحافظ الجمال الزيلعي ، وابن حجر العسقلاني وغيرهم من أعلام الأمة وأعيان الملة رحمهم الله تعالى . ثم فوق ذلك كله ما يسمح به صدره من شرح لطيف وإبداء أسرار شريفة ، فلهذا الكتاب الجليل منة عظيمة على رقباء علماء الملة بالهند كافة ، وجميع مدرسي الحديث قاطبة ، ولا سيما مدرسي ”الجامع الترمذي“ ، فإن هذا الكتاب النبيل فتح عليهم الأبواب المنغلقة ، وأرشدهم إلى طرق التنقيب والتحقيق ، ونبههم على مخارج الحل والتفصي عن المشكلات والمعضلات ، فمن بحاره يغترفون ، ومن أنواره يسترشدون ، وبنجومه يستدلون ويهتدون ، ثم ما ينكرون من مننه وما يرخون على وجوه محاسنه سدول الإزراء والقدح أو يطعنون في ركافة لفظه ، فليس إلا من كفران النعمة ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، ومن لاحاك فقد عاداك ، وهل يستقيم الظل والعود أعوج ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ومن ذلك القبيل أن الشيخ عبد الرحمن المباركوري في ”تحفة الأخوذى“ ينقل منه شيئاً ثم يرد عليه أو يؤاخذ ، كل ذلك من تعصبه مع

الحنفية ويتعاضى عن أنه ضبط أحد تلامذة الشيخ ، ليس من تأليفه بقلمه هذا ،
ولله در القائل :

أخا العلم لانهجل بعيب مصنف * ولم تتيقن زلة منه تعرف
فكم أفسد الراوى كلاماً بعقله * وكم حرف المنقول قوم وصحفوا
وكم ناسخ أضحى لمعنى مغيراً * وجاء بشئ لم يردده المصنف

هذا وللشيخ رحمه الله ذخائر قلمية فى أكثر مشكلات العلوم كما أسلفنا ،
ورسائل خطية ، منها حاشية له على "سنن ابن ماجه" ، والأسف أنه قد ضاعت
الآن ولا يدري أين ضيعتها يد الحدثان . ومنها : رسالة فى الهيئة ألفها لبعض
أصحابه ، وهو الشيخ مولانا مشيت الله البجنورى ، ورسالة فى مسألة من الهندسة
وعلم المرايا والمناظر ، ورسالة فى حقيقة العلم ، ورسالة فى مسألة : "يا شيخ
عبد القادر شيئاً لله" ، ورسالة فى مسألة الذبيحة لغير الله ، ورسالة فى علم المعانى
مما استدركه على السكاكى والخطيب ، استنبطها من "كتاب سيديويه" و"الكشاف"
و"عروس الأفراح" للشيخ بهاء الدين السبكى وغيرها . وحواش على
"الأشباه والنظائر" لابن النجيم . وحواش على "الحواشى الزاهدية على
شرح القطبية" . وله تلخيصات ، منها : تلخيص "إمام الكلام" للفاضل
اللكهنوى ، ومنها تلخيص أدلة الحنفية من "فتح القدير" لابن الهمام وصل فيه
إلى كتاب الحج ، وقد أشرنا إليه من قبل ، ومنها تلخيص لبعض المهمات من
"حياة الحيوان" للدميرى ، وغير ذلك من بعض التلخيصات والتحريرات
بعضها من عهد تعلمه وبعضها إذ كان حديث عهد بالفراغ من التعلم ، وبعض
من آخر عهده ، وقد أبادت بعضها الطوارق ولا يؤمن على ما بقى من بوائق
الضياع ، وإلى الله المفرع والموئل . هذا ما جاد به فكرى واستحضرت طبيعتى
فى هذه النهضة ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين .

تكملة وزيادة .

كنت كتبت كلمة قبل احدى وثلاثين سنة بعد تأليقي لـ "النفحة" في مؤلفاته ولا بأس بنقلها هنا . فقلت :

مؤلفات المحدث الجليل إمام العصر مولانا الشيخ "محمد أنور الكشميري" الديوبندي .

إمام العصر مولانا الشيخ "محمد أنور شاه الحنفى" رحمه الله تعالى المتوفى سنة ١٣٥٢ هـ ، من أكابر علماء الإسلام ، من أصبح خيراً مثالاً لعلوم القدماء ، وغوصهم في الغوامض والمشكلات ، وفي دقة النظر ، وقوة الحافظة ، وشدة الاستحضار ، وأضحى يمثل مزايا أفذاذ الأمة في الجمع بين علوم النقل والعقل ، مع بحث دقيق في المعضلات التي لم تتوجه إليها العقول ، مع شئ مماثر من الورع ، والتقوى ، والزهد ، والصبر ، والرضا ، وعدم حب الجاه والشهرة ، قلما تجتمع هذه الخصائص إلا في عباد الله المقبولين ، والمقربين في الحضرة القدسية الإلهية . وبالجملة فإنه كان آية من آيات الله في عصره وحجة على العالمين في علمه وعمله ، وخير أسوة للناس ، ملئ قلبه إيماناً وحكمةً ، وتحلت روحه الطيبة بملكات سامية ، ومعارف عالية ، وتحلت جوارحه بالتمسك الشديد بأهداب الشريعة والسلوك على الصراط المستقيم ، ما كان يريد تأليفاً في موضوع ، غير أن الفتنة القاديانية في الهند أصبحت سبباً لتأليفه في الرد على الفتنة ، فقام وألف كتباً ورسائل ، فقصى عليها ، وفتنة غير المقلدين الذين كانوا يطعنون بملء شديهم على الحنيفية أضحيت سبباً لتأليف رسائل في هذه المواضيع ، وهكذا ؛ وهكذا أُلجأت الطوارئ إلى عدة مؤلفات ، وكذا اجتمعت عدة مجلدات من أماليه في دروس "صحيح البخارى" و"جامع الترمذى" وغيرهما ، وكان درسه جامعاً لمزايا وعلوم ، وإذا

أخذ في تحقيق كلام فكان يلعب بالعقول ، وإذا شرع في سرد نقول الأكابر
فكان يسحر الألباب ، مارأينا مثله قبله ولا بعده ، لا يقدر قدره من لم يشاهده ،
ولم ير بدائع درسه وخصائص حياته العلمية ، وقد طبعت عدة مؤلفاته
ونفذت ، ونحن نذكر هنا ما طبعه المجلس من مؤلفات هذه الشخصية الفذة ،
رحمه الله رحمة طيبة مباركة ، ولم نرد بها إلا خدمةً للعالم ، ونفعاً للأمة الإسلامية .
نرجو الله التوفيق لما يحبه ويرضاه .

فيض الباري على "صحيح البخارى" .

شرح حافل على "صحيح البخارى" في أربعة مجلدات ضخمة ، له خصائص
لا توجد في غيره من الشروح (جمع من أمالى إمام العصر في درس الصحيح) :
الأولى : إشباع الموضوع من سائر المظان البعيدة ، والتقاط غرر النقول
في الباب .

الثانية : استيعاب أدلة المذاهب الأربعة وأقوال العلماء ، وترجيح ما
هو الأرجح بأصول دقيقة هي من خصائص المؤلف بغاية النصفه .

الثالثة : العناية بذكر ما لم يذكره شراح "صحيح البخارى" والاكتفاء
بتلخيص كلام الشارحين في مواضع ، والحوالة عليه في مواضع .

الرابعة : اشتماله على نفائس تحقيقات من مشكلات العلوم وأبحاث دقيقة
من البلاغة والعربية وأصول الفقه وعلم التوحيد وغيرها .

الخامسة : اشتماله على النقد العلمى والتنبيه على زلات الشارحين مع
رعاية جلاله قدرهم بنزاهة اللسان .

وعلى الكتاب تعليقات نافعة مهمة من فضيلة الأستاذ مولانا بدر عالم
الميرتھى (رحمه الله) من أصحاب الفيض ، وفي أوله مقدمة مبسوطه ، قام بنشره

إدارة "جمعية علماء الترنسفال" في جوهانسبرج بجنوب إفريقيا تحت إشراف "المجلس العلمي"، مطبوع بغاية الإتقان في قطع "نصب الزاوية" على نفس الورق الجيد .

العرف الشذى على "جامع الترمذى" .

من أماليه أيضاً التى ألقاها في درس "جامع الترمذى" إذ كان شيخ الحديث بدارالعلوم بديوبند - منبع العلوم الدينية في الهند - عني الشيخ بها ببيان أدلة الحنفية في المسائل المختلف فيها، وكشف الحال عن أدلة المذاهب الأخرى باستيعاب وإنصاف ، وفيها فوائد هي من خصائص هذا الكتاب ، طبع مرة بديوبند ، وقد أصبح نادراً ، وسيقوم "المجلس العلمي" بنشره ثانياً ، باذلاً جهده في تحسين محياه بكل ما يفتقر إليه ، ويزيد عليه فوائد من مذكرات إمام العصر رحمه الله ، نرجو الله التوفيق والسلامة والسداد .

مشكلات القرآن .

تفسير للآيات المشككة من القرآن ، جمعها "المجلس العلمي" من برنامج إمام العصر الشيخ محمد أنور شاه قدس سره ، وهو يحتوى على نكات ودقائق وعلوم وحقائق ، زبدة مما قاله أعيان الأمة الحمديدية ، وما سمحت به قريحة الشيخ من مضموناته العالية ، وقد خرج كثيراً من حوالاته مدير "المجلس العلمي" الشيخ السيد أحمد رضا البجنورى ، وبقي قدر كثير من الحوالات لضيق الوقت وعدم تيسر تلك الطبعات التى أحيل إليها بالمراجعة مع مقدمة تفسيرية في نحو تسعين صفحة .

عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام .

كتاب حافل في حياة عيسى عليه السلام يحتوى على أدلة وافرة من القرآن

والحديث وآثار الصحابة وأقوال أعظم الملة المحمدية على نهج بليغ وما عداها من الفوائد العلمية التي أدناها تساوى رحلة، وموضوع الكتاب: إثبات حياة عيسى عليه السلام ونزوله من السماء بما يدل عليه قواطع نص كتاب الله، وما يشير إليه، والأحاديث فيها على سبيل المتابعات والشواهد، وقد أفرد رحمه الله رسالة أخرى للأحاديث الواردة في هذا الباب بغاية الاستيعاب، وستأني قريباً.

تحية الاسلام . .

تعليقات عالية على كتاب "عقيدة الإسلام" له أيضاً، تشتمل على مباحث دقيقة، ونكات رائقة، وفيها فوائد تتعلق بإعجاز القرآن ومزايا بلاغته المعجزة وأبحاث عالية في كلمة "التوفى"، ومعناها، واستعمال القرآن إياها في معنى "الموت"، ورسالة للشيخ في آخرها في سيدنا إلياس عليه السلام.

التصريح بما تواتر في نزول المسيح .

رسالة نفيسة له أيضاً، تحتوي على جميع ما ورد من الأخبار المرفوعة والآثار الموقوفة في نزول عيسى عليه السلام، بذل فيها جهده لمطالعة المسانيد والمعجمات الكبيرة واستخراج الأحاديث منها، وبلغ عدد الأحاديث المرفوعة فيها إلى سبعين حديثاً بين صحيح وحسن، حتى أصبح نزوله متواتراً من ضروريات الدين يكفر جاحده: وعليها مقدمة بقلم بعض أفاضل أصحابه من الأساتذة بدار العلوم بديوبند.

إكفار الملحدين في شيء من ضروريات الدين .

كتاب له أيضاً، لا نظير له في بابيه، يبحث عما هو عليه مدار الإيمان والكفر، وما وقع من الإلتباس على الناس، وما وقع من الخبط في مسائل

إكفار المسلم ، وغيره من الفوائد العلمية ، وتحقيق وقوع الكفر بالإنكار من ضروريات الدين ، وتنقيح ضروريات الدين ، واستوعب الموضوع بما ذكره فيه السلف إلى عهد الخلف ، بحيث لم يدع فراغاً في الموضوع ، وخلافاً في الباب ، وعرضها الشيخ رحمه الله على العلماء للبحث والتحقيق ، لتتفق كلمتهم في هذه المسألة المهمة ولا يبق بين علماء الأمة خلاف ، فوافقوا الشيخ كلهم في تحقيقه ، وقرظوا هذه الرسالة الزهراء الفريدة .

نبيل الفرقدين في مسألة رفع اليدين .

جزء حافل في أدلة الحنفية ، في ترك رفع اليدين ووجه أولويته بقول عدل وبيان فصل ، وبيان أن الاختلاف بين الأئمة في الأفضلية فقط لا في السنية والحرمة ، ونقل ذلك عن علماء المذاهب الأربعة حتى لم يبق مجال للمشاغب والمجادل ، ورجح مسلك الحنفية رواية وتعاملاً وتعامداً في جماهير الصحابة رضي الله عنهم بحيث أصبح بنياناً مرصوماً لا يتزعزع بعواصف الطعون واعتراضات الخصوم .

بسط اليدين لنيل الفرقدين .

تعليقات له رحمه الله على ”نيل الفرقدين“ ، تبلغ إلى نصف الكتاب فصاعداً ، جمعها المجلس مما كتبه الشيخ بقلمه على هوامش ”نيل الفرقدين“ ، وهي زيادات مهمة جداً .

فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب .

رسالة حاوية لما في الباب من الأدلة على مسألة الفاتحة خلف الإمام

(نفحة العنبر م — ١٨)

بغاية الإنصاف، أيضاً له ، وتحتوى على فوائد كثيرة ، كما هو دأب مؤلفات الشيخ رحمه الله ، وفي هذا الموضوع رسالة أخرى للشيخ بالفارسية. ” خاتمة الخطاب في فاتحة الكتاب “ أصبحت نادرة جداً ، مطبوعة بديوبند .

كشف الستر عن صلاة الوتر .

رسالة بديعة أيضاً له ، في حقيقة صلاة الوتر، ومذاهب الأئمة وأدلتها والكشف عن مغزاها، وبيان منشأ ما وقع من الاختلاف في أعيان الأمة فيها، وفيها مسائل نفيسة وأبحاث رائقة في شتى المسائل، ذكرها رحمه الله استطراداً . أيضاً محشى بالطبع الجديد، زاد الشيخ بنفسه على الكتاب من فوائد سامية تبلغ إلى ثلث الكتاب فصاعداً، طبعه ” المجلس العلمى “ مع هذه الحاشية الجليلة .

ضرب الخاتم على حدوث العالم .

قصيدة تحتوى على نحو أربعائة بيت في العربية ، على دلائل حدوث العالم ، وإثبات الصانع الحكيم المريد المختار ، وأقام براهين توصل المعتبرين إلى درجة المشاهدة والعيان ، وحقق فيها حدوث العالم وافتقاره إلى محدث قديم ، منزّه عن الزمان والزمانيات ، ومقدس عن المكان والمكانيات ، وجاء بخلاصة ما عند علماء الطبيعة وعلماء علم الحياة وغيرهم ، فهى أدق رسالة في الموضوع وأحواها ، ولكنها دقيقة جداً .

مراقبة الطارم لحدوث العالم .

كتاب له أيضاً في مسألة حدوث العالم ، وتقريب هذه المسألة إلى الأذهان ، ودفع إيرادات واستبعادات ، وفيها نفائس من مبتكرات أفكاره الدقيقة ما يدل على تغلغله في علوم الحقائق وحذاقته في علوم الفلسفة ، وكأنه شرح لضرب الخاتم .

خاتم النبيين (فارسي) .

رسالة نفيسة جليلة لإمام العصر رحمه الله في تحقيق مسألة ختم النبوة ،
ليس الغرض تنوير الموضوع بالأدلة السمعية ، فإنه أمر مفروغ عنه في كتب
القوم وفي عدة كتب إمام العصر نفسه ، وإنما الغرض تحقيق الموضوع وتنوير
زواياه الخفية بتفكير دقيق وتحقيق باهر يدهش العقول ، وهذا آخر مؤلفاته ،
ألفه رداً على الفتنة القاديانية .

الشيخ وشي من فوائده وأبحاثه .

قد أومضت من قبل أن للشيخ رحمه الله فوائد سامية وأبحاثاً نفيسة
واستدراكات لطيفة على كثير من الضوابط والقواعد ، وأدناها مما تساوى رحمة
شاسعة ، وكنت وعدت ذكر شيء منها نموذجاً للسادة الناظرين ، فإنجازاً
لما وعده وإيفاءً لما عهدته نهدي قطرةً من تلك الدماء ورشة من تلك الغادية
المطلاء على ما بي من جمود القريحة وخود الفطنة ، ولكن الخيل تجرى على
مساويها ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، فذقه تغببط وتحظ بنصيب ولا تكن
كالربوط والمرعى خصيب والله الموفق .

فائدة (١) = قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في
الأرض خليفة) قال الشيخ رحمه الله : فيه فوائد ومسائل ، ففيه مسألة النبوة
بعد الإيمان بالله ، وأنه يبعث عبداً مفترض الطاعة ، وأن إطاعة الله يعتبر
بإطاعة غيره بأمره ، وهي الفاصل في حق إطاعة الله ، وهو قوله تعالى :
(أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وقوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا
ليطاع بإذن الله) ، وحديث : « قل من يعص الله ورسوله » لإظهارهما على
حدة اقتباساً من القرآن ، ولعل إطاعة أحد بحسب مقتضى العقل إطاعة نفسه ،

وإنما تتحقق الإطاعة بمعرفة إطاعة الغير بأمر المطاع . وفيه مسألة القبح
والحسن شرعاً أو عتلاً ، وفيه مسألة التعديل والتجوير ، وفيه الأسماء والأحكام ،
وفيه الوعد والوعيد على ما ذكره الشهرستاني ، وفيه التقدير للخير
والشر منه تعالى ، وأن الإنتهاء إلى علم الله تعالى ولذا علمه الأسماء ، وفيه
أن الشرف في العبدية ، وفيه التوبة ، وفيه أنه لا يسأل عن شيء وهم يسألون ،
وفيه مسألة المراحم الملكية ، وأنها آخر الخيل وتأتي على كل عاص فإن رحمته
سبقت غضبه ، وفيه تفضيل الأنبياء على الكل ، وفيه مسألة الإيجاب والإختيار .
فهذه ست عشرة فائدة ، ومسألة استنبطها الشيخ قدس سره برمتها ، ذكرها
في منهيته على رسالته ”خاتم النبیین“ ذكرناها بلفظه إيجازاً واختصاراً إلا بتغيير
يسير ، وإيضاحها يستدعى بحثاً وتفصيلاً ، والله المستعان .

فائدة ٢ = قال الشيخ في رسالته ”فصل الخطاب“ : لم تنسخ صلاة
الليل بأصلها وإنما عادت من الطول إلى التيسير ، وأقلها الوتر عند أبي حنيفة وهو
منها فلم ينسخ أصلها وإنما خفف في صفتها ، وقد أشار البخاري إليه في
الترجمة فقال : باب قيام النبي ﷺ بالليل ونومه وما ينسخ من قيام الليل ،
وقوله : (يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه) إلى قوله : (سبجاً طويلاً)
وقوله : (علم أن لن تحصوه فتاب عليكم) إلى قوله : (واستغفروا الله
إن الله غفور رحيم) آه . وعليه بنت الشريعة اعتباراتها في الأحكام والعبارة ،
فجعلت للعشاء إلى ثلث الليل أو نصفه وبعده لقيام الليل ، آخذاً من قوله تعالى :
(يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ورتل
القرآن ترتيلاً) فإذا كان نصف الليل للقيام بقي للعشاء نصفه ، وإذا زاد على
النصف إلى الثلثين للقيام بقي للعشاء ثلث ، وإذا مضى نصف من الليل كان
نزول الرب تعالى إلى سماء الدنيا لهذا ، وهو قوله تعالى : (أقم الصلاة طرفي

النهار وزائماً من الليل) ، ولذا جاء التنويع في وقت العشاء من الثلث إلى النصف بكلمة ”أو“ في الحديث بتنويع في قيام الليل في القرآن بها ، وعليه بناء باب البخارى : ”باب الدعاء نصف الليل من الدعوات“ ، كما شرحه ”في الفتح“ ، وقال : (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقروا ما تيسر منه) فبنى عليه حديث ثوبان عند ”الدارمي“ وغيره عن النبي ﷺ قال : « إن هذا السهر جهد وثقل ، فإذا أوتر أحدكم فليركع ركعتين ، فإن قام من الليل وإلا كانتا له اهـ . أخذ من قوله : (وآخرون يضربون في الأرض الآية) فليس في آخر ”المزمل“ نسخ لأصل قيام الليل ولا حرف ، وإنما هو تخفيف في الصفة ، فالوتر أدنى ما يكون من صلاة الليل ويكون تجدد فيه وصف الإيتار لأصله ، ذكره الخطابي في ”معالم السنن“ كتجدد الركعتين في الرباعية بعد المحجرة ، ولعل حضرة الوترية الأحدية في حديث : « إن الله وتر يحب الوتر » اصطفت الليل ، فلذا كانت وتر صلاة النهار صلاة المغرب وهى ليلية ، ولا تنافيه الجماعة فيها ، فإن هذه الحضرة لا بد أن يكون لها تعلق بالعباد أجمعهم ، فيأتوا ما أحبته واصطفت ، فوجب الوتر مرزوق عن هذه الحضرة ، فلا تكن إن شئت ممن قيل أن العاقل محروم ، وراجع ”الفتوحات من حضرة الأفراد“ ، فما سيقّت آية : (فاقروا) لإليان حال صلاة الليل ، لكن لانصدق إلا بأن يكون مجموع ماقرأ به تحته والتيسير إنما هو في القدر وإن لم تسق لبيان أحكام القراءة ، وقال في الحديث : « فأوتروا يا أهل القرآن » فأحال على القرآن لحال القرآن ، انتهى كلامه الشريف ، هذا وأصل الرأى وإن كان الشيخ مسبقاً به ولكن تحقيقه وتنقيحه بهذا النمط البديع مما أن الشيخ أبو عذرتها ، فاغتنمه والله الموفق .

فَيَا تَدَّة ٣ = قال الشيخ قدس سره في "إكفار الملاحدين" وغيره - وسمعنا منه غير مرة - : إن التواتر في أمور الشريعة عندى على أربعة أنواع : الأول : تواتر الإسناد، وهو أن يروى الحديث جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب في كل قرن من القرون ، وهذا تواتر المحدثين ، كحديث : «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ذكر في "الفتح" أنه ثبت صحيحاً وحسناً من طريق ثلاثين صحابياً (١) .

(قال الشيخ) قلت : وأحاديث ختم النبوة جمعها بعض أصحابي فبلغت أزيد من مائة وخمسين منها نحو ثلاثين من الصحاح الستة . (قال الراقم عفا الله عنه : وليلحق بهذا أحاديث نزول عيسى عليه السلام فإنه قد جمعها شيخنا رحمه الله تعالى ووصلت إلى سبعين حديثاً صحيحاً وحسناً ، ولعل رواية من الصحابة تبلغ إلى ثلاثين نفساً، ولفظها : وإن لم يكن متواتراً كالحديث المذكور لكن المعنى متواتر قطعاً لا محالة) .

والثاني : تواتر الطبقة ، كتواتر القرآن، تواتر على البسيطة شرقاً وغرباً درساً وتلاوةً حفظاً وقراءةً ، وتلقاه الكافة عن الكافة طبقةً عن طبقة ، إقرأ وأرق إلى حضرة الرسالة، ولا تحتاج إلى إسناد يكون عن فلان عن فلان، وهذا تواتر الفقهاء - في أكثر مصطلحاتهم - . وقال الشيخ في "نيل الفرقدين" (٢) : وهذا "القرآن المجيد" كيف تواتر على وجه البسيطة عند المسلمين تواتر طبقة بعد طبقة بحيث لا يوجد أحد منهم لا يعلم أن كتاباً سماوياً نزل على النبي ﷺ وأنه بأيدينا ، ومع هذا لو طلبنا تواتر إسناد كل آية منه لأعوزنا ذلك الأمر وعجزنا ٥ .

(١) وما قاله ابن الصلاح : من اثنين وستين صحابياً، وقال بعض : من بضعة وسبعين صحابياً ، وبعضه غير ذلك فلعلمه يبلغ إلى ذلك بمجموع الطرق الصحيحة والحسنة والضعيفة فليتنبه . من الراقم عفا الله عنه . (٢) ص ٨٨

والثالث : تواتر العمل والتوارث ، وهو أن يتوارث التعامل بعمل بين المسلمين في كل قرن من القرون ، أى من قرن الرسالة إلى آخر القرون ، والعمل برفع اليدين عند الركوع وترك العمل به وأمثال ذلك المسائل من هذا القبيل من التواتر ، وهذا الثالث قريب من الثاني . وقال الشيخ في " نيل الفرقدين " : ونظيره في العقلية أن الضرورى عند النظر ما لا يكتسب علمه بوسط نحو ما يحصل بإحدى الطرق الست عندهم من : الأوليات ، وقضايا قياساتها معها ، والمشاهدات ، وفيها الحسيات والوجدانيات ، ومن المحرّبات ، والحدسيات ، ومن المتواترات في إفادة تحققها عن تواترت عنه لافي الحكم المفاد بها ، فإنه قد يكون نظرياً ، نعم وعلم الانتزاعيات والصفات المنضمة إلى النفس أيضاً عند من لم يخص الضرورى بأنه لا بد أن يكون قسمياً من غير العلم الحضورى ، بل عممه وهو عند بعض حذاقهم ، والكسبي ما يحصل بوسط ، ثم كثيراً ما يكون عند الإنسان عدة لتحصيل النظرى من المقدمات المخزونة حتى يستمد منها عند سئوح الحاجة فيبهي لها عدة من سابق حتى لا يعوزها عند الحاجة بخلاف البديهي ، فكثيراً ما لا يدخر لها عدة بل لا يذهب إليها ذهن ، فربما يكون النظرى معلوماً ويكون البديهي مجهولاً ، وهذا كثير ، والجاهل بتلك الصنعة يزعم أن ما هو بديهي فإنما يكون معلوماً لكل ، وأن ما يجهل هو الذى قد يكون نظرياً ، فهكذا فيما نحن فيه قد يعوز تواتر الإسناد فى المتواتر العملى ، ولا يعلم كيف يخفى هذا على الناس ومن تمر عليه الدنيا ، ولا يعلمون أن هذا الصنيع يعود وبالألّ ويلزم أن الدين قد اختلط من الأول ولم يبق إلى معرفته سبيل يوثق به ، وماذا يحصل ويعود بالتشكيك فى الضروريات ، وذلك كما نقل عن ابن مسعود فى إنكاره أن تكون المعوذتان من القرآن ، وقد تواتر وجودهما فيه عن ابن مسعود فى الخارج ممن قرأ عليه ، كما أوضحه فى " فواتح الرحموت فى شرح مسلم الثبوت " :

وبالجملة لا يحتاج التوارث المتواتر وتواتر الطبقة إلى إسناد متواتر ، ولا يدفعه خبر واحد ، ويكفى فيما كان مقطوعاً به في الأصل بقرائن قاطعة تسامع بعد ذلك والله أعلم .

والرابع : تواتر القدر المشترك - وهو أن يكون الشيء مروياً بطرق أخبار الآحاد ، وكان بينها نوع تخالف نوعي أو جنسي ، ولكن اتفقت جميع تلك الروايات على قدر مشترك متحد في الجميع - وهذا كتواتر المعجزة ، فإن مفرداتها وإن كانت آحاداً لكن القدر المشترك متواتر لا محالة .

قال شيخنا محقق العصر العلامة العثماني في مقدمة "فتح الملهم" : وهذه الأقسام الأربعة للتواتر وإن كانت جزئياتها منتشرة في كتبهم لكنهم لم يكونوا يذكرونها عند التقسيم ، وأول من ربيع القسمة وسمى كل قسم بإسمه فيما نعلم الشيخ العلامة الأنور أطل الله بقاءه (قدس الله سره) ، وهو تقسيم حسن آه . وقال الشيخ رحمه الله تعالى : وقد تجتمع أقسام (من التواتر) كما في أشياء من الوضوء كالسواك من المضمضة والاستنشاق . ثم إن التواتر يزعمه بعض الناس قليلاً ، وهو في الواقع يفوت الحصر في شريعتنا ويعجز الإنسان أن يفهرسه ، يذهل الإنسان عن التفاته ، فإذا التفّت إليه رآه متواتراً ، وهذا كالبيدهي كثيراً ما يذهل عنه ويحفظ النظرى ، وإذا علمت هذا فنقول : الصلاة فريضة ، واعتقاد فرضيتها فرض ، وتحصيل علمها فرض ، وجعلها كفر ، وكذا جهلها . والسواك سنة ، واعتقاد سنيتها فرض ، وتحصيل علمه سنة ، وجعلها كفر ، وجهله حرمان ، وتركه عتاب أو عقاب اه .

فائدة ٤ - قال الشيخ رحمه الله : الحديث الصحيح عندي على أربعة أقسام . القسم الأول : ما كان رواه ثقات وعدولاً ، كاملي الضبط والإتقان ، من غير شذوذ وعلة قاذحة ، ثم ساعده تعامل السلف . والقسم الثاني : أن

يصححه إمام من أئمة الحديث المتقنين خاصة . والقسم الثالث : أن يخرج
في كتابه من التزام الصحة في ذلك الكتاب ، مثل ”صحيح ابن خزيمة“ و”صحيح
ابن السكن“ و”صحيح ابن حبان“ و”صحيح ابن عوامة“ و”النسائي“ ، فهذا
عندى صحيح وإن لم يصرح بصحته خاصة ، فكأن التزامه لتخريجه الصحيح
دون غيره دليل على صحة الحديث الذي خرجه . والقسم الرابع : ما سلم روايته
عن جرح ، وأن يكونوا ثقات . فهذه أربع مراتب للصحيح ، فالقسم الأول
منها أعلاها وأقواها ، ثم وثم إلى الرابع .

فائدة ٥ - اعلم أن الإيمان محله القلب ، قال تعالى : (وقلبه مطمئن
بالإيمان ، كتب في قلوبهم الإيمان ، ولم تؤمن قلوبهم ، ولما يدخل الإيمان
في قلوبكم) ، وقد قرن كثيراً بالصالحات ، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ،
وقليلاً من المعاصي : (والذين آمنوا ولم يهاجروا ، وإن طائفتان من
المؤمنين اقتتلوا) ، ومتعلقه أى المؤمن به قد تكون الأعمال أيضاً باعتبار
اعتقادها ، فلذلك يطلق عليها أيضاً . والإسلام تسليم نفسه إلى الله ورسوله
وإطاعتها ، ثم هناك مقامات : مقام التمييز للإفتراق في الواقع : (ولكن
قولوا أسلمنا) ، ومقام الهداية إلى الإحتياط والتفويض إلى الله ومنه : (أو مسلماً)
وهذا إذا حكى حال آخر فلا يخرج الحاكى عن رتبته ، وليحكم بالظاهر فقط
وحسابه على الله ، ومقام مدح فيحسن بالأمور الغائبة لأنه الإخلاص والنصوح :
(الذين يؤمنون بالغيب) ، ومقام هداية من جانب المتكلم ابتداء وتعليمه لمن يدخل
في الإسلام فيحسن إطلاقه على الأعمال أيضاً لأنه يعلمه الناقص ابتداء من
عنده ، ومنه حديث وفد عبد القيس بخلاف الحكاية عن آخر ، وقول
البخارى : ”باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة“ كأنه استثناء مما حقه

في الأبواب السابقة ، وقوله : ” كفردون كفر “ أى قد يكون كذلك لأنه كلية ، وقوله : ” ولا يكفر صاحبها “ أى لا يقال أنه كافر بل به شئ من الكفر ، وهو من شأن أعماله لا من شأن أعمال الإيمان . وأما حديث جبريل فكأنه عنده بعض شئ وليس منتهى ما جاء في المسألة ، وبعض العلم لا كل ما انتهى إليه الأمر . وأيضاً فلما لم يعرفه النبي ﷺ ولم تكن هناك قرينة أنه يريد الدخول في الإسلام ابتداء وعرف أنه يعرف لفظ الإيمان بخلاف وفد عبد القيس ، ففيه : أتدرون ما الإيمان بالله ؟ وبالجملية ههنا السائل هو الذى ابتداء به ، فهو قد وصل إليه لفظه فجري الحبيب على أن عند السائل علماً به وأجاب بما هو جذره وهو الإيمان بما غاب عنا ، فإن الأمر الذى بعد في عقد القلب إطاعة وتسليماً لإختيار العبد هو هذا . وبالجملية لما لم يعلم من السائل ههنا أنه يسأل ليعمل بنفسه ، وأنه ليس عنده علم به قبل ذلك جرى الجواب على الأصل لما أن السؤال لحض جمع العلم وادخاره عنده لا لتدريبه وتمشيطه على العمل ، وقوله : ” سباب المسلم فسوق وقتاله كفر “ لما ذكر الفسوق للسباب وهو أدون أطلق على الأشد كفراً ، أو هو من شأن الكفار ، أو هو ناظر إلى حديث : « عصموا منى دماءهم وأموالهم » فإذا أعطاه الإسلام أماناً وعصمة فتعرض له أحد فقد أخذه كافراً ، وإذ ليس هو فالأول ، وهو كحديث : « من قال لأخيه : ” يا كافر “ فقد باء به أحدهما » على قاعدة : ” جزاء سيئة سيئة مثلها “ ، وكحديث : « لا ترجعوا بعدي كفراً يضرب بعضهم رقاب بعض » وكرجوع اللعن . وهذا ما نقلته من مذكرة له رحمه الله .

فائدة ٦ قال الشيخ رحمه الله في ” كشف الستار عن صلاة الوتر “ (١) : ثم ما ذكرناه من التوسط بين التعطيل والتشبيه في شرائع الأنبياء فذلك يفهمه من عنى بمعرفة مذاهب الفلاسفة والمشبهة ، فالفلاسفة مذهبهم الإيجاب ، وأنه

تعالى المبدؤ الأول وعلة العلل ، والعلة ما في طباعها صدور المعاول ، فليس
البارى عندهم فعالاً لما يريد ، وقد يلبس بعضهم بإطلاق الإرادة ، ولكن
يقول : إذا كان حياً وعالمًا وقادرًا بمعنى "إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل" لا
بمعنى "إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل" ، فمن اتصف بالحياة والعلم والقدرة فهو
المريد . وبعضهم يقول : حقيقة إرادته غير حقيقة إرادتنا ، لكن مع هذا
اتفقوا على أن ما هو صادر عنه فهو واجب الصدور عنه ، وأنه لا يقدر على
إعدام العالم ، وأن الإمكان منحصر فيما استعدت له المادة وغيره محال ، فما لم تستعد
له المادة دخل عندهم في المحال ، فالعالم عندهم واجب الصدور عنه وإعدامه
محال ، وكذا إيجاد غير هذا العالم محال وهكذا ، وقال الله تعالى بعد الصرائح :
(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً
فهو يشفق منه سرّاً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وهذا
يدخل فيه مسألة خلق أفعال العباد . وهل من شأن الإمكان الإيجاد ؟ وهل فيه
طبيعة الوجوب ولو بالغير ؟ وقد أنكره ابن رشد في "تهافتة" ، وهم يستطيعون
في جانب الوجود أن يعتبروا علاقة الوجود مع الوجود نفسها قدرة وإرادة ،
وكيف اعتبروها ؟ وتخلوها ولكن هذا محض التعطيل ، ويلبسون في جانب
الوجود بأن إرادته لكمالها لا تترد بين الجانبين وتنحصر في جانب واحد ، والواقع
أن انحصارها إنما هو لوجوب صدور العالم عندهم . فإذا سئلوا عن جانب العدم
تلجلجوا وجاء الحق وزهق الباطل ، وبهذا يسقط ما يقال من جانبهم ويخال
أن الإيجاب بالذات والإرادة متوافقان لا يتدافعان ، فالإيجاب على حسب
الإرادة ووقفها وبالعكس ، فانحصر أحدهما في الآخر واستتر فيه ، فيقولون :
شاء ما فعله وفعل ما شاءه ، ولم يشأ ما لم يفعله ولم يفعل ما لم يشأه ، وذلك أن القدرة
على الجانبين والمخصص للإرادة ، فلا إيجاب . وقد ذكر ابن رشد عنهم ما
ذكرنا ، ومع هذا قد صرح بعدم القدرة على الجانب الآخر بل الذي يظهر

من كلامه أن الإمكان عنده هو الاستعدادى وخلافه الممتنع ، ولا إمكان ذاتياً عنده ، والإستعدادى هو الذى ينطبق عليه كلامهم فى مسألتهم : "الحادث بالزمان مسبوق بالمادة والمدة" ، إذ يستدعى موضوعاً لا على الإمكان الذاتى ، فكلامهم وكلام المتكلمين لم يتواردا فى النفي والإثبات على محل ، ولم ينبه عليه أحد من الفريقين ، ثم رأيت بعضهم قد تعرض له ، وكذا ليس عند ابن رشد للممكن بالذات الواجب بالغير معنى ، وكذا لا يقسم الامتناع إلى الامتناع بالذات والامتناع بالغير ، وكذا لعله لا يضع الحدوث الذاتى أيضاً ، وكل ذلك عنده من اختراع ابن سينا ، مع أنه لحاظات عقلية ، وعدم القدرة على الجانب الآخر مصادم للقواطع الشرعية ، فإرادة التوفيق بين الشريعة وبين الفلسفة من هوس الشيطان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم رأيت فى أواخر الثامن من أثولوجيا ونوادر العاشر ما يصرح بما ألزمناهم به ، قال : كل ماصدر بروية وفكرة فيمكن أن لا يدوم ويبيد ، يعنى لتبعه الإرادة ، فإذا لم تتعلق بإدامته بآد ، بخلاف ما كان بالإيجاب الذاتى فهو دائماً ، وهل يلزم من كلامه حدوث ما بالإرادة والاختيار بتأمل فيه جداً ، والذى يظهر أن الروية عنده غير الإرادة ، وقد أكثر من ذكر الأولى ونفيها عن المبدء الأول ، وصرح به فى موضع من الرقم الخامس باستلزامها حدوث ما روى فيه بخلاف الإرادة ، فذكرها فى غاية القلة كما فى آخر نوادر العاشر ، ولعله يأول إرادة إبداعية كما يقولون بالجعل الإبداعى فى العقول والحدوث الذاتى ، وما ذكرناه عن أرسطو ينفى ما أول به أبوالبقاء ، كلامهم فى الإيجاب أنه لا ينفك الفعل عن ذاته ، لا لإقتضاء الذات إياه بل لإقتضاء الحكمة ، وكذا ما ذكره ولى الله على "الصدرا" فى العناية ، فالله تعالى عندهم علة وليس بفاعل ، وعلى لسان الأنبياء فاعل ليس علة ، فجاء الأنبياء عليهم السلام وشرعوا القبلة المسجد الحرام والبيت الأقصى ، وشرعوا قبلة الدعاء السواء

تعالى المبدؤ الأول وعلة العلل ، والعلة ما في طباعها صدور المعاول ، فليس
البارى عندهم فعالاً لما يريد ، وقد يلبس بعضهم بإطلاق الإرادة ، ولكن
يقول : إذا كان حياً وعالمًا وقادرًا بمعنى "إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل" لا
بمعنى "إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل" ، فن اتصف بالحياة والعلم والقدرة فهو
المريد . وبعضهم يقول : حقيقة إرادته غير حقيقة إرادتنا ، لكن مع هذا
اتفقوا على أن ما هو صادر عنه فهو واجب الصدور عنه ، وأنه لا يقدر على
إعدام العالم ، وأن الإمكان منحصر فيما استعدت له المادة وغيره محال ، فما لم تستعد
له المادة دخل عندهم في المحال ، فالعالم عندهم واجب الصدور عنه وإعدامه
محال ، وكذا إيجاد غير هذا العالم محال وهكذا ، وقال الله تعالى بعد الصرائح :
(ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شئ ومن رزقناه منا رزقاً حسناً
فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) وهذا
يدخل فيه مسألة خلق أفعال العباد . وهل من شأن الإمكان الإيجاد ؟ وهل فيه
طبيعة الوجوب ولو بالغير ؟ وقد أنكره ابن رشد في "تهافتة" ، وهم يستطيعون
في جانب الوجود أن يعتبروا علاقة الوجود مع الوجود نفسها قدرة وإرادة ،
وكيف اعتبروها ؟ وتخليوها ولكن هذا محض التعطيل ، ويلبسون في جانب
الوجود بأن إرادته لكمالها لا تترد بين الجانبين وتنحصر في جانب واحد ، والواقع
أن انحصارها إنما هو لوجوب صدور العالم عندهم . فإذا سئلوا عن جانب العدم
تلجلجوا وجاء الحق وزهق الباطل ، وبهذا يسقط ما يقال من جانبهم ويحال
أن الإيجاب بالذات والإرادة متوافقان لا يتدافعان ، فالإيجاب على حسب
الإرادة ووفقتها وبالعكس ، فانحصر أحدهما في الآخر واستتر فيه ، فيقولون :
شاء ما فعله وفعل ما شاءه ، ولم يشأ ما لم يفعله ولم يفعل ما لم يشأه ، وذلك أن القدرة
على الجانبين والمخصص الإرادة ، فلا إيجاب . وقد ذكر ابن رشد عنهم ما
ذكرنا ، ومع هذا قد صرح بعدم القدرة على الجانب الآخر بل الذي يظهر

والإشارة للإقبال على الله والعبادة البدنية بتقييد جهة فوق المعرفة العقلية المحضة ، وأثبتوا المعاد الجسماني ورؤية الله تعالى ، وأثبتوا الأفعال الاختيارية له ، وأنه ليس كمثل شئ وهو السميع البصير ، وشرع إبراهيم عليه السلام شيخ الأنبياء وأبو الأنبياء وإمام الأمة صاحب الملة والقبلة ملته الحنيفية ، وهى الإعراض عما سوى الله والإنفراد له ، وسن رفع اليدين والتوجه والركوع قبل السجود ، ولم يكن الركوع عند بنى إسرائيل ، صرح أبو حيان مشاهدة منهم ، ولعل التطبيق الذى ذكره سيف فى "الفتوح" عنهم عن عائشة وهو فى غير الركوع ، وشرع السجود على الجبهة ، وكان السجود عند بنى إسرائيل على جبين واحد من الجبينين ، صرح به فى "فتح العزيز" ، ورفع يديه فى دعائه لمن أسكن من ذريته بوادٍ غير ذى زرع ، كما عند البخارى من كتاب الأنبياء ، وعلى الحنيفية ما عن زيد بن عمرو بن نفيل عند البخارى للإشارة والاستشهاد ، فهذه الإشارات لا يستطيع فهمها المعطل المحض ، ونصت الشريعة الحمديدية أن فى استقبال القبلة ورفع اليدين إقبالاً على الله ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت ، كما عند الترمذى ، وفى كتب اللغة : نحر المصلى فى الصلاة انتصب ونهد صدره ، أو وضع يمينه على شماله ، أو انتصب بنحرة إزاء القبلة ، وفلاناً قابله . وفى "شرح الإحياء" عن "القوت" : إن تحت الصدر عرقاً يقال له الناحر ، ومنه : (فصل لربك وانحر) وأن فى القيام والقراءة مناجاة معه ، وأن فى الركوع تعظيماً له كالتعظيم فى الشاهد ، نريد أن فى الركوع محض تعظيم له ، وهو وسيلة كالانحناء فى الشاهد بخلاف السجود ، فإنه ليس محض وسيلة بل هو انتهاء إلى غاية هو أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، أريد أن الركوع تعظيم يأتى فى البين وينتهى ، والسجود غاية الغايات وليس طريقاً فقط ، كما أن الركوع طريق يجوز ، وقوله تعالى : (يعزيم اقتنى لربك واسجدى) أخذ بمبدأ المبادئ ثم غاية الغايات ،

ثم كر على ما بقي في البين وقال : (اركعي مع الراكعين) وأفاد بتأخيرهِ استئناف لحاظ له ، ولو كان على الترتيب لم يفد استئناف لحاظ مستقل له ، (الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين) ومن استئناف اللحاظ قوله تعالى : (ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس) كقول العلماء : ثم اعلم ، وسنت الشريعة المطهرة تحية على الله ، فجاءت الشرائع بأفعال تكون في الشاهد لتعظيم الكبراء ، وليس هذا تشبيهاً بل توسطاً بين التشبيه والتعطيل والتعظيم عند لقاء الكبراء يكون طريقاً إلى المطلب يجوزونه أولاً ثم يكون العرض ، وكذلك في الصلاة جعل التكبير أولاً ، إلى آخر ما قال رحمه الله ورضي عنه وأرضاه . فانظر يا رعاك الله إلى هذه الدقة والعلم الغزير ، نعم إذا أنكح الفكر الحفظ ولد العجائب ، كما قاله الجاحظ .

فائدة : ٧ = قال رحمه الله ما قالت الفلاسفة من أن صفات البارئ تعالى عين ذاته ، لو سلمناه فمع تسليمنا إياه خداع بين منهم وتلبس جلي ، لأنهم لم يثبتوا من صفاته إلا العلم ، وقد تحقق لدى من تفقد آرائهم ومذاهبهم أن العلم عند إمامهم أرسطو وشارحي مذهبه ابن سينا والفارابي كلهم : صفة حصولية ، فلا جرم يكون زائداً على الذات لا عين ذاته ، فكيف يمكن أن تكون صفاته عين ذاته ، فهو لا لم يثبتوا إلا العلم ، وهو عندهم حصولي ، فن أين الصفات ؟ ومن أين العينية ؟ فالذي تفوهوا به من القول بالصفات ثم عينيتها ليس إلا زخرفة وتدليس للناس ، وإيقاع لهم في ورطات الوسواس ، فكن على بصيرة وفطنة ، ولا يغرنك خضراء الدمنة ، وهكذا حال جميع مزخرفاتهم وخزعبلاتهم ، إذا أمعن فيها النظر وغاص فيها الفكر استبان عوارها ، فلا تدهشك تعبيراتهم الهائلة ، ولا تعجبك إطلاقهم الرائقة ، وما ذاك إلا كالحادي ليس له بعير أو جمجمة من غير طحين .

وقال رحمه الله فيما أفادنا عند درس قصيدته "ضرب الخاتم على حدوث العالم" في شرح قوله :

تسلسل علل محال وما كذا * بسلسلة الأفعال عن فاعل بقي

إن براهين إبطال التسلسل التي اخترعها الفلاسفة من التطبيق والتضعيف والتضاييف والسلمى وغيرها كلها أغاليط صريحة وتسويلات لم يستقم منها شيء إلا برهان تسلسل العلل ، فإنه صحيح ، لأن كل معلول وجوده بالعرض ، فما لم يأت ما بالذات من وراء السلسلة لم توجد ، ولكن في العنوان شك ، لأنه وإن كان ما بالذات في الطرف جاز إطلاق التسلسل على المتوسطات على هذا أيضاً ، ولذا لعلمهم لم يذكروا في دليله إلا ما يتعلق بما ذكر . وغاية ما يقال : أن الإنقطاع كون علة ليس بمعلول انتهى الأمر إليه لا تنهى العدد ، كما حققه الصدر الشيرازي في "الأسفار الأربعة" ، ولعل برهان الوسط لا يحتاج إلى مقدمة وجود ما بالعرض بدون ما بالذات ، وإنما يحتاج إلى أنه لا يوجد الشيء ما لم يكن طرف ليس في حكم الوسط ، وتنقيحه ما يفضى إلى عدم وجود الشيء الأخير . وما ذكروه في برهان التطبيق من إبطال لزوم مساواة الكل للجزء في سلسلتي الانطباق فيجربى في المتناهي لا في غير المتناهي ، فإجراؤه في غير المتناهي كما راموه غير صحيح ، إذ لا قدح في تساوى الكل والجزء في غير المتناهي ، فمساواة الكل للجزء في الأمور الموجودة المرتبة بالفعل باطلة ، وأما في التي لم توجد بعد ولم تنقطع السلسلة فكلا .

وهكذا ما ذكروه في البرهان السلمى من امتداد الخطين كأنهما ساقا مثلث والإنفراج بينهما على وفق الامتداد ، وإذا كان الامتداد إلى غير النهاية لا محالة يكون الإتساع بينهما أيضاً غير متناه لما فرضنا ، ثم وصل الخط بينهما ، ولزوم كون البعد الغير المتناهي محصوراً بين الحاصرين - إلى آخر ما قالوا -

فهذا أيضاً أغلوطة جليئة ، إذ الوصل بين الخطين من خصائص التناهي ، وكيف الوصل بين الاتساع الغير المتناهي ؟ حيث هو يبتنى على انقطاع السلسلة وانتهائها ؟ فلا محالة يكون الوصل فيما تحقق وجوده مرتباً بالفعل ، وقد قالوا أنفسهم بمثل هذا ، إذا اعترض عليه المتكلمون من أن حركات الأفلاك عندهم غير متناهية ، وقد أبطلتم اللاتناهي بالبراهين ، فقالوا : هو باطل في الأمور الموجودة المرتبة بالفعل ، لا الأمور المتعاقبة ، ويقرب من هذا القليل ما يرد عليهم من قبل المتكلمين : أن الحركات الجزئية للأفلاك لما كانت حادثة عندهم فكيف القول بقديم نوعها ؟ فإذا كانت الجزئيات المنفردة حادثة فلا بد أن يكون المجموع المركب منها أيضاً حادثاً .

وما أجاب من قبلهم الدواني من : أنه لا يلزم من صدق حكم الكل الأفرادى صدق حكم الكل المجموعى ، ألا ترى أن "كل رجل يدخل هذا الباب" و"كل رجل يشبعه هذا الرغيف" يصدق في الأول دون الثانى ، فكيف يكون حكمهما واحداً ؟ فساقط ، لأن قياس حكم الدخول في الباب على حكم حدوث الحركات غير صحيح ، فإن وصف الحدوث لها ذاتى ، وعدم صلوح الباب لدخول جميع الرجال إنما جاء من خارج ، وصار هو من إجراء حكم الكل المجموعى ، ولو لاه لما اختلف الحكم بينهما ولا بد . ألا ترى أنه إذا كان كل جزء من أجزاء شئ أبيض ، أو كل فرد من أفراد أسود ، لا جرم يصدق الحكم على المجموع أيضاً : بأنه أبيض أو أسود . فما قاله الدواني أيضاً لا يخلو عن تلبيس وتخليط اهـ .

قال الراقم : فهكذا جميع قواعدهم ومسائلهم اختلط فيها المرعى بالمهمل ، بل ترى أسماء مؤنقة ما لها من حقيقة ومسميات ما لهم عليها من برهان ، آراء متهافئة وأنظار متساقطة ، لم تتلج بها صدورهم ولم تقنع بها عقولهم ، وكيف تمرع العجزاء ؟ وهل تخضب الساهية من غير مقتدر ؟ لا ولا ، فكن

على بقطة واعتبار، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار. نعم وقد صدق الحريري حيث قال :

ما أنت أول سار غره قمر * ورائد أعجبتة خضرة الدمن
والله المستعان وإليه المفرع وعليه التكلان .

فائدة ٨ : = في بيان بعض معاني قوله تعالى : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) قال الشيخ رحمه الله : ومعلوم أن الأمر من حيث الشرع ورعاية منصب الشارع للوجوب وإن لم يكن من حيث اللغة كذلك ، كما أشار إليه في ” جمع الجوامع “ ، ولكن لا يخفى أنه للأمر بالذي اشتق منه ، وهو يكون جنساً تحته واجب ومستحب ، كالصلاة على النبي ﷺ واجبة ومستحبة على التفصيل المعروف في أحكامها . وقلت : وما في الشريعة حقيقة واجبة إلا ومثلها مندوبة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، وكذا الصلاة المفروضة حقيقة مركبة من التحريم إلى التسليم ، وفيها مستحبات ، فينبغي أن يكون الأمر المشتق من مثل هذا الجنس كذلك ، إذ يبعد أن تكون الصلاة المستحبة عليه ﷺ حيث استحبتها العلماء غير داخلة تحت قوله تعالى : (صلوا عليه) وكذا يبعد أن تكون الصلوات المندوبة أو المستحبات الداخلة في الصلوات غير داخلة تحت قوله ﷺ : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، فالذي يظهر أن الأمر لوجوب الجنس في الجملة وأن لا يخلوا الجنس من الوجوب ، ويبقى تفصيل ذلك الجنس إلى الواجب والمندوب مفوضاً إلى الشرع بعده . قال القاضي أبو بكر ابن العربي في ” أحكام القرآن “ تحت قوله تعالى : (أنفقوا من طيبات ما كسبتم) : المسألة الثانية في المراد بالنفقة ، وفيه قولان : أحدهما : أنها صدقة الفرض ، قاله عبيدة السلماني وغيره . الثاني : أنها عامة

في كل صدقة ، فمن قال أنها في الفرض تعلق بأنها مأمور بها ، والأمر على
الرجوب ، وبأنه نهى عن الردئ ، وذلك مخصوص بالفرض ، والصحيح أنها
عامة في الفرض والنفل ، والدليل عليه أن سبب نزول الآية كان في التطوع ،
الثاني : أن لفظ " أفعل " صالح للندب صلاحيته للفرض ، والردئ منهى
عنه في النفل ، كما هو منهى عنه في الفرض ، إلا أنه في التطوع ندب في
" أفعل " مكروه في " لاتفعل " ، وفي الفرض واجب في أفعل ، حرام
في لاتفعل . وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " (١) عن الشافعي :
والذي قاله الشافعي في " الأم " : فرض الله الصلاة على رسوله بقوله :
(إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا
تسليماً) فلم يكن فرض الصلاة عليه في موضع أولى منه في الصلاة اه .
والطف منه ما في " قواعد ابن رشد " (يعني " بداية المجتهد " لابن رشد
الفقيه المالكي) من سجود السهو ، قال : وكذلك تجدهم قد اتفقوا ما خلا أهل
الظاهر على أن تارك السنن المتكررة بالجملة آثم ، مثل لو ترك إنسان الوتر
أو ركعتي الفجر دائماً لكان مفسقاً آثماً ، فكان العبادات بحسب هذا النظر ، منها
ما هي فرض بعينها وجنسها ، مثل الصلوات الخمس ، ومنها ما هي سنة بعينها
فرض بجنسها ، مثل الوتر وركعتي الفجر وما أشبه ذلك من السنن ، وكذلك
قد تكون عند بعضهم الرغائب رغائب بعينها سنن بجنسها ، مثل ما حكيناه عن
مالك من إيجاب السجود لأكثر من تكبيرة واحدة ، أعني للسهو عنها ، ولا تكون
فيما أحسب عند هؤلاء سنة بعينها وجنسها ، وأما أهل الظاهر فالسنن عندهم
هي سنن بعينها ، لقوله ﷺ للأعرابي الذي سأله عن فروض الإسلام : « أفلاح
إن صدق ، دخل الجنة إن صدق » وذلك بعد أن قال له : « والله لأزيد على
هذا ولا أنقص منه » يعني الفرائض اه . وقال الطيبي في باب القراءة :

قال صاحب "الكشاف" في قوله تعالى : (وأتموا الحج والعمرة لله)
الدليل الذي ذكرنا أخرجه العمرة من صفة الوجوب فبقى الحج وحده فيها ،
فهما بمنزلة قولك : صم شهر رمضان وستة من شوال ، في أنك تأمر بفرض
وتطوع ، هذه المسألة مبينة على أن مطلق الأمر للوجوب إلا ما خصه الدليل
اهـ . والحاصل أن الأمر بالجنس يوجب إيجابه ، ولكن التفصيل باعتبار
الاحمال والأوقات ، أين تجعله الشريعة واجباً ؟ وأين تجعله الشريعة مستحباً إليها ؟
فمن هذه الجهة قلت ما قلت ، لا باعتبار الجمع بين الحقيقة والحجاز ، ولا باعتبار
عموم المشترك . ومثله فيما يظهر قوله تعالى : (فاستمعوا له وأنصتوا) وقوله
ﷺ : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » ، فالذي ينبغي أن يكون
الإستماع واجباً في الصلاة وإن كان غير واجب في غيرها . ثم إنه لا حاجة
لنا إلى البحث عن سبب نزوله ، إذ لو كان للنطق فتكون العبرة له لا للسبب ،
على ما عرف في محله . وفي "روح المعاني" : وفي بناء الفعل للمفعول إشارة
إلى أن مدار الأمر القراءة من أي قارئ اهـ . وفي "فتاوى الحافظ ابن
تيمية" : وقد استفاض عن السلف أنها نزلت في القراءة في الصلاة ، وقال
بعضهم : في الخطبة ، وذكر أحمد بن حنبل الإجماع على أنها نزلت في ذلك ،
وذكر الإجماع على أنه لا تجب القراءة على المأموم حال الجهر اهـ ، وفي موضع
آخر قال أحمد : أجمع الناس على أنها نزلت في الصلاة .

(يريد الشيخ رحمه الله تعالى بأننا إن بحثنا عن سبب النزول وجعلناه مداراً
ومناً للحكم فلا يضرنا أيضاً ، إذ الأقوى رواية نزوله في الصلاة ، فهي حجة
لنا لا علينا ، وغاية ما يرد أنه حجة في الجهرية لا في السريية ولا حرج .
علا أن القاعدة الأصولية وإيراد الفعل مجهولاً كل ذلك يؤيد الأحناف تأييداً ،
والله أعلم) .

فائدة : ٩ = في صمدع بعض مزايًا قوله تعالى : (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال) . قال الشيخ رحمه الله : لا نخرج فيه عن اللفظ وعنوانه إلى غيره ، وهو في الذكر لا الصلاة وإن كانت ذكراً ، قوله : (واذكر ربك) الظاهر أن المراد به ذكره في القلب ، ولعله لذا لم يقل : (واذكر اسم ربك) وقال : (تضرعاً وخيفة) ولم يقل : (تضرعاً وخفية) فالخيفة من عقابه أمر في القلب ، كما قال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) . وعند الترمذی من أبواب صفة جهنم عن أنس عن النبي ﷺ قال : « يقول الله : أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام . » هذا حديث حسن غريب ، وأريد بالذكر في القلب أن لا ينساه فيدخل في وعيد "اليوم أنساك كما نسيتني" ، والذكر في القلب على حد ما قال ﷺ لابن عباس : « يا غلام إني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله اهـ . » وفي رواية غير الترمذی كما في "أذكار النووى" : « احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة » . فلا بد أن يكون في القلب ذاكر الله وداعيه ووازع يزعجه عن نسيانه بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين ، وهذا الذكر في القلب ليس ينحصر على الذكر بالأسماء والأذكار بأن يكون وريدها هو المقصود ، وإنما يكون من باب واذكرني عند ربك ، ثم قوله : (ودون الجهر) فاعلم أن الذى يظهر أن عرف القرآن أن الجهر فيه أرفع من الجهر المدون في كتب الفقه من الجهر بالقراءة ، ذكره في "الكاملين" ، وذلك أن الجهر في العرف أزيد مما يجرى في المحادثة والكلام بين الناس على الحد المعروف بينهم ، والجهر في الفقه إسماع غيره ، وهو دون الجهر بعرف القرآن ، كما في قوله تعالى :

(لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضهم لبعض اه) . وقوله تعالى : (إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اه) . ومنه في حديث امرأة رفاعة القرظي : « يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به » ، وقوله تعالى : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) فالسبيل بينه هو عين الجهر المعروف في الفقه وغير الجهر المعروف في القرآن ، وآية : (ولا تجهر اه) بتامها في الصلاة الجهرية لا السرية ، وهو ما عند مسلم عن ابن عباس في قوله (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) قال : « نزلت ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله لنبيه ﷺ : ولا تجهر بصلاتك فيسمع المشركون قراءتك ولا تخافت بها عن أصحابك ، لسمعهم القرآن ولا تجهر ذلك الجهر ، وابتغ بين ذلك سبيلا » يقول بين الجهر والخافة اه . وعلم منه أن المقصود الإسماع ، ولا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد أنه لا بد للإسماع من الإنصات والإسماع ، وإذن فقوله : ودون الجهر يبقى تحته بالإسرار بالذكر بحيث يسمع نفسه ، والجهر بحيث يسمع غيره ، وينهى عن الشديد ، وهو المراد في حديث أبي موسى : « اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا » فخلصت من هذه الآية ثلاث صور كلها في الذكر لا في أحوال الصلاة وأحكامها ، ولهذا قال : « من القول » في قوله : (ودون الجهر من القول) وقوله : « في نفسك » كقوله في الكتاب في قوله : (واذكر في الكتاب إسماعيل ، واذكر في الكتاب موسى ، واذكر في الكتاب مريم) أراد سبحانه وتعالى أن يبين حكم الذكر بنفسه بعد أن بين حكم الاستماع من غيره ، وإنه في القرآن فقط ، انتهى ما قاله رحمه الله .

قال الشيخ رحمه الله في كتابه "عقيدة الإسلام" (١) : قد تواتر في الأحاديث : أنه عليه السلام ينزل بعد خروج الدجال فيقتله ويريه دم على حربته ، ثم يخرج يأجوج ومأجوج فيهلكهم الله بدعائه ، وقد حرق الملحدون تلك الأحاديث أيضاً ، وكنت قد أفردت في مبحث يأجوج ومأجوج مقالة حديثة تاريخية لا يسعها المقام ، وهذه نبذة منها أوردتها ، فالذي ينبغي أن يعلم ويكفي ههنا أن الظاهر من أمر ذي القرنين : أنه رجل ليس من أهل المشرق كما قيل أنه فغفور الصين الذي بنى سداً هناك في طول ألف ومائتي ميل ، ويمر على الجبال والبحار ، لأنه لو كان كذلك لقل في القرآن العزيز بعد سفره إلى المغرب : أنه رجع إلى المشرق كالراجع إلى وطنه ، ولا من أهل المغرب ، وإنما هو من أهل ما بينهما ، والراجح أنه ليس من أدواء اليمن ، ولا كيقباد من ملوك العجم ، ولا هو سكندر بن فيلقوس ، بل ملك آخر من الصالحين ، ينتهي نسبه إلى العرب الساميين الأولين . ذكره صاحب "الناسخ" ، وأرخ لبنائه السد سنة ٣٤٦٠ من الهبوط ، وذكره قبل العرب الساميين الذين ملكوا مصر ، كشداد بن عاد بن عوض بن ارم بن سام ، وابن أخيه سنان بن علوان ابن عاد ، وبعدهما ريان بن الوليد بن عمرو بن عمليق بن عولج بن عاد ، قال : ومن أطلق على هؤلاء الفراعنة بعد الريان العملاقة فللنسبة إلى عمليق بن عولج لا إلى عمليق بن لاوذ بن ارم بن سام الذين كانوا سكنوا بمكة ، وكذا هو - أي ذو القرنين - قبل ضحاك بن علوان أخى سنان المذكور الذي قتل جمشاد ملك الإيران وملكه وذكر إسم ذي القرنين : صعب بن روم بن يونان بن تارخ بن سام ، فهو إذن من عاد الأولى ، لا من الروم أو اليونان ، وقد قال الله تعالى : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح) . وذكر أيضاً أن كورش ليس هو كيقباد بل هو من الطبقة الثانية من ملوك بابل ، والأشبه في وجه تسميته ما عن علي ،

وقد قواه في "الفتح" وشرحه في "شرح القاموس" ، وذكر في التنزيل
ثلاثة أسفار له . الأول إلى المغرب ، ثم إلى المشرق ، ولم يذكر جهة الثالث ،
ولا قرينة له على أنه إلى الجنوب ، فهو إذن إلى الشمال ، وسده هناك في جبل
"قوتايا" الذي يسمى الآن : "الطائي" غير مجموعة الجبال الأورالية ، وهو
المراد بآخر "الجربياء" في كتاب حزقيال عليه السلام ، كما في "روح
المعاني" . قلت : "الجربياء" في اللغة : الريح التي تهب من الشرق والشمال ،
وبني أيضاً بعض ملوك الصين سداً لنحو ضرورة ذي القرنين ، وهو سد
كان المغول سموه : "أتكووة" ، وسماه الترك : "بوقورقه" ، ذكره
صاحب "الناسخ" ، وأرخ لبنائه سنة ٤٣٨١ من الهبوط ، وكذا بعض ملوك
العجم من باب الأبواب ، لمثل ما ذكرنا ، وهناك سدود آخر وكلها في الشمال ،
ثم لو ثبت ما اشتهر وشهره المؤرخون ، وذكره في "حياة الحيوان" عن ابن
عبد البر في "كتاب الأمم" من الكر كند : أن مأجوج من ولد يافث ، سكن
هناك ، وأن جوج لحق بهم ، وأن ماغوغ - كما ذكره ابن خلدون بالعبرية - هو
مأجوج في العربية ، وجوج هو يأجوج ، مع أنه لم يذكر في كتاب حزقيال
بلفظ : يأجوج ، وإنما ذكر جوج ، وسلم أنهما معرب (گگ) (سیگاک) في
الإنكليزية . وأن روسيا من يأجوج ، وأهل بريطانيا من مأجوج ، لم يدل
على أن ذي القرنين سد على كلهم بل سد على فرقة منهم هناك . قال ابن
حزم في "الملل والنحل" فيما يعترض به النصارى على المسلمين قديماً : أن
أرسطو ذكر السدّ ويأجوج ومأجوج في "كتاب الحيوان" ، وكذا بطليموس في
جغرافياه ، بل سؤال تعيين السدّ أو تعيين ذي القرنين وقع من اليهود أولاً
عنه ^{صلى الله عليه وسلم} ، كذا يستفاد من بعض روايات "الدر المنثور" . وبعض الناس
يجعل اللفظين : "سنگوليا ومنچوريا" ، وبعضهم "كاس ميكس" ،
وبعضهم "چن ما چين" ، وهو كما ترى ، وأعجب منه ما في "الناسخ"

من ذكر بناء بيت المقدس : أن علماء بني إسرائيل كانوا يطلقون على صور وصيدا "چين ما چين" ، ونقل بعضهم عن تاريخ كليسيا فرقة من الفرق الآريوسية لقبها : يأجوجي ، والمفسدون في الأرض لا يصدق على كلهم ، فإنه إهلاك النسل والحرث وتخريب البلاد والنهب والسفك وشن الغارة ، لا أخذ الممالك بالسياسة والتدبير ، وهؤلاء موصوفون بذلك لا الأول ، وإذا انقطع هذا اللقب عنهم الآن لم تبق المعرفة إلا بوصف الإفساد ، فإن كان شعبهم ينتهي إليهم فلينته ، ولعله في بعض الآثار ، أدخل نحو إنسان الغاب أو الجبارين في يأجوج ومأجوج ، فراجع إنسان الغاب والجبار من الدائرة ، وفي "البحر" أنه قد اختلف في عددهم وصفاتهم ، ولم يصح في ذلك شيء آه . قلت : قد صح في كثرة عددهم أحاديث . وكذا نقل عن كتاب "الجهان في تاريخ الزمان" للعيني عن "تاريخ ابن كثير" : أنه لم يصح في صفتهم كثير شيء ، وإذا كان هؤلاء الأورباويون خارجين من بلادهم وأخلاقهم وسيرتهم فليسوا بمرادين ، وإنما المراد فرقة منهم أي من شعبهم في الشمال والشرق ، ولهم خروج في آخر الأيام ، وليس أنهم مسدودون بالسد من كل جهة ، بل منعوا من شعب هناك ، فإن قيل أنهم أيضاً قد ارتفع عنهم المانع الحسى منذ زمان طويل واندك السد وقد خرجوا ، قيل : فإذا لم يكن هذا الخروج مراداً ، فإنه لم يتحقق نزول عيسى عليه السلام قبيل ذلك ، ويستمر الأمر هكذا حتى يخرج بعض منهم الذين لم يخرجوا إلى الآن في عهد عيسى عليه السلام ، ويكون الخروج مرة بعد مرة كمثل خروج الخوارج ، لا خروجاً بالمرّة من السد ، ولم يذكر في "القرآن" لفظ الخروج من هذا السد فقط ههنا ، ولما ذكر في الأنبياء : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج) لم يذكر السد والردم ، فكان الخروج لعمومهم ، وكأن قوله : (وتركنا بعضهم يومئذ مموجاً في بعض) يؤي أن بعضهم في مقابلة

بعضهم الآخرين ، فالبعض خارجون من السد والبعض الآخرون من غيره ،
وكان اندك السد جعل موضع خروج بعض وميقات خروج آخرين منهم ،
وقد وقع في مكاشفات يوحنا الإنجيلي خروجهم مرة بعد مرة ، أى من سد
عليهم أو لم يسد ، وكذا ذكره في "الناسخ" عن الفصل الحادى عشر من
سفر سنهدرين من كمارا اليهود ، وهو عندهم كالحديث عندنا ، قال فيه :
وجد في "خزائن الروم" بالخط العبرى : أن بعد أربعة آلاف سنة ومائتين
وإحدى وتسعين سنة يبقى العالم يتيماً ، وتجري فيهم حروب كوك مأكوك ،
وتكون سائر الأيام أيام الماشيح ، وهذا التاريخ على ما يؤرخ به اليهود مولد خاتم
الأنبياء ﷺ ، ويبقى العالم بعده يتيماً لا راعى له ، أى تختتم النبوة ، وتجري بعد
ذلك وبعد خير كثير ملاحم يأجوج ومأجوج ، وينزل إذ ذاك عيسى عليه
السلام . وصاحب "الناسخ" حمل الماشيح على خاتم الأنبياء ﷺ ، وكذا
ذكرهم في كتاب حزقيل ولم يذكر السد ، فإجوج ومأجوج أعم من سد
عليهم ، فقد جمع القرآن حال أعمهم وأخصهم ، وذلك لسؤالهم عن ذى
القرنين لا عن يأجوج ومأجوج فقط ، فذكر أولاً من سد عليهم منهم ، ثم
عمم في قوله : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) وهو إذن للاستمرار
التجددى حتى يتصل خروجهم المخصوص بنزول عيسى عليه السلام ، فوقع
هنا في "القرآن" أعم مما في الحديث ، وكذا قوله : (وهم من كل حذب
ينسلون) فذكر كل حذب ، ولا بد من ذلك إن ثبت أن الأورباويين منهم ،
وأن لهم خرجات ، أو ذكر في القرآن من سد عليهم فقط ، لكن لم يذكر أنه
لا يندك ، ويكون خروجهم مرة بعد مرة حتى يكون خروجهم المراد عند
نزوله عليه السلام ، وقد بدئ باندكاه في زمانه ﷺ حيث قال : ويل

للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وهؤلاء الذين خرجوا كذلك أى من غير سد ، لا يقال أنهم خرجوا عليه ، لأنهم نصارى نحلة وانتهاء ، وبقى بعض من هؤلاء أصلاً وشعباً ليسوا نصارى ، سيخرجون عليه فى آخر الزمان ، وذكر فى كتاب حزقيال خروجهم على بنى إسرائيل ، فى "روح المعانى" : وفى "كتاب حزقيال عليه السلام" الأخبار بمجيئهم فى آخر الزمان من آخر الجربياء فى أمة كثيرة لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وإفسادهم فى الأرض ، وقصدتهم بيت المقدس ، وهلاكهم عن آخرهم فى بريته بأنواع من العذاب اهـ . وذكر فى الأحاديث النبوية توجههم إلى الشام ، فليس الخروج عليه متصلاً بالإنذكار ، وإنما المتصل به خروجهم على الناس ، وهو كذلك فى بعض الألفاظ كما فى "الكنز" (١) . وقد تأتى أحاديث أشراط الساعة بالتقاط أشراطها من البين وترك ما بينها ، فلهم خرجات مرة بعد مرة ، وليس القرآن العزيز نصاً فى أن السد منعهم من كل جهة ، ولا أن عدم خروجهم فى الأزمنة الآتية لعدم الإنذكار فقط ، فإن ذلك إذ ذاك أى عند بناءه ودهراً بعده ، وأما بعد ذلك فلهم خرجات ، ففيه : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، الآية) فلم يقل : حتى إذا فتح الردم ، والمراد تلك النوبة من الخرجات ، وينبغى أن يعلم أن قول ذى القرنين : (قال هذا رحمة من ربى ، فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ، وكان وعد ربى حقاً) قول من جانبه ، لا قرينة على جعله منه من أشراط الساعة ، ولعله لا علم له بذلك ، وإنما أراد وعد اندكاكه ، فإذا ن قوله تعالى بعد ذلك : (وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض) للاستمرار التجددى . نعم قوله : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) هو من أشراط الساعة ، لكن ليس فيه للردم ذكر فاعلم الفرق .

واعلم أيضاً أن السد الذي رآه صحابي كما في "الفتح" و"الدر المنثور"
و"حياة الحيوان" الظاهر أنه سد آخر لا هذا السد ، ويأجوز ومأجوز فيه
بمعنى أهل الشرك ، وحديث حفر السد كل يوم أعل ابن كثير في "تفسيره"
رفعه بأنه لعنه الله سمعه من كعب فإن كعباً روى عنه مثل ذلك ، وقد ذكره أيضاً
ابن كثير . وفي "الفتح" : أن عبد بن حميد رواه عن أبي هريرة موقوفاً . أو
كانوا حفروا أولاً وتركوا ، وسيحفرونه عند خروجهم المخصوص أيضاً ،
وإن كانوا خرجوا قبل ذلك خروجاً غير خروجهم على عيسى عليه السلام فإن
الله تعالى قد قال : (وما استطاعوا له نقباً) ذكره ابن كثير أيضاً . وأقول :
إن كان في إيمان الناظرين سعة فلا ضيق في تسليمه أيضاً . والحاصل أنه إن
كان قد اندك أو كان لم يندك ولكن كان لم يبق مانعاً بحسب هذا الزمان بأن
يكون خروجهم من طرق بعيدة من وراء الجبال ، والسد على البوابير
والمراكب المحدث للأسفار الطويلة ، فخروجهم المخصوص ليس متصلاً به ،
كيف ؟ وهو من ذلك إذن منذ زمان طويل ، ولم يبق من السد الذي جعله
الناظرون سد ذى القرنين إلا أثر وطلال ، ولم يتصل خروجهم ذلك به ،
فليكن من الزمان برهة أخرى كذلك ، لا أنهم خرجوا في زماننا هذا فيطلب
عيسى عليه السلام فيه ، فإنه إذا تراخى من اندكاه أو من خروجهم من زمن
طويل فليتراخ أمداً آخر أيضاً وإن لم يندك مقدار ما بين الصدفين ، وليس
له زيادة طول حتى يستبعد خفاؤه — كما في "روح المعاني" في قوله تعالى :
(حتى إذا بلغ بين السدين) في قراءة فتح السين وضمها ، السد بالضم
الإسم ، وبالفتح المصدر ، وقال ابن أبي إسحق : الأول ما رأيته عينك ،
والثاني ما لا تريانه اه . وذكره كذلك في "البحر" — فالأمر إذن على
الانتظار ويدور على الإيمان ، فلينتظر فإنهم وإن خرجوا مثلاً من طريق آخر
لكنهم لم يخرجوا على هذا التقدير من السد ، وإذن كان السد اندك أو لم يندك

لكن قد انهدم ما بناه ذلك الملحد أساساً ورأساً على كل حال ، وكذا لم يفده
أكان الأورباويين منهم أم لم يكونوا فإنهم لم يخرجوا من السد وإن خرجوا
على الناس ، كيف ؟ وذلك الملحد نفسه من ذرية مأجوج على تحقيقه فإنه من
المغول ، هذا مع ما هو مستلّم عند الجغرافيين أنه لم ينكشف إلى الآن عليهم حال
بعض الجبال والقفار والبحار . ثم لما كان الإنكليز من الألمانين وهم من ذرية
جومر أخى مأجوج ، فليسوا من نسل مأجوج ، ولا يفيد ما ذكر في الألمان :
أنهم خرجوا من كوه قاف وأورال ، فإن جبل أورال سلسلة مستطيلة من
الشرق إلى الغرب ، ولم يكن نسل مأجوج أو الذين سدد عليهم إلافى شرقه .
وذكر في ”دائرة المعارف“ : جوج من جومر ، وإنه ملك السكيثيين ، فمأجوج
إخوان مأجوج ، وهو كذلك عند اليهود كما في ”لقطة العجلان“ ، فاحذر
قول الخراصين ومذهب السكيثيين ميتهاولوجى - أى علم الأصنام - فليسوا
بنى إسرائيل أيضاً ، وجوج الذى هو من ذرية يعقوب رجل آخر ، وجوج
الذى عد مع مأجوج فى كتاب حزقيل ليس من ذرية يعقوب ، بل هو معاد
لبنى إسرائيل ، فلو سلم أن جوج والى روسيا فليس الذى سد عليهم إياهم
بل هم بعض من جوج . والذى يعلم من كتابه : أن جوج أقرب مسكناً
ومأجوج أبعد ، ولما كان الأريانة أصل الأورباويين كيف يكون الأورباويون
من مأجوج ؟ وإلا لكان الهنود منهم ، إلا أن يقال : أنه قد تبدلت ألقابهم ،
فهذا يجرى فى الأورباويين أيضاً . وقد قال فى ”الفتح“ فى حديث :
« أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم رجل » ، قال القرطبي : قوله :
”من يأجوج ومأجوج ألف“ أى منهم ومن كان على الشرك مثلهم ، وقوله :
”ومنكم رجل“ يعنى من أصحابه ومن كان مثلهم آه .

قلت : وهو عن عمران بن حصين عند الحاكم فى ”المستدرک“ :

« وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده إنكم مع خليقتين ما كانتا مع شئ إلا كثرناه :
يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس هذا . فوق مفسراً
ولم يستمد به فى " الفتح " ، وقد صححه الحاكم ، وأقره الذهبى فاعلمه ، وقد
أخرجه الترمذى والنسائى فى تفسيره كذلك ، ونحوه فى " الدر المنثور " عن
ابن عباس فى قوله تعالى : (يوماً يجعل الولدان شيباً) .

واعلم أن ما ذكرته ليس تأويلاً فى القرآن بل زيادة شئ من التاريخ
والتجربة بدون إخراج لفظه من موضوعه ، فلا يتسع الخرق ، فإن التاريخ لما
ذكر أن بعض الشعوب الخارجة من السد من نسل يأجوج ومأجوج أيضاً .
قلنا : إن ثبت فالقرآن لم يذكر السد على كلهم ولا من كل جهة ، فليكن
الخارجون المذكورون من يأجوج ومأجوج ، ولكن ليسوا بمرادين فى القرآن ،
وإن ثبت أنه اندك أو خرجوا من جانب آخر فليكن موج بعضهم فى بعض
متجدداً مستمراً حتى ينزل عيسى عليه السلام فيخرجون أيضاً من بلادهم
من السد المنك ويفسدون فى الأرض حتى يهلكهم الله تعالى بدعائه عليه
السلام . كيف ؟ وقد قال الله تعالى فى الأنبياء : (وحرام على قرية أهلكناها
أنهم لا يرجعون حتى إذا فتمحت يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب
 ينسلون) أى حرام عليهم غير ما نقول ، وهو : أنهم لا يرجعون إلى الدنيا
ثانياً ، كقوله تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم
لا يرجعون) ويدخل تحت النفي رجعة الروافض وبرز ذلك الملحد ، فإنه
جعل أنه هو حقيقة ما أطلق عليه أنه رجوع للأول ، وقيل : إنه سيرجع كما
جاء فى عيسى عليه السلام مرفوعاً ، وقد مر أنه راجع إليكم فإن كان هذا هو
حقيقة رجوع أحد ، كما افتراه أنه هو عرف الكتب السماوية فقد حرمة الآية ،
فإن الاعتبار فى ذلك لما يسميه أهل العرف رجوعاً لا لغيره ، وكذا مجئ مثل
إن كان مجيئاً مبتدأ ، فليس هذا رجوعاً للأول ، وإن قيل : أن الرجوع الأول

هو هذا ، فقد شملته الآية ولا يظهر ما قيل في الآية ، أن المراد حرام عليهم أنهم لا يرجعون إلينا ، فإنه لو كان مراداً لم يذكر في السياق الإهلاك أولاً ، وإلا لصار إذن ذكر الحلف على ذلك ، وذكر حرمة عدم الرجوع إليه كالمستدرك ، وقد جاء في الحديث أن عبد الله بن حرام لما استشهد بأحد واستدعى الله تعالى أن يرجعه إلى الدنيا ليستشهد ثانياً أجيب بما في الآية ، أخرجه الترمذى وحسنه ، وإذ لا رجوع إلى الدنيا فلا تناسخ أيضاً بنقل الأرواح في الأبدان ، وإذن لا بد من القيامة لتجزى كل نفس ما عملت ، ومن أشراتها خروج يأجوج ومأجوج ، فخروجهم في قرب القيامة ومن أشراتها ، ونزول عيسى عليه السلام قبيل ذلك بصرح تواتر الأحاديث فيه : (إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) . ومعلوم أنه ليس من موضوع القرآن استيعاب التاريخ ولا الوقائع كلها ، فمن اعتبر بالتاريخ فليزده من عنده كأنه خارج منضم ، ولا يزيد التاريخ على ذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد اهـ .

قال الراقم : فتلخص مما ذكره الشيخ رحمه الله في تحقيق ذى القرنين وتعيين السدّ وتبيين يأجوج ومأجوج أمور :

الأول : إن ذا القرنين ليس من ملوك العرب القحطانيين من أذواء اليمن ، ولا من ملوك العجم ، ولا من الروم ، فليس هو الإسكندر اليوناني المقدوني ، ولا كيقباد ، ولا كورش ، وليس ملكاً ولا نبياً ، بل ملك من الصالحين ، اسمه صعب بن روم ، ينتهى نسبه إلى العرب الساميين من عاد الأولى قبل الساميين الذين ملكوا مصر كشداد وسنان وضحاك .

الثاني : إن سده المذكور في التنزيل العزيز ليس هو سد بعض ملوك الصين الذى سماه المغول : أتكووة ، وسماه الترك : بوقورقه ، وبني سنة ٤٣٨١ من الهبوط ، ولا سد فغفور الصين ، ولا سد بعض ملوك العجم من باب

الأبواب ، ولا غيره من سدود آخر في الشمال ، ولا السد الذي رآه صحابي ، بل هو سد في جبل قوقايا ، يسمى اليوم : ” الطائي ” ، وهو غير مجموعة الجبال الأورالية ، وبنى سنة ٣٤٦٠ من الهبوط .

الثالث : إنا لا نقطع بأن جوج ومأجوج معرب ” كاك ” ، ” ميكاك ” ، في الإنجليزية ، ولا نقطع بأن روسيا من يأجوج وأهل بريطانيا من مأجوج كما اشتهر عند المؤرخين ، أو أنه فرقة من الآريوسية ، لقبها : يأجوجي ، فإن جميع هؤلاء بمعزل عن الصفات التي وردت في أحاديث قد صحت عدة منها ، وكونهم موصوفين بها قبيل نزول عيسى عليه السلام من إهلاك النسل والحرق وتخريب البلاد والنهب والسفك وشن الغارة ، لا أخذ الممالك والبلاد بالسياسة والتدبر وقهر الأقوام بلطائف الحيل والتزوير ، ونقطع ببطلان ما قيل أنهما معربان من كاس ميكاس ، أو چين ما چين ، أو منگوليا ومنچوريا ، بل هما شعبتان من شعب في الشمال والشرق . نعم إن انتهت إلى هؤلاء الأورباويين أو روسيا أصلاً ونسلاً فلتنتهيا ، لا انتماء ونحلة ، ولهم خرجات عديدة ، والمراد في قول الله عز وجل : (إذا فتحت يأجوج ومأجوج) وفي الأخبار هو خروجهم الأخير على سبيل الإفساد والإهلاك ، وهو الذي جعل من أشرار الساعة ، وليس أنهم مسدودون بالسد من كل جانب بل من شعب خاص ، ولا أن السد سد جميعهم ، فلو كان السد مندكاً وهم خرجوا عنه أو خرجوا من جهة أخرى فلا يضرنا ، فإنه ليس ذلك الخروج مراداً قطعاً ، أو يكون منهم شعب خاص يكون لهم الخروج قبيل نزول المسيح عليه السلام بالصفات الواردة في الأخبار . وهذا الذي اختاره الشيخ رحمه الله طريقة مثلى لمن كان يؤمن بالقرآن والسنة في اعتبار واستبصار من التاريخ ، لا أن يحرف القرآن وينكر الأخبار ويؤمن بالتاريخ الذي تقادم عهده وتطاول مداه بالقرون ولم يقم عليه بعد برهان ساطع ، بل أساسه ورأس ماله التخمين والجزاف

والتحليل والتركيب في وقائع ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ، ويتأثر من نكير ملاحدة المؤرخين فينكر من الأخبار رأساً ويقيم رأياً ويظنه وحياً سماوياً قطعياً ، أو يقول : قد مضى خروجهم ، وما أخبر به القرآن قد تحقق فيما سلف ، ويغمض عينيه من أحاديث الرسول ﷺ ، فليس ذلك من الإيمان في شيء ، والله الهادي إلى الصواب .

والشيخ رحمه الله يرد في مقاله هذه على أهل الزيغ والباطل من السار أحمد خان باني "كلية عليكر" صاحب "التفسير" بل صاحب التحريف ، ومحمد حسن الأمروهي الطبيب صاحب "غاية البرهان في تأويل القرآن" ، ورئيس الطائفة المرزائية محمد علي اللاهوري محرف القرآن وغيرهم ، وعلى من سها من أهل الحق من بعض المعاصرين ومن سبقه من بعض الفضلاء الهنديين .

هذا ، وقد زاد الشيخ رحمه الله في تعليقاته على "عقيدة الإسلام" أشياء لحصنا منها أموراً . الأول : إن ذا القرنين كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام ، اجتمع معه عند البيت الحرام . الثاني : إن يأجوج مغرب جوج ، وتعريبه قبل نزول القرآن كتعريب عيسى ويحيى عليهما السلام في عهد الجاهلية أيضاً ، وإن جوج لقب به أقوام عديدة ، وذكر المقرئزي — صاحب ابن خلدون — يأج ومأج ، وهما آخران . الثالث : إنه ثبت صلاة أبي العالية في مسجد ذي القرنين ، وثبت أن مرو بناه ذو القرنين .

تبيين : ثم إنه أستفيد من مقالة الشيخ رحمه الله تلك أن الأخبار الواردة في خروج يأجوج ومأجوج على سبيل الإفساد والإهلاك قرب الساعة ، ما تكاد تتواتر ، ثم نزول عيسى عليه السلام وإهلاكهم الله بدعائه كل ذلك صحيح متواتر ، نؤمن بإذعان قلب وقبول نفس بأنها من أمارات الساعة من

غير تأويل أو تحريف ، والله الموفق والهادى إلى الحق ، وصلى الله على هادى الخلق سيدنا محمد وآله وصحبه وبارك وسلم .

تبيينه آخر من الرقيم : ثبت فى آثار كثيرة أن ذا القرنين كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام ، فهو إذن قبل العهد التاريخى بكثير ، فكيف يعلم تفاصيله وقد تقادم عهده ؟ ويستفاد من كلام السهيلي وغيره أنه لقب ملوك بذى القرنين تشبيهاً لهم بذى القرنين الأول ، وقد صرح الحافظ ابن كثير رحمه الله فى الجزء الثانى من "تاريخه" (١) : إن ذا القرنين لقب للملكين : أحدهما من قصص الله حاله فى التنزيل العزيز ، وروى آثاراً عن ابن عباس وعلى وغيرهما : «أنه كان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً» ، وصححه فى "تاريخه" و"تفسيره" . والثانى : اسكندر بن فيلبس المقدونى اليونانى المصرى ، باني الإسكندرية . وكان أرسطو وزيره ولم يكن مؤمناً ، وقال : وهو قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة . فالأول أقدم منه بدهر طويل بنحو ألفى سنة . ويقول ابن تيمية فى "تفسير سورة الإخلاص" (٢) مثله ، ومن لفظه : فإن ذا القرنين كان قبل هذا بمدة طويلة جداً الخ . فإنا نراه أبو الكلام أحمد فى "ترجمان القرآن" : أن السلف ذهبوا إلى أنه كان نبياً ونسب تصحيحه إلى الحافظ ابن كثير فغلط صريح ، كيف ؟ وقد قال ابن كثير فى "تاريخه" (٣) ، و"تفسيره" : "والصحيح أنه كان ملكاً من الملوك العادليين" (٤) . وقد أغراه رأيه على ذلك فإنه قد جزم بأنه كان نبياً ، فأراد أن يؤيد رأيه

(١) ص ١٠٣ و ١٠٥ (٢) ص ٥٨

(٣) ص ١٠٣ ج ٢

(٤) و مثله قال ابن القيم فى "اغاثه" اللهفان عن مكائد الشيطان فى موضعين منه فى اواخره . منه .

بآثار السلف وأقوال العلماء وإن كان مدار تأييده على الكذب والافتراء ،
وهكذا ديدنه في كل ما زعمه حتى قال : إن زردشت أيضاً كان نبياً ، وقد
نهينا أن نقول بنبوة أحد ما لم يثبت بالقطع . وأيضاً قد لبس الأمر في
تفسير قوله تعالى : (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج الآية) في سياق قصة
ذى القرنين ، فحمله على خروج التتر وفقنة چنگيز خان ، فقد مضى عنده
ما أخبر به التنزيل العزيز ، وقد أطبق المفسرون على أنه سيكون خروج
قريب الساعة حتى يهلكهم الله بدعاء عيسى عليه السلام . وقد وردت في
ذلك أخبار وآثار ما كادت أن تتواتر ، وكأن أبا الكلام ينكر عن ذلك إنكاراً
جلياً صريحاً .

وكم هكذا له من تلبيس وتدليس في تفسيره ، يزعم جزافه وحياً ، ويفند
العلماء والسلف إذا خالفت أقوالهم رأيه ، وإن ساعدتني الهمة والحال لكشفت
عن تلبيساته إن شاء الله تعالى ، والله الموفق والهادي إلى الصواب .

فائدة ١١ = في بعض حقائق العالم .

قال الشيخ رحمه الله في "عقيدة الإسلام" (١) ، إن عالم الدنيا من الأول
إلى الآخر عند المحققين شخص واحد كبير ، يسمى الإنسان الكبير ، ويسمى
الإنسان العالم الصغير (٢) ، فكما إن بدن الإنسان الواحد مركب من أركان
وأعضاء وأرواح ، وله قوى وأفعال ، ثم الأعضاء آلية وغير آلية ، وكذلك
رئيسة ومروسة ، والأرواح طبعية وحيوانية ونفسانية ، وكذلك القوى
النفسانية محركة ومدركة إلى غير ذلك من التقاسيم والتشريحات ، ومع هذا
هو زيد مثلاً كذلك عالم الدنيا بدءاً وعوداً وعلواً وسفلاً شخص واحد له غاية

(١) ص - ١١

(٢) ولقد اصاب من قال :

اتزعم انك
م الانك
الأكبر

واحدة وكمال واحد ، لا أن كل قرن منه عالم وعالم ، وهذا الشخص الكبير مسبق بالعدم الصرف عندى ، ويسميه بعض أهل المعقولات : "سبقة دهرية" وهو الصواب ، وهذا الكون الظاهر برز من بطون لم يكن هناك زمان ولا زمانى ، فإن كل هذا بعد الظهور لما انتهى الحال من حكم اسم الله الباطن إلى حكم اسمه الظاهر ، ويسمى امتداد العالم المشهود من الأول إلى الآخر : "عرض العالم" ، ويسمى سلسلة ارتباطه على تسلسل مبادئه إلى حضرة الصانع صاعداً فصاعداً : "طول العالم" ، ولا بحث لنا فى تلك المبادئ ، ولعلمها شئون له تعالى (كل يوم هو فى شأن) ، والشئ إذا كان مشتملاً على معانى فالتحول فيها شئونه وأطواره من نفسه لا أضداده ، وإنما الضد ما طرأ من خارج ، فالآية إن دلت بلفظ "كل يوم" على الاستمرار دلت بلفظ "الشأن" على أن الشئون من تلقاء ذاته لا من خارج ، وهذا على الأحوال أدل منه على الخلائق ، وما ذكره "فى الأسفار" (١) : (وكان أمر الله مفعولاً) أى بلفظ الماضى فى الأمر لا بالخلق . وشئ منه من ذكر الحكيم الترمذى فى النفحات ، إنما نقول أن ذلك العالم المشهود حادث بعد أن لم يكن ، وكما أن بعد الارتقاء من الماديات يرتقى الأمر إلى مجرد ، وبعد الارتقاء من الأبعاد المقدارية يرتقى الكلام إلى بعد مجرد ، وقد سلمه المحققون كذلك بعد الإرتقاء من الزمان والزمانيات يرتقى الأمر إلى موطن لازمان هناك ولا زمانى ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : « إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش من نور وجهه » ، وفى "القصيدة النونية" للحفاظ ابن القيم :

قال ابن مسعود كلاماً قد حكا * ه الدارمى عنه بلا نكران
ما عنده ليل يكون ولا نها * ر قلت تحت الفلك يوجد ذان

لور السماوات العلى من نوره * والأرض كيف النجم والقمران
من نور وجه الرب جل جلاله * وكذا حكاه الحافظ الطبراني

ولعله المراد بحديث : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجاب النور » ، فهذه حضرة فوق الليل والنهار. وقد أدخل هذا الحديث في "روح المعاني" في تفسير قوله تعالى : (وأشرق الأرض بنور ربها) وليس في ذلك الموطن تعاقب في الأشياء ولا تمنع في الأحياء ، إنما ذلك إذا نزلت الأشياء إلى عالم الزمان والمكان ، مثاله الكلام النفسى حالة بسيطة من شأنها الإفادة لا تبعيض ولا تجزئة فيها ، وإذا برز إلى موطن الكلام اللفظى صار ذا أجزاء يعقب بعضها بعضاً ، أو كانطبق الإرادة على الفعل ، فالإرادة أمر دفعى ، والفعل الذى صدر من الجارحة بسببها تدريجى ، ومع هذا تضمنت هذه الإرادة البسيطة ذلك الفعل التدريجى ، أو كالتصوير الذهنى للعمارة ، لا تمنع لأجزائها فيه ، وإذا برز إلى الشاهد اقتضت أحياءاً وأمكنةً ، كذلك التقدم الذهنى للعلّة على المعلول ، إنما هو فى الذهن تقدم ذاتى ، وإذا نزل هذا التقدم الذاتى إلى عالم الزمان صار تقدماً زمانياً ، وهذا يكون مراد ما اختاره السبكي ، ثم الشيخ ابن الهمام فى "التحرير" : أنه ليس بين العلة والمعلول معية زمانية بل هناك تعقيب ، وهذا يكون مراد المتكلمين من تقدم العلة المختار على معلولها مع كونها علةً تامةً ، أى علة الوجود لا علة الماهية . ثم إنه لا بد من تخلل زمان بين جعلي العلة والمعلول ، وإن لم يكن كذلك فى الإرادة والمراد ، نعم ربما يكون جعل العلة منسحباً على أشياء جعلاً واحداً ، كالنار على ما حولها من أول وجودها ، بناءً على أن الصورية نفس الشئ لا جزؤه ، والمادية لا فعل لها ، والغائية داخلية فى الفاعلية ، فالعلة هى الفاعل ، وأما المعلول

فإن كانت العلة حاملة له فهو صفة لا عين ولا غير ، وإن كان وجوده عند مصادفة الشرائط فتلك المصادفة ليست بمعتبرة في ذات العلة ، فلتكن عقبيها ، فالنار موصوف والحرارة صفة ، واحتراق شيء عند مصادفته معلول ، وإلا فلا حقيقة للمعلول ، وما ذكره في " الزوراء " أو ذكره في " الأسفار " فصفة ، أو نقول : أن العلة والمعلول في الغرض ليس هناك تقدم أصلاً ، وإنما هناك تسلسل وترتيب في الذهن أيضاً ، وإنما التقدم الذاتي أى بحسب المرتبة في المراتب الطولية فقط انقلب في عالم الأجسام زماناً . وهذا مع أنه ليس نسبة الصانع إلى العالم نسبة العلة والمعلول ، كما يقوله من يقول بالإيجاب الذاتي ، بل نسبة الفاعل إلى الفعل وهو فعال لما يريد ، وهذا عقيدة الإسلام وسائر الأديان السماوية ، والفرق أن العلة ما في طباعها صدور المعلول ، فهو إذن في مرتبتها ، حتى قال العلامة الدواني في رسالته " الزوراء " : إنه حيثية من حيثياتها ، وشأن من شئونها ، ووجه من وجوهها ، ليس مبايناً لذات العلة ، وإن الفعل إنما يكون بعد تمامية الفاعل ، فهو إذن عقبيه لاعمه ، وإذا تأخرنا عن الأزل شيئاً بقي ما قبله غير متناه ، فهذا هو الحدوث الزماني ، والتقدم بالشخص لغير الباري تعالى محال عندي ، إذ هو من أخص أوصاف كمال الوجود ، لا يليق إلا بالوجود المطلق ، وقد قالوا : ما من ممكن إلا ويستحيل عليه لذاته ضرب من الوجود ، كما في " الأسفار " . وأقول : بل ضروب ، وإذا ضربنا العدم الذاتي الذي هو للممكن في الوجود الذاتي الذي هو للواجب لم يكن حاصل الضرب إلا الحادث الزماني ، كضرب الكسر في الصحيح ، وكذا القدم بالنوع قريب من المحال أيضاً عندي ، والكثرة إنما برزت من الوحدة الواقعية ، كان الله ولم يكن معه شيء ، وقد كنت قلت بالعربية :

ومن الصفات حياته وبقاؤه ومن الخصائص كيف يشتركان

أحد فلم يك غيره في غابر
لابد أن في الكون تظهر وحدة
صفة له خلق كذلك وحدة
فعل وفرع من جلالة ذاته
والكون لو لا كان مظهر فعله
بدأ الزمان بعالم الأجسام ما
فالممكنات لأصلها معدومة
دع علة معلولها من شأنها
لا بائناً منها وكان تنزلاً
من أمره مهما أراد فقال : كن

صمد بقى بالملك والسلطان
من غير ما ثان وكل فان
كصفاته العظمى فلا يقفان
لولا ما ذا شاب من نقصان
وصفاته لم يبد من كتمان
فيما عده تصرف الأزمان
ولله الغنى في كل شأن شأن
زوجان هذى أول ذاً ثان
فالله مبدع سائر الأكوان
سبحانه من مبدئ ديّان

و كنت قلت بالفارسية :

مجموعه کون بود در کتم عدم
فعلیست که بے ماده ید قدرت او کرد
و أيضاً :

ترتیب که ذاتی است در اسماء الهی
آن چیز که در آخر منزل ز تنزل
و أيضاً :

جهان چو نقش و نگاریست از ید قدرت
سمات نقص ز تسخیر هر یک پید
نه خود بخویش که برآمده زدست دگر
فسون عشق دمیده بگوش هر چه بود
چنانکه عاشق شوریده گم کند معشوق
و أيضاً :

آنکس که بابداع زمان رفت نفهمید
چون واحد حق است
کز عمر حق این حصه به مخلوق بخشید
که یک گفت بتعدد

وأيضاً :

خورشيد اگر نداشت تغير بحال خویش گاه طلوع و گاه افول و زوال پیش
گاه ظلام لیل و تابشیر صبح گاه مانند ضیاء و نور بیکسان نه کم نه بیش
وهم کسی نرفت که این جمله از خوراست گفتی همیں طبیعت دنیا ست پیش پیش
دانی شئون حضرة دهر این چنین مدام برتر بذات خویش و تجلی گرفته کیش

هذا ، وفي كتاب "العقل والنقل" للحافظ ابن تيمية : أنه ليس ههنا مثال للعلة والمعلول ، وكل ما يزعم علة فهو شرط لا غير . وليس عند العرفاء علية ولا معلولية بل عندهم إضافة القيومية . قاله في " الأسفار الأربعة " . وإذا علمت أن هذا العالم اعتبر شخصاً ، وله ابتداء وغاية واحدة ونظام واحد ، وكانت جزئياته لا يكون فيها تعاقب وإن كان يرتبط بعضه ببعض ترتيباً وتسبباً لو لم يقع في الزمان ، وإذا وقع ظهرت النسب بالتقدم والتأخر الزماني ، فإذن للعالم بدء واختتام ، لا كما يقوله أصحاب الأدوار والأكوار ، إلى آخر ما قال رحمه الله .

فهذه إحدى عشرة فائدة ، اقتطفتها بإرتجال واستعجال عن رسائله الشريفة ، وشيء مما شئت به أذني في بعض الدروس ، فكأنها أحد عشر كوكباً من سمائه ، وأحد عشر لؤلؤاً من دماائه ، ولا ريب فإن الشيخ رحمه الله كان للعلم سماء وللعرفان دماء ، وقد وقع نوع إطناب وإسهاب مع شدة حذري عن سامة الناظر ، وأرجو أن لا يكون ثقلًا على الطباع الذكية والقلوب الصادية إلى مزايا العلم والأكباد الهائلة في فلولات المعرفة ، فإنها شذرات ذهب وفرائد در لأولى الأبصار ، فكيف ينكرها المتبصر المتفقد ؟ وكيف يتجانف عنها الفاضل المتوقد ؟ كلا ثم كلا . بل أظنه إن شاء الله تعالى زللاً سائغاً لغليله ، وماءً نيراً لأوامه ، وجبراً لمهيض فؤاده . وإنما ألمت بذكرها ليكون للمستبصرين دليلاً على جميع ما ذكرنا من بلوغ الشيخ غاية قصوى من مراحل

التحقيق والتدقيق ، وليكون إيقاظاً للناظر على آداب الشيخ في إفصاح كلامه وانتقال حلسه في نظمه ونظامه إذا تأمل وأمعن وراعى المغزى وأنقن ، ولئلا يظن بى الرمى بالليل أو الرجم بالغيب ، بل ليظن أنه رمى عن كذب وقضاء عن أرب ، ومع هذا فقد تجانفت مما كان دقيقاً غامضاً لا يتجلى للناظر مرماها بادی الرأي ، أو كان مطمئناً متعباً للأنظار ، ومكلاً محسراً لأنضاء الأفكار ، فلهذا قد انتقيت ما كان سهل المأخذ غير دقيق لا موجز ولا مطنّب ، ولو لا ذلك لزففت غادات المسائل ، وأهديت طرف الأبحاث ومبتكرات الدلائل ، للمشتاقين الذين يحرق بهم أن يتمثل لهم بقول القائل ، والله دره :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء به * ومن حديثك فى أعقابها حاد
إذا اشتكت من كلال السير واعدّها * روح الوصال فتحى عند ميعاد

وبالله التوفيق والعصمة ، وصلى الله تعالى على سيد البشر مولانا وشفيعنا فى المحشر محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ والشعر .

لا أدري أى مزية للشيخ أذكر ، وإذا حاولت ذكر شئ من مزايده تتسابق إلى مآثره المتكاثرة سراعاً من كل صوب وناحية ، لا أدري أيها أذكر وأيها أنجر ؟ .

فتشابهت كلتاهاما نجلاء

وحضرته الجامعة كالحلقة المفرغة ، لا يدري أين طرفاها ، فكان صدره بحراً منبثقاً انفجرت منه الأنهار ، وأترعت الحياض وسالت الأودية ، فكل ظمآن وهيمان كان يرتوى من زلاله فيما يشاء وكيف يشاء ، سبحان الله يعطى من

يشاء ما يشاء . وقد علمت علماً جليلاً أن حياة الشيخ حياة حافلة بالماثر العلمية انقضت في الإكباب على علوم السلف والعكوف على زبرهم وأسفارهم ، والإستخراج من دفائنهم ومعادنهم ، والاسترواء من مناهلهم للعذبة السائغة وبحارهم الزاخرة ، لا غير ، ولكن كما أن الله جعل هذا الإنسان وهذا الهيكل المخصوص الصغير الجثمان عالماً صغيراً أودع فيه نماذج العالم الكبير من الملائكة والشياطين والجنود والعساكر والسلاطين والبحار والجبال وبطون الأدوية والآكام والظراب ، وغير ذلك مما بسطه أهل الحقائق ، ولا سيما شيخهم الأكبر المحقق العارف الأندلسي الطائي في ” فتوحاته ” و ” شجرته ” ، فهكذا جعل الحكيم القدير هذا العالم الصغير عالماً كبيراً وهذا العالم الكبير عالماً عظيماً ، لم يكن عالماً بل عالماً ، ولم يكن واحداً بل أمة :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

ترى فيه من بدائع أنواع العلوم عوارف جديداً (١) ، ومن خصائص علماء العهد الغابر معارف جديداً ما يختلب القلوب ويختلس العقول . للشيخ رحمه الله شعر غزير رائق ، وإذا استشرف أحد إلى شعره لحسب أن الشيخ قدس سره لم يبرح عاكفاً في سبك الشعر وصياغته ، فإن قريضه ونشيده يبلغ إلى آلاف بيت ، فله شعر في بعض ضوابط الفقه الحنفى على نحو الأراجيز ، وشعر في بعض معارف الحديث ، وشعر في شتات مسائل العلوم ، ورسالة منظومة في مسألة وجود الصانع الحكيم وحادث العالم من علم التوحيد والكلام ، وشعر في مديحة رسول الله ﷺ ، وشعر في الحكم والأمثال ، وشعر في الحقائق ، وشعر في رثاء بعض شيوخه ، وشعر في الأسف على العهد الغابر وعلمائه ، وشعر في

(١) الجدد بضم الدال الاولى جمع جديد ، ويفتحها بمعنى الطرايق ، قاله ابن قتيبة في ” أدبه ” . منه .

مديحة بعض أمثال معاصريه في ضمن بعض مكاتيبه إليه . ثم كل ذلك بكاء واستبكاء ، وأدب وحكمة ومثال . ولا غرو فإن الشيخ كان من بيت العلم والشعر ، فكما أن له أصلاً عريقاً في المجد والشرف وعرفاً متأصلاً في العلم والعرفان فكذلك له مجد مؤثر وعرق عريق في الشعر الفارسي والعربي ، والده شاعر مجيد في الفارسية ، وقد أسلفنا من قبل أن أخاه الأكبر كان أشعر أهل "كشمير" ، بل أهل عصره ، وثلاثة نفر من إخوانه كلهم شعراء بالفارسية ، فكان الشعر خلط بلحمه وسيط بدنه ، نشأ في مهد الشعر ثم ارتوى بلبانه ، فلذا كان له شعر طبيعي أغزر ، ومع هذا أرق والطف وأزهر ، ولنعم ما قال زهير :

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه * وتغرس إلا في منابتها النخل

وقد فاق شعره شعر أبي الطيب المتنبي في حسن سبكه ونسيجه ، وبديع إنسجامه وصوغه ونصاعة لفظه وفصاحة كلماته ، بيد أنه قد يجد الناظر في بعضه نوع معاطلة وإغلاق ، وذلك لغوصه في دقائق العلوم ، وإشارات لطيفة إلى حقائق شريفة من مزايا عالية مع إيجاز واختصار ، ففصح العربية وشواردها ، والمثل السائر في حاضر العرب وباديها ، والإشارات العلمية والرموز العرفانية ترى فيه حظاً وافراً منها ، وأما حوشى الكلام وركاكة اللفظ فما أبعدا من شأنه . وبالجملة فحاسن شعره لا تسأل عنها فإنه مشحون بها ، فترى فيه انسجاماً وصياغة ، يزرى بقلائد العقيان وعقود الجمان ، وتنجل دون حسننه وبهائه سموط اللؤلؤ والمرجان .

ولعلك تمتعت من شميم بعض أزهاره ، وتحظيت من نسبات أسخاره مما بثنا منه طرفاً في مطاوى بعض الأبحاث ، فإنه قد ضاع هنا أريجيه وطاب نشره وعبقه ما يزرى بنفحات المسك وعبير الريحقان وفوحات العنبر ، ولو

لم نرد طبع ما تيسر لنا من شعره لسمحننا ههنا بأن نبث منه درراً غالية ما يطرب
المسامع ويهز القلوب ويلد الخواطر ، وما يرق الأكباد ويهيج الأحزان
ويريق الدموع ، ولكن قد حاولنا بحول الله وحسن توفيقه أن نخرج للشواقين
منه قدراً صالحاً ، ونبسط مائدته في جزء مفرد ليقضوا وطهرهم ، والله الموفق
واليسر لكل عسير ، إلا أنى أذكر ههنا قصيدة طنانة غراء تحوى بمديحة
إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة سيدنا محمد ﷺ ، استحصالاً لليمن
والبركة ، وتشريفاً لهذه السطور بمديحته ﷺ ، وليكون نموذجاً للناظرين
وسكينةً ورواءً للقلوب الصادية . قال رحمه الله تعالى :

برق تألق (١) موهنأ (٢) بالوادي	فاعتاد (٣) قلبي طائف (٤) الأنجاد
أسفاً على عهد الحمى وعهاده (٥)	تولى (٦) على الإبراق والإرعاد
رهم (٧) تناوح تارةً ديم لها	حتى غدا الأيام كالأعياد
هب النسيم على الربا فتضاحكت	بشرى العميد (٨) عرارها والجادي (٩)
لعبت صباها والشمال وتارةً	لعب الغصون بعطفها المياد
سنع الظباء فكاد يهلك مغرم	حور العيون وعطفة الأجياد
وأكاد أشرق بالدموع إذا بدا	هجر قتبكي الورق بالإسعاد (١٠)
أسقى التلول واستحث ركائبى	وجدأ على التأويب ١١ والإسآد ١٢

- (١) تالق البرق والى واثلق لمع . (٢) الموهن والوهن من الليل منتصفه
(٣) الاعتياد الانتياب .
(٤) الطائف الخيال .
(٥) العهد اول المطر ومثله الوسمى .
(٦) تولى من الولى وهو المطر بعد المطر . (٧) الرهم جمع رهمه المطر الضعيف
(٨) العميد الحزين من العمد بفتحتين الدائم .
(٩) الجادي الزعفران .
(١٠) الاسعاد ههنا الاعانه فى البكا . (١١) التأويب السير جميع النهار .
(١٢) الاسآد السير سائر الليل من غير تعريس .

نفقت الكرى عنى على إسهاد
ديم الندى للمجتدى (٢) والجادى
سرج الرشاد على ذرى الأطواد
وأقل تكلفة نجوم النادى
ولى اهتمام بالنبي الهادى
علم الهدى هو قدوة للقادى
وخطيبهم فى مشهد الأشهاد
وحبيبه و خليله الحامد
خير العباد وخيرة العباد
ونبيهم من معدن منطاد (٦)
بدئت به ختمت به لمعاد
و القاسم المبعوث للإرشاد
ممن تكلم باللسان الضادى
بشرى محياه حياة الصادى
ضحكاً كضحك البدر إذ هو باد
للعالمين وأجود الأجواد
بالشام مكة موعد الميلاد
ولذكره باق على إحماد
من ربه بالوعد والإيعاد

تهياى الاتهام (١) همى هممة
لله در صحابة ألفتهم
فرق الصديق على منائر رفعة
وأبرهم قلباً وأطهر ضمئناً (٣)
أنا فى أمان من دأدى (٤) حيرة
شمس الضحى بدر الدجى صدر العلى
مولى الورى وبشيرهم وشفيعهم
من سيد عبد الإله وحده (٥)
سهل العريكة أكرم العرب الألى
خير الورى بيتاً وأخير محتداً
ختم النبوة والرسالة إنها
العاقب الماحى وأكثر تابعاً
والأفصح الأئى أصدق لهجة
سر المهيمن عبده ورسوله
ومفخم فخم تهلل وجهه
الأبلج ٧ الأقى ٨ الأزج ٩ ورحمة
وافت بطيبة داره وملكه
ولرعبه سار مسيرة أشهر
وافى شهيداً مندرأ ومبشراً

(٢) المجتدى طالب الجدى وهو الاجود.

(٤) الدأدى جمع دأداة وهى ليلة

شديدة الظلمة.

(٧) الأبلج مفترق الحاجبين .

(٥) الأنى مرتفع .

الحاجبين .

(١) الاتهام الذهاب الى تهامة .

(٣) الضمئنا الاصل والمعدن .

(٥) الحمد بمعنى الحميد ههنا .

(٦) المنطاد المرتفع .

(٨) الأنى مرتفع قصبة الانف

فلواءه ومقامه مع حوضه
 قد جاء والدنيا على ظلماتها
 فأضاء كالبدر المنير ووجهه
 فتحت به غلف القلوب وبصرت
 قد أيد التقوى وشيد أمرها
 ومكارم الأخلاق مهد والهدى
 وبوجهه تستنزل البركات من
 وبه النجاة وعصمة من أزمة
 فلخير هدى هديه ولدينه
 قامت به غر الوجوه عصابة
 كانوا من الأبرار والأطهار وال
 ثم اهتدى بمنارهم سعداؤهم
 حتى تأذن دهرهم بمضيهم
 فضى الخيار فلا ترى آثارهم
 لا يهتدى للخير إلا خير
 هذا ولا يبقى سوى الملك القدير
 قف نبك إطلالاً وهت أركانها
 يا ربما أرثى الطلول فما هنا
 سبحان من صرف الأمور وما أتت
 ثم الصلاة مع السلام على النبي

يوم التنادى للوسيلة شاد
 والجهل والبؤسى على اعتاد
 نور مبين فى ظلام دأدى
 عمى العيون بسنة وسداد
 بقواعد التأييد ذات عماد
 أضجى على علم رفيع طاد
 فوق السماء فأيده بأياد
 وبه حياة طيبة لبلاد
 دين الإله علا لدى الإسناد
 شم الأنوف وشفوة الأعضاء
 أخيار والأنصار والأنجاد
 سعدوا وكانوا وفقوا لرشاد
 والدرر أرود ذو صروف عاد
 فكأنهم كانوا على ميعاد
 وبعزل عنه أخ الإنكاد
 م وكل شئ رائج أو غاد
 أخنى عليها الدرر بالمرصاد
 داع ولا متسمع إنشادى
 غير عليه على مدى الآباد
 و وآله مع صحبه الأجداد

فهذه قصيدة عصماء بين أيديكم ، ترى فيها من نصاعة لفظ الجاهلية
 والعرب العرباء ، ومن حلاوة انسجام الشعراء الإسلاميين وحسن تسجيح

النابعين في الشعر ، فترى فيها رقة الديباج ومتانة الصخور ، وكأنها تذهب بالقلوب دقةً وسحرًا ، حتى كأن الشعر من جنانه مخلوق والسحر من كلامه مسروق ، وفذلكة الكلام أنه نظم لؤلؤًا وحاك ديباجًا ونسج حريرًا :

فصاغ ما صاغ من تبر ومن ورقٍ * وحاك ما حاك من وشي وديباج

وفوق كل ذلك من حسن التلوينات إلى الشائلل النبوية والخصائص الحمديدية بأنقى تعبير وأوفى تمثيل ، ولو لم يكن للشيخ قدس سره غير هذه اليتيمة الحسنة لكفى دليلًا على أنه وصل إلى قصارى منازل الشعر ، يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ثم بدا لي أن أذكر عدة قصائد أخرى من قصائده الطنانة ، تسكيناً للأكباد الهائمة ، فإن الجرع أروى والرشيف أنقع ، والله المستعان .

قصيدة

في مآثر حجة الإسلام ، لسان الحكمة ، بحر الحقائق ، مولانا العارف محمد قاسم النانوتوى ، المتوفى سنة ١٢٩٧ الهجرية ، مؤسس "دارالعلوم الديوبندية" ، قدس سره العزيز .

قف يا صاحبي على الديار فن دأب الشجى هو ازديار
وعوجاً بالرباع رباع أنس ففي المرأى لشيء كاصطبار
وإن عادت دوارس بعد هجرٍ فقد كانت معاهد للمزار
فتلك بلادها أمضيت فيها لهال من طوال أو قصار
وبت أسارق المرأى وأهوى نسيماً من شميم من عرار
أسابق ريب دهرٍ ذى فنون وإن سراه لا يدر به دار
كأنك ما سمعت حديث شيخ تلقاء الخيار عن الخيار

وذلك قاسم البركات طراً يسير بذكره تال وقارى
 إمام حافظ سند همام لسان الحق (١) منقاد الكبار
 طراز للهدى جبل متين دليل حجة على المنار
 شهير مسند بدر منير كشمس فوق رابعة النهار
 مجدد هذه الأعصار حقاً محدثها وذلك فتح بارى
 ومشكاة الهدى هدياً وسمتاً ومصباح به إرشاد سارى
 ورحلة عصره طود عظيم خليفة مسلم ثم البخارى
 ومحى السنة البيضاء لما توارت بالحجاب على استتار
 له فى الفضل أخبار كشمس وآثار كأثال الدرارى
 منى ما جئت تستسقيه قطراً تجدد بجرأ بطم على البحار
 وصوباً صيباً سيحاً فسيحاً فراتاً محيياً رحب المجارى
 مناقبه قد اشتهرت وصحت وأخرجها الثقات على الجهار
 فهذا فضله علماً وفقهاً تلقاه الرواة على اشتهار
 وما آتاه خالقه مقاماً وآثره ولياً باختيار
 فمعروف به وسرى عصر فريد فيه من غير المدار
 جنيد همة داود حالاً وغوث الملتجى قطب المدار
 إذا ما جاءه أحد مريداً تهلل بالغوادى والسوارى
 فأولاه فيوضاً ساميات (٢) وأحياه بأنهار غزار
 وأورثه اليقين وذوق حال وأبقاه على وجد مشار
 طريق القوم قد دارت عليه فشد له الرحال على المهارى
 فأضنى كعبة للعاكفين ومأوى الطائفين بلا ممار

(١) او "لسان الغيب" بدل لسان الحق .

(٢) فى نسخة "باقيات" .

فصار مدار كل الفضل حتى دعاه الرب حتى لخير دار
أحب لقاءه حتى تلقى ولبّاه وحج للإعثار
فيا ترب الرضى سقياً ورياً بما نزل من الرضوان جارى
متى ما فاح من طيب ونشر وما ترثى الحائم والقمارى

قصيدة أخرى

فى مناقب الثقة ، الحجة ، شيخ السنة ، القطب ، العارف ،
مولانا رشيد أحمد الكنكوهى المتوفى سنة ١٣٢٣ الهجرية قدس سره .

فما يا صاحبي عن السفار بمرأى من عرار أو بهار
يسير بنشرها نفحات أنس ورياً عند محى من قطار
يفيض لروحها رشحات قدس حياة للبرارى والقفار
وقد عادت صباها من رباها بأنفاس يطيب بها الصحارى
فيسرى فى قلوب الصحب وجد بأطراف الحديث لدى اعتبار
أطيب لنشره نفساً ونفساً فأروى من روايات الكبار
أتابعهم ويملئني دموعى حديثى من شيوخى لادكار
أجلهم وأجلهم مقاماً أبو مسعودهم جبل الوقار
لقد فرع الورى عملاً وعلماً مكارم ساعدت كرم النجار
إمام قدوة عدل أمين ونور مستبين كالنهار
فقيه حافظ علم شهير كصبح مستنير هدى سار
إليه المنتهى حفظاً وفقهاً وأضحى فى الرواية كالمدار
ففى التحديث رحلة كل راوٍ وفى الأخبار عمدة كل قارى
فقيه النفس مجتهد مطاع وكوثر علمه بالخير جارى
وأحي سنة كانت أميتت وإذا وضح النهار فلا تمار

وأصبح في الوري صدرأً وبدراً منيراً دارئاً حلك التواری
وأصبح مفرداً علماً رفیعاً كرفع المفرد العلم المنار
وآية رحمة فضلاً وفيضاً عباباً مستطاباً للقواری
وغرة دهره علماً ودينأً طراز زمانه مثل النصار
يقوم لشكره آثاره في مدارس أو مساجد كالدراری
متى ما جاد جود قام شكراً له العزمات من باد وقار
وأما فضله ذوقاً وحالاً ففرد فيه لا أحد يجاری
علو مقامه قدماً وسبقاً فلا من طائر فيه مطار
فضيل زمانه ورعاً وزهداً وحاتم عصره عند امتیاز
كأن جبينه بدر مبین تهلل نوره عند الزوار
وهمته كصبح مستطير أو الغيث المغيث لدى انتظار
لقد نفع الوری شرقاً وغرباً وأشرق نوره عند اعتكار
وزحزح عن حريم الحق نكراً فحصحص في البسيط على الجهار
ودار مع استقامته مداراً أصیل الأصل محمي الزمار
فرحمة ربه أبداً عليه
وطاب ثراه من رضوان باری

هو شیخه

شیخ العالم ، مسند الوقت ، الشیخ محمود الحسن
الدیوبندی المدعو بـ "شیخ الهند" ، نور الله ضریحه .

قفانك من ذكرى مزار فندمعا مصيفاً ومشتى ثم مرآى ومسمعا

قد احنقه الألفاظ عطفاً وعطفةً
وقد كان دهرأ ثم دهرأ طريقتي
يجاو بني دار وجار على البكى
وإن كان مما ليس يشفى ويشفى
نهضت لأرثي عالماً ثم عالماً
وهديا وسمتا سنة وجماعة
وعزما وحزما حكمة وإصابةً
مقاما وحالاً نيةً واستقامة
كبيراً ينادى في السماوات أمةً
ومولى الورى محمودهم وحديدهم
وبلغ عنه شاهداً ثم غائباً
ومها نصدي للحديث وفقهه
مصايحه مشكاة صدر وفيضه
ووافى البخارى عنده فتح بارئ
وترجمة للوحى فى الأرض أصلها
وأصحابه ألف فأزید منهم
وقام إماما فى زمان مخادع
وقام بأمر الله فى كل حالة
فسبحان من آناه علما ونشره
إذا جئته وافيته متهللاً
وغرته سببا السجود وبشره
أخاطب حيناً قبره وضريحه
نعم قد وسعت العلم والعلم ميت

وبورك فيه مربعا ثم مربعا
طريقة غر ثم أولى فأوقعا
ولم أر إلا باكباً ثم موضعاً
بشئ ولكن خل عينيك تدمعاً
حديثاً وفقهاً ثم ما شئت أجمعاً
وخلقا وخلقا ما أناف وأوسعاً
وزهداً وتقوى كان أروع أروعاً
وخيراً وخيراً فأرثها كلها معا
إمام الهدى شيخاً أجل وأرفعاً
ومسندهم فيما روى ثم أسما
أمانة رب عنده ثم أودعا
أعاد رياض الدين أخصب أمرعا
من السنة البيضاء حتى تضلعا
وإرشاد سار كيف أصل فرعا
ووافى السماء فرعها ثم أفرعا
حديثاً وفقها هل أردت فتسمعا
على قدم كالطود أرسى وأوقعا
فيخشاه إن لم يخش حصنا ممنعا
وأعطاه حلما ما أطاب وأطوعا
كبدر مبين من جبين وأوسعاً
تباشير صبح أو كسك تضوعا
بما قاله من قاله ثم أبدا
ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا

وكان حشا أذنى درأً وحكمةً
معارف معروف وآداب حاتم
أزور محياه وأصغى لقوله
فوافيت دهرأً ثم دهرأً بمنيتي
إلى أن قضى نجبا وأوفى بنذره
تصدى لظل العرش في عدن ربه
وأبقى قلباً في الصدور كأنما
أقدر أن لو جاءه حال صحبه
حسيناً عزيزاً مرتضى ثم أحدا
وأصغهم أو قلت أنور ما درى
فله در الحب حتى أقامنى
وأذكر أيام المزار وأنشئ
نعم كنت دهرأً قد ظفرت بحاجتى
فن للهدى والهدى والعلم والتقى
يضيق نطاق فى المرائى لحقها
بكيت إماماً أو ولياً لربه
بكته سماء ثم أرض كلاهما
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما
وشيعه المخلوق من كل جانب
ولم أر مثل اليوم كم كان باكياً
ولم أدر ماذا كان لإحرام حجه
ولما حسبت العام عند قضائه
سقى الله مثواه كرامة ريعه

فتخرج من عيني دمعاً مرصعاً
أذكره حتى يقول فأسمعا
أصادف نوراً أو سروراً فأرجعاً
وألقيت عمرأً ثم عمرأً ممتعاً
فلم أر غير الله للمرء مفزعاً
ومقعد صدق قد دعاه فأسرعاً
تضرب جيتان لماء تفجعاً
لمن عليهم زورة ما فيرجعاً
عزيزاً حبيباً ثم شبيبه معاً
لما قد دهاه حيلة ما فيصنعاً
أقول وأحكى أن فى مض مطعماً
على غصص فى القلب حتى تصدعاً
فألغان غراً لم أجرب فأدقعاً
وما مطمع إلا أرى الأمر أسرعاً
وتم مجال كيفما شئت فاصنعاً
وإن شئت حقاً فالفضائل أجمعاً
وعين وقلب قاسياه فأجمعاً
سرى علمه فوق الركاب ورفعاً
فلم أر إلا الفضل كان مودعاً
وما كان دمع القوم دمعاً مضيعاً
أكان قرانا أم أجاز تمتعاً
وجدت وكان الله قدر مسمعا
وكان غداً لى شافعا ومشفعا

قصيدة ونانة

أنشأها بغاية الإرتجال لمؤتمر جمعية العلماء المنعقدة في بلدة "كيا"
في سنة ١٣٤١ الهجرية المطابق سنة ١٩٢٢ الميلادي .

الملك لله الرفيع الشأن ذي الطول والتصريف في الأزمان
كم من بعيد قربته هباته ومنى رجونا ما لمن تدان
غير الزمان وإنها عبر متى دارت على اليقظان والوسنان
فبقدره خير وشر لازب وبأمره يتقلب الملوان
وقضائه في أرضه وسمائه خفضاً ورفعاً كفة الميزان
نفع وضر يبتغيه مؤمل ودما لمن قد حى يبتغيان
كل له وإليه يرجع كله غيظ وفيض ناله الثقلان
ولربما خال امرء عسراً له وبعسره هذا له يسران
فالكون تحت قضائه ورضائه وله الغنى في كل شأن شان
وله البقاء وما عداه فتهالك سبحانه الباقي وكل فان
ولربما أخفى لقوم هلكهم حتى عتوا في الشر والطغيان
ولربما أبدى لقوم نعمة الـ إيمان والإسلام والإحسان

غدارة اليونان والبرطاني

أو ما ترى لما عدت عن طورها غدارة اليونان والبرطاني
حتى غدوا لا يؤمنون لربهم وتنصلوا من خاتمة الإنسان
فازداد شر في البسيطة منهم ما كان يحكى منذ جنكز خان
أو ما ترقرق عينهم أو قلبهم من رحمة الصبيان والنسوان
وأتوا بما لم يلف في سلف المدى ويضيق منه نطاق كل بيان

من تجاه الرب في إحسان
عينان ما لم تسمع الآذان
في الغي والطغيان والعدوان
من دولة الإسلام من عثمان
صرعى وهلكي هل ترى من غان
حامى الحقيقة فارغ مزدان
وأسد رأياً في نزال عوان
كالجبن سيرة عاجز متوان
ما كان منها للرعاء يدان
والعزم أمضى منه في الميدان
بدر الدجى لهداية الحيران
ديم الندى للعارض الهتان
ولها انفراج في مدى الإبان
فحوى حديث أخرج الطبراني
من ولد إبراهيم من مديان
من آل سلجوق ومن عثمان
وحى الزمار حمية الإيمان
إن الخليفة ذاك ذو سلطان
من حومة الفرسان والشجعان
عنا وعن جمهور أهل زمان
مهما تقلب في لظى نيران
طرفاً نقيض هل هما سيان
تاوى إلى عرش جناهم دان

وهناك يبدو فرق من عبد الهوى
أجيال كفر قد عدوا حتى رأت
فاستدرجوا حتى تفارط أمرهم
حتى تدارك رحمة من ربنا
المصطفى الغازي الكمال فهدهم
من جهنم ماضى العزيمة صارم
وأشدهم بأساً على أعدائه
والهم حممة ماجد متمنع
والرأس يرجى في المدى للممة
والسيف أشفى للصدور من العدى
وبليلة ظلماء يفتقد الورى
والجذب يشكر غوره ونجاده
ولربما دهم الزمان بأزمة
والملك يأتى في بنى قنطورة
وهم كما في نص "توراة" أتى
ترك وليس أولئك من يافث
فاستأصل الكفر العقيم وهده
وحى الخلافة والسياسة حقها
كالبحر لا يلوى ويلطم موجه
فجزاه رب العرش خير جزائه
أو ما ترى لهم الجنان وخصمهم
شتان بين مرادهم ومرادهم
شهداؤهم في خضر طير قد ثووا

ولهم حياة عند ربهم غدوا
فأسأل سمرنا ما أصاب عدائهم
تركوا كأس دابر واستوصلوا
وانفك من أسر الحياة رقابهم
سثموا الحياة وهامهم آذنتهم
لم يبق من يبكيهم وينوحهم
جعل المقدر كيدهم في نحرهم
ولطالما اضطبغوا بمعمودية
سطع الهلال فكان غرة شهرنا
والله مولانا ولا مولى لهم
وسهام ليل متزقت أكبادهم
خربت ديارهم وفرق جمعهم
صلبوا ودائرة الوبال عليهم
لعنوا وكان اللعن حق عليهم
وأصابهم رعد الأمير الإبن الأمية
وأقام رب العرش عزة دينه
ظل الإله على البرية كلهم
سعدت مساعيه وأنجح جده
والحمد لله الذي قد خصنا
ثم الصلاة على النبي وآله

في جنة بالروح والريحان
من هدة لما التقى الجمعان
وسقوا كوؤس الموت كالعطشان
والقتل أشفى ما يراه العاني
فتمخفوا منها فكاك رهان
إلا غراب البين من برطان
وكما تدين تدان من ديّان
فأتى اضطباغهم بأحر قان
سناخ الوبال لأمة الصلبان
ليسوا سواء كيف يستويان
من قناتي هند إلى أفغان
هزموا من التكبير كالشيطان
والصلب أفضل مينة النصراني
بعدوا ألا بعداً لقوم جان
ر ابن الأمير المستجار أمان
وأطال ظل خلافة السلطان
سلطانهم عبد المجيد الثاني
ما دام يسعى في رضى الرحمن
بمزيد فضل منه ثم حنان
خير الخلائق من بني عدنان

قَبِيلُهُ : وإذا حدثت نظرك في شجون هذه القصائد وغضونها
وراعيت مغزاها من ظهورها وبطونها ما ارتبت شيئاً في أن شعر الشيخ رحمه الله

فاق شعر كثير من نوايغ الشعراء في فصاحتها وبلاغتها ، تسمو قصائدهم ببيت بيتين فدين أو توأمين ، وأما قصائد الشيخ رحمه الله فتري كل قصيدة من قصائده تسمو وتمتاز بطرف من الأشعار ، وأما لطافة الخيال ودقة المأخذ فليكن أمر وراء الفصاحة ومن توابعها ، فإن مدارها على نصاعة اللفظ ، ومحطها أن يكون مجراها على أساليب كلماتهم وخصائص عباراتهم والقوانين المستنبطة من كلمات فصحاء القوم في النضد والنسق والسلامة والعدوبة ، بحيث لا يمل السامع الدارى ، ولا يكل عنها مقول القارئ ، بل كثيراً ما يشترك إلى الإزدياد ، ويبقى مشتاقاً عند النفاذ ، وليكن لطافة الخيال من الفصاحة بمنزلة البديع من علمى البلاغة ، يستحسن بعد تحقق أمر الفصاحة ، ألا ترى أنه قبل للمتنبي والمعري : حكيمان ، ولأبي تمام والبحترى : شاعران ، فإذا لم يكن محط الشاعرية على دقة المغزى ولطافة المسلك وعموض المرمى فأولى وأحرى أن لا يكون محطاً للفصاحة ، كيف ؟ وأن البدويين كانوا أبعد الناس عن لطافة الخيال ، ومع هذا كانوا أقربهم إلى الفصاحة ، بل أولئك هم الفصحاء ، ومن ثم كان أمر الفصاحة كالملاحة لا يوصف يسرى في الكلمات ، كالروح في البدن لا يتعين مرماها ومغزاها ، ومن أجل ذلك لم يقدرُوا على تحديد التنافر ، بل قالوا كل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلًا متعسر النطق على اللسان ، هذا ، وصلى الله أزكى صلوات ، وسلم أوفى تسليمات ، على خير البرية سيدنا ومولانا محمد وآله وعترته وأصحابه وتابعيه أجمعين .

الشيخ وتعبيراته الأدبية في أبحاث فقهية وحديثية .

وكان من ظرافة طبيعته ولطافة عقله أنه كان ربما يتلطف في غضون عباراته وشجون تعبيراته بجمل مستملحة وكلمات مستعذبة ، توريةً للمرام وتلميحيةً ، واستظرافاً للكلام وتلميحاً ، وقد بلغنى عن الثقات الأثبات أن الشيخ

رحمه الله أنشأ مقامات على نهج الحريري ، منها منقوطة كلها ، ومنها غير منقوطة كلها ، ومنها كمقامة المراجعة الخيفاء ما يدل على تغلغل الشيخ رحمه الله في دقائق اللغة ، وصنائع التحرير ، وبدائع الإنشاء ، والأسف على أني ما ظفرت بشئ منها .

يريد المرء أن يعطى منه ويأبى الله إلا ما يشاء

ويؤيد ذلك ما رأيت أنه ما من مزية علمية أو أدبية لأحد من أفاضل السلف ابتكرها إلا والشيخ رحمه الله هذا حذوه وعارضه ، وانتهج نهجه واختبر بها عارضته ، نعم أولوا الطبايع الذكية الوقادة يتنافسون في أمثالها ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وكم له من أمثال هذه المزايا التي تقاصرت عنها فضلاء معاصريه ، ” فدبوا له الخمر ومشوا له بالضراء ” . نعم وداء الضرائر بلية سرت في نفوس الوري . قلما سلم منه أحد ، وأن الحسناء لا تعدم ذاماً ، وقد قيل :

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً ، أنه لدميم
ولكن كان الأمر كما قيل :

سبقت العالمين إلى المعالي بصائب فكرة وعلو همه
يريد الحاسدون ليطفؤه ويأبى الله إلا أن يتمه

نعم إن عامة صنيعة في ترصيفه وترصيعه ربما يشبه في إنجازها وإطناها كلام سيوييه في كتابه ، أو ابن الهمام في ” تحرير ” ، ولكن أين السيرافي ليسير في مسيره ؟ وأين ابن أميره لتقريره وتحبيره ؟ وأين يؤتى بأمره لتصويره وتيسيره ، فدونك اعتباراً بمن غير ، أو استعماراً بالعبر ، وإياك والملام على أحد من الأعلام ، فإنهم على علم وقفوا ، وببصر نافذ قد كفوا . فلا تهرف بما لا تعرف ، وأحمد عند التنكير ينصرف .

وأحاول أن أهدي نماذج مستطرفه من عباراته المستظرفة ، يهتز لمثلها
الألباب طرباً ، ويقضى لذوى الأذواق أرباً : ”إذا ذاقها من ذاقها يتمطق“ .
وكأنها من باب المعاينة والأحاجى العلمية ، وأريد أن أكتفى بالمثالين اختصاراً ،
وكيف ؟ وأن أنظم أمثال هذه الدرر المنشورة في مؤلفاته ، طال بنا الخطب
وتجاوزنا القصد والله الموفق ..

قال الشيخ رحمه الله في ” نيل الفرقدين “ (١) : قلت : وهذا الذى
أورده الحاكم معارضاً لأثر عمر رضى الله عنه فى تركه الرفع لا غيره ، كما
سيأتى استبعاداً منه أن يروى الرفع مرفوعاً ثم لا يرفع هو ، ولم يدر أن فى
الباب محل جر الجوار وتنزع الفعلين ، فاعل ”عمر“ جاء فيه بالعدل وكان غير
منصرف عن المعرفة بالسببين ، وإن شئت الاخبار بالذى يدور معه الحق فعلاً
وتركاً فهو هو .

إذا كان فى أمرٍ وجوه عديدة	فخذ بالذى ترضى وأخبر به كذا
دع اللحن فى الأعراب ثم انح نحوهم	إلى كوفة أو بصرة حيثما ترى
تنزع فعلاً فإن شئت اعملن	لأول أو ثانٍ وذاك على سوى
ولو إنما تسعى لصوب مصبوب	كفاك ولم تطلب قليل من الرضى
ومن عاملين معنوى وغيره ،	يجوز لهم خفض ورفع كما أتى
فإن شئت فانصب أيدياً لاستكانة	وإن جئت بالإسكان فالأصل فى البنى
وإن رمت إظهاراً لحرفين فاعتمد	وإن شئت إدغاماً فى الجنس يرتضى

وقال فى ”فصل الخطاب“ (١) :

وهذا الذى ذكرته الآن آخر ما ينفصل البحث به عندى فى حديث

ابن اسحق عن مكحول عن ابن الربيع أبين من فلق الصبح ، وأوضح من فرق الصديق ، وإذا تجاوزت الشحارير على الأيكة وحدثت وتابعها العنادل بموصول شجى ، وبيئت وصدقها القطا وعدلت فليس إلا الأسفار عن وجه المنى ، فليدفع عن تغليس مزدلفة إلى منى ، وليتمثل ما قاله الشافعى رحمه الله :

يا راكباً قف بالمخصب من منى * واهتف بقاطن خيفها والناهض

وقال : وإنى لم أرد الرجم بالغيب ، ولا الرمي فى سواد الليل ، فإنه لا تجزئ عند أصحابنا آه .

هذا ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

الشيخ والفننة المرزائية .

اعلم - هداك الله للحق ووفقك لنصرتة وإيانا - ما من قرن من القرون الخالية فى الأمة الإسلامية إلا وقد أملت خطوط كارثة أزججت المسلمين كافة ، وكانت المصالح الكونية والأسرار الربانية داعية لها ليميز الله الخبيث من الطيب ، ولينجلى على العالم سر بلاء المحسنين ، فكانت تقوم لحسمها واستيصالها عصاة الحق والهدى ، لا يزعجها شئ كأنها بنيان مرصوص ، وهكذا تكون الحرب سجالاً برهة ، ثم تكون الغلبة الباهرة للحق ؛ أما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكنث فى الأرض ، فكلما بدت فتنة عمياء فى الدين قام لدمغها وقطع عروقها علماء وعرفاء ربانيون فقهاء وأمراء حكماء ، شهر سلاطين الأمة صوامرهم وسل أساطين الملة ألسنتهم وأقلامهم ، فأوصاوها إلى الهاوية ، فاعتبر بالفرق الباطلة المعادية للدين ، كيف اجتاحتها الله عن ظهر البسيطة ؟ وكيف استأصل شأفتهم ؟ أين الإسماعيلية الباطنية والقرامطة ؟ أين الأخشونية والمزدكية ، ثم وثم إلى المهديوية أتباع الجونفورى ، ثم البابية والبهاية وقرة العينية وغيرها . فهل ترى لهم من باقية ؟ كلا ! أصبحت كلها بائدة فانية ،

ولكن صدق رسول الله ﷺ حيث قال : « بادروا فتناً كقطع الليل المظلم » ،
فهذه أيام ظهرت فيها أشراط الساعة ، واقترب المسلمون أنفسهم فرقاً وأحزاباً ،
واستهوتهم الأمانى . وفوق ذلك الطامة الكبرى والداھية العظمى إن حرمت
الأمة بالهند عن شوكة السلطنة الإسلامية وظل الحكومة الإلھية حتى أقفلت
عليهم الأبواب وشدوا بالسلاسل الوثيقة المحصدة ضغث على إباله فبدت
فى هذه الأيام فتنة كبرى تدع الديار بلاقع ، ألا وهى الفتنة الكارثة التى
تسمى بـ " الفتنة القاديانية " و " الطائفة المرزائية " ، تعزى إلى زعيمها الضال
المضل المرزا غلام أحمد القاديانى الهندى ، وقد وصل إلى أمه الحاوية نار
حامية ، فكان عتلاً زنياً ، معتدياً أثماً ، أخراً وقاحاً ، أذاع فى أذنا به كفرأ
بواحاً وضلالاً صراحاً ، لم يغادر شيئاً من شعائر الإسلام إلا أزجه وأبطله ،
ونحن نذكر نبذاً من أحوال هذه الفئة المارقة من الدين الباغية على الله ورسوله
وسائر المسلمين بكلمات الشيخ رحمه الله لينكشف الغطاء عن تلبيسات هذه
الفرقة الملعونة .

" إن الشقى غلام أحمد القاديانى الذى ينتهى شعبه إلى مغول التتر ، وعلى
قوله : إلى يأجوج ومأجوج - لعنه الله وأخزاه - ، كان سوى ونوى من أول
أمره ما يدعيه ويفتر به آخرأ ، ولكن الشقى تدرج وتلون فى دعواه تلون
الحرباء ، وسلك فى تمشية مرامه وتعمية كلامه طريق الزنادقة والباطنية ،
واتبع البابية والبھائية سواء بسواء ، فادعى أولاً : أنه مجدد ومثيل المسيح ،
ثم انتقل إلى أنه المهدي الموعود والمسيح المعهود ، ومن الجانب الآخر أوله :
أنه نبي لغوى أو ظلى أو بروزى ، على معانى اخترعها الزنديق ، ثم تحول
إلى أنه نبي غير تشريعى ورسول كذلك ، ثم إلى أنه نبي تشريعى ورسول (١) ،

(١) قال الراقم : ثم انه لم تنته امانيه الابليسيه الى هذا الحد حتى صار رباً
والهياً ، ثم صار اباً لله ، العياذ بالله من هذه الضلالة البعيدة والغواية

كذلك باح به في أربعينه وتحدى بالآيات ، وجعل وحيه كالقرآن - كما في "نزول المسيح" (٢) - وغيره، وجعل يحاكي معجزات سائر الأنبياء ومعجزات خاتم الأنبياء ﷺ أيضا ، فجعل مسجده "المسجد الأقصى" ، وجعل قريته "مكة المسيح" ، وجعل اللاهور مدينته ، وجعل لمسجده منارة سماها "منارة المسيح" ، فحمل كل ما يتعلق بعيسى عليه السلام على التأويل إلا المنارة ، فإنها كانت تنهياً ببذل المال ، وقد جمعه من أتباعه ، وجعل مقبرة سماها "مقبرة الجنة" ، من دفن بها فهو من أهل الجنة ، وسمى أزواجه "أمهات المؤمنين" ، وأتباعه أمته ، ومن أكبر ما ادعاه من معجزاته نكاح المسماة بـ "محمدي بيگم" من فوق السماء ، وجعله وحيا أوحى به ، واستمر على لعنته تلك نحو عشرين سنة ، فإنه أول ما شهره هو في سنة ١٨٨٨ الميلادي في اشتهاره ، وقد وصل إلى أمه الهاوية في سنة ١٩٠٨ الميلادي ، فأصر عليه نحو ثلث عمره ، وقال فيه : إن الله يرفع كل مانع من هذا النكاح وتدخل في نكاحه ، وإنه تقدير مبرم ، وأوحى إليه شيطانه فيه ، كما ذكره في كتابه : "أنجام آتهم" :
"كذبوا بآياتي وكانوا بها يستهزؤون فسيكفيكمهم الله ويردها إليك أمر من لدنا إنا كنا فاعلين ، زوجناكمها اه" .

وهكذا يتلقف كلمات القرآن ، ويحكيها في افترائه ، وأشاع في كتابه "إزالة الأوهام" في ذلك : الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ، وجعل كل ذلك وحياً سماوياً يقطع به كالقرآن . وجعل نبأه ذلك معيار صدقه

الجلية فقال : تيقنت اني هو الله ، ولما ولد له ولد فقال : كان الله نزل من السماء وادعى انه مريم وجوى طمشه وقال فيما يوحى اليه شيطانه يريدون ان يروا طمشك ، وادعى اني آدم و ابراهيم وموسى ونوح ، الى غير ذلك من الهذيان الشنيعة والدعاوى الفظيعة والكلمات العوراء منه .

وكذبه عند كافة الخليقة من المسلمين والنصارى واليهود ، وأطمع والد المساة المذكورة بأموال ودار وعقار ، ودلّاه بكل مكر وحيلة ، ففضحه الله تعالى على شأنه على رؤوس الأشهاد وعلى أعين الناس ، ولم يرزق ذلك النكاح ، وقد نكحها سلطان أحمد ، وأولدها أولاداً ، والحمد لله على ذلك ، وكان أعلن إلهامه فيه أنه : ” إن لم يتم له ذلك النكاح فهو أخبث من كل خبيث ” فكان كذلك أخبث من كل خبيث والحمد لله أولاً وآخراً ، وكان كل غرضه جمع الأموال ونيل اللذات والشهوات ، فسقط في الهاوية وأبقى داهية دهياء للإسلام والمسلمين ، وكفر من لم يؤمن به كما في جريدة ” الحكم ” (٢٤ أكتوبر ١٨٩٩ الميلادي) . وفي ” حقيقة الوحي ” (١) ، وفي مكتوبة المندرج في ” الذكر الحكيم ” . وأهان عيسى بن مريم عليه السلام بما تنشق منه الأكباد ، ولم يوجد نبي هجا نبياً ، أو حط عليه ، وقد وجد من العلماء بل من الأولياء من حط على مثله بل وكفره ، ويعتل في ذلك بإلزام النصارى ، فقضى وطره من إبراز كفره المكنون بهذه العلة ، والحال أنه يجعله عند ما يسترسل في قعاقعه حقاً واقعاً والعياذ بالله منه ، واستمر على ديدنه ذلك إلى أن قال في آخر سنة من حياته في جريدة ” البدر ” : إني مدّع : ” أني رسول ونبي ” . وفي مكتوب له إلى جريدة ” أخبار عام ” : ” إني على حكم الله نبي ” . وكذا في ” حقيقة الوحي ” (٢) ، إلى أن أخذه الله تعالى بعد ما أرسل مكتوبه إلى مدير ” أخبار عام ” بخمسة أيام ، أخذ عزيز مقتدر ، ورماه قضاء الله وقدره بالهزيمة ، وسقط على وجهه في حشه ، واستقر في دار البوار ، وكانت موته موتاً يعتبر به المعتبر ، فقد كتب إلى ذو وجاهة من ” أجهره ” من مضافات ” لاهور ” عن آخر ذي وجاهة : أن القدر المحتوم رماه بمرض إيلأوس والله أعلم ، وكان

كما قيل (١) :

”این همان رید است که در آخر تجرید خوردنی“

وتم عليه قوله تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) ، ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله ، ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) ، (هذا ما كتبه الشيخ رحمه الله في تحرير مستقل ملحق بكتابه ” عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام “ (المطبوع) .

وقال الشيخ رحمه الله في أوائل رسالة ” إكفار الملحدين “ : ثم جاء ملحد وحرف تلك النصوص كما فعلته الزنادقة ، وقال بأن الله سماه : ” ابن مريم “ ، وأن المراد باليهود ” علماء الإسلام “ الذين لا يؤمنون بذلك الملحد ، لأنهم جمدوا على الظاهرية وحرّموا الروحانية ، ولم يدر الملحد أن الزنادقة الذين مضوا وبادوا كانوا أبلغ منه في تلك الروحانية إن كانت تلك الزنادقة روحانية ، وهذا أستاذه وأبوه الروحاني الباب ثم البهاء وقرّة العين هلكوا عن قريب وادعوا ما ادعى ، وأتباعهم الأشقياء أكثر من أتباعه ، فأين له بهاء كالبهاء ؟ وأين له ثبات في الحروب ومكافحة بالصدر لبنادق الرصاص وأخباره بالنجاة منها ، ثم وقوع الأمر كذلك ؟ وأين له منطق كمنطق قرّة العين ؟ :

لها بشر مثل الحرير و منطق * رخيم الحواشي لا هراء ولا نذر

ولنما بضاعته تلقف كلمات من الصوفية الكرام ، كالتجلى والبروز

(١) قاله الشيخ قطب الدين الرازي للنصير المخذول الطوسي صاحب ” التجريد “ ، وكان قد سب الشيخين رضي الله عنهما في آخر كتابه ” التجريد “ : ثم ابتلى عند موته بذلك المرض الفظيع الشنيع ، فقال قطب الدين قوله ذلك مشيراً الى ان هذا جزاء ما وقعت فيه من سب الصحابة . من الراقم البنوري .

وتحريف مرادهم وسرقة القباء واتخاذهم قيصاً ، واتباع الفلسفة الجديدة وما فتشه أهل أوربا ، وجعله وحياً يوحى إليه شيطانه ، وقد مهد له ذلك قبله أمثاله ، منهم الحكيم محمد حسن الأمر وهوى صاحب "غاية البرهان في تأويل القرآن" ، على أنهم كانوا أحسن حالاً منه ، فإنهم لم ينبثوا ، فإذا كان الأمر هكذا أكفرناه بالإجماع ، وجعلنا الهاوية أمه ، ويعجبني قول المتنبي في ذلك المتنبي :

لقد ضل قوم بأصنامهم * . وأما بزق رياح فلا
وقد قال قائل أن الأحوط فيه :

وكان امرأ من جنـد إبليس فارتقى * به الحال حتى صار إبليس من جنده
اه .

هذا ما ذكره رحمه الله طرفاً من أحوال هذه الداهية الكبرى . وقال رحمه الله في كتابه "عقيدة الإسلام" (١) : فقام ذلك الملحد ، فوقع في شأن ذلك النبي الجليل بما تقشعر منه الجلود وتنشق الأكباد ، وقد سرد بعض ما تفوه به ونطق وتمطق في عرضه عليه السلام في رسالتنا "إكفار الملحد" في شيء من ضروريات الدين ، فقبح الله وجوه من تبعه في ذلك الكفر والإلحاد والزندقة ، وقد باع إيمانه بالدنيا حتى لم يوفقه الله على دعوى العيسوية لحفظ شيء من القرآن وأطفال المسلمين يحفظونه ، ولم يوفق للحج وأوساط المسلمين يفوزون به ، وهو لا يستحق أن يكون رجلاً شريفاً ، فكيف يكون مؤمناً صالحاً ؟ فكيف أن يكون المهدي المسعود ؟ فكيف أن يكون عيسى الموعود ؟ نعم يستحق أن يكون أتان الدجال ركبها ، أو كسجاح اليمامة نكحها أبو ثمامة ، كما قيل :

أمست نبيتنا أنثى نطوف بها * وأصبحت أنبياء الله ذكر انا

والعياذ بالله العظيم ، انتهى ملخصاً .

كانت هذه الفتنة متضائلة في بدء نشأتها ، ثم التهمت جمراتها إلى الأقطار والأكناف حتى بلغ السيل الزبي ، وبلغ الدماء الثنن ، ” بال حمار فاستبال أحمره “، وكانت هنا دسائس أخرى تنمو بها عروق هذه الفتنة ، وكان دهاءً ومكرًا عظيمًا لهدم أساس الإسلام ، وأحبولة لإراغة غفلة المسلمين ، وتدليساً واختلالاً في الملة المحمدية ، ثم بالت بينهم الثعالب ، وفبى بينهم الظربان ، فافترقت أذناؤه بعد موته فرقتين ، واختلط الحابل بالنابل ، فرقة تتمسك بأصل دعواه ، ويزعمون أنه نبي ، ويعلمون بنبوته على أعين الناس ، ويسمون أنفسهم بـ ” الأحمديّة “ ، وهذه الفرقة جمهور المرزائية والقاديانية ، وزعيمها : محمود ابن غلام أحمد المتنبي اللعين . وفرقة يظهر أن أنه كان مجددًا مصلحًا ومسيحًا موعودًا ، يخدعون بذلك أغرار المسلمين والأعمار الغافلين ، ويتأولون في صرائح دعاويهم وعباراته تدليساً وتدليساً على المؤمنين ، وتدعى اليوم بـ ” اللاهورية “ ، وزعيمها اليوم المالحد الخبيث محرف القرآن والحديث محمد علي اللاهوري ، وهؤلاء الشياطين أشد مكرًا وأقوى كيدًا لإصطياد البله والغفلة ، وأعظم فتنةً وأكبر ضررًا على الإسلام والمسلمين ، خذلهم الله وأخزاهم كلهم أجمعين ، على رؤس الأشهاد وأعين الناظرين في الدنيا والدين . ثم مع هذا الإفتراق إنهم اتفقوا في كثير من أصول مذهبهم ، ودانوا بما تفوه به اللعين المتنبي ، فقد أطبقوا على أن عيسى عليه السلام لم يخاق من غير أب ، بل يوسف النجار أبوه ، وإنه لم يصدر منه معجزة ، وإنما صدر منه شعبدات وطلسمات ، وسلموا ما تفوه اللعين بشدقيه في سيدنا عيسى الرسول ، وأمه الطاهرة المطهرة البتول ، واتفقوا على أن المرزا القادياني أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وأن الله قد خصه بمعجزات وبيّنات ، لم تبلغ إليها معجزات سيدنا ومولانا خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ ، لا كما ولا كيفاً ، وما عدا

ذلك من الكفريات الصريحة والإلحاد البين والزندقة الجلية يكررون في كل
جمعية لهم ، حتى أصبحوا فيه أشغل من ذات النحيين ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .
فانتفض الشيخ رحمه الله للدمغ مزخرفاتهم وصلم عروقهم ، وكانت لطيفة إلهية ،
وأخذته الحمية الدينية ، وأغرته الغيرة الإسلامية ، فسرى البغض مع هذه
الفئة الملعونة والثلة الطاغية في الله ، ولله في سويداء قلبه ، وقد شاهدنا مثلاً
حياً ناطقاً للحب في الله والبغض في الله ، فشمر عن ساعد الهمة وساق الجد
لمكافحة هؤلاء المردة ، فحذر وبلغ وأرشد الأمة إلى الحق الصراح ، ونبأهم
على ذلك الكفر البواح ، وصنف في هذا الباب رسائل عديدة وجيزة وبسيطة ،
أيقظ فيها العلماء والفضلاء عن رقعات الغفلة ، وحضضهم لمقاومة هذه الفتنة
بكل ما أمكن تبليغاً وتصنيفاً ، وأعان أصحابه وتلامذته بذخائر العلم للتصنيف
والتأليف وإشاعة للناس ، تحذيراً لهم عن مكائد هؤلاء المارقين ، حتى بلغ
ندأؤه بأرجاء الهند القصوى ، ونبه قاطنيه من ساحل البحر المحيط إلى شواحق
كشمير إلى بلاد الأفغان ، بل جميع ما ارتج اليوم في العالم الإسلامي من العراق ،
والشام ، ومصر ، والحجاز من التشنيع على هذه الفئة ، كل ذلك ببركة
مساعيه الجميلة التي ألزمت على إساءة الملة وهداة الأمة أن يقندوها ويمكنوها
في حنايا الصدور وحببات القلوب ، وهذا الذي ترى اليوم في أرجاء الهند
من تأسيس لجنات وانعقاد اجتماعات حافلة ، وإجراء الجرائد والمجلات لحسم
عروق هذه الفتنة المتأصلة ، لا سيما مساعي "جمعية الأحرار" ، ورئيس
شعبة تبليغها المجاهد الباسل غشمشم الأمة ، خطيب القوم مولانا عطاء الله
شاه البخارى - أطال الله بقاءه وزاد همته وإخلاصه - (١) كل ذلك من مآثره

(١) وقد توفي رحمه الله قبل هذا الطبع الجديد، فرحمه الله وجعل الجنة مشواه .

السنية الباقية على صفحات الدهر ، وسنته الحسنة السائرة بين المسلمين ، فأباد الله بسعيه الخبيث وجهده المثمر خضراءهم حتى حصحص الحق وزال الرين وانكشف الغين وبين الصبح لدى عيني من العالم والأفى والخاصى والعامى ، وأصبح كفر هؤلاء المارقين من الدين أبين من فرق الصديق ، بحيث لم يبق مجال للمرتاب ولا مساغ للمتاؤل ، إذ قد عم نداؤه البلاد وانتبه الرقاد ، فخدم الملة ، وذب عن حريم العقيدة الإسلامية ، ودافع عن حوزتها ، وهكذا سنة الله خلت في عبادته على ممر الدهور وتعاقب الأدوار ، يضرب الحق على الباطل أينما سار ودار ، استولت على الديار الهندية سلطة الروافض ، أقام الله لهدم بنيانها الإمام الحجة حامى الملة والشريعة ، وحامل الطريقة والحقيقة مولانا الشيخ الشاه ولى الله الدهلوى رحمه الله ، وابنه الحجة المتقن البارع الشاه عبد العزيز ، نور الله ضريحهما ، فجعلهما الله سداً منيعاً دون فتنتهم الأوجعية . ثم لما اضطربت نيران البدع والحوادث ، وهبت في أكناف الهند رياحها المنتنة أقام الله لإطفاء لهيبها وضرامها حامى السنة ماحى البدعة الحبر المحقق المحدث الشاه محمد اسماعيل الشهيد الدهلوى قدس الله روحه . ثم لما هبت عواصف الإلحاد وأخذت الملاحدة في الإيرادات على عقائد الملة المحمدية ، ونشأ خبيث ملحد من فئة الهندوسين ، التى تدعى بـ ” آريه سماج ” يرمى حريم العقائد الإسلامية بباله ونصاله ، أقام لكفاحه ومكامعته الإمام الحجة بحر المعارف والحقائق شيخ الإسلام مولانا محمد قاسم النانوتوى بانى ” الجامعة الإسلامية الهندية ” بديوبند ، قدس سره .

وهكذا لما حدثت فتنة الفرقة المرزائية القاديانية ، وماجت في أرجاء الهند ، بل سرى هذا الداء العقام خارج الهند ، أقام الله لذلك الشيخ الأنور رحمه الله ، ” فتركها على مثل مشفر الأسد ” .

لا شك أنه قد أحسن بعض النفوس الزكية بهذه الفتنة أبان خدونها ،

ولكن لم يهمله الأجل لمكامعتها ، وبعض قد انتبه لها ، ولكن حسب أنها بقبقة في زقزقة ستبید عن قريب ، ما عسى أن يبلغ عض النمل ، وظن بعضهم أن ترك ما لا يصلح أصلح ، وأخذ بعض في مقاومتها فلم يفر فريه ، ولكن هذه السعادة الأزلية كانت مقدرة مقضية للشيخ رحمه الله ، فتفرس الشيخ في بدئها بنور فراسته وبصيرته أن هذه الفتنة من أدهى الملمات على الدين ، وأعظم المصائب ، وما هي إلا فالية الأفاعى والعقارب ، فلو بلغ السكين العظم وتفاقم الشر والفساد ولم تسد أبوابها ولم ننتهض لمقاومتها لسالت هذه الفتنة روح الإسلام من قلوب المؤمنين ، ولغادرتهم خشباً مسندة بلا إيمان ، ولكان السعى عند ذلك كدابة ، وقد حلم الأديم ، فهكذا أزعجت الشيخ وأطارت رقاده ، وأزالت راحته ، فقام بتوفيق الله تعالى مستنفداً وسعه وجهده البالغ في قطع عروقها ، فأخذ الأمر بقوابله بالاستعجال ، وبعث أهل عصرنا على المقاومة ، ونفخ فيهم روح المكافحة والنضال ، وحذرهم عن مكائدها ، ونبأهم على شبكات المنغرة على وجه البسيطة . فهذا الذى ترى اليوم من مساعى أصحاب الجرائد الهندية واللجنات التى أسست على الدفاع عن حوزة الملة الإسلامية ، وكشف عوار هذه الفئة الضالة المضلة ، وصدع مضارها الدينية والسياسية على المسلمين ، كل ذلك من مآثره الجليلة . فبنهضته السامية انفجرت عيونهم المنغمضة وانفتحت أبوابهم المنغلقة . فهذه عندى مزية كبرى أكبر من سائر مزايا الشيخ رحمه الله ، وتفوق سائر مآثره السامية ، فلو لم يكن للشيخ حسنة غير هذه الحسنة العظيمة ومنقبة غير هذه المنقبة العالية لكفاه شرفاً وفضلاً ، ولكفاه شهادة على أنه كان ربانى هذه الأمة بعهدده ، فهذه منقبة زهراء من بين سائر مآثره الخالدة ، يبق آثارها الجميلة فى قلوب أهل الحق ، وتتألاً لامة على صفحات التاريخ الإسلامى على انقراض الدهور وانقضاء العصور . فالشيخ رحمه الله درة يتيمة لامة من فوائده العقد الذى انتظمت فيه أولئك الذين

ذكرتهم من أفراد علماء الهند ، أصلح الله بكل منهم أمةً من الأمم ، وأبقى الله منهم سنةً حسنةً مسلوكةً في العالم ، فبارك الله تعالى لروح الشيخ رحمه الله هذه العزة القعساء ، والفضيلة الزهراء ، لا يسامحه فيها في شيءٍ أحدٍ من أمثال أهل عصره وجهابذة عهده ، فجزاه الله عنى وعن سائر المسلمين خير ما يجازى عباده المحسنين . وقد أجاد القائل :

موت التقي حياة لا انقطاع له قد مات قوم وهم في الناس أحياء

بلغني عن الشيخ رحمه الله أنه كان يقول : لما انتشرت هذه الفتنة العمياء كان لا تأخذني في المضجع نومة كمداً واضطراباً من هذه الرزية الدهياء ، فأقلقتني جداً مخافة أن يقع بها ثلثة في الدين يعتاص سدادها ، وغلبني الأرق والسهاد حتى مضت على ستة شهور كاملة في هذه الحالة المقلقة المذيبة ، حتى ألقى الله تعالى في قلبي أن ستبید شوكتها وتضعف صولتها ، فشفي الله قلبي بعد هذه البرهة حتى اطمأنت نفسي وسكن جأشي ، وأشار الشيخ إلى هذه الواقعة في بعض قصائده العربية والفارسية . ولما ألف الشيخ رحمه الله كتابه "عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام" قال : أرجو أن يشفع لي سيدنا عيسى عليه السلام بهذه الرسالة إن شاء الله تعالى . ومن عجائب الاتفاق أني كنت سمعت كلمة الشيخ هذه عن بعض أصدقائي (١) . ثم بعد برهة رأيت فيما يرى النائم سيدنا عيسى عليه السلام جالساً على سجادة بهيئة حسنة وأناة ووقار وسكوت ، ويجنبه جلس شيخنا رحمه الله على تلك السجادة بمثل تلك الهيئة والوقار . فأعجبني ذلك المنظر الرائق ، فكنت أنظر مرةً إلى محبياً سيدنا عيسى عليه السلام ، ومرة إلى وجه الشيخ الأنور رحمه الله ، فتارةً أقتبس من هذا وتارةً من هذا ، وبقيت ساعة على هذه الحالة الطيبة حتى انتبهت من المنام

(١) اعني صديقنا المحترم مولانا محمد لطف الله الفاضل دامت الطافه وافضاله منه .

فرحاً مسروراً من التشرف بزيارتها على تلك الهيئة البديعة ، مع تأسف على عدم امتداد هذه الحالة كثيراً . اللهم ارزقني معيتها في دار رضوانك بفضلك وعميم إحسانك يا ذا الجلال والإكرام ، آمين آمين يا رب العالمين .

شيء من شعره مما يتعلق بهذه الفتنه .

وللشيخ رحمه الله قصائد رائعة تتعلق بهذه الفتنه الفظيعة ، ونريد أن نهدي للناظرين شيئاً منها ليظهر ما في صدر الشيخ رحمه الله من الغيظ والغضب في الله مع هذه الفئة الباغية والإضطراب من هذه الملمة الفاجعة ، وليكون أسوة لمن بعده في نصره الحق وإرشاد الخلق ، والله الهادي إلى الصواب ، قال رحمه الله :

صدع الصديق وصيحة بالوادي	لمن اهتدى من حاضر أو باد
بالقادياني ذلك الآخر الذي	أمسى زعيم الكفر والإلحاد
وأبان عن كفر ينوء بعصبة	و يبوء بالأغلال والأصفاد
رزء على دين النبي يهده	آخر فهل من راشد في النادي
والله يهدي من يشاء لدينه	ولمن يضل فماله من هاد

وقال في آخر قصيدة له في إسراء النبي ﷺ :

ومن عض فيه من هنات تفلسف	على جرف هار يقارف أن يردى
كمن كان من أولاد ماجوج (١) فادعى	نبوته بالغي والبغي والعدوى
ومن يتبع في الدين أهواء نفسه	على زيغ فليعبد اللات والعزى

وقال من قصيدة طويلة تربو على سبعين شعراً :

(١) قال الشيخ رحمه الله والمراد من اولاد ماجوج ذلك الرجيم الزنيم فانه من مغول التاتار ، على انه لا يعرف فلسفه ولا شيئاً ، وانما باع دينه مجاناً بما سمعه من نهضة اوربا . منه .

ألا يا عباد الله قوموا وقوموا.
وقد كاد ينقض الهدى ومناره
يسب رسول من أولى العزم فيكم
وحارب قوم ربهم ونبيهم
وقد عيل صبرى فى انتهاك حدوده
وإذ عز خطب جئت مستنصراً بكم
لعمري لقد نبهت من كان نائماً
وناديت قوماً فى فريضة ربهم
دعوا كل أمر واستقيموا للمادى

خطوباً ألمت ما لهن يدان
وزحزح خير ما لذك تدان
تكاد السماء والأرض تنفطران
فقوموا لنصر الله إذ هو دان
فهل ثم داع أو مجيب آذان
فهل ثم غوث يا لقوم يدانى
وأسمعت من كانت له أذنان
فهل من نصيرلى من أهل زمان
وقد عاد فرض القوم عند عيان

فشاننى شأن الأنبياء مكفر
تفككه فى عرض النبيين كافر
يلذ له بسط المطاعن فيهم
تحطم فى جمع الحطام ونيلها
وكل صنيع أو دهاء فعنده
ومعجزه منكوحة فلكية
ومنى له الشيطان فيها بوحيه
يهم بأمر العيش لو يستطيعه
ففضحه رب السماء بحوله

ومن شك قل هذا لأول ثان
عتل زنيم كان حق مهان
ويجعل نقلاً عن لسان فلان
وبسط المني فى حاصلات مجان
لنيل المني بالطرد والدوران
يصادفها فى رقية الكروان
رفاءً ووصلاً خطبة وتهان
وقد حيل بين العير والنزوان
وقوته والله فيه كفانى

ألا فاستقيموا واستهيموا لما دهى
وعند دعاء الرب قوموا وشمروا
وكن راجياً إن يظهر الحق وارثب
وللحق صدع كالصديق وصوله

فموت عليه أكبر الحيوان
حناناً عليكم فيه أثر حنان
لأولاد بغى فى السهيل يمان
وضرب وطعن فوق كل بنان

وآخر دعوانا أن الحمد للذي
وصلى على ختم النبيين دائماً
لنصرة دين الحق كان هداى
وسلم ما دام . اعتلى القمران
وقال رحمه الله :

فاخرج الدهر وحى كاهنه	وذنب رأس جناه من ذنبه
وحق لعن عليه من أزل	وزاد صيتاً فزده في لقبه
وقد كناه الزمان تعريفاً	بمثل تبت يدا أبي لهبه
وما له العجب خاسراً أبداً	إذا اقتنى لعنه على كذبه
ومن أتى مدلياً بشفيعته	فهبه نار اللظى على سقبه
ومن نحا ما ادعاه مفترياً	فكفرنه وزده في سلبه
جزاء كلب عوى وضع حجراً	بفيه حتى يفيق من كلبه
وما يفوه الزنيم من لغط	فسوه في تنبأ عجبه
بأن معناه أن ينبأ في	مقره النار منتهى خطبه
وكل ما قاله فسترق	من البهاء وما بمقتضبه
فيا لدهر يروج سارقه	أما استحى في استراق ما ذربه

وصلى الله على خاتم الأنبياء سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الشيخ ونبذة من هديه وشمائله العامة .

وله رحمه الله شمائل جليلة وخصائل نبيلة ، قلما يتحلى بها المرء في هذه
القرون والأعصار ، فإنه ” قد بلغ السيل الزبى ” ” وبلغ الحزام الطبيين ” ،
عم الحرص والطمع ، وسرى في القلوب داء الحسد والبغضاء ، وحدث في
النفوس الكبر ، وأغریت الآمال بحطام الدنيا ، وأشربت القلوب حب العزة
والجاه ، وأوثرت الأهواء على الطاعات ، وامتزجت الطاعات بالأغراض ،
وركبت الأماني كل صعب وذلول ، وتشعبت بالمراد في كل واد ، واستعجلت

الحظوظ في الدنيا، وصارت الفضائل الدينية أحبولة لذائد النفوس، ورحم الله
ابراهيم بن أدهم حيث قال :

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

وصدق قول اللبيد العامري :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
يتأكلون مغالة وخيانة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب
وقال الآخر :

تولت بهجة الدنيا فكل جديدها خلق
وخان الناس كلهم فما أدري بمن أثق
رأيت معالم الخير تسدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب ولا دين ولا خلق

فهذا حال الدنيا بين يديك ، إما لك وإما عليك ، فاعتبر فالأمر إليك ،
ولكن الله تبارك وتعالى قد آثر الشيخ رحمه الله بمزايا سامية هي أكبر مزية
له ، وأبهى شرف ، وأعز منقبة من بين سائر الملكات العلمية ما سلف
ذكرها ، وهذا باب لو ركضنا جواد البيان في مضماره لأعيانا ، فإنه تكل
ألسنه مصاقع العصر عن إحصائها ، فالأنظار تتجمع ، والأقلام تتكفكف ،
والهمم تتقاعد دون بيانها ، ولنقد المداد ومالها من نقاد :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم * أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

فكنفتي بالإشارات المنتشرة حسب ما يسنح لي من شيء ، والله المستعان .
فن زهده أنه لم يكن له جنف وميل إلى المال أصلاً ، فكان لا يأخذ
راتباً إذ وظف بالتدريس في ” دار العلوم الديوبندية ” إلى عدة أعوام ،

ثم لما تأهل واضطر إلى مصالح البيت وسرافق المعيشة ونفقة العيال أحس بذلك أهل الجامعة الديوبندية ، فعينوا له راتباً يكفي لحوائجه الحاضرة ، ووصلت إليه في هذه الأيام دعوة من المدرسة العالية من "كلكتة" لمنصب رئاسة التدريس براتب ثمان مائة روبية مشاهرة ، وكان راتبه في تلك الجامعة أقل من خمسين روبية ، فلم يزججه قط ، وما أجاب دعوتها . وقال : يكفيني ما تيسر لي ، لا حاجة لي إلى سواه ، نعم تموت الحرة ولا تأكل بثدييها . ثم لما اعتزل عن "الجامعة الديوبندية" — وقد أشرنا إليه من قبل — تعاورته الدعوات من كل جهة للتدريس برواتب سامية ومشاهرات عالية ، حتى بلغت الدعوة من نواب دهاكه — من حدود بنگال (١) — بألف روبية مشاهرة فصاعداً ، فلم يقبل ، وهكذا له وقائع عجيبة ، وكان يقول : لا يجوز عندي أخذ الراتب الشهري بدرس الحديث ، وإنما آخذه اضطراراً علماً مني بأنه لا يجوز ، فكان يتأسف بذلك جداً حتى ربما كان يبكي منه . وبلغني عن مولانا المحترم مولانا بدر عالم أحد أساتذة الحديث بالجامعة : أني قلت للشيخ : لو ألفت تأليفاً في شرح كتاب من الأمهات الست لنتفع ذريتك من بعدك ، يعني كان ذخيرة لمعاشهم ، فقال رحمه الله بلهجة حزن وأسى : تغذيت بالحديث طول حياتي وهل ترى أن يباع حديثي بعد مماتي ، والله حسبيهم . فكان رجلاً عظيماً الأمانة ، وكان الله جليلاً في قلبه ، فاستحققر الدنيا ومتاعها ، فكانت أحقر عنده من جناح بعوضة ، وكانت فطرته مجبولة على الحق ، وشغف فؤاده باتباع السنة النبوية ، ووهبه الله نفساً مطمئنة فنوعاً في المصائب والشدائد ، صبوراً على المكار والمكائد ، وامتلأ قلبه بخشية الله ، فكانت بمكانة علياء ، فلم يعرفه القوم ، وكان شديد الكرم ، حسن المواساة مع الطلبة وأهل العلم ،

(١) تسمى اليوم بالباكستان الشرقية . منه .

واصل الرحم مع الأقارب ، يقرى الضيف ويعين على نوائب الحق .
وكان رحمه الله تنقضى أوقاته إما في المطالعة وإما في الدرس ، أوفى فكر
لاستخراج معارف وحقائق من كلام الشارع ، فلا يغفل لحظة ، ولا يفتر
لمعة برق ، فكان ذا غوص في المشكلات ، وصاحب خوص في المسائل المعضلة ،
كان يطالع كتب المحققين ليلاً ونهاراً عشياً وإبكاراً ، لا يلحقه الونى والفتور ،
ولا يعرف الكسل والملال ، فإذا ترك المطالعة كان يتفكر في تحقيق الحقائق
بتدبر غائر وإمعان غريق ، لا يخل فكره سعة عيش أوضيق حال ، فكان
معتدلاً سوياً في البؤس والرخاء ، لا يظهر مكابדתه على أحد ، وكان لا يفزع
أمر ولا يجزع عن شئ ، كلما سمع شيئاً غير مرضى جرى على لسانه : ” حسبنا
الله ونعم الوكيل “ . وكانت هذه الكلمة أكثر ما يجرى على لسانه في الأندية
والمحافل ، وكان كثير الصمت ، دائم الفكرة ، غير مستريح في وقت من
الأوقات . وقد سمعنا عنه كثيراً : أنى تفكرت في مسألة كذا وكذا نحو خمس
عشرة سنة فسنح لى كذا وكذا ، نعم صدق من قال : ” لا يعطيك العلم بعضه
حتى تعطيه كلك “ . ومن طلب عظيماً خاطر بعظيم . وقد صدق من قال :

لا يؤيسنك من مجد تباعده فإن للمجد تدريجاً وترتيباً
إن القناة التى شاهدت رقعتها تنموا فتنبت أنبواباً فأنبواباً

وكان في قلبه ضرام حزن وأسف من ملأت دهر الملة الإسلامية في القرون
الخالية والعصور الماضية كأن أمت تلك الدواهي الأمس بين عينيه ، حتى قد
تفيض عيناه دمعاً عند ذكرها في الدروس والحفلات فوق المنابر على
رؤس الأشهاد ، وكان يعظ الناس موعظات بليغة مؤثرة ، فكان يبكي
ويبكي ، وكان ينصح الطلبة بأن يقنعوا بالكفاف ، وأن لا يجعلوا العلم ذريعة
معاشهم ، ويرغبهم في أن يحصلوا مع الله تعالى تقرباً وتعلقاً ، وأن يبتغوا

إليه وسيلةً ، ويتخذوا إليه سبيلاً ، وكان يتمثل كثيراً في مواعظه بقول
أبي الطيب :

تخالف الناس حتى لا إتفاق لهم	إلا على شجب والخلف في شجب
فقليل تخلص نفس المرء سالمة	وقيل تشرك جسم المرء في عطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته	أقامه الفكر بين العجز والتعب

وكان رحمه الله حسن المجلس ، ذا وقار وهيبة ، وإذا عاشره أحد أحببه ،
حتى يكون عنده أحب من نفسه ، وكان أحسن الناس منطقاً ، وأنبههم على
ما يريد ، وكان أحلامهم نغمةً عند قراءة الحديث ، فيتمنى المرء أن لا ينقطع
قراءته ، وكان رحمه الله ربعاً من الرجال ، ليس بالقصير ولا بالطويل ، واسع
الجبهة ، متهلل الجبين ، مكتنز اللحم ، متناسب الآراب ، قوياً شجاعاً ، وكان
حياً كأنه قطعة نور تنبعث منه الأشعة ، وتنجذب إليه القلوب ، كانجذاب
الحديد إلى المغناطيس .

وكان رحمه الله متواضعاً يحب العلماء والطلبة ، وكان لا يمل من أسئلة في
تحقيق المسائل ، وإذا سأل أحد عن مسألة لطيفة وكلام دقيق فكان ينبسط بسؤاله
ويتهلل به جبينه ، ثم يجيبه باهتزاز ومسرة ، فكان كما قال زهير :
تراه إذا ما جئته متهللاً * كأنك تعطيه الذي أنت سائله

لم أر أحداً يسمع مثله بجواهر علومه ، حتى كان يفوض إلى المعارف من
العلماء والمدرسين والمؤلفين برنامجه العلمية التي تكون مشحونة بذخائر مستنبطة
من ألوف كتب ما لو صرفت الأعمار في تحصيل بعض منها لم يتيسر ، وكانت
أوراق تذاكرته تحتوى على فوائد سامية ، أذاها يساوى أن تضرب إليه أكباد
الإبل ، فكانت فيها مضموناته العلمية التي هي ذخيرة عمره في كل علم من

العلوم ، ولكن مع هذا فكان يسمح بهذه المصنونات والساححة بمضنون من مثل هذه المصنونات الثمينة أكبر عندي من الساححة بألوف دينار من الإبريز والعسجد بمراتب ، وعسى أن لا ترى في تذكرة أحد من علماء الأمة أنه سمح هكذا بتفويض تذكروته إلى غيره ، فكما إن الله تعالى خصصه بمزايا عالية أخرى لم تجتمع إلا في أفراد من الأمة ، فهذه مزية أخرى صار بها فريداً في القرون ، والله در القائل :

لو نال حى من الدنيا بمنزلة * وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وسمعت عن الشيخ الورع الزاهد المحدث مولانا سراج أحمد دام فضلهم (١) أستاذ "سنن أبي داود" وغيره من كتب الحديث بالجامعة الإسلامية : سمعت من الشيخ رحمه الله تعالى أنه يقول : كان رجل أخذ أستار الكعبة - زادها الله مجداً وكرامةً - ملتجأ إلى الله تعالى ، ودعا لنفسه أن يرزقه الله علم الحديث كعلم الحافظ ابن حجر رحمه الله ، فاستجيب له . قال مولانا المحترم : ظننت أنه يحكى حال رجل آخر ، ولم أُنبيه أنه كنى عن نفسه ، ثم تبين لى بعد برهة أنه رحمه الله أراد نفسه اه . قال الراقم : وهذا أوضح من فرق الصديق لمن علم هدى الشيخ إن شاء الله تعالى . وكان رحمه الله يقول : ما طلبنا العلم للدنيا ، ولكن يا للأسف أنه ما طلبنا للآخرة أيضاً ، نشأنا في بيت العلم ، فأخذنا في العلم ، ثم كانت الطبيعة مولعة بتنقيب آراء العلماء والبحث عنها ، فصرفنا العمر في الجدال والنضال ، بل أضعناه ، فيا لهي لم نتخذ إلى الله سبيلاً . وسمعت من صديقنا المحترم مولانا الطبيب القارى محمديامين ، أحد أساتذة الجامعة : قدم رجل من العرفاء بدار العلوم الديوبندية فتأثر جداً من لقاء الشيخ رحمه الله ولقاء الشيخ الورع العارف الفقيه مولانا وشيخنا

عزيز الرحمن النقشبندی المجددى رحمه الله، وتعجب من قوة نسبتها (١) ولطافتها، وقال: إن للشيخ رحمه الله نسبة قوية وهبة عجيبة، وقد بانع جم غفير من الصالحاء والعلماء بكشمير بيده، وقد رأيت أنه كان يلقي أشغال الطريقة الحشيتية، وربما لقي للبعض أعمال السادة النقشبندية، وكان يلقي للطلبة أورااد الحديث النبوى، ويعين لهم حزباً مختصراً صالحاً لإنشاء النسبة بعد المواظبة.

وسمعت منه نفسه: أن لى إجازة من شيخنا وشيخ العالم مولانا شيخ الهند محمود الحسن رحمه الله، وبلغنى عن بعض الأصدقاء: أن الشيخ رحمه الله اعتزل نحو ستة أشهر فى الخلوة بكشمير مشغلاً فى الزكية والتصفية بالأعمال والأوراد والأشغال على طريقة السادة الحشيتية، وهذا روض أنف فى حق لم أرتع فى حماه، وبحر خضم لم أخض فيه، فلا يحرى بي الخوض فى عماره، وقد قيل: لا تقعن البحر إلا ساجحاً، وكيف يدرى من بالساحل بل من لم يصل بعد إلى الساحل! اللآلى المكنونة فى قعر البحور، وكيف يرى من بعيد جواهر أجواف الصخور؟! فلا أملك فيه شروى نقير، ولا أملك شداً ولا إرخاء، فكيف الخداء بغير بعير؟ فهذا باب نفوذ الكلام فيه إلى أهله، وإنما أوردنا هذه الكلمات المنتشرة إشارة إلى أن الشيخ كان ممن جاب هذه العقبات، وقطع هذه الأودية

(١) النسبة: كيفية نفسانية راسخة، تحصل للعارف وتنشأ بها له علاقة مع الله قوية، يترتب عليها آثار بديعة، من دوام الحضور والشوق إليه والطهارة الكاملة ظاهراً وباطناً، وملكة التواضع والانقياد لأوامر الله، وفناء النفس حتى يظن نفسه كالميت فى يد الغسال ويسمى السادة الصوفية قدس الله أسرارهم، وكثر أمثالهم بالنسبة مرة وأخرى بالسكينة وتارة بالنور وغيرها، وهى تختلف قوة وضعفاً، وتفاوت نوعاً وصنفاً، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم. ثم رأيت من الشاه عبد العزيز رح فى "فتح العزيز" من قوله: "صبغه الله" فراجع.

الصعبة على طريقة أهلها ، وهذا وإن لم ندر شيئاً من هذه المزايا والوقائع فإن حياته الطيبة بين أيدينا ، ومحك السنة النبوية بين أعيننا ، فمن شاء انتقدنا بهذا المحك يرى إن شاء تعالى عسجداً ولايرزاً خالصاً من الغش والرداءة ، فكان سليم الصدر من البغضاء والشحناء ، فارغ القلب من الغل والحققد ، لطيف الرأفة ، حزين القلب ، حسن المواساة ، سليم اللسان من الكذب والغيبة ؛ بل لم يكن بمجلسه الغيبة ، لم يسب ولم يشتم ، لم يغادر المستحبات ، فكيف لفرائض والواجبات ؟ إذا اغتاب أحد في مجلسه يقول : دع هذا وشأنك ، ملئ قلبه بالخشية الإلهية ، فكان يحقر نفسه ويعظم كل أحد ، فكانت مشاغله إما الكتاب ، أو ضبط السوانح ، أو الصمت ، أو الذكر والفكر ، أو الرشد والنصح . وبالجمله كان عالماً عاملاً عابداً زاهداً ورعاً تقياً خاشعاً متضرعاً ، ذا وقار وسكينة ، يخاف الله في الغيب والشهادة ، ويتحرى القصد في الفقر والغنى ، وينطق بالحق في الغضب والرضى ؟ إذا رثى ذكر الله ، وخيار عباد الله إذا رثوا ذكر الله ، كان لصحبته ومجلسه تأثير في القلوب من الرغبة إلى الله والإعراض عما سواه ، وكان كما قال هو نفسه في حق قطب العالم مولانا رشيد أحمد الكنكوهي قدس الله سره :

لقد فرع الورى عملاً وعلماً	مكارم ساعدت كرم التجار
إمام قدوة ، عدل ، أمين	ونور مستبين كالنهار
فقيه حافظ علم مشير	كصبح مستنير هدى سار
وأصبح في الورى صدرأً وبدراً	منيراً دارئاً حلك التوارى
وأصبح مفرداً عالماً رفيعاً	كرفع المفرد العلم المنار
وآية رحمة فيضاً وفضلاً	عباباً مستطاباً للقوارى
وغرة دهره عالماً ودينياً	طراز زمانه مثل النصار
وأما فضله ذوقاً وحالاً	فمفرد فيه لا أحد يجارى

فضيل زماله ورعاً وزهداً وحاتم عصره عند امتيار
كان جبينه بدر مبين تهلل نوره عند الزوار
لقد نفغ الورى شرقاً وغرباً وأشرق نوره عند اعتكار

فلو لم يكن رجل وشأنه ما وصفنا ولياً عارفاً فليس في الدنيا ولي ، بل
كان لم يسلف لنا ولي في الأمة المحمدية ، وأثرت له رحمه الله كرامات عديدة ،
وقد شاهدت بعضها في سفر كشمير إذ تشرفت بالمزاملة ، ولا نطول الكلام
بذكرها فإنه لا اعتداد لها عندي كثيراً بإزاء تلك الكرامات العلمية والعرفانية ،
ما هي فروع للولاية المعنوية ، وماذا يكون قدر للخوارق بجنب غوامض التقوى
ومعارف الحشية الإلهية ، ما هو برهان ساطع على المنزلة السامية والمكانة
العلیاء من الولاية المحمدية .

ومن أكبر كراماته عندي ما وصفته من حصول الرغبة إلى الله بزورة
محياء ، وتأثير مجلسه وصحبته ، وسائر أحواله المتواردة من القيام والقعود والصمت
والفكر والوعظ والدرس وغيرها في القلوب تأثيراً عجيباً ، هذا ، والله يقول
الحق وهو يهدي السبيل ، وكان رحمه الله كثير الأدب مع العلماء والسلف ،
محتاطاً في التعقبات عليهم غاية الاحتياط ، مراعيّاً لهم غاية الأدب حتى أول
ما أراد أن يناقش الحافظ ابن حجر العسقلاني في غزوة ذات الرقاع حيث
اختار ما ذهب إليه الإمام البخاري من أنها وقعت بعد غزوة خيبر ، مكث
نحو أربعة أشهر يفكر في أنه : هل يجوز لي المناقشة معه؟ وهل يسوغ لي التعقب
عليه ، حتى ألقى في قلبه جوازها له ، وقد سمعت عن بعض الأصدقاء دامت
عواطفهم (١) : إني سمعت عن الشيخ رحمه الله لما اضطربت فيه ذهبت إلى

(١) هو صديقي المحترم مولانا فضل الرحمن الفاضل الفشاوري ثم الكابلي المقيم
اليوم بدھلي . منه .

ضريح الإمام الرباني قطب الشريعة والحقيقة مجدد الألف الثاني مولانا الشيخ أحمد النقشبندی السرهندی قدس الله سره ، فكنت أتوجه مراقباً إلى روحه الشريف في ذلك حتى أذن لي ، سبحانه الله هذا حال أدبه مع أكابر الأئمة والسلف الصالح .

قال الشيخ رحمه الله : فكتبت أوراقاً في التعقب عليه في هذا المقام ، ثم صار ديدني التعقبات والإستدراكات على جميع الأعيان والأعلام ، فلم أغادر أحداً إلا ولى تعقبات على أبحاثهم يقبلها سليم الذوق صحيح الوجدان إن شاء الله تعالى ، ومع هذا فكان ينبه الطلبة تنبيهها على أدب علماء الأمة ، ويقول : إياكم والمناقشات والتعقبات على هؤلاء الأئمة ، فليست أهليتها فيكم ، فاعرفوا فضلهم وقدرهم ، واعرفوا أنفسكم ، هذا وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين .

مقالة تاريخية في مآثر الشيخ رحمه الله لمولانا الفاضل محمد يوسف الكامل فوري دام فضله (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وبعد ، فلا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد : أن علم الحديث من أشرف علوم الإسلام ، كثير الأنواع والأفنان ، غزير الأقسام والأغصان ، وهو مدار العلوم

(١) كنت اقترحت منه ان يقيّد شيئاً من سوانح هدى الشيخ وسير حياته الطيبة فاجاب لمقترحي دام فضله وارسل مكتوباً يحتوى على تلك المقالة في مآثر الشيخ رحمه الله قيد شواردها بغاية ارتجال واقتضاب ، ونجن ندرجها بنصه رمتها بكل مسرة وحبور بجميل الشناء له ، وقد وصل مكتوبه هذا بعد ما فرغت من الابحاث السالفه فكانت مقالته هذه لبنه ملات الفراغ والمؤمل ان ينشرها الله تعالى . منه .

الإسلامية ، تفسيرها وفقهها وكلامها ، وهو أجدى من تفاريق العصا ،
وكل الصيد فى جوف الفرا ، وقام له عباد موفقون من هذه الأمة ، وانتهضوا
له كل انتهاز ، فشرقوا وغربوا ، وأشأموا وأيمنوا ، وغاروا وانجدوا ،
وتركوا الأوطان لنيل أشرف الأوطار ، وقطعوا البلاد ونقبوها فى استقراء
الحديث ، حتى كان الرجل يقطع مسيرة شهر أو شهرين لطلب حديث
واحد ، وكان مناله عنده أحلى من حمر النعم ، وأوقع فى قلبه من ماء الحياة
وسوابع النعم ، وكان قصارى مقاصدهم وحمادى مطالبهم أن ينالوا سنداً
عالياً وبيتاً خالياً ، ولا يخفى على كل أريب لبيب أن تواتر الإسناد فى الدين
عطية الله أكرم بها هذه الأمة ، ولو لا الإسناد لقال المحرفون ماشاءوا ،
كما وقع فى دين اليهود والنصارى ، فكانوا شرّاً أخلاف لأسلافهم ، وكان
أول من انتهض لهذه الأمانة القرن الأول المشهود لها بالخير ، وهم أصحاب
محمد ﷺ ، الذين قال فيهم ابن مسعود رضى الله عنه : « من كان منكم
متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإنهم أبر هذه الأمة قلوباً ، وأعمقهم
علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً » ، قوم اختارهم الله
لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوا فى آثارهم ،
فإنهم ورب الكعبة على الهدى المستقيم . وأكثر الصحابة رواية أبوهريرة
رضى الله عنه ، كان يغتنم صحبة النبي ﷺ على شبع بطنه ، والناس يصفقون
فى الأسواق ، ففاز بدعوته عليه الصلاة والسلام حين أسره ببسط رداءه ،
فدعا له ثم أمره أن يضمه إلى صدره ، فما نسى بعده شيئاً . وسيدة النساء
عائشة رضى الله عنها أم المؤمنين أعلم من دبّت ودرجت من النساء على ظهر
الأرض ، فاقت على كثير من الرجال بفقهِ الحديث والحكمة اليمانية ، حتى

استفتى منها كبار الصحابة في مهمات الأمور ، فبها لها من شرفٍ وافتخار .
ومنهم عبد الله بن مسعود ، صاحب الوسادة والنعالين ، صاحب رسول الله ﷺ والمختص به وحلس بيته ، حتى عد من أهل بيته ، شب على هديه وسمته ودله ، وتخلق بأخلاقه رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وقام مقامهم فى الهدى والإرشاد من اتبعوهم بإحسان ، حتى ضرب الدين بالجران ، وقام فى الأرض واستوى ، ولم تر عين السماء قرناً كهذا القرن فى الأمم الخالية ، إذ كان الدين مستوياً فى بهجته واعتلائه .

وسادة هذا القرن وأئمتهم : سعيد بن المسيب ، وابن سيرين ، ونافع وغيرهم . فلما قضوا نحبهم سد مسدهم تبع التابعين ، كمالك بن أنس إمام دار الهجرة ، وسفيان الثورى ، وأبى حنيفة ، والأوزاعى ، ومن عاصرهم من أعيان هذه الأمة وأركان الحديث ، حتى إن جاء الإمام الشافعى أمير المؤمنين فى فقه الحديث ، وصاحبه الإمام أحمد بن حنبل ، والبخارى ، ومسلم ابن الحجاج القشيرى ، وعلى بن المدينى ، ويحيى بن سعيد القطان وغيرهم ، فأطبقوا الأرض علماً ورشداً ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، وسارت الركبان بمفاخرهم ، وحذى الحادون بآثرهم ، وكان طلب الحديث فى أولئك الأيام غاية كل شرفٍ ومتمنى كل عز وفخار ، وتغلغل هذا الشوق فى جذر قلوبهم ، فكأنهم مفتطرون عليه ، وغذوا بلبانه ، وكانوا إذا سمعوا نزول محدث من بلد غريب طاروا إليه زمراً تتبعهم زمر ، وكان يجتمع فى مجلس إمام القاضى الحسين بن اسماعيل المحاملى ببغداد عشرة آلاف من أصحاب الخابر وحمة الحديث ، وقيل : إن البخارى سمع منه "جامعه الصحيح" تسعون ألفاً من رجال الحديث ، ثم جاء بعدهم أبو الحسن الدار قطنى ، والحاكم النيسابورى ، والخطيب البغدادى الجود فى التصانيف ، والبيهقى صاحب "السنن" ، وابن حزم صاحب "المحل" ، وابن دقيق العيد صاحب

”الإمام“ الخواص في معاني الأخبار بما لم يستطعه الأوائل ، وابن قدامة صاحب ”المغنى“ ، والبغوى صاحب ”شرح السنة“ ، وابن عبد البر صاحب ”التمهيد“ و ”الإستذكار“ ، وغيرهم من أعلام الأمة ، فتجردوا لخدمة علوم الحديث ، وصنفوا في كل فن فن منه ، وكانوا أسوة لكل من أتى من بعدهم واهتدى بدلائلهم من خلفهم :

إن المكارم بالمكاره * والمغانم بالمغارم

حتى انتهى سيادة العلم وشرفه الباذخ العالى إلى الحافظ الحجة الرحلة راوية العصر وبقيمة الدهر نابغة الزمان ونادرة الأوان ، الثقة الثبت المسند والقدوة العلم المفرد أبى الفضل ابن حجر العسقلانى ، ولم ير عديله حفظاً وتيقظاً في بسطة الأرض ، وكانت أويقاته معمورة بمهارة فيها ، وصنف مصنفات غاية في المتانة والإتقان ، ودرة نظامها ”فتح البارى شرح صحيح البخارى“ ، فهذا كوثر من خيره الجارى ، فأدنى به ديناً كان على ذمة هذه الأمة ، فجزاه الله خير الجزاء ، وكان سلف هذه الأمة معجزة تعجز كل الورى في كثرة التصانيف ، حتى أعجز كل من سلف من خلف . وهذا الحافظ ابن عساكر الدمشقى ألف ”تاريخ دمشق“ في ثمانين مجلداً فضلاً عن غيره من التصانيف ، وكانوا كما قلت :

وهم قدوة الأمجاد غر أكارم * بهم قام دين الله في الأرض واستوى

وأولئك الأعلام أشرقت أنوار علومهم وبيدور فيوضهم على الممالك الإسلامية ، وكانت الهند عاطلة من تلك الحلى ، معجدة مقفرة ، وكان أهلها في معرض عن الحديث حتى إن دخل الإمام حسن بن محمد بن حسن الصفغانى من طريق كابل إلى بلاد الهند ، وكان حافظاً لغوياً ، فلما تولى من الهند خلّف كتابه ”مشارك الأنوار“ أثراً بعد عين ، فاشتغل أهل الهند بكتابه ، وقدم

قبله الشيخ اسمعيل، وتوطن لاهور، ثم لما توسعت مملكة سلاطين الهند إلى سواحل الهند فدخل في بلاد الهند كثير من المحدثين من طريق البحر، حتى حان عصر الشيخ على المتقى وصاحبه محمد بن طاهر الفتى، وبعده الشيخ عبدالحق الدهلوى رحمهم الله، فكانوا من ناصرى علوم الحديث وحاملى ألوية هذا العلم، حتى أن تنشأ إمام النهضة العلمية الحديثة في الهند ومديرها ومدارها الشيخ أحمد ولى الله الدهلوى، فإنه قد فجر أنهار هذا العلم شرقاً وغرباً، فشدت إليه الرحال، وقام على قدم كالطود أرسى وأرسخ، وحمى حمى الدين بعلمه وتصانيفه البديعة النظام، كـ ”حجة الله البالغة“ و ”إزالة الخفاء“ و ”الخير الكثير“، وهو منتهى الإسناد فى ديار الهند، فلاححت أنوار الهدى، واعتلى الدين على ذروة العلى، وإن شئت حقاً وآثرت صدقاً فإن الهند لم تلد فيها والدته مثل الأحمدين، أحدهما من الدهلى، والآخر الشيخ أحمد السرهندي مجدد الألف الثانى، تنشأ فى زمان شاعت فيها البدع والفتن والرفض، فجدد معالم الدين وشعائر الإيمان، جزاهما الله إحساناً بإحسان. وقام بعد الشاه ولى الله الدهلوى أولاده وحفدته الكرام لخدمة الهدى المحمدى سيفاً وسناناً وقلماً ولساناً وسنةً وقرآناً، وكثر فى أصحابهم العلم والفضل حتى مضت برهة من الزمان وتسلطت النصرارى على بلاد الهند، فطغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد، وماجت الفتن وعمت البلايا، وتفرقت طوائف فى الإسلام، وانتحلوا ببدع اتخذوها ديناً، وقل أنصار الإسلام، وصار غريباً كما بدأ، فانتخب الله لتلك المهمة العظيمة من أبصر بنور الله من صدق فراسته، وقام لنصرة الإسلام وحمى حوزة خير الأديان، وذب عن حياضه مولانا محمد قاسم النانوتوى، وشيخ الحديث مسند الوقت مولانا رشيد أحمد الكنكوهى قدس الله أسرارهما، وكانا شريكى عنان ورضيعى لبنان وخليلى صفاء، فأحسا عاقبة هذه الداهية العمياء التى تجبى فى الهند خبط عشواء، وكانا مؤيدين بنصر الله، فهجس فى خواطرهما أن يغرس غراس العلم على هيئة

مدرسة العلوم بديوبند ، حماية للإسلام ومحافضة للملة ، فطاوعهما على هذا خيار هذا العصر ، فطالت شجرتيهما وسمقت ، وأينعت ثمارها وذلت قطوفها لكل دان وقاصٍ ، وتخرج منها رجال أى رجال حماة الدين وحملة الشريعة الغراء ، حتى نبغ نابغة هذا الزمان وراوية هذا العصر والأوان ، آية من آياته الكبرى ، وبينه من بيناته العظمى ، أعلم من أطلته الحضراء وأقلته الغبراء ، أخير ناف على الأوائل ، جميل المحيا جم المكارم وكريم الشائل الحجة الرحلة القدوة طود من العلم راسخ ، وجبل من الحلم شامخ ، شيخ الإسلام مولانا الشاه السيد محمد أنور الكشميرى نور الله ضريحه وسقته الغواذى والسوارى من قد جمع إلى الدين الحنيفى العلم الحنفى والحلم الأحنفى أصدق لهجة كأبى ذر ، وكان شعاره : ” قل الحق وإلا فذر “ ، ولو رآه أبو حنيفة لتجمل به :

هذا الذى باهت الدنيا بعزته	هذا هو الآخر السامى على الأول
مفطورة فيه أخلاق الكرام فلا	يحتاج فيها إلى التهذيب بالعمل
فى الخلق والكسب بون إذ جرى مثل	ليس التكمحل فى العينين كالكحل

وكان منبت ذلك الغصن النامى ، وأصل ذلك الفرع السامى من بلاد ” كشمير “ من أرومة المجد وجرثومة الفضل من بيت طاهر ، روى حديث المجد متواتراً متصلاً كبراً عن كابرٍ وهمام عن همام ، وكيف ؟ ولا ينبت النضار إلا من معادنه ، ولا يوجد الشرف الأعلى والحسب الأسمى إلا فى موطنه . اشتغل بالعلوم فى بلاد كشمير أولاً ، ثم ارتحل إلى بلاد الهند ، فحط رحله بديوبند عند مسند الوقت مولانا محمود الحسن قدس سره ، يقتبس من علومه النخب ، وكان من صفوة أصحابه حتى أن توفاه الله ، فكانت وفاته ثلثة فى الدين ، فكان شيخنا لبنة سدت تلك الثلثة ، وتصدى لإعادة رواء العلم ، حتى صارت رياض الدين أخصب وأمرع ، وأدى ما عنده من أمانة الله

وأفاض ، وماجت بحار فيوضه حتى غزر العلم وفاض وغار ذكره وأنجد
وأذعن لفضله كل حبر أجد ، فشدت إليه الرحال من كل فج عميق ، وسار
حديث مجده سير الأمثال وهو به حقيق :

وزاد به الدين الحنيفي رفعة وشاد دروس العلم بعد دروسها
وأحيى موات العلم منه بهمة يلوح على الإسلام نور شمسها

وكان يجرى على طراز الأولين في تحقيق الحديث ، وكان بحاجة نقادة
للحديث ، لم يكن فوق أديم الأرض أعلم منه قرآناً وحديثاً وفقهاً وكلاماً ولغةً
وعربيةً وتصوفاً ، وكان حاذقاً في علوم المعقول بأنواعها ، وكان يحض
أصحابه على مطالعة كتب فحول الحفاظ وشرح الحديث ، وكان كلمة الحكمة
ضالته ، فاستفاد منه رجال لا يحصيهم العدد ، واستفاض منه فحول عصره في
الفتاوى والمشكلات ، فاغتنب العلماء بحاله وجروا على محجته ، فازدادوا
تحقيقاً ومطالعةً للحديث ، وتركوا الجمود فارتقوا إلى ذروة العلي ، فكان
خاتم المحدثين في الهند وإمام هذه النشأة العلمية الحديثية فيها ، وكان الناس
قبيل هذا العصر يكتفون بأدنى الحظ في الحديث ، وكان غاية سعيهم أنهم
إذا اطلعوا على حديث يخالف مذهب واحد من أئمة الاجتهاد تصدوا لتأويله
من دون أن يستقروا طرق ذلك الحديث وما في طرقه من الاختلاف ، وكان
باب التحقيق عليهم مسدوداً ، فمن الله على الهند بنهضته ، فهداهم إلى علوم
الحديث ، وكيف يردون ويصدرون ، فانتبه من كان موقفاً للسعادة بدلالته
ولا يهتدي للخير إلا خير ، ومن أهم خدماته في الدين الإنصاف لدين الله عند
الفتنة العمياء التي انبعثت من أرض القاديان من فنجاب ، فتصدى رجل
فدعا : أنه نبي أعطى شريعة ، وانتشر دعاة دعواه في أكناف الأرض كجراد
منتشر ، فكان هذا مصيبة عظيمة للدين وأهله ، وقام لنصر دين الله حينئذ

خيار عباد الله من خيار العلماء ، ومن بذل جهده في إطفاء تلك النائرة قلماً
ولساناً وتحريراً وبياناً شيخنا المنعوت ذكره ، وكان ذا وجاهة عظمى عند الله
وعند العلماء ، ونبه كل من كانت له أذنان وعينان تبصران ، وحث علماء
زمانهم أن يتجردوا لدفع تلك الفتن ، وقام ولم ينخش إلا الله ، وصنف كتباً
عديدة ، وصنف أصحابه ، وحث أهل البلدتين ” لاهور ” و ” امرتسر ”
علماءهم وأمرأهم ، وأنهضهم لهذه المدافعة ، فأفحموا الزنادقة وألقموهم
حجراً قلماً ولساناً ، وكان ممن قال ﷺ في حقه : يحمل هذا العلم عن كل
خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، فضى على
هذا برهة من الدهر يروى كثره المعالم من خيره الجارى ، حتى استعفى من
دار العلوم الديوبندية لوجوه ، فاستدعى منه كثير من أهل المدارس أن ينحاز
إليهم فلم يقبل منهم وانحاز إلى ” جامعة تعليم الدين ” بقرية ” دابيل ” ، من
من مضافات ” سورت ” ، وكان انخيازه غاية شرف لأهل تلك البقعة ، وكانت
تلك الديار محطاً للمحدثين في سالف الأزمان ، فأشرفت تلك المعاهد بوروده ،
فقام لنشر السنة يدور مع السنة حيث دارت ، فاستفاض من هديه وسمته أهل
تلك النواحي ، فحازوا أعلام المكارم وغايات المآثر ، وصنف الشيخ في هذا
الزمان رسائل عديدة بعضها انطبعت وبعضها لم تنطبع ، ونضر الله امرءاً قام
لنشر مصنفاته المختارة ، فتكون له منة على المسلمين ، وجرى الأيام على هذا
إلى أن هجم عليه الأمراض فعاد إلى مسكنه بلدة ديوبند فناده الرضوان والنعيم
المقيم واشتاق إليه الجنان ، فتولى إلى الملاء الأعلى ، فبكت عليه السماء والأرض
وأظلمت الأرض بعد ما أشرقت ، فضى ولم يخلف على آثاره مثله ، اللهم أكرم
نزله ، وأنزله جنات عدن وأعظم أجرنا بعده ، ووفقنا للسنة والسادات ،
وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا محمد وآله الأجداد والسلام . هذه عجالة ما
قدرت عليه مع اشتغال القلب وقلة الفرص ، فإن رضيتُم فيها وإلا فهو من

سقط المتاع“ . انهى مكتوبه السامى .

الشيخ وثناء أمائل العصر عليه .

أحاول أن أذكر شيئاً من ثناء أمائل العصر على الشيخ رحمه الله ليُعرف نباهته ووجاهته من لم يقدر على معرفته بمناقبه السامية التي سبق الإيمان إليها ، والله در القائل :

وإن هولم يحمل على النفس ضيمها * فليس إلى حسن الثناء سبيل

رأى الجهبذ المحقق أستاذ العالم مولانا محمود الحسن
الديوبندى الملقب بـ ”شيخ الهند“ قدس سره .

شاهدت في سند الإجازة ما كتبه العارف المحقق شيخ العالم مولانا محمود الحسن رحمه الله لشيخنا رحمه الله :

”إن الله قد جمع له العلم ، والعمل ، والسيرة ، والصورة ،

والورع ، والزهد ، والرأى الصائب ، والذهن الثاقب“ .

ولعله كانت فيه كلمات أخرى لا أحفظها ، وناهيك من رأيه في حقه ما عامل معه فجعله خليفة له في التدريس ورئاسة المشيخة في دار العلوم الديوبندية كما سلف منا ، وربما كان يشعر عن رأيه في بعض المشكلات ويسأله عن أقوال السلف في بعض المهمات فكثيراً يزتاح له شيخه إذا أجاب ، وربما كان شيخه يرى رأياً في بعض المسائل خلاف ما عليه الجمهور ، فشأخنا كان يؤيده بقول من سبق ، فيسر شيخه جداً .

ولتعلم أن هذه كلمات ممن لم يكن دأبه التكلف ولا الإطراء في المدح ، وكان حبراً عميق العلم أبر القلب ، فلا تقسها بمبالغات المطرين وتخمينات المجازفين ، وليكن منك على ذكر أنه قال في حقه هذه الكلمات ، وكان الشيخ

شاباً يافعاً لم تنبغ فضائله ، ولا بزغت في العالم جواهره ، فما ظنك بشأنه الباهر في آخر أطوار حياته الطيبة ؟ فهذا حاله في البداية ، فإذا يكون شأنه في النهاية ؟ وقد سبق مني قول القائل :

تناهت علاء والشباب ردائها * فما ظنكم بالفضل والرأس أشيب

رأى الشيخ العارف الفقيه المحقق المبرز في العلوم قاطبة حكيم الأمة مولانا أشرف على التهانوى ، أكبر مؤلف العالم الإسلامي ، طالت حياته الطيبة .

كان الشيخ العارف حكيم الأمة مولانا أشرف على التهانوى (رح) يسأل الشيخ رحمه الله فيما أشكل عليه من معضلات الفقه أو الحديث وغيرهما ، وعندى كتاب له مكتوب بيده الشريفة : سئل الشيخ رحمه الله في معضلة وعقدة تعسر عليه انحلالها ، والكتاب طويل لا حاجة لنا في سرد جميعه فنكتفى بإقتباس فاتحة كتابه وخاتمته بلفظه مع ترجمته بالعربية ، لينجلي للناظرين رأيه في حق الشيخ رحمه الله .

نص كتابه باللغة الأردوية

ترجمته باللغة العربية

”ازنا کاره آواره اشرف علی عفی عنه
بخدمت با برکت جامع الفضائل العلمیہ
والعملیہ حضرت مولانا سید انور شاہ
صاحب - دامت انوارہم ، السلام علیکم
ورحمۃ اللہ ، تحقیق سابق کے متعلق
بضرورت مکرر تکلیف دینا پڑی امید ہے
کہ معاف فرمائیں گے ، ایک حادثہ خود
مجھ کو پیش آیا آسکے متعلق جداگانہ
تکلیف دینا ہوں الخ (وقال فی خاتمته)
اسمیں روایت یا درایت سے کچھ حکم
فرمائیں ۔“

”من الأحقر أشرف على عفى عنه إلى
حضرة المحترم جامع الفضائل العلمية
والعملية حضرة مولانا السيد أنور شاه
دامت أنوارهم ، السلام عليكم ورحمة الله ،
دعت الضرورة إلى أن نراجع إليكم
ثانياً فيما يتعلق بالتحقيق السابق ، وقعت
واقعة مما يتعلق بنفسى ولذا كلفتكم مرة
أخرى على حدة ، فارجوا العموالح . وقال
في خاتمته : فأفتونا في هذه المعضلة إما
من الرواية وإما بالدراية اهـ“

وسمعت من العالم الحافظ السيد عطاء الله شاه البخارى خادماً الملة الإسلامية طالت حياته (١): إني سمعت من حضرة الشيخ التهانوى طال بقاءه أنه كان يقول: "ومن آيات حقيقة دين الإسلام عندى وجود الشيخ الأنور فى الأمة المسلمة، فإنه لو كان فى دين الإسلام شئ من العوج والأود لم يبق الشيخ الأنور على دين الإسلام"، سبحان الله؟ تأمل هذا القول من هذا الشيخ فى حقه، ثم تأمل، وكفى لك دليلاً على رجاحة عقله ورزانة طبعه وإصابة فكره وصلاح فطرته، فهذا رأى أكبر علماء عصره فى عقله، وذلك فى علمه فذقه، ومن لم يذق لم يدرك.

والله محقق العصر الحاضر الحبر النحرير المفسر الحاذق والمحدث الجيهنذ مولانا الشيخ شبير أحمد، صاحب "فتح الملهم شرح صحيح مسلم" شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية بدابيل (سورت).

قال العلامة الحبر المفسر الحاذق والمحدث الناقد البصير شيخنا ومولانا الشيخ شبير أحمد العثمانى أطل الله بقاءه فى "فتح الملهم شرح صحيح مسلم" (٢):

(١) فلما عرضت الكتاب على الشيخ العلامة شبير أحمد العثمانى فهش لذلك وقال: سمعت أيضاً هذا من حضرة حكيم الأمة شفاهاً ولكن فيما سمعته زيادة وعى أنه شاع فى بعض الجرائد عن بعض المستشرقين أنه من دلائل حقيقة دين الإسلام وكونه ديناً سماوياً وملة حنيفية وجود الامام الغزالى فى الإسلام، ولو كان فى الإسلام شئ من العوج لكان من المجال أن يبقى مثل الغزالى علماً. ثم قال حكيم الأمة بعد نقل هذا الكلام: وعندى وجود مثل مولانا الشيخ محمد انور فى الأمة المسلمة دليل من دلائل حقانية الإسلام. ثم سمعته من ارشد خلفاء الشيخ حكيم الأمة التهانوى الشيخ المفتى محمد احسن رحمه الله أيضاً، فاذن كلام الشيخ التهانوى بلغنى من هؤلاء الثقات الاثبات رحمهم الله جميعاً. منه.

سألت الشيخ العلامة التقي النقي الذي لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه ، ولو كان في سالف الزمان لكان له شأن في طبقة أهل العلم عظيم ، وهو سيدنا ومولانا الأنور الكشميري أطال الله بقاءه عن : تفسير أوائل "سورة النجم" ، وتحقيق رؤية النبي ﷺ ربه ؟ فقرر الشيخ تقريراً حسناً بليغاً جامعاً لأشئات الروايات وأطراف الكلام منبهاً على أغوار القرآن ، فالتمست منه أن يقيده بالكتاب لتعم الفائدة ، فاستجاب للتمسنى ، وعلى الله أجره مع وجود الشواغل الكثيرة ، وهذا نص ما كتبه بقلمه متعنا الله بطول حياته .

وأيضاً قال أطال بقاءه في تقريره على تأليف الشيخ "إكفار الملحدين" :

"الشيخ العلامة الجليل فقيد المثيل في زمانه وعديم العديل في أوانه ، بقية السلف وحجة الخلف ، البحر المواجه والسراج الوهاج ، الذي لم تر العيون مثله في العهد الحاضر ، ولم ير هو مثل نفسه ، قد رزقه الله تعالى من العلم والنهى والفقه والتقى الحظ الأوفر ، وهو سيدنا ومولانا الشيخ الأنور ، مد الله ظله على رؤس المسترشدين والمتعلمين اهـ" .

وسمعت منه أطال الله بقاءه في بعض الحفلات : "أن موت الشيخ الأنور عندي من أشراط الساعة ، فإنه كان أهلاً للأمانة الإلهية" .

لطيفة بديعة : أقول : ومن العجائب والعجائب جملة أن تلك الكلمة الفريدة البديعة : "لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه" التي قالها شيخنا المحقق العثماني في حق شيخنا إمام العصر أصدق كلمة دار معها الصدق حيث دارت حيث صدقت أينما وقعت ، وقعت في محلها فيما أستحضره من كتب التراجم والطبقات ، فدونك من محالها وشاهد حسننها في محالها ، حيث تبدى من جمالها رافلة متبخترة في أذيالها ، فأول من قيلت فيه هو الشيخ عثمان بن سعيد

الدارمي ، قالها فيه أبو الفضل الفرات ، كما في ” اجتماع الجيوش الإسلامية “ لابن القيم ، ثم العارف المحدث المحقق الأستاذ أبو القاسم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ هجرية صاحب ” الرسالة “ ، ولا غرو فإنه مع وجوده في العصر المحتفل بجمال العلم وبحاره كان أجمع رجل في العلم الظاهر والباطن والورع والتقوى والمعارف الشرعية والحقائق الكونية .

ثم قيلت في الإمام حجة الإسلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥ هجرية : ولا ريب أنه لم تر العيون مثله في جمع علم الشريعة والطريقة والقدم الراسخ في علوم القوم مع الذكاء المفرط وحل المشكلات وإفهام العضلات ببيان رائق معجب وتقرير بارع مطرب .

ثم الإمام المحقق الفقيه المحدث موفق الدين عبد الله بن قدامة الحنبلي صاحب ” المغني “ توفي سنة ٦٨٢ هجرية . قال ابن حاجب المالكي : لم تر العيون مثله ولم ير هو مثل نفسه ، وقد صدق حيث كان إماماً محققاً في مذاهب علماء الأمة ، بصيراً على مأخذها بتخريج وتنقيح وتحقيق مع مزاياه الوافرة من الورع والصلاح والتقوى وغيرها .

ثم الإمام تقي الدين أبو الفتح محمد بن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هجرية ، قال الإمام أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمرى : لم تر العيون مثله ، وقد أصاب فيه حيث لم تر العيون مثله . حافظاً دقيق النظر ، متقناً للحديث في استنباط الفوائد والأسرار الدقيقة . قال الشاه عبد العزيز الحجة الدهلوي في ” بستان المحدثين “ : لم يجر مثله من عهد الصحابة إلى عصره في بيان معاني متون الحديث واستخراج فوائدها بتدقيق حتى استنبط أربع مائة فائدة من حديث البراء بن عازب : « أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع الخ » بنهج أنيق فما شرح نبذة من كتابه ” الإمام “ ، هذا مع جمعه بين

الورع والزهد والكشف والكرامات والحوارق .

ثم قيل مثله في حق شيخ الإسلام ونادرة الأيام أبي العباس الحافظ أحمد ابن تيمية الحراني الذي توفي سنة ٧٢٨ هجرية . وقد أصاب المري فإنه لم ير له نظير في الاستبحار والاستحضار في سائر العلوم من الرواية والدراية والإطلاع الواسع المدهش على مذاهب السلف والخلف والجرأة وقوة الجنان، بيد أن استعجاله وظن رأيه كالوحي السماوي ، نقص قدره السامي في قلوب المعاصرين ومن بعده من كثير من العلماء ، وصدق ما قيل فيه : ” غلب علمه عقله “ ، وأعدل كلمة فيه ما قال شيخنا هذا المترجم له : ” إنه بحر ذاخر لكنه يقول ولا يسمع “ (إبنى گنتے ہیں دوسرے کی نہیں سنتے) وكان يقول : ” غير حاذق في العربية والفقه والمعتول “ .

وقال الشيخ الحافظ شمس الدين الذهبي شافعي المذهب حنبلي المعتقد في شيخه الحافظ أبي الحجاج المزى الشافعي محدث الشام المتوفى سنة ٧٤٢ هجرية : ” لم تر العيون مثله “ ، وقد أصاب الغرض فإنه كان نظير نفسه في علم الحديث ورجاله ، ثم قيل في حق الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هجرية : ولا ريب فإنه كان وحيداً في عصره في سعة الإطلاع على الحديث والخبرة الواسعة بمعرفة الرجال والعلل والأوهام مع براعته في صناعة التأليف وقوة عارضته في الإنشاء والعربية والشعر وما إلى ذلك . رحمهم الله أجمعين ورحمنا ببركة أرواحهم القدسية في الدنيا والدين آمين . هذا وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وبارك وسلم .

والهي المحدث البارع الفقيه المفسر مولانا حسين أحمد

المهاجر المدني شيخ الحديث بدار العلوم الديوبندية .

قال الشيخ المحدث الفقيه العارف مولانا حسين أحمد المدني في حفلة

تأبین کبریٰ انعقدت بدیوبند بعد وفاة الشيخ رحمه الله فيما بلغني عن الثقات: ”لم أرمثله في الاستبحار والإحاطة بسائر العاوم النقلية والعقلية بالهند ولا بالحجاز والعراق والشام، مع أني رأيت ولاقيت أعظم رجال هذه البلاد وعلماءها وفضلاءها.“

والشیخ الفاضل المحقق مفتی الدیار الہندیہ، ورئيس إدارة جمعية العلماء الإسلامية الفقيه المحدث العلامة مولانا محمد کفایت اللہ الدہلوی أدام اللہ فیوضہ .

قال الشيخ المحقق مفتی الدیار الہندیہ المحدث الجہد العلامة محمد کفایت اللہ فيما أشاعه في جريدة ”الجمعية“ عند وفاته رحمه الله، لسابع صفر سنة ۱۳۵۲ هجرية وأول يونيو سنة ۱۹۳۳ الميلادي بقلمه ما نصه مع تعريبه:

يا للأسف! قد اختلست عنا القدرة الإلهية إلى كنف رحمته العلامة الفاضل أكمل الكملاء أفضل الفضلاء النحرير المقدم والبحر الطمطم رحلة العصر وقدوة الدهر أستاذ الأساتذة ورئيس الجهابذة المحدث الوحيد والمفسر الفريد الفقيه الإمام ماهر العلوم النقلية والعقلية مولانا السيد محمد أنور شاه قدس سره، لا ريب أن وفاة الشيخ وفاة أكمل عالم رباني في العهد الحاضر لا يرتجى له المثل في الغابر وقد اعترف علماء عصره قاطبة بكمال فضله وورعه وتقواه وتبحره الجامع في العلوم واستغناءه عن الخلق (ثقة بالحق) حتى أذعن له كل ودود وحاسد.

آه قدرت کے زبردست ہاتھ نے حضرت مولانا العلامة الفاضل اکمل العلماء افضل الفضلاء النحرير المقدم، البحر الطمطم رحلة العصر، قدوة الدهر استاذ الاساتذة رئيس الجهابذة محدث وحيد، مفسر فريد فقيه يكانه ماهر العلوم النقلية والعقلية مولانا سيد محمد انور شاه قدس سره کو آغوش رحمت میں کھینچ لیا اور ہم سے ظاہری طور پر ہمیشہ کے لئے جدا کر دیا (الی ان قال): حضرت شاہ صاحب کی وفات بلا شبہ وقت حاضر کے کامل ترین عالم ربانی کی وفات ہے جن کی نظیر مستقبل میں متوقع نہیں، طبقہ علماء میں حضرت شاہ صاحب کا تبجرو کمال فضل و ورع و تقویٰ جامعیت، استغناء مسلم تھا، موافق و مخالف ان کے سامنے تسلیم و انقیاد سے گردن جھکاتا تھا۔

وأيضاً قال في حفلة تأبين انعقدت بدهلي ما تعريبه : ” قد ارتحل عنا
إمام العلماء الربانيين المحدث الكامل والفقيه المفسر جهيد سائر العلوم النقلية
والعقلية في بلاد الهند بل في العالم الإسلامي حضرة الفضيلة سيدنا ومولانا الشاه
محمد أنور الكشميري ، صدر شيوخ دارالعلوم الديوبندية ، ثم شيخ الحديث
بالجامعة الإسلامية بدابيل ”سورت“ . وفاة الشيخ ملحة كبرى لسائر الأمة
المسلمة في أقطار العالم ، يا أسفى ! حرم المسلمون اليوم في الظاهر عن بركات
إمام رباني ذي صفات قدسية ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، رحمه الله ورضي عنه“
وقرأت في خطاب له إلى صديقنا القارى محمد يامين (المرحوم) : ”إنه لم يمت
ولكن مات العلم والعلماء ، فإنه رحمه الله كان إماماً أمة اه“ .

واللهي الخبر الذكي المحقق الجهد اللوذعي تاج الأدباء مولانا حبيب
الرحمن العثماني الديوبندي ، مدير دارالعلوم الديوبندية رحمه الله .

قال الجهد الأديب العلامة الشيخ حبيب الرحمن الديوبندي رحمه الله مقرظاً
على رسالة للشيخ رحمه الله : ” ومن قام لدمغ هذه الفتنة وقمع أباطيل هؤلاء
المردة الطغاة الدين ليسوا في عداد فرق المسلمين — يعني الفتنة المرزائية —
وتحقيق مسألة تكفير الملحدين والمتأولين من أهل القبلة الشيخ الثقة الورع التقى
الحافظ الحجة المفسر المحدث الفقيه المتبحر في العلوم العقلية والنقلية رافع لواء
التحقيق في المسائل الغامضة المهمة مولانا الشاه محمد أنور صدر المدرسين في
دارالعلوم بدوبند حرسها الله وحماها ، فصنف رسالةً جمع فيها وأوعى الخ .
وبلغني أنه كان يقول : ” الشيخ رحمه الله مكتبة عظيمة حيّة ناطقة “ (چلتا پھرتا
کتب خانہ) ، وذلك لكثرة علمه واستحضاره ، وقد صدق فإنه كان لا يحتاج
أحد في تحقيق مشكل عند وجوده إلى مراجعة الكتب ، وقريب منه ما بلغني

عن الفقيه المحدث العارف مولانا السيد أصغر حسين الديوبندى شيخ ” سنن
أبي داؤد “ بدار العلوم : ” إذا أشكل على مسألة في الفقه فأتفقده الكتب
لحلها في مكتبة دار العلوم العظيمة باستقراء بالغ ، فإن فزت وإلا أراجع الشيخ
رحمه الله ، فإن بينها وأحال على كتاب فذاك وإن قال : لم أرها في الكتب فأتيقن
أنه لا يوجد في كتاب فلا أتعب النفس بعده في تفقدها من الكتب ، (فإن
الشيخ لم يغادر كتاباً إلا وأحاط به علماً) .

رأى المتبصر الحبير المؤرخ الفاضل العلامة السيد سليمان الندوى .

قال العلامة الفاضل السيد سليمان الندوى مدير مجلة ” المعارف “ ما نصه :
” مرحوم کی مثال اس سمندر جیسی ہے جس کے اوپر کی سطح ساکن ہو اور اندر
کی گہرائیاں گرائندر موتیوں سے معمور ہوں “ .

یعنی : مثال الشيخ رحمه الله كبجر محيط ترى أعلاه هادئاً ودركه الزاخر
مشحوناً بدرر غالية الأثمان .

فهذه كلمات هؤلاء الأكابر وأماثل العصر، هداة الملة وأساتها، وزعماء الأمة
ورعاتها في حق هذا الشيخ البارع الحائز للمناقب العلمية ، والفائز بالمناصب
العملية المتحلى بالماثر الباهرة ، والمتجلى بالمفاخر الزاهرة ، وناهيك بها قدوة
وأسوة . وبالجمله كان الشيخ رحمه الله سراجاً وهاجاً ، سحاباً هاطلاً ، وغيثاً
وابلاً ، علماً مفرداً ، ورحلة مسنداً ، فقيه النفس محقق علماء الملة الإسلامية ،
خاض الدقائق وغاص الحقائق ، بث الجواهر والدرر ، ولد المسامع والنواظر ،
لقد نفع الأمة بعلومه ، وأحيى علوم الحديث بعد ما كادت أن تندرس ، وكان
مجدد طريقتيه العذراء في درس الحديث ، بذر في قلوب العلماء بذور تحقيق
المشكلات ، وحل الغوامض والمبهات ، وأنشأ في قلوبهم شغفاً وولوعاً بالقرآن
والسنة وعالومهما ، فرضى الله عنه وأرضاه ، وجازاه خير ما يحازى عباده المقربين

في جنات النعيم .

وما يتفوه به بعض الجهلة الحاسدين أو المتعاندین المتجاهلين من : أنه كانت عنده المعلومات الصرفة والاطلاع الواسع والنقول المتكاثرة ، ولم يكن عنده دقة النظر وغور الفكر ، فهو ظلم عظيم في حق هذا الإمام البارع من كان ابن دقيق العيد في الأمة الحاضرة ، ومنشأ هذا القول إما جهل مفرط بحال الشيخ رحمه الله وهو آفة العقل ، أو عناد بواح وهو آفة الديانة ، نعم إن معرفة التبصر وسعة الإطلاع أمر بديهي جلي يعرفه كل أحد ممن له أدنى ذوق بالعلم ، ومن له علم يكتب القوم بادی الرأي ، وإما مسابرة غور الفكر ومعرفة دقة النظر ، فهذا أمر لا يقوم بإدراكه إلا الخذاق من الأعيان والجهابذة من الأعلام ، وقد سردنا كلمات الجهابذة بين يديك ، فمن عرف مثل معرفتهم أو جرب مثل تجربتهم لشهد طوعاً أو كرهاً بمثل ما صدعوا به على رؤس الأشهاد وأعین الناس ، ولم يكن له عنه محيد ولا مناص . هذا وقد قال الإمام محمد بن يحيى : ” الغزالي لا يعرف فضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله “ . وقال الشيخ التاج السبكي في ” طبقاته “ بعد نقله : ” وأقول : لا بد مع تمام العقل من مداواة مرتبته في العلم لمرتبة الآخر ، وحينئذ فلا يعرف أحد ممن جاء بعد الغزالي قدر الغزالي ولا مقدار علم الغزالي ، إذ لم يجد بعده مثله ، ثم المداني له إنما يعرف قدره بقدر ما عنده لا بقدر ما عند الغزالي في نفسه “ . وقال : ” لا يعرف قدر الشخص في العلم إلا من ساواه في رتبته وخالطه مع ذلك “ إلى آخر ما قال رحمه الله تعالى ، فراجع إن شئت . وقد صدق من قال :

إنما يقدر الكرام كريم * ويقيم الرجال وزن الرجال

ولكن الحسد يعمل العجائب ، فيعمى البصر والبصيرة ، وما يستوى الأعمى

والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ، والله در أبى الأسود الدؤلى التابعى حيث قال ::

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
وترى اللبيب محسداً لم يحترم شتم الرجال وعرضه مشنوم
وكذاك من عظمت عليه نعمة حساده سيف عليه صروم

فهذا شيخ الهند وإمامه أثنى عليه بما أثنى ، وهذا حكيم الأمة الشيخ التهانوى خاطبه بما خاطبه ، وهذا محقق العصر العلامة العثماني رأى فيه ما رأى ، وهذا الجيهنزي المصري تأثر منه ما تأثر ، فهل بعد ذلك مساغ للمنصف البصير ؟ أو مجال للنقاد الحبير ؟ علا أن الشيخ رحمه الله فى ذلك أسوة من قبله من العلماء وأفراد الأمة ، فلا جرم يقال فيه كما قيل فيهم ، فهذا إمام الدين والدنيا فقيه الأمة المحمدية ، أبو حنيفة النعمان رحمه الله ، قيل فيه ما قيل ، وهذا الإمام مالك رحمه الله قال فيه ابن أبى ذئب ما قال ، وهذا الإمام محمد بن إدريس الشافعى قال فيه ابن معين ما قال ، وهذا الإمام حجة الإسلام الغزالى ، وقع فيه المغاربة حتى أذكى المغاربة الإمام المازرى ، ولم يكتبوا بالطعن بل أخرجوه من دائرة الإسلام ، وهذا شيخ الطريقة وقطب الحقيقة غوث الثقلين عبد القادر الجيلانى قدس سره قال فيه ابن الجوزى ما قال ، حتى التضميل والإكفار ، وهذا بحر الحقائق والمعارف الشيخ الأكبر محى الدين ابن العربى الطائى الأندلسى قال فيه الحافظ ابن تيمية ما قال ، وكذا تلميذه الحافظ ابن القيم ، وغيرهم من أفراد علماء الأمة وأفذاذها . والعجب أن هذا طعن العلماء ، فكيف يشتكى من الجهال ؟ نعم أتأسف تأسفاً ما لا أكاد أطيعه من الذين تزىوا بزي العلم والدرس والتأليف ، ينتحلون من مقالات الشيخ ويسرقون من رسائله ، ويتنبهون لما أخذوا المشكلات من مؤلفاته ، ثم يحملون ذكره ويتجاهلون قدره ، وكان كما قيل :

أحشك وتروثني ، فيأكلونه بضرس ويطؤونه بظائف ، فالعناد والحسد داء أعيا
الأطباء دواءه ، قد سرى اليوم في قلوب العلماء فأفسد عليهم العلم والديانة
إلا من شاء الله ، وقليل ما هم ، وخالات الناس بالدهناء قليلية ، ولكن
صدق من قال :

وفي تعبٍ من يحسد الشمس نورها * ويجهد أن يأتى لها بضريب

فهم يريدون إطفاء نور الشمس بالأفواه ، ولم يتحصلوا إلا على إتعاب
الشفاه ، ومن جعل أنفه في قفاه ولم يبلغ من البحر إلا شفاه ، فن السوء
أن يفتح فاه ، فهداهم الله وإيانا بفضله وكرمه ، والله يهدي من يشاء إلى
صراط مستقيم ، وصلى الله تعالى على إمام الخير وقائد الخير ورسول الرحمة
سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين .

عبرات على مله وفات الشيخ . وفاة الشيخ ومراثي
فضلاء العصر واصحابه . ختام الرسالة ومعدرة
للجامع .

عبرات هامة وحسرات فاجعة ونظرة مستأنفة على تلك المآثر السامية وفذلكة للشئون الماضية .

فيا أيها الناظر الدارى والذكى الوارى ، لعلك علمت مما بثناه لك في هذه
الورقات من نبذة من مآثر الشيخ رحمه الله أن الشيخ رحمه الله صار عليه المدار
في الأمة الحاضرة في حل المشكلات والخوض في الحقائق العالية والصدع
بالمعارف الغامضة ، فكان إماماً في علوم القرآن ومعارف السنة ، بجرأ في
فنون الحديث ، غير أنه لم يكن له ساحل ، وصل إلى غاية قاصية في مدارك
الفقه ، وإلى أمد أقصى في مذاهب علماء الأمة الحمديّة ، لا يلحق غباره
ولا يدرك شأوه في العلوم العربية ، ولم يكن له منتهى في العلوم الحكيمية
والفنون الفلسفية ، كان خبيراً بنجايها وزواياها ، كاشفاً حقائقها عن أباطيلها
ببصيرة نافذة ومعرفة راسخة . وكان ذا حظ عظيم من معارف الصوفية وعوارفها ،
وذا ذوق صحيح من مواجيدهم المضمونة وأذواقهم العالية ، وذا بصيرة نافذة
بإشاراتهم اللطيفة ، وذا خبرة تامة وعلم حافل بالطبقات والرجال والتاريخ ،
وكان معدناً للطائف المحاضرات وطرف الأمثال وذخائر الأشعار العربية
والفارسية ، وكان ذا قلب كئيب ونفس صبور على مضايق الدهر . وبالجملة
لم يكن تحت أديم السماء أوسع علماً منه بعهدده فيما نعلم قرآناً وسنةً ، وفقهاً

وكلاماً ، وتاريخاً وأدباً ، ولم يكن تحت هذه الخضراء أعرف منه بالمزايا العلمية والمشكلات الخفية ، ولم يكن فوق بسيط الساهرة الغبراء أجمع رجل منه فيما نرى ، علماً وورعاً ، وزهداً وتقوى ، وحسن صورة وبهاء منظر مؤنق ، واعتدال قامه رائقة ، ونظافة طبع ، ونقاء سريرة ، وذكاة ذهن ، وبديهة مطاوعة . فكان (وسبحان الله) أكمل إنسان جمالاً وكمالاً علماً وفضلاً ، خالقاً وخالقاً ، هدياً وسمتاً ، لم نر مثله ولم يرهو مثل نفسه ، فكان لكل مزية باهرة زعيمها وأميرها ، ولكل كلمة زاهرة حكيمها وظهيرها ، وكان كما قيل :

فبأبما قدم سعيت إلى العلى * أدم الهلال لأخصيك حذاء

فكان رحمه الله غاية وآية ، لم يكن واحداً بل أمة .

لو لا بدائع صنع الله ما نبئت * تلك الفضائل في عظم ولا عصب

وناهيك شهادة بما شهد بمعالیه الباهرة التي بلغ فيها إلى المراتب القصية أكبر علماء العصر وأجلة معاصريه ، مع أنه قيل أن المعاصرة أصل المنافرة ، نعم لم ينبج منها على شاكلة نظرائه الغابرين في الديار على تعاقب الأدوار والأعصار ، ولكن يكون جرى المذاكي غالباً وغلاء ، أما الزبد فيذهب جفاءً ، ووضع له القبول في الأرض أينما سار . ودار في الطول والعرض ، أو أنجد وغار في عال وخفض ، وأما ما ينفع الناس فيمكن في الأرض ، نعم لأمر ما يسود من يسود ، ويعطى الله من يشاء ، فهو الرحيم الودود ، وانظر ، فهل ترى في كبار علماء الأمة وأعظم رجال الملة من جمع بين العلوم الدينية الإسلامية والعلوم الفلسفية والعقلية ، وبلغوا في الجميع شأواً بعيداً سواء بسواء إلا أفراداً معدودة أقل عدداً ، فكمن من عالم عظيم جليل تراه في شعبة دون ما يكون في الأخرى ، واعتبر بما سلف من الأفراد . فهذا حجة الإسلام

الغزالي البحر المغدق ، وهذا فخر الدين خطيب الري المحقق ، وهذا الشريف المحقق الجرجاني ، وهذا الشيخ العلامة التفتازاني ، أنظر درجتهم في علوم الحديث ، وهؤلاء أعلام المحدثين من الحفاظ الخطابي والحافظ القرطبي والحافظ الذهبي والحافظ أبي الحجاج المزي ، أنظر إلى منازلهم في المعقول والكلام ، فالجامعون شمل الأضداد ، والآخذون بمجامع العلوم العقلية والنقلية تراه كقطرات من بحار زاخرة ، مثل الشيخ أبي بكر الباقلاني ، وقيل فيه : بحر مغرق . وابن فورك ، وقيل فيه : صل مطرق ، والإسفرائيني وقيل فيه : نار تحرق ، وكإمام الحرمين وعارف الأندلس ابن العربي ، والحافظ ابن تيمية الحراني ، وابن القيم ، وكحجة الأمة الشاه ولي الله الدهلوي ، وابنه الحجة الشيخ عبدالعزيز الدهلوي بالهند رحمهم الله تعالى أجمعين . فالشيخ الأنور رحمه الله ضريب من أضراب هؤلاء الأعلام أفذاذ الإسلام ، تبدوا مثاله بعد قرون في أقطار البسيطة رحمة من الله تعالى على الأمة المحمدية عند افتقارها واضطرارها ، فرحمه الله ورحمهم وكثر أمثالهم .

فيا حسرتي ويا أسفى ! رفعت عن أيدينا تلك الأمانة الإلهية ، وارتحل عنا هذا الإمام الجليل الحائز لتلك المناقب الجليلة التي تأخذ بمجامع القلوب فطبق المفصل في كل ما حاول . وأراد وأصاب الخبز في جميع ما يحاول ويراد ، يتراءى اليوم هذه المآثر أعز من الأبلق العقوق وأغرب من بيض الأنوق ، فموت مثل هذا الإمام في مثل هذا العصر المجذب الذي لا يرتجى أن تخفق رأيات العلم على أمثاله داهية كبرى وأمر جليل ، لم تستغن الأمة عن نظرائه في العصور الخضبة الرائقة والأيام الخضبة المؤنقة ، فكيف في الأعصر الممحلة التي لا مطمع بها للدفعة من غادية أو سارية أو رشحة من صيب مدرار ؟ فيا للأسف ، خطب مفضغ غشى الأمة المحمدية ، ورزء فادح جليل ما له من زوال ، وانفتاق في قصر العلم الشامخ واسع ما يحال له ارتفاق وانصداع ماله

انشعاب ، فلا جرم تصدعت به قلوب وانشقت به أكباد ، فأى ملمة مفظعة تكون أدهى منها ؟ وأية رزية مدقعة كارثة تكون أكبر منها ؟ لقد عظمت تلك الرزية الفاجعة وجلت ، وكان كما قال هو نفسه رحمه الله :

نبأ عظيم ساءهم إذ جاءهم ودها النفوس ملمة ظلماء
تركت عباداً لا حراك لديهم أخذت بلاداً أزمة دهباء
أخذ النفوس قديمها وحديثها والصدر غم والنفوس بكاء

فمن لمعارف القرآن ومزايا الحديث ؟ ومن لغوامض الأخبار ونكات التحديث ؟ ومن لأسرار الفقه وفقه الحديث ؟ ، هبت العواصف على مغاني الأخبار (١) ، وطارت أم غارت معاني الآثار ، من لسرد الحسان والصحيح ؟ ومن للصدع عن السقام والصحيح ؟ ومن لنقد الرواة على محك الأثبات ؟ ومن لوزن الرجال بميزان الاعتدال ؟ وأين الأحوذى للطائف الترمذى ؟ وأين ” إرشاد السارى ” لمسالك البخارى بفتح البارى ؟ وممن يرتجى اليوم الإستدكار لمذاهب علماء الأمصار بالرأى الصحيح وصحيح الاستبصار ؟ ومن يوطأ لنا اليوم التمهيد لمعاني المسانيد ولطائف الأسانيد ؟ ومن لهداية القوم إلى بدائع الفقه الجامع وفوائده ؟ ومن لكشف أسرار علم الأصول وتحرير مستصفاه ، وإيضاح منهاجه وإعلاء مناره ؟ ومن لأسرار بلاغة القرآن ودلائل إعجازه ؟ ومن لتحجير التحرير والتقرير بنهاية إيجازه وحسن طرازه ؟ ومن لجمع جوامع النحو وقواعد الأدب ؟ ومن للساحنة ” بشذور الذهب ”

(١) صدعت بمآثر الشيخ مورياً بها إلى اسفار جمه تبلى إلى نحو أربعين سفيراً وها تيك الكتب فريدة في بابها اشير بها إلى تفرد الشيخ بها وإلى تفرد في اكابر معاصريه كما هي فريدة في مواضعها ولذا جاء تخصيص تلك الكتب ، وايضا اشارة إلى اهمية العلوم التى الفت فيها تلك الزبر الشريفة ، وكأنه لم يعتن بجنبها بغيرها من العلوم ، وراعت فيها غيرها من المحاسن اللغوية والمعنوية ” يقدرها البصير ان شاء الله تعالى . منه .

واستفادة شوارد "لسان العرب" ؟ ومن لاستخراج الدقائق من كلام سيديويه
وكتابه ؟ ومن للاشتقاق من "جمهرة علم اللغة" والغوص في "قاموسه"
و "عبابه" ، ومن لنظم الدرر في سلك الأشعار وسمط الفقر ، كأنها عقود
الجمان أو يواقيت وجواهر ومرجان ؟ أين الحقائق التي كانت تحير الألباب
والعثول ؟ ، أين المعارف التي تطمئن بها النفوس وتقربها الأعين وتنشرح
بها الصدور ؟ فهذه الحصائص السامية كانت غرةً لجبين كماله ودرة التاج لهام
مجده ، طارت بها عنقاء مغرب ، هل تحس منها من عين أو تعلم له أثراً ؟
فلا أدري على أي فضيلة أندب وأرثي ؟ وعلى أي منقبة أرفع عقيرتي فأبكي ؟
فأتجرع غصصاً وأشرق بنوارف السدموع ، ونار الحزن تتوقد في حنايا
الضلوع :

أذاقني زمني بلوى شرقت بها * لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

فاستفناً سعي الوجد وضرام الألم بهوامع السلوان وغروب العبرات ،
واستطفأ لواعج العمد بنفثات الحشرات والزفرات :

دموع أجابت داعي الحزن همع * توصل منا عن قلوب تقطع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازماً * فأصبح يدعى حازماً حين يجزع

فهل في النادي من يرثي لنا في هذه النوادي (١) ، ويأوى لنا مجلبة
للغزاء ، أو تفيض دموعاً حارةً لانفثاء لوعات البرحاء :

وإن شقائي عبرة مهراقة * فهل عند رسم دارس من معول

نعم يبكيه العالم الإسلامي عالمه وجاهله ، صغيره وكبيره ، جليله وحقيقه
بل الساهرة والسموات العلى ، ومن يشوى فيها من الملائ الأعلى ؟ وهو القائل

في رثاء شيخه :

بكته سماء ثم أرض كلاهما * وعين وقلب قاسياه فأجمعا

وهو القائل :

بكيت إماماً أو ولياً بربه * وإن شئت حقاً فالفضائل أجمعا

وهو القائل :

يحاوئني جار ودار على البكى * ولم أر إلا باكياً ثم موضعاً

قد وصل إلى الرفيق الأعلى ، وحال على ذلك حولان فصاعداً ، ولكن
لواعج الكمد مضطربة ، وتباريح الوجد غير منصرفة ، حيث لم يترك لنا خلفه ،
ومن يسد مسده ويمأأ الفراغ ؟ ولو كان لكان أشقى للهبب الشجو ، وأذهب
للوعات الجوى ، ولطاب العيش وساغ ، ولكن انثلم الصرح انثلاماً لا يرجى
أن يرم ويحصن ، يا للأسف ! قضية ولا أبا حسن لها ، وصدق القائل :

فجائع الدهر أنواع متنوعة	وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها	وما لما حل بالإسلام سلوان
تبكى الحنيفة البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الألف هيمان

نعم إذا حلت المقادير بطلت التدابير ، وإذا جاء الحين حارت العين ،
هذه سنة الله خلعت في عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، على هذا أبرم
قضاؤه وسبق قدره ، فإله من انفصام :

على ذا مضى الناس اجتماعاً وفرقة * وميت ومولود وقال ووامق

فإلى الله الموئل والمفرع ، وعليه التكلان فيما سيكون وما كان ، وأتعزى

بما قاله لبيد العامري رضى الله عنه :

بليسا وما تبلى النجوم الطوالع
وقد كنت في أكناف دار مضمنة
فلا جزع إن فرّق الدهر بيننا
وما المرء إلا كالشهاب وضوئه
وما المرء إلا مضممرات من التقى
وما الناس إلا عاملان فعامل
فمنهم سعيد أخذ بنصيبه
فلا تبعدن أن المنية موعد
أعاذر ما يدريك إلا تظنينا
أنجزع مما أحدث الدهر بالفتى
لعمرك ما تدرى الضوارب بالخصى

وأتسلى بما قاله الشيخ رحمه الله في مرثية :

سبحان من حقت له العلياء
صلح البقاء لوجهه وجلاله
بقضائه خير الأمور وضيرها
خشعت لهيبته الجبال وطأطأت
وصفاته سبحانه وجلاله
كتب الفناء على البرية كلها
قدر له جارٍ وأمر نافذ

فرحمه الله ورضى عنه وأرضاه ، وتغمده الله بغفرانه وجعل له ما عنده
خيراً من الدنيا ومن عليها ، وسقى ضريحه الأنور بغواذى رحمته وسواري
بركاته ، وجعل روحه الطيبة مخففة بالألطف الخفة العذبة ، وقبره الشريف

محتفياً بالأنوار الإلهية ، ووقفنا بالناسى بآثار هدايته ، ونفعنا بمحبته فى الأولى والأخرى ، وأناسى تعزيةً بكلمات من كتاب مولانا ونبينا وسيدنا محمد ﷺ إلى معاذ عند موت ابنه ، كما رواه الطبرانى فى " الكبير " و " الأوسط " عن معاذ فأقول : « أعظم الله لنا الأجر وأهملنا الصبر ورزقنا الشكر ، فإن أنفسنا وأهلنا من مواهب الله الهنيئة وعواريه المستودعة ، وإن الجزع لا يرد ميتاً ولا يدفع حزناً وما هو نازل فقد كان ، وبما عزي سيدنا الخضر عليه السلام صحابة رسول الله ﷺ بقوله : إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفنا من كل هالك ، وعوضاً من كل ما فات ، فإلى الله فأنيبوا ، وإليه فارغبوا ، فإنما المصاب من لم يجبره الثواب » . رواه الطبرانى فى " الأوسط " عن أنس رضى الله عنه ، كذا فى " جمع الفوائد " . هذا وصلى الله تعالى أوفى صلوات وأزكاها وأكمل تسليمات وأولاها على إمام الأنبياء وصاحب اللواء فى المحشر ، وآله الأطهر وصحابته الأخيار إلى يوم القرار .

وكنيت قلت فى رسالتى " بغية الأريب فى مسائل القبلة والمحارب " مبدئاً أسفى وحزنى على رزية وفاة الشيخ رحمه الله فلا بأس أن أتخف به الطلبة فقلت :

" ثم كانت فوق كل ذلك الطامة الكبرى التى دهتنا من موت شيخنا وشيخ شيوخنا صاحب المآثر الباهرة والمفاخر الزاخرة ، ذى الآيات البينات ، والأحاديث المتواترات ، سيدنا وسندنا الشيخ الإمام مولانا إمام العصر محمد أنور شاه الكشميرى شيخ الحديث بدار العلوم الديوبندية ، ثم الجامعة الإسلامية (بدابهيل سورت) فأهتتنا كل شئ وأنستنا ، حتى كادت تتصدع القلوب وتنشق الأكباد ، فكان إماماً فى الحقائق والمعارف لا يجارى ، وقطباً للعلماء والمشائخ فى حل الدقائق والعوارف لا يبارى ، كان إماماً حجة فى علوم القرآن ، ومسنداً ثبناً فى علوم الحديث بغاية الإتقان ، وكان مداراً فى كشف معارفها

وإيضاح لطائفها ، حافظاً متقناً لمذاهب علماء الأمة مع تخاريجها بتنقيح وتحقيق ،
أحاط بالعلوم العقلية والفنون الحكمية الحديثة والقديمة قاطبة بالرأى الصائب
والإجتهاد البالغ .

وكان نقيب العلوم العربية وأديب فنون الحوار الأدبية ، غواصاً في
الدقائق خواصاً في الحقائق ، فكم من معارف هو أبو عذرتها ، وكم من عوارف
هو ابن بجدتها ، وكم من لطائف كلم قد أبدعها ، وكم من شرائف حكم قد
اخترعها ، وحق أن يتمثل له بما قيل :

وإني وإن كنت الأخير زمانه * لآت بما لم تستطعه الأوائل

وكان تقوى الله وخشيته له شعاراً ، والورع والزهد وإتباع السنة النبوية
له دثاراً ، نشأ في بيت التقوى والزهد في أعدل الأقاليم مجبولاً على الفطرة
السليمة والصلاح الفطري والقلب السليم ، ففاز بأعدل الطبائع في أعدل أقاليم
الأرض ، وغذى بلبان العلم والحكمة ، وربى في حجر أمناء الله على عباده في
الأرض ، ثم قاده التوفيق الإلهي والفيض الرباني إلى اكتساب سائر المآثر
العلمية والعرفانية بغاية الوجد والهيام ، ويسر له الوسائل والأسباب كيف
ما شاء ، ورام فترعرع شاباً نقيماً تقيماً زاهداً ورعاً ، إماماً في العلوم والمعارف ،
بارعاً حتى صار رحلة في الأفطار لشرح مشكل الآثار ، ومسنداً راوية
لحقائق شرح معاني الآثار ، ومنتهى الأخبار ، يضيق نطاق المجال عن إحصاء
فواضله وفضائله وخصائصه ومزاياه ، وكيف لا ؟ وقد تنضرت بقاع الهند
بل أقطاع البسيطة من رشحات وابله وحياه .

فمضى وقد أبقى مآثره * ومن الرجال معمر الذكر

فنال من علوم التفسير وعلوم الحديث الثريا ، وبلغ في العربية الغاية
القصوى ، ووصل في العلوم الحكمية مكانة متميزة ، وكان في علوم

الحقائق على أمد بعيد ، ومن علوم البلاغة على طرف شاسع . وبالجملة كان إماماً في التفسير ، إماماً في الحديث ، إماماً في الأصول ، إماماً في الفروع ، إماماً في العلوم العقلية ، إماماً في العربية وعلوم البلاغة ، إماماً في الرجال والطبقات والتاريخ ، فرداً وحيداً في جودة نظمه وحلاوة نثره ، كان نظمه لآلى منظومة ، ونثره درار منثورة ، ومع هذا الحسن الباطني والبهاء آثره الله بحال معجب ينحدر من محياه النور ، تشرق أسارير جبهته كالبرق المتهلل ، فكان ذا خلق بهيج كريم ووقار راسخ وسمت حسن وخلق عظيم ، ولقد صدق القائل :

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم في واحد

وكان كما قيل :

ولو أن ثوباً حيك من نسج تسعة * وعشرين حرفاً في علاه قصير

كنت أريد أن أعرض تأليني هذا على حضرته ، حيث أنه باكورة مؤلفاتي وأنا في الثالثة والعشرين من عمري ، فأني تدرب الفكرة ، وغور التفكير ونضج التحقيق ، ما يحتاج إليه أمثال هذه المواضيع التي لا تخلو عن صعوبة ودقة ، وأضف إلى ذلك عدم تيسر الكتب التي تستنير منها أرجاؤها القائمة ، وكانت طويتي ترقب ذلك الحين السعيد ، وترتجي ابتهاجاً ، وكانت نفسي تتمنى به دعواته المباركة الطيبة ، رجاء أن تهب على نسائم من قبوله ، ولكن بالأسف ما كل ما يتمنى المرء يدركه ، ما كنت أدري أن القدر المبرم لم يقدر لي ذلك الإبتهاج وتلك الفرصة المغتزمة ، التي طالما يودها القلب ويتمناها . وما كنت أدري أن القضاء الإلهي قبض لي بذلك الحبور ، ألما بفراق الشيخ قبل تبيين نص الرسالة ألماً يتقطع له قلبي ، ويتفتت له كبدي ، ألماً لا تكاد تقاوم نفسي الجلدة حملته الشعواء ، ألماً تنبثق منه خفوني دموعاً سخينة بل دماً نجيعاً ، وتذوب

نفسى منه حسرات ، يا للخرن الفادح ، ويا للرزينة والفجيرة عزيز على نفسى
أن تنعى إمامها وشيخها ، الذى اكتست حلل الحياة ، وحلى النور من مواهب
رشحاته ، وعزيز على قلمى أن ينعى إلى العالم إمام العصر الذى انفجرت عيون
ثرة من علومه برهة من الدهر ، ثم تغيب ولا تندى بقطرة من ماء .

سبحان الله الكبير ، طويت تلك الروح القدسية والنفس الذكية إلى عالم
الغيب كبرق يطوى فى مكان السحب المتراكمة ، يا للرزاء الجليل والخطب
القادح ، ذهب المثل الأسمى لعلوم الشريعة ، والغاية القصوى من التحقيقات
الرصينة التى طالما بقيت العقول فيها حيارى لا تهتدى إلى سبيل .

فارقت عنا تلك الشخصية الوحيدة فى غرائرها وملكاتهما ، من الورع
والتقوى والزهد والكفاف والعفاف والصبر والرضا ، ذلك المثل الصحيح
والمثل الحى لشاغل القدماء البارعين ، فى سعة العلم ودقة النظر ، والحافظة
الحارقة فى الترن الحاضر ، ذلك المثل الكامل للوقار والرزانة والمتانة والرصانة ،
ذلك المثل الصادق لأولياء الله الصفوة من عباده ، فى صدق اللهجة والعفة
والحياء وخشية الله جل ذكره .

فلم يكن موته أمراً هيئاً ، بل كان أمراً جليلاً وخطيباً أدهى ، ثلثة فى
العلم ومآثر المجد والكمال لا يرجى سدادها .

وكل ثلم فإن الدهر يجبره * وما لثلم مهيب العلم جبران

كان رحمه الله سليم القلب ، زكى النفس ، ذكى الطبع ، من أسرة معروفة
فى الفضل والكمال من بيت العلم والتقوى ، صلباً بعد صلب ، وبيتاً بعد بيت ،
رزق طبيعة نزاعة إلى الخلوة والوحدة ، نفوراً عن التنويه بشأنه ومنزلته ،
وبعد الفراغ من المبادئ والعلوم الضرورية ، تسنى له شيوخ ذوى علوم فياضة
وأولى حقائق ناضجة .

ونشاطاً في الرق إلى معارج العلم الراقية ، غير مقتنع بالأبحاث المطروقة ،
فهكذا توفرت له الدواعي ، وتيسرت له الأسباب ، من شرف الأسرة ،
وكمال البيئة ، وعلو الطبيعة ، وأتيحت له الفرصة وجرى بذلك القدر الأزلي
فأصبح فذاً أفذاذ ، وواحد الآحاد ، ما تسمح القرون بأمثاله إلا بعد أحقاب
من الدهر طويلة . ألا فلتجمد العين إذا لم تدمع على مثله ، وألا فليتهجر
القلب إذا لم يذب حزناً ممضاً على مثله ، فلتنقطع نفسى حزناً وألماً بدلاً مما
كانت ترجو سروراً وابتهاجا على رغمها فقد خاب أملها ، وانقطع رجاؤها
وأصبحت كما قال هو نفسه رحمه الله :

فقدت به قلبي وصبري وحيلى * ولم ألق إلا ريب دهر تصرما

فشخص عني هذا العالم الكبير بل العالم الكبير الحائز لهذه المآثر الجليلة
وأبقانا على ضرام الحسرة ندرف دموعاً حارة لاستفتاء نار البرحاء .

ولكن هذه سنة الله القديمة خلت في عباده ، فلا نقول إلا ما يرضى به
ربنا تبارك وتعالى ، وننأسى بما قاله رسول الله ﷺ ، فنقول : العين تدمع والقلب
يحزن وإنا بفراقك يا شيخ لحزونون ، فرحمه الله تعالى وأكرمه بنفحات أنسه ،
وأفاض عليه شآبيب قدسه ، ونفعنا بعلومه وبركاته ، ولا يخرمنا أجر ما نلنا
بوفاته هذا .

بشرى ورؤيا بوفاة الشيخ رحمه الله .

كان كتب إلى صديقنا الكريم مولانا محمد يوسف الكامل فوري ذلك
الأديب البارع كتاباً في صفر سنة ١٣٥٦ هجرية ، وفيه :

”ذكر لي صديقي المولوى عبد الواحد بن أخى المولوى عبد العزيز :

أنه رأى في بعض الليالي جنازة يشيعه المخلوق من كل جانب ، وتتبعها
زمر ، فسعيت إليها مثل ما يسعى الناس إليها فسأل بعض من حضر :

من صاحب هذه الجنازة ؟ فقالوا : هي جنازة رسول الله ﷺ يحملها الناس على أعناقهم تشرفاً وتبركاً ، فقلت : دعوني دعوني أحملها وأرى وجه صاحبها الميمون ، فوضعوها على الأرض ، فابتدرت إليها الناس ، فكشفت عن وجهه المبارك ، فإذا هو وجه شيخنا الأنور ، رضى الله عنه .

والمولوى عبد الواحد عندى ثقة ثبت سليم دواعى الصدور اهـ .

وفاة الشيخ وراث أفاضل العصر وأصحابه .

لما كانت داهية وفاة الشيخ حادثة لا تقابل بالصموت ، وكيف ؟ وقد صدعت أكباداً وحركت أحشاءً من أصحابه وتلامذته ، ومن عداهم من أمثال العصر وأفاضله ، فزعزعتهم وأزعجتهم وأفاضت عيونهم ، وكيف لا ؟ وبعض الشر أقطع من بعض ، فأبدوا عويلهم وحنينهم حزناً بفراقه واستيحاشاً لفقد أنسه ، فبكوه ورثوه بقصائد رنانة بالعربية والفارسية والأردوية تزعج القلوب وتثير الأحزان ، فكانت تلك عبرات دمعت بها عيونهم ، وزفرات نفثت بها صدورهم ، عيون عرفت فذرفت ، وقلوب قدرت فزفرت ، لست أحاول أن أسرد جميع مراثيه المزججة الحنانية ، وأنى تتيسر ؟ فإنه أمر خطير يفتقر إلى جزء مفرز ، علا أن أكثرها قد شاعت في الجرائد الهندية وذاعت ، غير أنى أذكر منها النزر القليل ما لم يفرغ في قالب الطبع إلا اليسير ، تسلياً للأفئدة العميدة ، وإطفاءً لهيام الأكباد الملتهبية ، هذا مع أن استنكار هذا الصنيع مما يستنكره الطبائع السليمة ، بل يعافه الذوق الصحيح ، كيف ؟ وإن الأذواق الصحيحة العالية مولعة بأمثال هذه الفوائد العلمية واللطائف الأدبية ، وإنما وضعت رسالتى هذه لطلبة العلم وأصحاب الأدب والنهى ، فدع العوراء تخطئوك ، وذرههم وشأنهم ، فما أراح بها قلبك ،

ونفس بها عن كرب ضاق بها صدرك ، والله المستعان .

نقطة من لامية الرثاء: للمحدث الأديب الشيخ الورع الزاهد مولانا محمد ادريس الكاندهلوى صاحب "التعليق الصبيح على مشكوة المصابيح" وغيره ، من أصحاب الشيخ رحمه الله زادت معاليه .

سلام على حفظ الكتاب وسنة	وحفظ وضبط بعد شيخ مبجل
أريد به نور الهداية أنوراً	كبدر مبین فی دجی الليل أليلاً
فقد كان إعجازاً لدين نبينا	كمثل البخارى أو كنحو ابن حنبل
وكان إماماً حافظاً ومحدثاً	إليه انتهى شد المطايا وأرحل
وقد كان فرداً حافظ العصر جامعا	معارف أعلام الهدى والتفضل
بكي عالم الإسلام طراً وأعولاً	لخطب جليل قد أناخ بمنزل
بكاه مقام الدرس والوعظ حاسراً	بكته نواحي الأرض والفلك العلى
فقد كان رحماً سمهرياً مثقفاً	لمثل مسيح القاديان المخبل
وأبيض هندياً لكل مسلم	وكل مناخ في نبوة مرسل
توفيت يا رأس التقى وتركتنى	لفقدك أرويه بدمع مسلسل
شرحت لنا الآثار إذ هي أشكلت	وفسرت آيات الكتاب المفصل
وعطرافق الأرض من عرفك الشدى	يبارى شذاه روح مسك ومنديل
عليك سلام الله يا قبر أنور	ورحمته ترى كودق مجلجل
بفضلك يا مولى الورى قل لروحه	أيا روح عبدى هذه الجنة أدخل

هَرُثِيَّةٌ : للفاضل الأديب والعالم الأريب مولانا السيد ميرك شاه الكشميري
دام مجده ، أستاذ ”دار العلوم الديوبندية“ سابقا .

سقى الله رمسا فيه بدر منور
من الديم المدرار ما ذر شارق
قرارة بحر العلم أم رمس أنور
وقد كان دهرأ مشرق الأرض وجهها
وأحبي قلوبا والمعارف بالحجى
تغلغل فى أعماق ما لم يصل إلى
حسب غريب طالعا طاب شرقه
أضاءت به الآفاق إذ كان يزهر
عهاداً تروى غيشه ويخضر
قدس محيط القدس أم هو جوهر
فراح يضئ بطن الثرى وينور
كأحياء وسمى رياضاً تنضر
سطوح له جهيز دهر يحبر
وتلفيه مهديا إذا ما يغور

هـ ۱۲۹۲

كريم إذا ما زرت زرت زائراً
وراوية الآثار مسند قرنه
مفسر آيات الكتاب مبينا
محدث عصر ما أتى بمثاله
عميق أنيق غائر لا ترى له
وإن جثته ترتاد نقل مسائل
وإن جثته ترتاد حفظ رواية
ففى جانب أخبار ست وجانب
وفى جانب آثارهم وعلومهم
يسمى لك الأسماء تسمية الذى
فيا ليتنى لم أستمع لنعيه
فيا عين بكى شرق شمس وغربها
له در عرفان يموج ويندر
وشيوخ شيوخ القوم والأمر أظهر
بيانا وتبياناً يفوق ويهـر
وبحر خضم للعلوم ومصدر
شطوطا وغوراً وإنهاء يبصر
تجد موج بحر عبه قام يزخر
ترعك كنوز من حديث يترتر (۱)
أحاديث ما دون الصحاح يخبر
وفى جانب أسماؤهم وتذاكر
رأهم وسماهم وصاحب ينظر
ويا ليتنى لم تعفـره مقابر
وجودى بدمع سيله متواتر

أبعد دفين بالمصلى يرى الورى
وحياك رب الناس يا خير مرقد
وأكرمك الرحمن يا خير وافد
قضيت أموراً كان صعباً منالها
فيا فخر هند ثم ديبند مرقداً
عليك سلام الله ما عاش عاش
ورحمته روى ضريحك خالداً
جبال علوم سؤلهم أين أنور
ضممت كريماً مجدة ليس ينكر
على ذروة الغفران والرب غافر
فذلّت لك الصعبات والصعب أيسر
يباهى بك الكشمير ثمت نزور (١)
وما دارت الأفلاك أو نار نير
هتؤن به يهتز نجم وعبر

فونية الرثاء: لصديقنا الفاضل المحترم الأديب البارع العالم الفارع مولانا
محمد يوسف الكاملفورى دام فضله

خطب ألم فأسبلت أجفاني
خطب أجل أناخ من حدثان
هم غواربه مقلقلة الحشا
صمت به الآذان ثم تصدعت
هم مقيم لا يزال أخو هوى
نزلت على الإسلام كل فجيرة
ففن على فتن كليل مظلم
أمسى غريباً فى الديار كما بدا
من موت من قد كان أعلم عصره
نبكى إمام الحق مولانا الذى
حكم بمانية فقدت معينها
مولى الأنام وغرة الأيام
و النائبات مثيرة أشجاني
بالمسلمين و ملة الإيمان
ألقت على كوارث الحدثان
أكبادهم بفؤادح الأحزان
يعنى به إذ بالسهام رمانى
يخشى تتابعها كثر جمان
طرقت عليه ما لهن يدان
من موت من هو حامل القرآن
شيخ الحديث وصاحب الإتيقان
ورث النبى وعلمه الربانى
لما قضى بالروح والريحان
وخلاصة الأعوام والأزمان

أو كوكب يجلو بطلعته الدجى أو شامة فى وجنة الأكوان
ثقة وراوية و حبر آهامر شيخ رصين العلم ذو الإحسان
عين معين للحديث وفقهه رى الغليل سقاية العطشان
خير العشائر والأخائر أسوة ذخر الذخائر مبتغى الإحسان
بحر البحار على غزوبة مائه صدر الصدور ونجبة الأركان
من ذب عن دين النبي وحوزة من ألف الأسفار فى سبل الهدا
دفع المطاعن حين جد مشمراً عن خير دين نبيه العدنان
رضى الإله وأحمد مختاره عنه بأوسع رحمة وحنان
تبكيه أرض والسماء كلاهما بذهاب علم أكبر الحيوان
هو رحلة العلماء واللج الذى لا ينتهى من كثرة العرفان
وله الفضائل والفواضل جملة لا يرتجى إحصاؤها ببيان
بر و بحر مكارم و مآثر لغرائب التنزيل كنز معان
وله أحاديث العلاء تواترت سارت بها الركبان فى البلدان
وإذا جرى فى سرد أخبار النبي رآيته يسمو على سفیان
فى الجرح والتعديل والتحسين والتهذيب تضعيف قدرة أمة بزمان
وإذا تصدى للرجال ونقدتهم ولسرده الوفيات للأعيان
فكأنه شمس لدين أوعب ال حفاظ من هو صاحب الميزان
قاموس علم جامع لعبابه ولبابه وصاحبه وحسان
سيح فسيح أو فسيح العلم فى تأويل تنزيل وسبع مثنان
بحر محيط أو محيط حقائق وبدائع التفسير روح معان
وإذا تورط فى غمار تفقه لبدا فقيه النفس كالنعمان
تخرجه تنقيحه تنقية قد ألى التبيان

فى الزهد والتقوى فريد زمانه وله فتوحات جلت لعيان
 رب المقامات العلمية والكرا مات الجليلة ذو رفيع مكان
 وله العوارف و المعارف جمة صاف الضمير وكامل الإنسان
 كم هكذا صدرت خوارق عادة عنه وجاحدها من العميان
 أسنى و أسنى لا يقدر كنهه لغةً وتحديثاً عن الأعيان
 وبلاغةً وفصاحةً وجزالةً وصياغةً لقلائد العقيان
 لولاه ما ظهر البديع ولا سيما شمس البيان على سماء معان
 وإذا سمعت نشيده وقصيده لحسبته وشياً وعقد جمان
 أربى على أهل الزمان مكانة ببديعه و بيانه ومعان
 يدع الجواب فلا يزاجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
 وإذا رأيت على البخارى فتحه فكأنه ركن من الأركان
 منح البخارى من مكارم بارئ أبهى من الياقوت والمرجان
 من ذال له إرشاد سار بعده وطرائف أغلى من التيجان
 ميمون وجه فى الأصائل والضحى حلو الشائل كلها و لسان
 فضى ولم يخلف على آثاره فرداً يساميه على الأزمان
 يا نفس إن العمر ظل زائل يفنى و من يغتر بالحدثان
 قد جاءكم من ربكم ببصائر تهدى لمن كانت له أذنان
 فضى كما ذهب غواضى مزنة تسقى الحدائق دائم الفيضان
 فالله يجزيه بأحسن ما جرى أهل الحديث وحاملى القرآن
 وارحم على أخلافه بعزاءهم واحفظهم فى كل شأن شان
 بلغهم رتب الكرام فإنهم أبناء صديق للأب الحسان
 أنت الرقيب عليهم من بعده وارزقه فى الفردوس خير مغان
 جنات عدن قد جرى من تحتها أنهار من غسل ومن ألبان

واجعله يرتع في حظائر قدسه ونعيمه وجنانه ومجان
واساكنه يا ذا الجود والإحسان ملاً من الأعلى بحسن تهان
الله وفقنا الناسى بعده لمسالك الإحسان والإيقان
والحمد لله الذى لا منتهى لخلوده والغير فان فان

انتهت مرثيته الرنانة وقصيدته الطنانة المحركة للأحشاء بكلمات كلها درر
غرر ، جزاه الله خيراً .

أبيات : من مرثية مولانا الطيب محمد يامين الفاضل ، أحد أساتذة الجامعة
الإسلامية بدابيل دام كرمه .

خطب ألم على القلوب كبير منه الكبود تصدعت وصدور
يا حسرتى مات الذى من موته متنا وأظلمت البلاد ودور
جلت رزيتنا بفقد إمامنا اليوم يوم للأناس عسير
هيهات أنورنا وحنة ربنا ريب الزمان ينوبنا ويدور
بحر العلوم حقائقاً ومعارفاً بوجوده افتخر الورى ودهور
كم معضلات غاية فيها بدا حل شفا منها النفوس جدير
وأراه رمس ثم ضم عظامه ترب يفوح شذا هنا وينور

قصيدتان للجامع في مرثية الشيخ رحمه الله .

كنت قد نظمت شيئاً من عبراتى فى رثاء الشيخ ولم يكن مما يهدى إلى
المعارف ، إذ لم أكد آمن فيهما من الإلحان والعيوب الشعرية ، بيد أن جهد
المقل دموعه ودمعة من عوراء غنيمة باردة ، فلا أرى بأساً فى إيرادهما بحذف
أبيات منهما ، وإنما هى عبرات أتخف بها الأصدقاء ، ورجائى عنهم الإصلاح
والإغضاء ، والله الموفق .

نونية من البسيط

العين ذارفة والقلب حيران والطير تشدو فتبدو منه أشجان
الشمس كاسفة والأرض مظلمة والمزن تبكي فسالت منه بلدان
وفي السماء ضجيج بالعويل بدا حتى بكى منه أطلال وعمران
وللبهار حنين بالحرير بدا وللثوج لذا ذوب و سيلان
وللهواء أنين بالصرير جرى وفي الجبال حراقات ونيران
وللسحاب أزيز حين رعدته وللقدور لذا غلى وفوران
خطب ألم على الإسلام مكتنفا تزلزلت منه أطواد وأركان
خطب وقد صدع الأكباد من شجن فما عزاء ولا صبر و سلوان
بليّة فجعت رزية وقعت من حملها عييت شيب وشبان
وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حل بالإسلام سلوان
قضى الحياة إمام القوم مرجعهم شيخ الحديث فقيه النفس سفيان
بحر البحور وشمس المجد مسندهم فيما روى من حديث العلم إخوان
حبر ورحلة أعلام وحجتهم فيما سرى بحديث الفضل ركبان
شيخ الشيوخ إمام العصر عمدتهم الشاه أنور نور الله برهان
شمس الورى فيلسوف الشرق قدوتهم رأس الخيار غنى النفس سلطان
بحر محيط لمغزى كل معضلة من حوله لرحى الأعلام جولان
إذ ظل يكشف من فقه الحديث لنا تحيرت مستنطقا هذا لنعان
شق الجبال وغاص البحر في لجج فشاع در وياقوت ومرجان
كانت يواقيته ذخراً لمعتبر وللرشاد أكاليل و تيجان
وفي الزمان شيوخ لا عداد لهم لكنه لعيون العلم إنسان
ما كل ماء كصدا لوارده نعم ولا كل مرعى فهو سعدان

بحر خضم بأرض غاض من عجب
 حمى المعالم خصب مدة وجرت
 سارت جنازته والقوم في جزع
 من بالحديث ومغزى الفقه مطلع
 وكل ثلم فإن الدهر يجبره
 لولقبوا الأرض لم يوجد له شبه
 تبكيه جامعة الإسلام من قلق
 دع الفؤاد عن الدنيا وزينتها
 وابدح حشاك بعبرات فتدرفها
 أطفأ سعير سواد القلب مصطبراً
 يارب أنزل عليه صوب غادية
 وعمل مفجعه من مزن مرحة
 واجعله يرتع في الجنات عالية
 وأيضاً قلت من الوافر :

ألا قد أسبلت سدل التواري
 ألا قد أدميت أكباد أنس
 ألا قد زلزلت أطواد علم
 ألا قد أجذبت روضات علم
 وقد يتمت أولو علم وفضل
 بكت أرض سماء ثم أنس
 ويتبعها بتغريد مهيج
 فنوح أو بكاء أو عويل

بشمس والنجوم مع النهار
 وحن فالملائك بالجهار
 وتقوى ثم زهد والوقار
 وغاضت أبحر الديم الغزار
 ومات ملاذهم رأس الحيار
 وحن فالسحائب بالقطار
 هدير من هزارا وقمار
 بأقطار العوالم ثم سار

دموع هامرات أو دماء
ألا إن الإمام إمام دين
قضى نجباء وفاظ مستريحاً
أصيب المسلمون اليوم طراً
ألا قدما حوادث قد ألت
وكان الشيخ أنور نور رب
فشمس للمعارف والعلوم
إمام حجة الله بأرض
همام بارع الأعلام ثبت
ففيه جل في الأقطار قدراً
وجيه شاع في الآفاق صيتاً
إمام قد تفرد في المعالي
تلاطم بحره شرقاً وغرباً
ورحلة عصره من كل قطر
إليه المنتهى في كل علم
فقيه قد تضلع من علوم
إليه المنتهى في كل صعب
وأحبي السنة البيضاء درساً
وقد كانت سعادته بحق
وإلا كان نحريراً وحبيراً
وحيد في الحقائق والمزايا

تسيل من المآقي كالدراري
دعاه الله في خير الجوار
وودع في القلوب جذاء نار
بداهية أجل بلا غمار
وجلت هذه كل الكبار
أضاء القفر منه والبراري
ونور في العوالم منه سار
وحافظ عصره شيخ الديار
فقيه النفس من غير التماري
أمين كان مقبول الخيار
فكوثر علمه بالخير جار
وعمدة قارئ إرشاد سار
فبسط علمه من فتح بار
ملاذ للكبار وللصغار
وراوية الحديث فلا تمار
فنقبها بعمق في المجاري
دقيق مشكل عند الكبار
وأجلى نهجه عند اعتكار
تبدي في الحديث لدى اداكار
وغواصاً سبوحاً في البحار
فريد في القرون على اشتهار

إمام أمة في الأرض حقاً
 إمام جهيد علم منير (١)
 له في الدرس آيات عظام
 أديب في لسان الضاد فرد
 مجلى السابقين فما يجارى
 وجدنا قوله في قطب عصر (٢)
 متى ما جئت تستسقيه قطراً
 طلبنا عمقه لكن ضللنا
 رئيس الزاهدين فضيل عصر
 غنى النفس ذو نفس صبور
 تهلل وجهه كالبدر نوراً
 لقد جلت معاليه وعزت
 فعلم ثم تقوى ثم زهد
 به قد كانت الدنيا تباهى
 به قد كان فضل الهند حقاً
 فتذرف مقلتي في أثر شيخ
 وفاضت أدمعي من ذكر شيوخى
 وقد كنا تمتعنا زماناً
 فذب يا قلب لائق في جهود
 بقينا بعد رحلته حيارى

(١) او : امام حافظ ثقة نبيل .

(٢) اشارة الى حجة الاسلام قاسم العلوم والخيرات مولانا الشيخ محمد قاسم النانوتوى الديوبندى ، مؤسس دارالعلوم الديوبنديه بالهند ، قدس الله سره . منه .

لقد قاح البلاد بنشر عرفه
لقد طاب البلاد بنفح روحه
فن للمشكلات بكل علم
فقوم صدعوا الأكباد وجداً
أبي قلب العميد سلو حزنه
ولما قد نعت بموت شيخه
وسرت إليه من بلدى حثيثاً (١)
فكنت أظن زور القبر يشفي
إلهي منك أسأل برد صدرى
واللهم أنزل فوق قبره
واللهم أكرم روح شيخه
ونعمه بفضل وارض عنه
وجامله وعامله بفضل
ونور قبره من نور قدس
إلى ما فاض دمع من عيون
ووفق ولده سيراً بهديه
إلهي قد دعوتك جوف ليل
أجبنى دعوتى بقبول سؤلى
ملاذى ملجئى مولاي ربى
طلبت العام من فكرى لفوظه
إمام شيخ عصر للأنام

بعرف فاق طيباً من عرار
ومن أنفاسه ضاع البرارى
ومن للترمذى و للبخارى
وتسمح عين قوم بانهار
بتذراف الهوامع بالغذار
فطار النوم من ورى الشرار
حزيباً هائماً شط الديار
ولكن زدت وجداً بالمزار
وأجراً وافيأ عند اصطبار
عهداً بالغواذى والسوارى
برحم واسع فى الأرض سار
ففيض منك فى الأقطار جار
وأسكنه لديك فى جوار
وتجعل داره من خير دار
وماتهوى القلوب هوى ازديار
وبلغهم إلى رتب كبار
بصدق ثم قلب مستطار
فسؤل منك محمى الذمار
فأرجو منك سؤلى أنت بارى
فناجئنى القرونة بالبدار
وشيوخ العارفين بلاثمار

هذا، وصلى الله على نبي القبلتين ورسول الثقلين سيدنا محمد وآله وأصحابه
وأتباعه المتأدبين بأدابه .

ختام الرسالة ومعدرة للجامع .

لله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وله الشكر كما يليق
بعظيم نعمائه وعميم إحسانه ، على ما وفقني لإتمام هذه الرسالة المحتوية على لمع
من هدى الشيخ الإمام العارف إمام هذا العصر وقريع هذا الدهر ، مولانا
وشيخنا الشاه محمد أنور الكشميري ثم الديوبندي ، أفاض الله عليه سبيل
رحمته ورضوانه، وما عسيت أن أنتهض بأعبائها، فإني امرؤ ذو بضاعة مزجاة،
حسير الفكر والنظر ، ليس عندي من العلم والمعرفة ثاغية ولا راغية ، ولا
من فهم الحقائق سبيل ولا لب ، فكنت أبصر بوسم قدحى ، ومع هذا
كنت مشغول البال بالفضول ، غير محتفل بضياح الساعات القيمة والآونة
السنية ، وفوق هذا ما كنت مطوق العتق بأغلال الدرس ، وإن ضبط شئون
حياة رجل عظيم مثل هذا الإمام كان أمراً خطيراً يقتضى فراغ القلب واتساع
الوقت وجودة الطبع وغزارة العلم ومزاولة ربيعة وفكرة صائبة، فأبني يسهل
ذلك مع خواء الوطاب والجراب ، وكيف تجاب المهمة الفيح بنضى وطليح؟
فكنت أحجم عن هذه المهمة علماً منى بأن لست من أحلاسها، وأنى يسهل على
مراسها؟ وموقنا بأن ليس هذا مدرجى، والمثل: "ليس هذا عشتك فادرجى"،
فكنت أرتقب وأتمنى أن لو قام لها أحد غيرى فيرتب هديه وشئون حياته
الطبيية من أفاضل أصحابه ، وكيف؟ وقد قيل: لا يدعى للجلى إلا أخوها ،
فتلكأت عن الأمر برهة وشتت برقاً ألق ببشارة تأليف سيرته عن بعض
فضلاء أصحابه ، فترقبته ترقب الهيمان إلى العذب السائغ ، ولكن أخلفت
البارقة، وكان كما قال الشيخ رحمه الله تعالى :

وقد طالما شمننا بروقاً تألفت * فما كان إلا أبرق ثم ارعدى

وكان يزيد غرامى بتقيد شوارد خصائصه كل حين حرصاً على تجلية حياته الجلية سافر المحيا إلى إخواننا القاطنين في البلاد الإسلامية العربية المشغوفين بالفوائد العلمية والمولعين بإنشاء أو اصر الأخوة والمعرفة مع إخوانهم الهنديين، فإن الشيخ رحمه الله لفرط إثارة الحمول وفقدان مؤلفات معتداً بها مما يكون مطبوعاً في البلاد العربية صار أمره في إخفاء على كثير من حملة العلم بتلك البلاد، وأما في البلاد الهندية فلا تسأل، فشمس في كبد السماء أو بدر في الليلة الظلماء .

فبقيت في حيرة حتى عيل الصبر وضاق الصدر، وأشار بعض المعارف إلى تصوير حياته في جزء بسيط وحياء الله المعارف، فانتفضت له مستعينا بالله منتهزاً للفرصة، فإن الأمر يعرض دونه الأمر، ولا تكلف نفس إلا وسعها، فبت عزمي عليه، وفي المثل السائر في الديار: "الجمحش لما بذك الأعيار" فحررت في فرص مختلصة ومجالس متفرقة من ربيع الآخر والجماديين، ثم بعد فترة في ساعات منتهزة من ذى العقدة وذى الحجة من سنة ١٣٥٤ هجرية ما تيسر لي بنوع ارتجال من غير سبق تسويد لكثير من المباحث بما يبلغ النصف فصاعداً، نعم استمررت أخلاف القريحة في كثير من المواضع، فبشت ما في الوعاء ونفضت ما في الوطاب والوطاء في هذه الصفحات مما استطعته في تلك البرهة، ولو تأنيت في تحصين العمل وتحسينه، وما ونيت في تانيقه وترصينه، لبدت الرسالة زاهية في حلة الجمال ناصعة الجبين إن شاء الله تعالى . وكيف لا ؟ ومن تأنى أدرك ما تمنى، والعجلة فرصة العجزة، وليس المتعلق كالمثائق، ولكن مع هذا فقد أفرغت الجهود لنيل المقصود، وخذ من الرضفة ما عليها، وقد قال ربنا عز وجل: (وإن لم يصيبها وابل فطل) وسيقدرها من أوتى حظاً من العلم

وأعطى نصيباً من الفهم، وعسى البارقة لا تخاف إن شاء الله تعالى، ولا أحتفل بمن ليس في العير ولا في النفير، ومن ليس عنده من العلم والنصفة نتفة ولا فرصة، ولا أكاد أخاص من تنديد وتشنيع، فالحاسد يأكله بضرر ويطؤه بظلف، فليحرق على الأرم، وقد جرى مثل يجرى بليق ويذم، وقولهم: يوكل شعير ويذم، على أنه لا تعدم الحسنة ذاماً، فدعه وشأنه وما زانه وما شأنه، والله ولي الأمور.

هذا وقد أنفدت الوسع في إفصاح هديه وهذاه والإفتناع بمغزاه ومرماه بحيث لو تأمله البصير بعين بصيرته الساطعة لأصبح لديه هديه إن شاء الله أبين من فلق الصبح وفرق الصديق، ولعده غنيمة باردة من أمثالي من لم يخض في هذا الوادي ولم تسرح راحلته في هذا المرتع، ولم يضممر جواده في هذا المضمار، مع أن لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة، والله در القائل:

تأن ولا تعجل بلومك صاحباً * لعل له عذراً وأنت تلوم

ثم إنني جميع ما حكيت ورويته وصورته وحبرته كل ذلك عندي صحيح لا يتخطاه الحق إن شاء الله، خرج من صميم قلبي لا يشوبه رياء ولا اطراء، والله على ما نقول وكيل، وإذا أنشد متمثلاً قول المجد اللغوي في العارف الطائي الأندلسي أكبر عرفاء المغاربة الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي قدس سره السامي:

وما على إذا ما قلت معتقدي دع الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن أقامه حجة للدين برهانا
إن الذي قلت بعض من مناقبه ما زدت إلا لعل زدت نقصانا

ولله در الشيخ الأكبر حيث قال هو نفسه:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده * ولا الصبابة إلا من يعانيتها

وقد أبقيت بعد مجالاً لمن بعدى ومساغاً لمن يزيد فى تحرير سيرته من
جهات شتى ، وأما أنا فقد قنعت بالأهم وعنيت ما كان عندى أعنى ، فمن
شاء فليقل ومن شاء فليكثر ، فقد انتهجت لهم محجةً واتخذت لهم بنياناً ،
وإن الموضوع خير كله إن شاء الله :

مدحتك جهدى بالذى أنت أهله فقصر عما فيك من صالح جهدى
فما كل ما فيه من الخير قلته ولا كل ما فيه يقول الذى بعدى
وقال :

إيه أحاديث نعمان وساكنه إن الحديث عن الأحباب أعمار
أفتش الريح عنكم كلما نفحت من نحو أرضكم نكباء معطار
وقال آخر :

فلا عيش إلا مع رجال قلوبهم تمنح إلى التقوى وترتاح للذكر
سكون إلى روح اليقين وطيبه كما سكن الطفل الرضيع إلى الحجر
وقال بعضهم :

كر الحديث عن ليلي إذا بعدت إن الأحاديث عن ليلي لتلهينى
وقال آخر :

وحدثنى يا سعد عنها فزدنى جنوناً فزدنى من حديثك يا سعد

كيف لا ؟ وعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة ، والله در العارف الشهاب
السهروردى قدس سره حيث قال :

سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها لما دروا أن السماح رباح
ودعاهم داعى الحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على منن الوفا ودموعهم بحر وشدة شوقهم ملاح

لا يطربون بغير ذكر حبيبهم أبداً فكل زمانهم أفراح
حضرُوا وقد غابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهم عنهم وقد كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكـرام فلاح

ثم إن جيبني لبتفصد عرقاً من الحياء بأن أعزى نفسي إلى صحبة الشيخ
وإلى التلمذة عليه والإستفادة عنه ، فإنى رجل غص العمر ورث الفكر قليل
الصحبة قليل الإستفادة ، تشرفت أياماً بدروسه العالية ثم المزاملة والملازمة
معه عدة شهور عند ابتلائه بوصب ونصب ، وكأنها أيام ومضت بين الصحوة
والسكر ، كأنها أحلام لم أوفق لاستخراج الدر من أصدافه والإغتراف من
بحاره ، وفوق ذلك قلة البضاعة وفقدان السواد ، فليس عندى نقير ولا قطمير ،
فكيف أحد و بغير بعير ؟ علا أنى أنادى على رؤس المنائر أنه لم يبد فى
أصحابه ومستفيديه ما يكون دليلاً على روائع خصائصه ، فإن الشيخ رحمه الله
قد تجلى وتحلى ببينات زاهرات تقاصرت عنها خطى أصحابه وتخاذلت دون
غايته طبايع المتحصلين ، بل قطعت دونها مطامع المتنافسين ، فكلت وراءها
الأنظار وونت الهمم وحسرت الأبصار ، ومعاصروه المحققون فضلاء العصر
ما بلغوا معشار ما آتاه الله من فضله من المزايا الرائعة والخلال البارعة ، وهذا
أشهر من نار على علم عند من سابر غوره وأجلى من النهار .

وليس يصح فى الافهام شئ * إذا احتاج النهار إلى دليل

فكيف أمثالى ونظرانى ؟ نعم لا أخط عن قدر فضلاء أصحابه وأذكياء
تلامذته ، فإنهم على علم وقفوا وبيصر نافذ قد كفوا ، ولكن لا ينبجلى فى
هذه المراتى محيا الشيخ مسفراً لا تحاً لمن أراد المقايسة أو حاول الاعتبار ، وأنى
يلتقى السهيل السها ؟ وكفى بين الثريا والله ، وفى الحياة خصائصه المتوافرة

المحيرة وقصور استعدادنا أصبح منشأ للاخفاق والحرمان، ولعله لم تنعقد بذلك المشيئة الأزلية الإلهية، فكان قدراً مقدوراً وأمرأً مفعولاً، ولا يقدر في شأنه رحمه الله وأعلى قدره، فكم من رسل الله وهم رسل، وكم من أنبياء الله وهم أنبياء، نصحوا الله وبلغوا إلى الأمم ما بعثوا به واستدعوا لإجابتهم، فكثير منهم لم يجيبوا دعوتهم ولم يقبلوا هدايتهم، فمن نبي ترى له يوم القيامة تابعاً، ومن نبي له تابعين، فهل من مريب في علو درجاتهم وبلوغ نفوسهم القدسية إلى غاية ليست وراءها غاية، حاش لله، هم أنبياء الله وأمناءه في عبادته، وعلى ذلك جرت سنة الله الأزلية، أين أنت من قول الله عز وجل: (منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) رجل رفع قدره بإشاعة صيته في أرجاء الساهرة فأحبه، ووضع له القبول في الأرض، وآخر أدخل ذكره فارتفع أمره، فرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره. ونبي لم يشبع من خبز وزيت في يوم مرتين، ونبي بسط الله له في الملك والمال ينفق منه كيف يشاء. حكم إلهية قصرت عنها أعناق الفحول، وأسرار ربانية سجدت لها جباه الأفكار وحسرت دون غايتها لطائف العقول:

رتب تقصر الأمانى حسراً * دونها ما وراءهن وراء

بيد أنى لا أكفر ما للشيخ على من ممن جليلة أرهنت فؤادى مادمت حياً، وغلقت لها نفسى وأنفاسى ما بقيت على الأرض، فإنما الشيخ هو الذى أخرجنا من الظلمات إلى النور، وبه اكتحلت عيوننا البصيرة والبصارة، وهو الذى أتانا بمصباح يضيئ السبل لمن اهتدى، فيه علمنا ما علمنا، وبه عرفنا ما عرفنا. فجمع ما عندى وعند أكثر أصحابه من الرواء والرواء من ذلك المنهل السائغ والنمير البارد، وهو الذى جدد لنا أثراً طامساً عفته عواصف

الأزمان ورواعد الأيام، بل ابتكر طريقة عذراء وانتهج محجة بيضاء لم تطرقها
الأقدام ولم تلحقها الأفهام ، واستحث الخواطر الحاسرة والهمم المتقاعدة عن
المعاناة ، بل أحى العزائم الميئة ، فزاد الله أجور ذلك الإمام نابغة الأيام ،
وشكر مساعيه على تعاقب الشهور والأعوام ، وكيف نكفر أياديه البيض
الخالدات ، وما أثره البينات ؟ ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، نعم كل محتطب
في حبله، ولكن لاتسع البحر الخواي ، وقد صدعت بذلك في أضعاف أبحاث
العجالة ، فتحاشانا أن نبوح بما يوهم من كفران نعمته الساطعة وأيامي القايلة
في أنفاسه الجليلة أفضلها على أعوام كثيرة عند غيره ، فأيامي هي أعوام وأواني
هي أزمان ونفحات من صحبته حياة لروحي وأنفاس من نفثاته تشفي غليل فؤادي
وإن لله في أيام دهره نفحات ، ألا فتعرضوا لها، والله ولي التوفيق والهادي إلى
سواء الطريق .

ولنجعل ختام المقالة في خاتمة العجالة ما رواه أبوداؤد في "سننه" عن
عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : « كلمات لا يتكلم بهن أحد في مجلسه عند
قيامه ثلاث مرات إلا كفر بهن عنه ، ولا يقولن في مجلس خير ومجلس ذكر
إلا ختم له بهن عليه كما يختم بالخاتم على الصحيفة : سبحانك اللهم وبحمدك
لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ، ولمناسبة أيام الحج أدعو الله تعالى
بالتلبية فأقول : "لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة
لك والمملك ، لا شريك لك" .

وأنا الأحقر محمد يوسف ، بن السيد محمد زكريا ، بن السيد
مزمّل شاه ، بن السيد المير أحمد شاه ، بن السيد المير موسى ، بن
السيد غلام حبيب ، بن السيد رحمة الله ، بن السيد يحيى ، بن السيد

محمد أوليا (١) ، بن العارف المحقق السيد آدم ، بن اسماعيل
البنورى المذى (٢) المتوفى سنة ١٠٥٣ هجرية قدس سره ، خادم الطلبة
بمدرسة "تعليم الدين" المدعوة اليوم بـ "الجامعة الإسلامية" الواقعة
بقريه دابيل ، سمالك فى مديرية "سورت" من كورة كجرات الهند ،
عفا الله عنه وعافاه ، وجعل آخرته خيراً من أولاه .

- (١) هو اكبر أبناء الشيخ السيد آدم البنورى ، وللشيخ غيره ثلاثة أبناء . منه .
(٢) ينتهى نسب الشيخ قدس الله سره و قدسنا بسره الى سيدنا حسين بن سيدنا على
ابن أبى طالب القرشى الهاشمى وابن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت امام الخير
وقائد الخير ورسول الرحمة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه و تبعه ، وقد ساق الشيخ نسبه الى سيدنا موسى الكاظم فى كتابه
"نكات الاسرار" ، وللسيد موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن سيدنا
محمد الباقر بن سيدنا زين العابدين بن على بن سيدنا الحسين بن سيدنا على
المرتضى خليفته رسول الله صلى الله عليه وسلم بن السيدة فاطمة الزهراء
سيدة نساء اهل الجنة بضعة سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد صلى الله
عليه وبارك وسلم وعلى ازواجه الطاهرات امهات المؤمنين وذريته المباركين
وعترته الطيبين الطاهرين وعلى جميع اصحابه اجمعين الى يوم الدين .
والشيخ البنورى كان من اكمل خلفاء القطب الربانى الامام المجدد للالف
الثانى الشيخ احمد السرهندى واجلهم . قال الرخاوى فى مناقب النقشبندية :
كان اذا توجه للمريد بل اذا لقنه الذكر يوصله الى فنا القلب ، ولقد قبله
الحق تعالى اعطاه طريقة جديدة تسمى الاحسنية ، فهدى الله به اكثر
من الف الف وتكمل على يده الف خليفة ، وبشر بلواء اخضر يوم القيامة
يستظل بظله من توسل به و يغفر الله له ، ولما قدم المدينة المنورة وسلم
على جده فخر الاسم صلى الله عليه وسلم سمع منه رد السلام وعند اليه
يده المقدسة وصافحه ، وقال : يا ولدى كن فى جوارى ، فبقى فى المدينة
حتى لقي ربه اه . وللشيخ قدس سره مؤلفات غامضة فى الحقائق العلية
والمعرف اللطيفة ، مثل "نكات الاسرار" و "خلاصة المعارف" ،
كلاهما بالفارسية وغيرهما ، وكان الامام القطب الربانى الشيخ السرهندى
كان يثنى على معارفه بل كان يتعجب منه ، وذكر الشيخ قدس سره فى
"نكات الاسرار" ما ترجمته الى العربية : انه قال لى الامام الربانى يوماً

يوم الثلاثاء يوم القروية من ذى الحجة الحرام من سنة أربع
 وخمسين وثلاث مائة بعد الألف من الهجرة النبوية على صاحبها
 ألف ألف صلاة وسلام وتحية .

فى خلوته : ان المعارف التى تصدع بها لا يكاد يفهمها احد من العرفاء
 فعليك ان تشكر الله شكراً كثيراً ، فقلت : هذا كله من نفحات صحبتكم
 الشريفة و بركات توجهاتكم العالیه ، فقال : لا بل من علو استعدادك
 الفطرى ، فقلت : وكيف ما كان فظهور استعدادى كان منوطاً بصحبتكم
 وتوجهاتكم ، هذا حال الشيخ العارف البنورى وكان امياً لم يقرأ غير
 القرآن شيئاً ، بيد ان الله تعالى فتح عليه ابواب علومه و معارفه ، وقد
 حكى فى نكاته بدائع و طرفاً من احواله .

والبنورى نسبة الى "البنور" كصبور ، بتقديم الموحدة التحتانية - بالتخفيف
 كما هو المعروف ، او بالتشديد كما فى "شفا" العليل شرح القول الجميل ،
 للشاه ولى الله الدهلوى ، قرية من قرى فنجاب ، كان مشوى الشيخ قبل
 هجرته الى الحرمين ، زادهما الله احتراماً . و للشيخ محمد امين البدخشى
 ثم المكي مؤلفان فى مناقب العارف البنورى رضى الله عنه وارضاه ووقفنا
 الله الاقتداً بهديه وهداه ، احدهما : "نتائج الحرمين" والثانى : "التذكرة
 الادسية" ، وكلاهما بخطه .

زيادة وتكملة

بعد تأليفي "نفحة العنبر" كنت أكتب بين حين وآخر شيئاً من ترجمة شيخنا الإمام إمام العصر رحمه الله ، فكتبت بعد سنتين من تأليف "نفحة العنبر" نبذاً من ترجمته في "يتيمة البيان" مقدمة "مشكلات القرآن" قبل ثلاث وثلاثين سنة ، ثم بعده بنحو سنة في مقدمة "فيض الباري" من أماليه على "صحيح البخاري" ، وفصلت القول في بعض نواح من حياته الطيبة ، وعدة خصائص من سيرته الطاهرة ، ثم بعد برهة من الدهر غير قصيرة بعد تأليف "نفحة العنبر" بنحو ربع قرن قدمت لكتابه "عقيدة الإسلام" مقدمة ، فكتبت فيها ترجمته وأشياء من حياته الطاهرة .

وفي كل أشياء لا توجد في آخر ، فرغبت أن أذكرها جميعاً بترتيب التأليف حتى يتسنى صورة صحيحة من حياته وخصائصه ، وافية بالغرض ، شافية لغلة الباحث الظمان مع زيادة عدة فوائد من أبحاثه الفقهية والحديثية حتى تنجلي محاسن مجياه الجميل للنظر المشتاق لنسيمة العليل .

والله المستعان وعليه التكلان ، وصلى الله على صفوة نبي عدنان ونبي قحطان ، نبي الإنس والجان ، سيد المرسلين وخاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه وتابعيه أجمعين .

التكملة الأولى .

قلت في " يتيمة البيان " :

لمعة من ترجمة إمام العصر الشيخ المحدث محمد أنورشاه الكشميري
صاحب " مشكلات القرآن " قدس الله سره

حياته الجميلة ، نشاته وتحصيل علمه ،
ووصوله الى ديوبند ، وحج بيت الله ،
ورجوعه الى الوطن ، ثم تدريسه بديوبند ،
وتركه ديوبند ورحيله الى قرية دابهيل ،
ثم وفاته .

هو : إمام العصر ، مسند الوقت ، الجهيد الكبير ، الشيخ العلامة محمد
أنورشاه ، بن معظم شاه بن الشاه عبد الكبير الكشميري ثم الديوبندي ، كريم
المحتد ، طيب الأرومة ، ينتهي نسبه السامي إلى العارف الشيخ مسعود النروري
الكشميري ، جاء سلفه من بغداد فدخلوا بلدة " لاهور " بالهند ثم " ملتان " ،
ثم استوطنوا " كشمير " . ولد رحمه الله تعالى سنة ١٢٩٢ (اثنتين وتسعين بعد
الألف والمائتين) من الهجرة ، بقرية " ودوان " (بالواوين الأولى منها مضمومة
بينها دال مهملة ، على زنة لبنان) من مضافات كشمير . نشأ في صلاح
فطري ، تبرق غضون النجابة وأسرّة السعادة في جبينه ، وتفرس فيه بعض
العارفين وأهل الباطن أنه عسى أن يكون له شأن ، وأخذ في القراءة وهو
ابن أربع سنين ، وفرغ من التنزيل وكتب الفارسية ومبادئ العلوم العربية
على والده وعلى بعض علماء بلده وهو ابن عشر حجج ، وبشر بعض من
أحسن ذكاؤه وحده من أهل الفراسة بالاساسة . بأنه سيكون غزالي عصره

ورازى دهره ، ثم رحل بعد برهة إلى بقاع ” هزاره “ ومكث بها ثلاث سنين فى أرجائها ، عاكفاً على تحصيل العلوم المتداولة من كتب المنطق والفلسفة والهيئة وغيرها على أساتذة الفن ، بيد أن غليله يزداد كل يوم ، ولم يقتصر على ذلك القدر حتى وصل إلى ساحة دار العلوم الديوبندية ، ذلك المعهد التاريخى العلمى والجامعة العربية الدينية ، وناهيك بها شمساً فى سماء الهند ، فقرأ كتب الحديث وشيئاً من غيرها على رحلة العصر ومسنده وغرة زمانه شيخ العالم مولانا محمود الحسن الديوبندى ، رحمه الله المعروف بشيخ الهند ، وعلى المحدث الفاضل الشيخ محمد اسحاق الكشميرى ثم المدنى ، حتى ترعرع حبراً فاضلاً وهو ابن ست عشرة حجة ، فذهب إلى بلدة ” دهلى “ عاصمة الهند ، ومكث عدة شهور يدرس الكتب من فنون شتى ، فلم يلبث إلا وقد طار صيته ، ثم أسس مدرسة عربية بإلحاح بعض رفقاءه وإسعاد بعض أهل الخير والثروة ، سماها : ” مدرسة أمينية “ بإسم رفيقه المولوى محمد أمين المرحوم ، ولما بسقت فروعها أغراه الحنين إلى زيارة والده المحترم ، وانتقلت والدته المرحومة فى ذلك العهد إلى جوار ربها ، فاشتاق الحضور على قبرها ، فذهب إلى مآلفه كشمير ، وأقام بها ثلاث سنوات ، فأسس مدرسة دينية سماها : ” الفيض العام “ ، وسعى فى تلك البرهة فى إصلاح كثير مما راج هناك من البدع والرسوم المحدثه ، فرأب الله به الثأى وشعب الصدع ، ثم اشتاق زيارة بيت الله جل ذكره وحرم رسول الله ﷺ ، فوفقه الله تعالى إلى زيارتهما ، وثوى شهوراً يروى غليله ، ثم رجع إلى وطنه طاوياً فى ضميره المعاودة بعزم الهجرة إلى المدينة ، فمكث غير بعيد حتى شغف فؤاده بما كان نواه حتى أزعج خاطره ، فأخذ عصا التيار ، ووصل إلى ديوبند إلى لقاء شيخه المحمود رحمه الله ، وأنبأه بما نوى ، فأمره الشيخ رحمه الله بفسخ العزم ، وأبرم عليه الإقامة بديوبند لما تفرس فيه من مخائل الفيض والبركة وآثار

النجابة والكرامة ، وكان العود إلى مباركه مبارك ، وفوض إليه درس عدة كتب من الصحاح الستة ، ثم لما عزم الشيخ رحمه الله الحج فاستخلفه مقامه ، وكان من أمر الشيخ ما كان من اسارته بجزيرة " مالطه " من جانب الحكومة البريطانية ، فبقى هو رحمه الله مقامه عشرين ربيعاً يدرس " صحيح البخارى " و " جامع الترمذى " ، وأحياناً غيرهما معها ، إلى أن نشأ تشاجر في ساحة دار العلوم ، فأحب العزلة واشتغال منصب درسه ، فتهافت عليه القوم من كل جانب حتى أصرَّ عليه المشتاقون إلى بركاته ، من أهل الخير والذور بأن يتمطى صهوة الرحيل إلى " كجرات " الهند منشئ الشيخ على المتقى الكجراتى صاحب " كنز العمال " ، وشيخ ابن حجر المكي صاحب " الصواعق المحرقة " و " الخيرات الحسان " في آخر عهده ، فرضى به الشيخ رحمه الله بعد إلحاح لمصالح تفرسها الشيخ رحمه الله إلى أن ارتجت تلك البسيطة من طنين حديثه نحو خمس سنين ، فقومَ بوجوده المبارك أودها ، واستقام عوجها ، وسارت الركبان تروى أحاديث فيضه وبركاته ، وتشكر جذباء الهند أيادى غماسه وصوبه ، غير أنه اجتوى الكجرات واستوخم تلك الديار ، فابتلى بداء البواسير ، واشتد داء العضال حتى نزفه الدم واستولى عليه الصفراء إلى أن حان أجله بديوبند ، فتوفي رحمه الله في الثالث الآخر من ليلة الإثنين الثالثة من صفر سنة اثنتين وخمسين بعد الألف وثلاث مائة من الهجرة (١٣٥٢ هـ) .

والتاسع والعشرين من مايو سنة ١٩٣٣ الميلادى ، ورثاه الأفاضل من العلماء والأدباء ، بقصائد رنانة طويلة ، تزعج الأحشاء ، وأنشد في حفلة تأبينه بديوبند بعد يوم من وفاته سبع عشرة قصيدة بالعربية والأردوية . وأظن أن أن عدة القصائد التى رثى بها الشيخ بالعربية والفارسية والأردوية تبلغ إلى نحو ستين فصاعداً . قال الشيخ الكاندهلوى شارح " المشكاة " :

سلام على حفظ الكتاب وسنة وحفظ وضبط بعد شيخ مبجل

فقد كان إعجازاً لدين نبينا كمثل البخاري أو كنعجو ابن حنبل

وهي قصيدة طويلة تجاوز ستين شعراً ، ورثاه الأديب الكاملفوري
صديقنا مولانا محمد يوسف الأديب الشاعر بقصيدة طويلة ، منها :

خطب أجل أناخ من حدثان * بالمسلمين وملة الإيمان
صمت به الآذان ثم تصدعت * أكبادهم بفوادح الأحزان
إلى أن قال :

حكم يمانية فقدت معينها * لما قضى بالروح والريحان
وقال :

أسمى وأسنى لا يقدر كنهه * لغة وتحدثاً عن الأعيان

خصائصه البارعة .

وقد جمع الله فيه شمل البدائع والروائع من الجبال المعجب ، وحسن
السيرة ، والورع ، والزهد ، والتقوى ، والتواضع ، وقوة الحافظة ، ودقة
النظر ، والإستبحار المدهش في علوم الرواية والدراية ، والإستحضار المحير ،
والخوض في الحقائق ومشكلات العلوم . وبالجملة لم يكن تحت أديم السماء
أوسع علماً منه بعصره فيما نعلم قرآناً وسنةً وفقهاً وكلاماً وبلاغةً وأدباً
وتاريخاً ، ولم يكن فوق البسيطة أجمع رجل فيما نرى ورعاً وزهداً وحسن
صورة وبهاء منظر ونظافة طبع وجسم ، وإطافة روح ونقاء سريرة وذكوة
ذهن وبديهة مطاوعة وسلامة ذوق ، ووقاراً ومتانةً ، فرزقه الله طبيعة من
أسلم الطبائع ، وقلباً من أذكى القلوب ، ونفساً من أزكى النفوس . وجماع
الكلام أنه كان أكمل إنسان في عصره جمالاً وكمالاً ، خلقاً وخلقاً ، هدياً

وسمياً ، وأيم الله إنه كان يملأ القلب سروراً والعين جمالاً والأذن بياناً ، وما رأينا أبلغ منه في العلم ولا أصبر ولا أحضر منه جواباً .

قال محقق العصر الحاضر العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني الديوبندي شارح " صحيح مسلم " : لم تر العيون مثله ، ولم ير هو مثل نفسه . وكان ربعاً من الرجال وثيق الجسم متناسب الأعضاء ، وكان حزين القلب دائم الفكرة ، طويل الصمت ، وغلبت عليه الرقة في آخر عهده ، فكان يبكي كثيراً في إلقاء الدروس ، ووعظه في المحافل ، وكان شديد الحب لأهل العلم وأهل الصلاح ، وكان يعظم العلماء ، ويوقر أهل الأنساب والأشراف كثيراً ، وكان إذا تكلم تكلم بكلام جزل فصيح موجز ، وإذا استزيد وجد بجزاً لا ساحل له . وبالجملية كان إماماً وحيداً في مآثره الظاهرة والباطنة . وكان كما قيل :

لكل زمان واحد يقتدى به وهذا زمان أنت لا شك واحده

وكما قيل :

لو نال حي من الدنيا بمنزلة وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وله رحمه الله مؤلفات عديدة ، منها : " عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام " و " إكفار الملحدين في شيء من ضروريات الدين " و " فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب " وغيرها ، إلى نحو عشرين مؤلف ما هو برهان ساطع على تغلغله وتبحره في العلوم قاطبة ، ودقة نظر في المسالك ، وخلف ذخائر من تذكروته وبرنامجه في سائر العلوم . لا سيما القرآن والحديث ، وقد قام لمكافحة زنادقة هذه الأمة العصابة المرزائية القاديانية المنسوبة إلى زعيمها الضال المضل المرزا غلام أحمد القادياني الفنجاني ، جعل الله أمه هاوية وقد جعل ، فذب عن الإسلام في اشتيصال شأفة هذه الشجرة الملعونة لساناً وبناناً ، وحث العلماء والفضلاء وأصحاب الجرائد إلى مقاومتها ومكামعتها ، فأثّر الله نهضته

المباركة ، فتركها على مثل مشفر الأسد ، وانتهج للعلماء مناهج التحقيق وطرق
التفصى من العضلات ، وكان درسه جامعاً لبدائع تنحل به مشكلات سائر
العلوم ، واقتنى العلماء المدرسون اثره ، بيد أنه ” لا فنى كمالك ولا ماء
كصداة “ .

وما كل من قال القريض بشاعر ولا كل من عانى الهوى بمتيم

فرحة الله على ذلك الجسد الأطهر والروح الأنور ، وبركاته تترى على
تعاقب الأيام ما لاح برق أوجاد غمام أونا حمام .

وخلف من أولاده الذكور ثلاثة أبناء : محمد أزهر شاه وهو أكبرهم ،
ومحمد أكبر شاه وهو أوسطهم ، ومحمد أنضر شاه وهو أصغرهم ، وفقهم
الله تعالى للعلم النافع والعمل الصالح ، وأطال أعمارهم . ومن إخوانه محترماً
الفاضل ذو المتانة والوقار مولانا عبد الله شاه الطبيب ، وصاحب الفضل والشهامة
مولانا محمد سليمان شاه ، وصاحب السيادة والنجابة الفاضل محمد سيف الله
شاه ، وصاحب المكارم محمد نظام شاه ، ووالده المحترم مولانا محمد معظم
شاه ، تنقضى أنفاس عمره بكشمير وهو حى ، جاوز عمره المبارك مائة وعشر
سنين ، نفع الله به الأمة . هذا ، ومن شاء الاطلاع على مآثره العلمية تفصيلاً
فليراجع إلى رسالتى : ” نفحة العنبر من هدى الشيخ الأنور “ فإنه يجد هناك
نفحة لكبد حرى وقررة لعين عبرى ، وقد طبعت وشاعت ولاقت من الأكابر
إقبالاً عظيماً لم أكد أن يخطر ببالى مثله ، ولا سيما من حضرة المحقق العارف
الشيخ المحدث التهانوى مولانا الشاه محمد أشرف على ومولانا محقق العصر
شيخنا العثماني ومولانا المحقق محمد كفايت الله رئيس جمعية العلماء وشيخ الحديث
بالمدرسة الأمينية بدلهى ، أطال الله بقاءهم فى عافية غير عافية . وأريد أن أذيل
هذا الموضوع بمرثية للعالم الفاضل المتبصر الأديب البارع مولانا محمد شفيع

الديوبندي أحد أساتذة دارالعلوم الديوبندية، رثى بها إمام العصر الشيخ رحمه الله،
وهذه المراثية غير ما ذكرناه في "النفحة" قال :

نعم بك ناع سجرة الفجر فانبرى يضحج السماء والأرض والبدر والقمر
وأبكى الجبال الشامخات تحييه ودبراً ومدراً والفلا ثم أبجرا
وأبكى دروساً والمدارس جمعة كذلك أقصى مسجد ثم منبراً
نعيننا بجماع العلوم وسياها حديث وقرآناً كريماً مفسراً
فلم أدر أرثي عالماً أم عوالمها وعلماً وحلماً ثم للفضل جهوراً (١)
وفقهاً وتحديثاً ورأياً وحكمة وورعاً وزهداً في السماء مشهراً
ووجهها طليقاً باسمها متهللاً إذا زرت زرت البدر تما منوراً
أحقاً عباد الله إن لست زائراً بعيني بعد اليوم شيخي أنورا
بخاري عصر ترمذي زمانه وزهرى وقت لا خلاف ولا مرا
فلو إنها رزء من الدهر واحد ولكنه عظيم أحاط فأمطرا
فما فقده والله فقد واحد وربى جناحا العلم منه تكسرا
فطاب ثرى من راح في الله واغتدى لنشر علوم الدين قام مشهرا
ولم يأل في إعلاء دين ونشره تراه لوجه الله سيفاً مشهرا
فذاك اللعين القادياني إذ بدا فغادر أرض الله للكفر محورا
وكان رسول الله أخبر أنه سينزل فيكم ابن مريم آخرها
ليملأ أرض الله قسطاً ومعدلاً كما قد غدا للظلم مأوى ومفجرا
أتى فادعى أنى المسيح وأنى لمصداق ما قال الرسول وأخبرا
وإني خليل ثم موسى وأحمد تكاذ السماء من فريسه أن تظفرا
مسيلمسة الفعجاب دجال عصره تنشأ في كذب على الله مفتري
فلما ظغى دجلاً وقد طم خطبه أتاح له الجبار شيخي أنورا

(١) او : وعلماً وحلماً ثم صديقاً بصديقاً

فنادى طواغيت الضلال مهدياً لينصر دين الله نصراً مؤزراً
فشيد أركان الهدى و أنارها و مذر بنيان الضلال و بذرا
وشنف آذان الورى بفرائد فجادت بها الأجفان غدوة أدبرا
فوى لسويغات الرصال و طيبها و صفو حياة لا يزال مكدرا
و لله أيام تمليت طيبها بروض الأمانى أخضلا ثم أخضرا
وعدت به و الحمد لله فائزاً و أسعد حظا ثم أرح متجرا
فحسبى به فى العلم والدين قدوة و حسبى به فى مشهد القوم مفخرا
لعل الرؤف البر يلحقنى به بلى والرجا فى الله فليك أكثر (١)
و إلا فما فضل الجدود بنافعى و إن كنت معزواً إلى أوثق العرى
فليس لمن لم ينح منحى جدوده بعزوته فى الدين عزاً و مفخرا
فمن صلب نوح ابنه غير صالح و إن خليل الله من نجل آذرا
وذاك أبو جهل أخو الذل والعمى و إن بلالاً فاق أحرار حميرا
عليك بأعمال البصيرة فيهم و إن تأتسى آثارهم ما تيسرا
فما عبرتى إلا لذى العين عبرة و وعظ و إن لم تستطع أن تعبرا
وماذا لتشكى من زمان وصنعه إذا كان أمر الله قدراً مقدر
وفى سالف الأيام ما فيه عبرة و فهم لذى عينين رام التبصرا
و من أمعن الدنيا ونضرة دمنها يجد نكرها عرفاً كذا العرف منكرا
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة (٢) و إن أقبلت صارت همومك أكثر
تفكر تجد فى كل دار سكنتها مقابر للآمال للخلق منخر
وسوف ترى ما قد جمعت مكابداً ستسلبها إلا قبيصاً و مئزرا
و أسعد خلق من تدرع بالتقى و إن كان فى دنياه أشعث أغبر

(١) او : وانى لارجو الله خيراً و أكثر .

(٢) هذا البيت لبعض المتقدمين من الشعراء ، ودرجته يتصرف لجودة معناه . منه .

فواها له من رائح حل روضة بجنب المصلى (١) لا يزال منضرا
سقتها غواذى رحمة الله بكرة فعادت سواريتها بليل مكررا
فيا حى يا قوم لطفاً ورحمة وفضلاً به عودت يا رب أنورا
بروح وريحان و فردوس جنة ومقعد صدق منك أرفع الذرى
بجاه إمام المرسلين محمد وصحبته الأخيار من جمهور الورى
عليه سلام الله ماذر شارق بعدة من صلى وصام وكبرا
فيا خير خالق الله صفوة رساله نبى جميع الأنبياء و لا مرا
أتيتك لما عيل صبرى وهمى وفاقت ذنوبى أن تعد وتحصرا
أتيتك إذ ضاقت على مذاهى أذل عبيد الله أحقر أفقرا
فإن لم تنلنى منك فضلاً ورحمة شفاعتك الحسنى لكنت المخسرا
وعدة أبياتى (٢) حساب وفاته و رابع عشر قرنه خذ محررا

هذا ، وصلى الله تعالى على سيدنا ومولانا سيد ولد آدم وآله وصحبه
وبارك وسلم .

* * *

التكملة الثانية .

وقلت في مقدمة "فيض الباري" :

ترجمة إمام العصر الأستاذ المحدث
محمد أنور شاه الكشميري الحنفي

هو : محمد أنور بن معظم شاه بن الشاه عبد الكبير بن الشاه عبد الخالق
ابن الشاه محمد أكبر بن الشاه محمد عارف بن الشاه حيدر بن الشاه علي بن
الشيخ عبد الله بن الشيخ مسعود النوري الكشميري رحمهم الله تعالى .

رحل سلف الشيخ مسعود من بغداد إلى " الهند " ونزلوا " ملتان " ،
ثم ارتحلوا منها إلى " لاهور " ومنها إلى " كشمير " ، فأصبحت لذريته مستقراً
ومقاماً .

من الطبيعي أن للبيئة أثراً غير ضئيل في طبيعة الرجل ، وفي تكوين
مزاجه صلاحاً وفساداً ، ومن الطبيعي أن للبلاد أثراً كبيراً في طبع رجالها
بطابع خاص في ذوقه وفكرته . ومن الطبيعي أن للأسباب رباطاً قوياً مع
الأمور في عالم الطبيعة . ومن الطبيعي أن لخالق الطبيعة قدرة فوق الطبيعة ،
وأن الطبيعة مقهورة تحت إرادته ومشيتته .

فهذه حقائق واضحة عند أولى الطبائع السليمة لا مساغ لإنكارها ، أرى
أنها تلاعت في حق من حاولت ترجمته برمتها .

كانت أرومته من بيئة خير وصلاح وتقوى وطهارة ، تسلسل فيهم

الإرشاد بطرق أهله من العارفين والأولياء ، من عشرة أصلاب صلباً فصلياً ،
فوهيته نفساً مطمئنة نقية طاهرة .

وكانت هلدته ”كشمير“ من أحسن بلاد الشرق الشمالى فى جمال الطبيعة،
من أوديتها النضيرة ومياها العذبة ونسيمها العليل ، فكانت روعة الطبيعة
ومظاهر حسننها الرائع متمثلة فى جبالها التى اكتست حلاًلاً من ألوان الزهر
وأصناف الشعر ، وكأنها رياض ذات وشى دقيق وتجبير فائق تأخذ بالألباب،
وتستولى على القلوب ، عنادل تصدح على الأغصان ، ومياه تقطر عن الأحجار
فى هدوء وسكون ، فلا تسأل عن حسننها وجمالها ، فكسته رقة فى الخيال
ودقة فى الفكر وغوراً فى التفكير ، وسكوناً فى الطبيعة .

ثم تيسرت له أسباب من شوق مفرط ، وذكاء مشرق ، وشيوخ
جهابذة ، وتوفيق للجهد الدائب ، والسعى المتواصل .

وسبقت المشيئة الأزلية بأن يكون من أكمل رجال العصر علماً وعملاً ،
فأصبح إماماً أمة فى عصره .

ولد صبيحة السبت سبع وعشرين من شوال سنة ١٢٩٢ ألف ومائتين
واثنتين وتسعين من الهجرة ، بقرية ”ودوان“ على وزن ”لبنان“ من أعمال
(لولا ب) فى مقاطعة ”كشمير“ . تعلم المبادئ على والده ، وعدة كتب ورسائل
على بعض علماء بلاده ، ثم سافر فى حدود سنة ١٣٠٧ هـ إلى مديرية ”هزاره“
على حدود ”كشمير“ ، فقرأ كتباً من فنون المنطق والفلسفة وغيرهما على
جهابذة الفن ، ثم وصل إلى ”ديوبند“ قرطبة العلوم فى الهند ، فقرأ كتب
الحديث ، واستكمل ما بقى من العلوم ، وفرغ فى حدود سنة ١٣١٢ هـ
منها ، فاضلاً بارعاً يتدفق تباريه علماً وكلاماً ، فراح إلى ”دهلى“ قاعدة
بلاد الهند ، ومكث ينشر علمه بدرس وإفادة عدة سنين ، حتى بدأ هناك

بوجوده معهد علمي ، يسمى اليوم "مدرسة أمينية" ، فتم فضله وذاع صيته ، وأضحى وله مزية لا تبارى .

ثم رجع إلى بلده وأسس معهداً دينياً سماه "الفيض العام" واشتغل بنشر العلم ورأب الصدع ، ثم حج سنة ١٣٢٣ هـ ومكث هناك أشهراً ، ولا سيما في المدينة زادها الله تشریفاً ، وطالع كتباً جمّة بـ "مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت الحسيني" و "المكتبة المحمودية" ، وكانت فيها ذخائر من المخطوطات القيمة ، فانتهاز الفرصة لها حتى طفق صدره بعلومهما ، ثم رجع إلى بلاده وأقام برهة ، ثم حاول الهجرة من بلاده إلى الحرمين ، زادهما الله كرامة ، ووصل إلى "ديوبند" في حدود سنة ١٣٢٥ هـ للقاء شيخه شيخ العصر محمود حسن رحمه الله تعالى وداعاً ، فأشار إليه بالإقامة بديوبند ، ولم يكن يفرط في امتثال أمره ، فأقام ، وأمره بتدريس "صحيح مسلم" و "منن النساء" و "ابن ماجه" ، ثم أراد شيخه رحمه الله تعالى سفر الحج ، فخلفه مقامه وجعله شيخ المعهد وشيخ الحديث ، فكان يدرس "صحيح البخاري" و "جامع الترمذي" وغيرهما ، فنفاضت علومه ومزاياه إلى أن استقال من منصب درسه في سنة ١٣٤٥ هـ ، ورحل في شهر ذي الحجة ١٣٤٦ هـ إلى "دابهيل" في مديرية "سورت" ، على بعد نحو ١٥٠ ميلاً من عاصمة "بمباي" فظهر بوجوده معهد كبير يسمى اليوم بـ "الجامعة الإسلامية" ، وإدارة تأليف تسمى "المجلس العلمي" ، فاشتغل بالدرس والتأليف بضع سنين إلى أن وافاه القدر المبرم ، فقضى نحبّه في ديوبند في ثلث الليل الآخر ليلة الإثنين ، ثلاث صفر عام اثنين وخمسين من القرن الرابع عشر للهجرة (١٣٥٢ هـ) رحمه الله ورضي عنه .

قال محقق العصر شيخنا العثماني : سمعت عن حكيم الأمة مولانا الشيخ

أشرف على التهانوى أنه قال : رأيت عن بعض المستشرقين كلمة في الإمام الغزالي ، وإن وجود مثل الغزالي في الأمة المسلمة دليل عندى على أن الإسلام دين سماوى حق اه . ثم قال الشيخ التهانوى : وعندى وجود الشيخ محمد أنور " الكشميرى " من الدلائل على أن الإسلام دين سماوى حق اه .

وقال مفتى الديار الهندية الشيخ محمد كفايت الله الدهلوى فى كتاب له إلى بعض معارفه : إن فكرتى وحواشى أضحت معطلة بداهية موت الشيخ محمد أنور رحمه الله ، كان أمة إماماً مقداماً ، إنه لم يمت ولكنه مات العلم والعلماء اه .

كان والده شاعراً مجيداً بالفارسية ، وكان عالماً فاضلاً فى الفرائض والعلوم الرباضية وبعض العلوم الآلية ، فأصبح الشيخ رحمه الله شاعراً وفاضلاً فى تلك العلوم فى بيته .

وكان علم الفقه وعلم الفتوى فى كشمير مما يتسابق فى حلبة رهانها ، فأصبح الشيخ فقيهاً مفتياً لا يدرك شأوه ولا يشق له غبار ، حتى أفنى ثلاث سنين فيها المفتين والفقهاء فى الحوادث والنوازل والفتاوى العقيمة ولم يفتقر إلى مراجعة كتاب .

وصل إلى ديوبند فأدرك رجالاً جمعوا إلى علومهم الناضجة الرسمية علوم العرفاء والأولياء ، وجمعوا إلى دقة المدارك وإصابة الرأى ، رفق القول وصدق اللهجة ، أصحاب هبة ووقار ، وأصحاب سنة وورع وزهد وتقوى . فكانوا علماء عرفاء ربانيين أصفياء ، فكسته صحبتهم وإفادتهم علماً صحيحاً ورأياً صائباً وشغفاً باتباع السنة ، وبهاء فى الملكات الفطرية ، وجمالاً فى الأخلاق والأدب .

وكانت طبيعته مغرمة بالتوسع فى الإطلاع والتدقيق فى الموضوع ، ورزق توفيقاً دائماً فلا يسأم ولا يملحه كلال . فأصبح بحثاً محققاً ، نظاراً متبحراً ،

غواصا في المشكلات ، موفقا لحل الغوامض ، لطيف الفكرة ، دقيق الاستنباط ، سريع الحدس .

لا ينفصح المجال لذكر شئون حياته العلمية ، وقد أفردت لها جزءاً خاصاً حافلاً ، وذكرت هناك ما فيه مقنع وبصيرة سميته : ” نفحة العنبر من هدى الشيخ الأنور “ ، وبثت طرفاً من علومه المختصة بالقرآن في مقدمة ” مشكلات القرآن “ . ويكفي أن أقول : لم يستغن عن علمه مثل : ” حكيم الأمة التهانوي “ و ” محقق العصر العثماني “ بل أكابر شيوخه الذين تلقى العام عنهم ، ولم يستغن عن آرائه الدقيقة في الفلسفة مثل ” الفيلسوف الدكتور السر محمد اقبال الهندي (١) “ . ويكفي ما أثنى على إصابته رأيه ودقة فكرته شيخه أستاذ العالم ” محمود حسن “ الديوبندي رحمه الله .

أريد الآن كلمات من باب حياته العلمية ما يختص بالحديث ، وما يختص بدراسة ” صحيح البخاري “ ، وما يختص بأحاديث الأحكام ، ومؤلفاته في الحديث ، وأسانيده .

وحدثني يا سعد عنها فزدني * جنوناً فزدني من حديثك يا سعد

آدابه العامة في تدريس الحديث .

كان له رحمه الله خصائص في الدراسة ، تستولي على القلوب روعتها ،

(١) صدع بالاستفادة عنه في المحاضرات التي القاها في (مدارس) وشاهدت ذلك في لاهور (حين كنت زعيماً خادماً لاسام العصر في سفره الى كشمير سنة ١٣٤٨ هـ عند الاياب عن كشمير . وكان استصحبني معه) وكان يسأله في مشكلات القرآن ، ودقائق الفلسفة التي ذكرها امام العصر في قصيدته ” ضرب الخاتم “ ، وسمعت سنة ١٣٤٧ هـ في ديوبند من المحترم عبد الله جغتاي من اخص اصحاب الدكتور المرحوم : ان الدكتور اقبال يشنى كثيراً على دقة رايه في غوامض الفلسفة ، ويتمنى ان يشرح امام العصر نفسه آياته الغامضة في ” ضرب الخاتم على حدوث العالم “ . منه .

لم نرها في أحد من بعده .

منها : إنه كان يلخص الكلام في رجال الحديث إن كان لذكرها حاجة في الباب ، أو فائدة يستحسن ذكرها . وكان لا يطيل الكلام في الجرح والتعديل حيث كان يقول : ولم أكثر من نقل كلامهم في الرجال ، وما فيه من كثرة القيل والقال ، لأنه ليس عندي كبير ميزان في الاعتدال ، وبعضهم يسكت عند الوفاق ويجرح عند الخلاف ، وإذا دعيت نزال ، وهذا صنيع لا يشفي ولا يكفي ، وإنما هو سبيل الجدل .

نعم ، اعتنيت بتعيينهم ومعرفة عينهم ، فيستطيع الناظر من المراجعة والمطالعة ، ويتمكن من تخمير رأيه لا بالمسارعة .

ومنها : أنه كان عني بمنشأ الخلاف بين الأمة ، ولا سيما في المسائل التي تتكرر على رؤوس الأشهاد ، فكان يذكر في هذا الصدد أموراً تطمئن بها القلوب .

ومنها : أنه كان يعتنى بنقل غرر النقول من كلام القدماء ، والنقول التي تكون بعيدة عن متناول أيدي أهل العلم .

ومنها : أنه كلما ذكر كتاباً أو مؤلفاً في صدد النقل فكان يكشف عن منزلته في العلم ، وخصائصه قلما يجدها الناظر في كتب الطبقات والتراجم بغاية من الإنصاف ، من غير غرض عن قدره ، أو اطراء في شأنه ، ليكون بصيرة للطلبة ، ووسيلة إلى العلم الصحيح .

ومنها : أنه كان عني بحل المشكلات أكثر منه بتقرير الأبحاث وتكرير الألفاظ .

ومنها : أنه كان يهتم إكثار المادة في الباب دون الإكثار في بيانها وإيضاحها ، كأنه يضمن بعلمه المضمون ، ثم إن هذا الاحتياز في اللفظ والغزارة

في المادة أصبح له دأباً في تدريسه وتأليفه ، وكان كما قال على رضى الله عنه :
ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز وفي المعاني إطالة اهـ . حكاها
ابن الأثير في " المثل السائر " .

ويحكى أن حكيم الأمة الشيخ التهانوى يقول : إن جملة واحدة من
كلام الشيخ ربما تحتاج في شرحها وإيضاحها إلى تأليف رسالة اهـ .

وكان رأيه ما كشف عنه ابن النديم في " الفهرست " : النفوس (أطال
الله بقاءك) تشرّب إلى النتائج دون المقدمات ، وترتاح إلى الغرض المقصود
دون التطويل في العبارات اهـ .

ومنها : أنه كان لا يقتنع بذكر ما يختص بالموضوع ، بل ربما كان يذكر
أموراً لمناسبة دقيقة بينها وبين الموضوع ، حرصاً على بيانها إفادة للطلبة .

ومنها : أنه كان ربما يذكر أشياء وينقدها نقداً علمياً ، ويدل الطلبة على
منهاج النقد العلمى ، ويضع لهم أساساً لذلك ، ثم يستدرك ذلك (تنبيهاً لهم)
بمزية كلام أهل العلم ، والاحتياط عن الخوض في شأنهم بما تأبى جلالته
قدرهم .

وهذه أمهات خصائصه العامة في دراسة الحديث .

خصائصه في تدريس " صحيح البخارى " .

كان رحمه الله تعالى يدرس أولاً في عهد إقامته بديوبند " جامع الترمذى "
و " صحيح البخارى " فكان أفرز دراسة " جامع الترمذى " لتحقيق أحاديث
الأحكام ، وتبيين مذاهب الأئمة واستيعاب أدلتها ، وترجيح ما هو الراجح
منها ، كما كان هو دأبه ، ولما اقتصر تدريسه في الآخر على " صحيح البخارى "
فكان يعتنى فيه بما كان يعتنى به في " جامع الترمذى " ما عدا المهمات التى

كان يتصدى لبيانها في الصحيح ، فانتهت خصائص تدريسه لـ "صحيح البخارى" إلى أمور :

الأول : أنه كان يستوعب أدلة المذاهب بما لها وما عليها في أحاديث الأحكام على حسب دأبه الذى ذكرته في آداب دراسته العامة .

الثانى : أنه كان ينتقى غرر النقول من شرح الصحيح ، كأنها ورقة موضوعة بين عينيه ، يذكر ما يشاء ويذر ما يشاء .

الثالث : أنه كان يلخص كلام الشارحين ، ويأمر بالمراجعة إن كان هناك بسط في الموضوع ، ويزيد عليه ما كان عنده من الأبحاث الدقيقة والمواضيع المهمة ، مما جمع الله في صدره المتلاطم بالعلوم والمعارف .

الرابع أنه كان يتعرض لكثير من مشكلات العلوم ، وكان يذكر في حلها نفائس ما يساوى رحلة حيث يكون الصحيح آخر كتاب في آخر سنة من الفراغ ، على نظام الدراسة في الهند غالباً ، ولا سيما لمسائل الكلام ، لأن الإمام البخارى أيضاً يتعرض لها كثيراً ، ولا سيما في كتاب التوحيد الموضوع لذلك . فكان يتكلم فيها كمسلك المحققين من قدماء المتكلمين ، وكان يقول : كلام البخارى في التوحيد على مسلك القدماء ، وهؤلاء الشارحون لما استأنسوا بالتوحيد الذى دار بين المتأخرين ربما تقصر مداركهم عن مدارك الإمام البخارى ، فيتأولون كلامه بما هو برئ عنه اهـ . ومن أجل ذلك كان يعنى بأمثال هذه المواضع اعتناءً بليغاً .

الخامس : أنه كان يضع عن يمينه ويساره كثيراً من كتب الحديث ، ولا سيما من متون الحديث ، فإن كان فيها إشكال في موضوع يتعلق بالصحيح فكان يفتحها ويقرأ ما على الطلبة ويحل الإشكال ، أو كانت هناك فائدة تلام الموضوع فيذكرها بعبارتها ، فكان درس الصحيح كان درساً لسائر الأمهات ،

بل ما عداها أيضاً .

فهذه مميزات درسه "صحيح البخارى"، لا تجد بعضها فى درس غيره ، ومن أجل ذلك كل من كان ضليعاً فى العلوم ، واسع الاطلاع ، حديد الذهن ، قوى الحافظة ، ثاقب الفكر ، كان يقوم من عنده بحظ وافر ، وبصيرة نافذة ، ومن ثم كان منشأ لإخفاق القاصرين ، ومن لم يكن فى ذهنه متسعاً لأمثال هذه الأبحاث الجليلة .

ميزته فى شرح أحاديث الأحكام .

كنت قد ذكرت عشر خصائص من آدابه فى شرح أحاديث الأحكام فى "نفحة العنبر" ، ولا فسحة فى الوقت لذكرها تفصيلاً ، وإنما أريد لفت النظر إلى جملة منها باختصار مع إيضاح وزيادة .

منها : أنه كان همه فى الأحاديث التى اختلفت اتباع أهل المذاهب فى معانيها أن يقف على غرض الشارع ، فإذا استبان عنده استمسك به ، ولم يحفل بعموم اللفظ ، ولا باختلاف اتباع المذاهب . مثاله : ما فى "فيض البارى" (من ص ٤ إلى ص ١١ من الجزء الأول) ، فراجعه وقابله بما ذكره الشارحون حتى يطمئن به قلبك .

ومنها : أنه إذا تعددت طرق الحديث فلم يكن يدير الكلام على طريقة واحدة ، بل كان يجمعها إن أمكن الجمع ، وإلا فيتوخى ما هو أوفق بغرض الشارع أو أقرب إليه . مثاله : ما فى "فيض البارى" فى المواقيت من الجزء الثانى من شرح قوله ﷺ : «من أدرك ركعة من الصبح الخ» فراجعه .

ومنها : أنه إذا تجاذبت الأحاديث وتضاربت نصوص الشارع ، ولم يتعين غرض الشارع بيقين ، وكان الكل سائغاً عنده فيحمل اختلاف الأئمة فى أمثال هذا على الأولوية ، ولم يكن يزعمه مخالفاً للمذهب ولا خروجاً عنه . راجع

لمثاله : بحث الترجيع في الأذان ، واختلاف الجهر والإسرار بالتأمين ، ورفع اليدين في غير التحريمة من الجزء الثاني من "الفيض" . وإن تعين غرض الشارع كان هو المحمل الصحيح عنده . راجع ص ٢٩٤ من الجزء الأول في باب وضوء الرجل والمرأة ، ومسألة جواب الأذان من الجزء الثاني .

ومنها : إذا اختلفت الروايات من صاحب الشريعة ، واختلفت الرواية من الإمام أبي حنيفة فكان محمل كل رواية على كل حديث ، وكان الكل جائزاً ، وإن تفاضلت في الرتبة وكان بعضها أولى من بعض . راجع ص ٢٨٨ من الجزء الأول من "الفيض" في مسألة المسح على الرأس .

ومنها : أنه إذا صح حديث والرواية المشهورة عن أبي حنيفة كانت مخالفة له ، غير أنه يوجد في الباب رواية عن الإمام ، فكان المذهب عنده ما دل عليه الحديث ووافقت رواية من الإمام ، كالسواك عند القيام إلى الصلاة . فكان يقول : يستحق لمن يثق بعدم خروج الدم من الأسنان ، فإن ذلك ناقض الوضوء عند الحنفية .

ومنها : أنه إذا تعين غرض الشارع ولم يجد في الباب رواية عن الإمام توافقه ، بل صادف رواية عن الصاحبين أو أحدهما ، فكان هو المذهب الحنفي عنده . مثاله : مسألة الخمر ، فكان يقول : غرض الشارع هو النهي عنها سواء كان من العنب أو غيره ، وسواء كان قليلاً أو كثيراً ، وسواء أسكر قليله أو لم يسكر ، وإليه ذهب الجمهور ، وأبو يوسف ، وهو من أصحابه ، فتعين المصير إليه .

هذا ما تيسر لي بالإجمال ، والغرض منه لفت النظر ، وهذا كتابه وأماله أمامك فراجعه حتى ينبجج كفلق الصبح ما حاولته . والصبح منبجج لعين رائيه . وأريد أن أذيل هذا الموضوع بكلمات من إمام هذه النهضة الدينية

الإمام الشاه ولي الله الدهلوى ليتضح أن مسلك إمام العصر هو المسلك الأعلى والطريقة المثلى، وإليه ذهب المحققون من الفقهاء المحدثين من أهل المذهب الحنفى .

قال الإمام الشاه ولي الله الدهلوى فى "فيوض الحرمين" (ص ٦٢) :
ثم كشف لى أنموذجاً ظهر لى منه كيفية تطبيق السنة بفقهاء الحنفية من الأخذ بقول أحد الثلاثة ، وتخصيص عموماتهم ، والوقوف على مقاصدهم ، والاقتصار على ما يفهم من لفظ السنة وليس فيه تأويل بعيد ، ولا ضرب بعض الأحاديث بعضاً ، ولا رفض الحديث صحيح بقول أحد من الأئمة وهذه الطريقة إن أتمها الله وأكملها فهى الكبريت الأحمر والإكسير الأعظم اه .

قلت : وهذه الطريقة التى وضع أساسها الإمام قد شرع تكميلها فى عهد نجله الأكبر الحجة الشاه عبد العزيز رحمه الله ، ثم زيدت فى عصر الشيخ المحدث مولانا رشيد أحمد الكنكوهى ، وشيدها المحدث الشيخ محمود حسن الديوبندى رحمه الله ، وأكملها إمام العصر صاحب هذه الأمانى رحمه الله .

وقال (فى ص ٤٨) : عرفنى رسول الله ﷺ أن فى المذهب الحنفى طريقة أنيقة هى أوفق الطرق بالسنة المعروفة التى جمعت ونقحت فى زمان البخارى وأصحابه . وذلك أن يؤخذ من أقوال الثلاثة قول أقربهم بها فى المسألة ، ثم ذلك يتبع اختيارات الفقهاء الذين كانوا من علماء الحديث . (وفى نسخة مخطوطة فى مكتبة الشيخ عبد الستار الهندى بمكة هنا زيادة : "كالخافض أبى جعفر الطحاوى" ، قاله الشيخ عبيد الله الديوبندى) .

فرب شئ سكت عنه الثلاثة فى الأصول وما تعرضوا لنفيه ودلت الأحاديث عليه فليس بد من إثباته ، والكل مذهب حنفى اه .

وقال (في ص ١٠٣): تراءى لى أن فى المذهب الحنفى سرّاً غامضاً، ثم لم أزل أتحدّق فى هذا السر الغامض حتى شاهدت أن لهذا المذهب - يؤمننا هذا - رجحاناً على سائر المذاهب بحسب هذا المعنى الدقيق ٥١ .

وراجع ما ذكر فى كتابه " التفهيمات الإلهية " (ج - ١ ص ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٢ و ١٥٣ ، طبع المجلس العلمى) .

وقال فى " حجة الله البالغة " (ص ١٥٦ ج - ١ طبع المنيرية) : ومنها أن التخرّيج على كلام الفقهاء وتبّع لفظ الحديث لكل منها أصل أصيل فى الدين ، ولم يزل المحققون من العلماء فى كل عصر يأخذون بهما ، فمنهم من يقل من ذا ويكثر من ذلك ، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذلك ، فلا ينبغي أن يهمل أمر واحد منهما كما يفعله عامة الفريقين ، وإنما الحق البحث أن يطابق أحدهما بالآخر ، وأن يجبر خلل كل بالآخر ٥١ .

وراجع ما قاله فى " الحجة " (ص ١٥٨ إلى ص ١٦١ ج - ١ و ص ١١ و ١٢ ج - ٢) ، وراجع أيضاً (ص ٢٠٢ ج - ٢) من " التفهيمات " .

وقال (فى ص ٢١٥ ج - ١ من " التفهيمات ") : وإن قصرت أفهامكم فاستعينوا برأى من مضى من العلماء ما تروه أحق وأصرح وأوفق بالسنة ٥١ . وفى رسالتيه " الإنصاف " و " عقد الجيد " ما يكفيك أن تقتنع به . وفى هذه الإشارات مقنع لطلبة العلم ، وللوسط مجال غير هذا . والله الموفق .

مؤلفاته فى الحديث .

- (١) فيض البارى على صحيح البخارى ، من أماليه فى درس الصحيح .
- (٢) العرف الشذى من جامع الترمذى ، من أماليه فى درس جامع الترمذى .
- (٣) أماليه على " سنن أبى داود " المطبوع منه جزء واحد والباقى لم يطبع .

- (٤) أماليه على "صحيح مسلم"، ضبطها الفاضل الشيخ مناظر أحسن الجيلاني، الأستاذ بالجامعة العثمانية بجيدر آباد دكن، من أصحابه، ولم تطبع.
- (٥) حاشية على "سنن ابن ماجه" وكانت موجودة برهة طويلة لدى الشيخ السيد محمد إدريس المدرس بالجامعة الإسلامية، لكن اليوم لا يدرى أين ضاعت هي. هذا ما يتعلق بالأمهات الخمس من الست.
- (٦) فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب.
- (٧) خاتمة الخطاب في فاتحة الكتاب.
- (٨) نيل الفرقدين في رفع اليدين.
- (٩) بسط اليدين لنيل الفرقدين.
- (١٠) كشف الستر عن مسألة الوتر.
- (١١) التصريح بما تواتر في نزول المسيح.

وكل هذه المؤلفات طافحة بأبحاث سامية، لا يستغنى عنها كل من حاول بحثاً دقيقاً في الموضوع، وما عدا هذه، فله حواش على "آثار السنن" للمحدث النيموى، ولو خرجت حوالاتها لأصبح ذلك كتاباً في عدة أجزاء، وانتقى من "مسند أحمد" الأحاديث التي يستدل بها أو يستأنس بها للحنفية. وله مذكرات قيمة في كثير من الأبحاث الحديثية، من مسألة "المثل أو المثاليين في وقت الظهر" وحديث: «من أدرك ركعة من الصبح الخ»، وفي أحاديث تختص بنى القرنين ويأجوج ومأجوج وغيرهما مما رآها مشكلاً في موضوعه.

أسانيد في الحديث.

لإمام العصر أسانيد في الحديث أحببت أن أذكرها بالإجمال مع الإشارة إلى طرقها وإلى الإثبات التي ينتهى إليها سند، فإن الإسناد من خصائص

هذه الأمة، وفضله أظهر من أن يقام عليه دليل، فن الحتم علينا حفظه وإبقاؤه.
الإسناد الأول : يروى رحمه الله تعالى عن شيخه المحدث شيخ الهند
محمود حسن الديوبندى عن شيخه الحجة العارف محمد قاسم النانوتوى ح
وعن شيخه المحدث الفقيه الشيخ رشيد أحمد الكنكوهى ، كلاهما عن المحدث
الشيخ عبد الغنى المجددى الدهاوى .

ح : ويروى شيخ الهند عالياً عن الشيخ عبد الغنى ، وعن الشيخ أحمد
على السهارنفورى، وعن الشيخ محمد مظهر النانوتوى ، وعن الشيخ عبدالرحمن
الغانيفتى . وهؤلاء الأربعة عن الشيخ المحدث محمد اسحاق الدهاوى عن جده
لأمه المحدث الحجة الشاه عبد العزيز عن والده الإمام الشاه ولى الله الدهاوى .

ح : ويروى الشيخ عبد الغنى عن الشيخ محمد عابد السندى ثم المدنى .
وحصلت لإمام العصر شيخنا إجازة عن المحدث الكنكوهى بالإسناد
المذكور سنة ١٣١٩ هـ تاسع ذى الحجة . وأسانيد الشيخ محمود استوعبها
الشيخ عبيد الله الديوبندى فى أول كتابه " التمهيد لأئمة التجديد " .

وأسانيد الشيخ عبد الغنى مذكورة فى " البيان الجنى " ، وطبع بالهند مرتين.
وأسانيد الشيخ محمد عابد مذكورة فى " حصر الشارد " .

وأسانيد الشاه عبد العزيز فى رسالته " العجالة النافعة " . وأسانيد والده
الإمام فى رسالته " الإرشاد إلى مهمات علم الإسناد " ، وفى القسم الثانى من
" الإنتباه فى سلاسل أولياء الله " ، وفى " القول الجميل " ، كلها من مؤلفاته .

وإليك صورة ما كتبه الشيخ محمود حسن الديوبندى إجازة له بيده

الشريفة (١) :

(١) صادفت هذه الورقة فى مذاكرات امام العصر ، غير انه ضاع موضع توقيع
الشيخ محمود وتاريخها وبعض جوانبها باكل الدوده . نعم كونها عقيب
الفراغ فى حدود سنة ١٣١٥ هـ معلوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرفنا بحوامع الكلم ، وأمرنا بأن نصلى على سيد ولد آدم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه ، ونسلم . رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن والحديث قدوة وإماماً .

أما بعد ، فيقول المفتقر إلى الله الودود الحقير الصغير المدعو بـ "محمود" تجاوز الله عن ذنوبه وذمائم خصاله ، ووقاه بمنه من شر نفسه وسوء أعماله : إن أخى فى الله المولوى "محمد أنور شاه" دخل فى هذه المدرسة وفرغ عن جميع الكتب المتداولة فى علوم شتى ، وقد قرأ على واستمع عندي "الصحيح" للبخارى و"الجامع" للترمذى و"السنن" لأبى داود السجستانى ، والمجلد الثانى من "الهداية" إلى كتاب العارية ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ، وأفاض علينا من بركاتهم إلى يوم الدين .

فأحسبه — والله سبحانه حسبه — أهلاً للعلوم ، قد أعطى فهماً ثاقباً ، ورأياً صائباً ، طبيعة ذكية ، وأخلاقاً رضية ، فأجيزه كما أجازنى مشائخى الكرام أن يروىها عنى بشرط الضبط والتميز والإتقان والتثبت ، وبشرط استقامة العقائد والأعمال على طريقة الصحابة والتابعين ، وحسن التأدب بحضرة المحدثين والمجتهدين ، وأوصيه كما أوصى نفسى بتقوى الله تعالى واتباع السنة والتجنب عن حطام الدنيا وأهل البدعة ، والاشتغال بالعلوم السنية الدينية . وأسأل الله الكريم لى وله أن يوفقنا لما يحب ويرضى ويجعل آخرتنا خيراً من الأولى . وصلى الله تعالى على نبيه وحبيبه وعلى

آله وأصحابه أجمعين . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .
العهد

وهذه صورة ما أجازته الفقيه المحدث الكنكوهي رحمه الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد
سيد الأنبياء والمرسلين وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين .
أما بعد : فيقول المفتقر إلى رحمة ربه الصمك الفقير الأحقر المدعو
بـ "رشيد أحمد" الأنصاري نسباً والجنجوهي (الكنكوهي) موطناً،
تجاوز الله تعالى عن زلله ومعائبه ورضى عنه وعن مشائخه :
إن المولوى محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري قد قرأ على
من أثق به الأمهات الست المشهورة عند المحدثين المحتوية للصحاح
والحسن من أحاديث الرسول السيد الأمين "الصحيحين" للشيخين
و"الجامع المسند" للترمذي "والسنن" لأبي داود السجستاني
و"السنن" للنسائي و"السنن" لابن ماجه القزويني رضى الله
عنهم أجمعين، وأفاض علينا من بركاتهم وجمعنا معهم يوم الدين .
وأنا أجزيه أن يرويهما غنى بشرط الضبط والإتقان في الألفاظ
والمعاني والتميز والتثبت في المقاصد والمباني ، وبشرط استقامة
العقائد والأعمال على طريقة الصحابة والتابعين وحسن التأديب
بحضرة العلماء المحدثين والمجتهدين . وأوصيه بتقوى الله تعالى
والاعتصام بسنة سيد المرسلين وبالإجتناب عن البدع المخترعة في
الدين والتعبد عن صحبة المبتدعين، وبالاشتغال بإشاعة العلوم السنية
الدينية، والاحتراز عن التدنس برذائل الفلسفة وحطام الدنيا الدنية .
وأسأل الله لي وله أن يوفقنا لما يحب ويرضى، أن يجعل آخرتنا خيراً من

الأولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، والصلاة والسلام
على سيدنا ومولانا محمد نبيه الكريم وآله وصحبه وأتباعه ناصري
طريقه القويم فتمط حررته تاسع ذى الحجة من الشهر المنتظم
في سنة ألف وثلاثمائة وتسع عشرة من الهجرة على صاحبها ألوف
الصلوات والتسليمات والتحية اهـ .

إنما نقلت الإجازتين بلفظهما لينجلي في هذه المرآة ما يترقرق في خلال
سطورها من مسلك مشائخنا الديوبنديين من عدم الإفراط والتفريط في الأمر
والحرص على إتباع السنة والنقمة عن البدع المحدثه في الدين ، وما عدا ذلك
ما لا يخفى ، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الإسناد الثاني : يروى رحمه الله تعالى عن شيخه المحدث محمد اسحاق
الكشميري المتوفى في حدود سنة ١٣٢٠ هـ في المدينة المنورة ، عن الشيخ السيد
نعمان عن والده الشيخ السيد محمد آلوسى مفتى بغداد وعالمها صاحب
”روح المعاني“ ، وأسانيده المذكورة في ثبته ولم يطبع ، وذكرها في كتابه
”غرائب الإغتراب ونزهة الألباب“ بإجمال ، وهو مطبوع سنة ١٣٢٧ هـ
بيغداد ، ويشير هناك إلى نيف وسبعين ثبناً لمشائخه الأثبات ، فراجعهم .

ويروى رحمه الله تعالى بهذا السند عن شيخه محمد اسحاق سائر كتب
الصحيح وعدة مسلسلات وأحاديث جنية ، وما قرأه خاصة عليه من كتب
الحديث من ”صحيح مسلم“ كله و”سنن ابن ماجه“ كله و”سنن النسائي“ إلا
بعضاً من آخره ، و”موطأ مالك“ إلا قدرأ من آخره و”رسالة سعيد بن
سنبل“ وما عدا ذلك من الكتب الدينية .

الإسناد الثالث : يروى رحمه الله تعالى عن الشيخ حسين بن الشيخ
محمد الجسر الطرابلسي الشامي صاحب ”الرسالة الحميدية“ وغيرها ، حصلت

له الإجازة عنه سنة ١٣٢٣ هـ بالمدينة المنورة ، زادها الله كرامة ، وهو يروى عن الشيخ عبد القادر الدجاني الياقي عن والده الشيخ محمد الجسر وشيخ والده الشيخ محمد بن حسن الكتبي المتوفى سنة ١٢٨٠ هـ ، كلاهما عن الأمير الكبير أبي عبد الله محمد بن محمد المالكي المتوفى سنة ١٢٣٢ هـ ، وعن الشيخ الفقيه المحدث السيد أحمد الطحطاوى التوقادى الحنفى المتوفى سنة ١٢٣١ هـ .

وكذا يروى عن الشيخ حسين الجسر بسنده إلى الشيخ محمد أمين المدعو بـ "ابن عابدين" الشامي الحنفى المتوفى سنة ١٢٥٢ هـ ، وأسانيد الشيخ محمد الأمير في ثبته المعروف ، وطبع بمصر سنة ١٣٤٥ هـ ، وأسانيد السيد الطحطاوى في ثبته الخاص ، ولم يطبع . وأسانيد الشيخ ابن عابدين في ثبته المعروف "عقود الآلى في الأسانيد العوالى" ، وقد طبع بمصر .

وهذه صورة إجازة الشيخ حسين الجسر ما نصه (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم

"الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فقد أجزت أخانا فى الله الفاضل الشيخ محمد أنور بن المولوى معظم شاه الكشميرى بسند الأستاذ الشيخ محمد الأمير المصرى وبسند الشيخ أحمد الطحطاوى المصرى الحجاز بهما من سيدنا الشيخ عبد القادر أبى رباح الدجاني الياقي الحجاز بهما من المرحوم والدى الشيخ محمد الجسر ، ومن الشيخ والدى

(١) وليفهم هذا السند بالتفصيل الذى ذكرته ولم يكن واضحاً ترتيبه فاستفدت من الأستاذ الشيخ الكوثرى طال بقاؤه ، فافاد ما ذكرته ، وعلم منه انه لم يتلق من والده ، فلمعله مات وهو صغير حيث تراه ، يروى عن والده بواسطة الشيخ عبد القادر الدجاني .

المرحوم الشيخ محمد الكتبي وهو قبل منى ذلك . وأوصيه بتقوى الله وبحفظ شرف العلم وبالدعاء لى بالخير كما أجزته بحديث الأولية بالرحمة ، وهو ما روى عنه عليه الصلاة والسلام من قوله : الراحون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

كتبه الفقير إليه تعالى حسين الجسر الطرابلسى عفى عنه .

هذا بما تيسر لى من ذكر أسانيدہ بما اطلعت عليه ويحتاج تفصيلها وجمعها إلى مجلد ضخيم فإنها تحتوى على أسانيد الهند ، والجرمين ، والشام ، ومصر ، وبغداد ، من الحنفية والشافعية والمالكية ، وإن وقفت إلى جمعها لأفردت لها جزءاً والله الموفق . وقد ذكرت مصادرہا ومراجعہا بما وقفت عليه ليكون أصحابہ على بصيرة من الأمر ، هذا ما حاولته فى هذه الفسحة من ذكر نبذة من ترجمة إمام العصر صاحب "فيض البارى" . والموضوع يقتضى فراغاً من الوقت ونشاطاً من الفكر والطبع . وإذا كان طرف من حياته موضوع بحث فالجمال واسع جداً . ولا بد أن يعود الباحث وإن أجهد نفسه متمثلاً بما قيل :

مدحتك جهدى بالذى أنت أهله * فقصر عما صالح فيك من جهدى
فما كل ما فيه من الخير قلته * ولا كل ما فيه يقول الذى بعدى

* * *

التكملة الثالثة .

وقلت في مقدمة "عقيدة الإسلام" :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل علماء هذه الأمة كمنجوم السماء ، فبهم يهتدى فى دياجر الكفر وظلمات الإلحاد غاية الاهتداء، وبهم زينة هذه البسيطة الغبراء، وبهم يرجم شياطين الإنس فى كل ليلة ليلاء، والصلاة والسلام على سيد الرسل محمد خاتم الأنبياء الممثل للأمة بالمطر، والمبشر بنزول سيدنا عيسى روح الله الأطهر فيصلح به الأمة العوجاء، وعلى آله الأصفياء وصحبه السعداء ما استنار القمر وتجلت ذكاء .

أما بعد : فللشيخ إمام العصر مولانا محمد أنور شاه الكشميرى محقق هذه القرون أباد بيضاء فى تحقيق مشكلات العلوم وصعاب المسائل ودقائق الحوادث والنوازل ، وكان مرجعاً فى هذه البلاد لحل كل غامض دقيق فى أى علم من العلوم ، وكان مبدع طريقته العذراء فى تدريس العلوم النبوية وتحقيق كل ما له صلة بالمقام متناً وسنداً وجرحاً وتعديلاً، وكان آية من آيات الله فى استحضار مذاهب الأمة وتحقيقها، ومجدد طريقته فى أحكام خلافة من مذاهب الفقهاء ، كما له من كبرة فى القيام بالرد على أهل البدع والفتن ، خصوصاً أكبر فتنة هذه القرون "الفتنة القاديانية المرزائية" ، وتوجيه العلماء وحثهم على القيام بواجبهم فى استئصال شأفة هذه الشجرة الحبيثة ومساعدتهم قلماً ولساناً بذخائر من علومه وكنوز من مذاكرته ، حتى تيسر لأفاضل أصحابه تأليف كتب ورسائل فى القضاء عليها باللغة العربية وباللغة الرائجة فى البلاد أى اللغة الأردوية ، لا ، بل كل ذلك

ابتغاء لوجه ربه الأعلى ، فكان بابه مفتوحاً لكل ناشد ، وكنوزه أمام كل صادرو وارد ، يذوب قلبه الذكي الحساس بهذه الفتنة العمياء ، ويتألم روحه الذكي بتغاغل أهل العلم عن الذب عن حوزة الدين وحفظ سياجه ، وكثيراً ما يهجم عليه من تلك الأفكار ما يبيت له ساهراً متململاً ، فكان يود أن يكون رأيات الحق مرفوعة وأعلام الباطل منكوسة ، فرغت أن أذكر للناظر شيئاً من ترجمة هذه الإمام وحياته بغاية اختصار ، ثم أعقبها بشئ مما يتعلق بخصائص كتابه "عقيدة الإسلام" .

اسمه ونسبه وولادته ونشأته الصالحة ودراسته العلمية .

هو : الشيخ الإمام المحدث الكبير محقق هذه العصور إمام العصر مولانا محمد أنور شاه بن الشيخ معظم شاه بن شاه عبد الكبير ، ينتهي نسبه إلى الشيخ مسعود النورى الكشميرى ، جاء سلفه من بغداد إلى ملتان ، ورحلوا منها إلى لاهور ، ومنها إلى كشمير ، فأصبحت لذريته مستقراً ومقاماً ، وكان كما قال القائل :

فألقى عصاه واستقر به النوى * كما قر عيناً بالإياب المسافر

وكانت ولادته يوم السبت السابع والعشرين من الشوال سنة ١٢٩٢ هجرية بكشمير ، وكان والده عالماً تقياً كبيراً شيخاً في الطريقة السهروردية ، وتسلسلت هذه الطريقة في سلسلة نسبه صلباً بعد صلب ، وكانت والدته صالحة عابدة ، فنشأ في ظل عطوفتهما وتربى تربية صالحة حتى إن والده في صغره يوقظه بالليل حين يقوم ، فكان يجلسه بجنبه وهو يصلى . فهكذا كانت تنزل عليه البركات ويحيط به صالح الدعوات وهو صبي لم يتعرع بعد ، فنشأ في بيت علم وصلاح في رعاية دقيقة وتربية عجيبة ، أخذ مبادئ قراءته على والده ، ثم

على علماء كورته، ثم على علماء بلاده في كشمير ونواحيه، ثم سافر إلى حدود كشمير إلى بقاع مديرية "هزاره"، ثم وصل إلى أكبر مركز علمي بالهند "دار العلوم" بقرية "ديوبند"، بقرب عاصمة "دهلي" وكان محطاً لرجال الأفاضل، وكان حقاً قرطبة الهند وأزهرها إلى أن تخرج منها عالماً فاضلاً يشار إليه بالأصابع في علمه وسعة نظره وورعه وتقواه، وذلك سنة ١٣١٣ هجرية، سمعت والده رحمه الله سنة ١٣٤٧ بكشمير: أنه كان يسألني أسئلة في درس "مختصر القدوري" أحتاج إلى مطالعة "الهداية" ثم فوضت دراسته إلى عالم آخر سماه لي، فقال: يشكو كثرة سؤالاته، وكان خارج دراسته سائلاً صامتاً - لا يرغب فيما يرغب إليه الصبيان والأطفال من الملاعب - سمعت والده رحمه الله: أتيت به إلى شيخ عارف بحاجب الدعوة في بلادنا فلما رآه قال: سيكون أعلم أهل عصره في العلوم. وقال: تفرس فيه بعض أعلام عصرنا لما رأى له تعليقات على كتبه الدراسية: بأنه سيكون غزالي عصره ورازي دهره.

سمعت الشيخ رحمه الله نفسه: أني قرأت كتب الفارسية الرائجة في بلادنا خمس سنوات وبقيت في تعلم العلوم العربية خمسة أعوام، فكان عهد تعلمه كله لا يتجاوز عشر سنوات، سمعت ثقة وهو مولانا مشيت الله البجنوري من أصدقائه وتلامذته: أنه كان لا ينام مضطجعاً إلا ليلة الجمعة، فكان ما عدا ليلة الجمعة يسهر ليلاليه بالمطالعة، وإذا غلبه النوم نام جالساً، سمعت من الشيخ رحمه الله نفسه: أني طالعت في رمضان "عمدة القاري" كلها حين أردت في العام المقبل دراسة "صحيح البخاري" على شيخنا الإمام مولانا محمود حسن الديوبندي المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ، ثم كنت أطلع على "صحيح البخاري" "فتح الباري" درساً درساً، وربما يكون مطالعة مجلد واحد بالليل، ومرضت مرة سبعة عشر يوماً فلم أحضر في الدروس، ولما حضرت بعد ما عوفيت لم يصل درس الشيخ إلى ما وصل إليه المطالعة. "صحيح البخاري" وشرحه "فتح

الباري“ للحافظ ، سبحان الله العظيم ، نعم : نفس عصام سودت عصاماً .
وكان يقول : قرأت بديوبند على شيخنا المحمود رحمه الله الجزئين الآخرين من
”الهداية“ و”صحيح البخاري“ و”سنن أبي داود“ و”جامع الترمذي“، وقرأت
على شيخنا مولانا محمد اسحق الكشميري ثم المدني المتوفي بها ١٣٢٢ هـ ”صحيح
مسلم“ و”سنن ابن ماجه“ ، وقد أفردت حياته العلمية في كتاب سميت به : ”نفحة
العبر في حياة الشيخ أنور“ ، وشيئاً من حياته وخصائصه في مقدمة ”فيض الباري“
على ”صحيح البخاري“ وفي مقدمة ”مشكلات القرآن“ فلنقتنع بهذه الكلمة المختصرة.

أعماله وأشغاله .

كان يحب أن يعيش خائلاً لا يعرفه أحد عاكفاً على المطالعة ،
ولكن اضطر إلى أعمال فرجه أولاً صديقته مولانا أمين الدين الدهلوي
أن يساعده في تأسيس مدرسة بدلي ، فلبى دعوته وأعانته في تأسيس المدرسة ،
وسماه : ”مدرسة أمينية“ ، وكان أول صدر المدرسين بها وأول من
تبرع إلى المدرسة بإعطاء عشرة روبيات من عنده تبرع لإخلاص وإيثار ، ثم
رجع إلى بلاده كشمير ، فأخذ يذكر الناس ويعظهم ، واجتهد في إصلاح الشعب
من تصحيح عقائدهم وما حدث فيهم من زيغ وبدعة ، فكان يطوف قرية
قرية يعظهم موعظات بليغة باللغة الكشميرية ، وكان فصيحاً فيها والناس
يكونون ويتأثرون حتى بنى مدرسة دينية في كورة ”باره موله“ سماها : ”مدرسة
الفيض العام“ فأصلح بها أمة هناك ، ثم سافر إلى الحجاز المقدس للحج والزيارة ،
وذلك سنة ١٣٢٣ هـ ، ومكث هناك شهوراً وطالع كتباً كثيرة في ”مكتبة شيخ
الإسلام عارف حكمة الله“ و”المكتبة الحمودية“ وغيرها ، ولاقي رجال العلم
والفضل في تلك الرحلة ، وظهر فضله ونبله ، ومن لاقى : الشيخ حسين بن
محمد الطرابلسي عالم السلطنة العثمانية ”صاحب الرسالة الحميدية“ ثم رجع إلى

ببلاده ومكث في كشمير أعواماً يدرس ويفتي العلماء، وكان أفق ثلاث سنوات للجهابذة، وفي نوازل المسائل وفي المسائل الخلافية بين أرباب الفتوى في بلاده، ولم يحتاج إلى مراجعة كتاب من الفقه للإفتاء، كما سمعت منه نفسه رحمه الله، ثم عزم على الرحلة إلى الحرمين بقصد الهجرة من بلاده وحضر ديو بند لزيارة شيخه الكبير مولانا العارف الشيخ محمود حسن الديوبندي المدعو بـ "شيخ الهند" في طريقه إلى ديار الحرمين، فالشيخ أحس أن البلاد الهندية ومركز العلوم الإسلامية أحوج إلى فيضه الغزير، وهذه البلاد المجربة تشاق إلى هذه المزنة الوطفاء، فأصر عليه بالإقامة بـ ديو بند حتى استلم منه زاد سفره وزود به آخر للحج والزيارة كما سمعت منه نفسه رحمه الله، فصار مدرساً للحديث، ثم جعله نائباً عنه في التدريس وصدر المدرسين حين عزم على رحلته إلى ديار الحجاز المقدسة، وذلك سنة ١٣٣٣هـ، ومكث يدرس الصحاح الست وأمهات الحديث، فأصبح مسنداً في هذه البلاد واشتهر صيته في أكناف هذه القارة الكبيرة، وأصبح باباً محطاً للرحال وملجأ للرجال، وأصبح وجوده العلمي سبباً لإصلاح طرق التدريس وتحليل غوامض المسائل، فكان يتدفق بحره المتلاطم من علومه، فيفيض من كل ناحية يسقي الأجادب ويروي غليل العلم، وكان يجود بثروته العلمية وإنفاق مذكراته الحاوية ذخائر العلم ونفائس الأبحاث على السائلين بساحة نفس وإخلاص وحرص على الإفادة، غريب إلى أن انزوى منصبه من صدارة التدريس في سنة ١٣٤٦هـ بأمور لا داعي لبيانها، فاكتنفه الدغاة والمخلصون من كل جهة إلى أن اضطر إلى الرحلة إلى قرية في نواحي بمبائي بقرب "سورت" تسمى "دابيل"، ونشأت بوجوده الميمون مدرسة كبيرة تسمى: "الجامعة الإسلامية" وإدارة تأليف ونشر باسم: "المجلس العلمي"، وأصبح سبباً لكثير من الكتب قيمة في شتى المواضيع، فقام بنشرها وطبعها، فكان يقضي حياته المكتبة في العلم والوعظ والتذكير،

فاستنارت تلك البقاع بنوره علماً وعملاً وسنةً وحديثاً ، وأصلح الله به هناك أمة ، وغلبت عليه رقة فيأخذ البكاء في دروسه ومواعظه ، فيبكي ويبكي ، وكان له عناية مدهشة في أواخر حياته المباركة بمسائل من حقائق إلهية من حقيقة الروح ، وحقيقة التجلي ، وشئون حياة برزخية ، ومعارف علم بديعة في مجالسه ومواعظه ودروسه ، إلى أن حان أجله المحتوم يديوبند في شهر صفر سنة ١٣٥٢ هـ ، رحمه الله رحمة الأبرار الصالحين ، ورضى عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مثواه .

خصائصه وشي من كلمات الأكابر والمعاصرين .

كان رحمه الله تعالى بحيث جمع الله له مع كرم النجار وشرف الأرومة تربية صالحة في ظل الأبوين الصالحين ، ونشأ في بلد من أعدل الإقليم في جوصاف غير كدر ، ورزق طبيعة زاكية وذكية ، ونال بركات دعوات الصالحين ، وتيسرت له أسباب من توفيق دائم ، وجهد متواصل لا يعرف مللاً وسآمة ، وصحة جيدة إلى الغاية لا تعرف كلالاً ، وعقل صاف ، وحافظة خارقة ، وشيوخ جهابذة عرفاء ربانيين صالحاء ، وجرت مشيئته الأزلية أن يكون أكمل أهل عصره علماً وديناً وورعاً وتقوى حديثاً وفقهاً ، أدباً وتاريخاً ، كلاماً وفلسفة ، غواصاً في المشكلات بجاذبة في الدقائق ، عاكفاً على المطالعة ، دائم التفكير ، طويل الصمت ، إذا سأل أحد عن مشكل غامض نهل وجهه المنير كالبرق وسال كالسيل الجرار ، أو صيب مدرار ، وجمع الله له مع نور التقى حسن وجهه وجماله ينبعث من وجهه النور وحسن أخلاقه ومكارمه ، فجمع الله فيه المحاسن من جمال الصورة وكمال السيرة وحسن الخلق ، فكان يملأ القلب والعين ، لم يكن تحت أديم السماء - فيما نعلم - أعلم وأكمل وأجمع لحصال الكمال منه .

قال فيه حكيم الأمة مولانا الشيخ أشرف على التهانوي : "إن وجود مثله

في الأمة الإسلامية آية على أن الإسلام دين حق وصدق ، سمعت هذا من شيخنا العثماني شبير أحمد صاحب "فتح الملهم" ثم سمعته من أكبر خلفاء حكيم الأمة الشيخ المفتي محمد حسن ، وأول ما سمعته من الشاه عطاء الله البخاري .

وقال فيه مدير دار العلوم الديوبندية مولانا حبيب الرحمن العثماني : "إنه مكتبة حية ناطقة تمشي على الأرض" ، وقال : إنه الشيخ الثقة الورع التقى الحافظ الحجة المفسر المحدث المتبحر في العلوم النقلية والعقلية ، رافع لواء التحقيق في المسائل الغامضة المهمة الخ .

وقال فيه الشيخ السيد سليمان الندوي : هو كالبحر المحيط الذي ظاهره هادئ ساكن وباطنه مملو من اللآلئ الفاخرة الثمينة .

وقال فيه شيخنا العثماني شيخ الإسلام مولانا شبير أحمد شارح "مسلم" : فقيد المشيل عديم العبدل بقية السلف حجة الخلف ، البحر المواجه والسراج الوهاج الذي لم تر العيون مثله في العهد العام ولم يرهو مثل نفسه ، وقال في موضع آخر : إن الجهابذة الناقدين يصفونه بأنه آية من آيات الله ، وإنه حجة الله على العالمين .

وقال فيه العارف المحقق مولانا رحيم الله البجنوري من أصحاب حجة الإسلام مولانا محمد قاسم النانوتوي : هو الخبر الكامل المحقق المدقق فخر الأقران وأبناء الزمان .

وقال فيه إمام المناظرين بعصره الشيخ مرتضى حسن الديوبندي : هو شيخ الإسلام والمسلمين مجمع بحور الدنيا والدين .

وقال فيه محقق الهند ومفتيها الشيخ محمد كفايت الله الدهلوي : العلامة الفاضل الكامل أكمل العلماء أفضل الفضلاء النحرير المقدم البحر الطمطم رحلة العصر قدوة الدهر أستاذ الأساتذة ، رأس الجهابذة المحدث الوحيد والمفسر

الفريد الفقيه الإمام ماهر العلوم العقلية والعقلية .

ووصفه الشيخ المحقق الأستاذ الكبير محمد زاهد الكوثري في " تأنيب الخطيب " (١) ب : " العلامة الحبر البحر محمد أنور شاه الكشميري " . وذكره متكلم عصره شيخ الإسلام مصطفى صبري التركي نزيل القاهرة في كتابه " موقف العلم والعقل والدين " (٢) ما لفظه : رأيت في " مرقاة الطارم على حدوث العالم " لعالم الهند الكبير محمد أنور شاه الكشميري رحمه الله ، فذكر المسألة ثم قال : فسرني أن اتفقنا في الرأي اه . وكنت قدمت لفضيلته ذلك الكتاب سنة ١٣٥٧ هـ بمنزله بمصر الجديدة ، فقال بعد ما طالعه : ما كنت أرى أن محققاً في الهند مثله ، وهذه الرسالة أفضلها على هذا الكتاب " الأسفار الأربعة " للصدر الشيرازي ، وأشار إليه وكان بين يديه ، وسمعت الشيخ الكوثري في القاهرة بمنزله بالعباسية سنة ١٣٥٧ هـ : لم يأت بعد الشيخ ابن الهمام مثله في استشارة الأبحاث النادرة من ثنانيا الأحاديث ، ثم قال : وهذه برهة من الدهر طويلة . ووصفه الشيخ الكبير شيخه الديوبندي في إجازته بقوله : قد أعطى فهماً ثاقباً ورأياً صائباً وطبيعة زكية وأخلاقاً رضية . وذكره العلامة الفقيه المحدث مولانا محمد سجاد البهاري بقوله : علامة الدهر فهامة العصر ، فقيه زمانه ، محدث أوانه ، ثقة في الرواية ، حجة في الدراية ، شيخ العلماء الخ .

وذكره الشيخ حسين بن محمد الطرابلسي إذ لاقاه بالمدينة المنورة ب " الشيخ الفاضل " ، وهو شاب قبل أن يشتهر نبلة وفضله ، إلى غير ذلك من آراء أهل الكمال في كماله وشخصيته ، والذي ذكرنا هو برض من عد . وبالجملة فهذه الكلمات وما إلى ذلك من كلمات الثناء والاعتراف بمفاخره من أهل

عصره أو مشائخه أو من في طبقة مشائخه ، برهان على وصوله إلى درجة سامية يقصر عنها شأو أهل العلم والفضل في هذه العصور ، وإنه كان نظير أولئك الجهابذة من أفذاذ الأمة، لا يأتي أمثالهم إلا بعد قرون متطاولة . وقصارى القول فيه أن الله سبحانه جمع في شخصيته الفذة أشد الفاضل من جمال الوجه وحسن السيرة وكرم الشئائل والورع والزهد والتقى والصبر على المكاره ونشأته تربية صالحة في حياة طيبة ثم جامعية العلوم روايتها ودرايتها ببصيرة نافذة مع عكوفها على المطالعة ليل نهار صباح مساء ، ثم حافظته الحارقة للعادة والولوع بالتحقيق والتدقيق في كل شئ ، ثم التوفيق إلى سعى متواصل من غير ضجر وسامة أو تعب وكلال ، وتيسر شيوخ أصحاب فضل واختصاص ربانيين علماء صالحاء عرفاء . فهذه الأمور لا تجتمع إلا في شخص جرت مشية الله الأزلية بأن يكون إماماً في الأمة وقدوةً ، ويكون كما قيل :

لكل زمان واحد يقتدى به * وهذا زمان أنت لاشك واحده

تأليفه كتاب "عقيدة الإسلام" .

لم يكن من ذوقه وطبيعته أن يشتغل بتأليف أسفار وزبر غير تقييد شوارد من أفكاره أو غرر نقول من مطالعاته في مذكرته ، إلا أنه كلما اضطرب إلى تأليف في موضوع خاص لأجل تحقيق في بحث أو مسألة دينية أو فصل خصام بين أهل العلم أو كشف قناع أظلم على أهل العلم فيه وجه الحق تصدى لتأليف ، فرسائله المصنفة وكتبه المؤلفة كلها من هذا القبيل ، وليس هذا محل استيفاء البيان ، وقد أوضحت هذا الموضوع في "نفحة العنبر" باللغة العربية ، وفي مقالتي الخاصة في كتاب "حيات أنور" باللغة الأردوية . ولما بدت الفتنة القاديانية في هذه البلاد باسم صاحبها : المرزا غلام أحمد القادياني (نسبة إلى قرية "قاديان" في مديرية غورداسپور من بلاد الفنجاب) وتدرج في دعاوى

فادعى أولاً : أنه مجدد ، ثم ادعى : أنه مثيل المسيح بن مريم ، ثم ادعى المهدوية ، ثم ترقى وادعى : أنه المسيح الموعود الذي ينزل من السماء ، - إلى أن ادعى - : أنه نبي ورسول ، وجعل وحيه كالقرآن ، ثم أعلن ينسخ الجهاد والحج ، وادعى أن الحكومة البريطانية ظل الله في الأرض ، وكان يتلقف آيات القرآن الكريم ويطبقها على نفسه ، وأخذ في تعبيراته طريق الباطنية والزنادقة ، واقتدى البابية والبهائية من فرق الملاعنة ، وأراد أن يلبس على العامة أمره ، فدخل في مسائل لم تكن لها علاقة بموضوعه ، فادعى أن عيسى عليه السلام قد توفي ، وأنه لا ينزل ، وجعل الروايات يأولها والآيات القرآنية يحرفها ويضعها في غير مواضعها ، وجاء بطامات وبلايا ، ودخل في أودية من الكفر والإلحاد ، كما فصلته في كتابي "نفحة العنبر" . وذكره الشيخ رحمه الله في أول كتاب "عقيدة الإسلام" قبل خطبة الكتاب كالمقدمة لكتابه ، ونشأت له عصابة من أتباعه ، وكانت تعيش في ظل الحكومة البريطانية ، فاستثمرت الحكومة دعاويه وأمانيه وسيلة إلى الاختلال في عقائد المسلمين ، فكانت ترشحها بشتى الوسائل ليس هذا محل استقصاء البيان . وبالجملة كانت هذه الفتنة وليدة السياسة البريطانية أو ربيتها ، تتدرج وتخطو إلى الأمام في ظل حمايتها ، لم تكن في هذه البلاد حكومة إسلامية دينية لكي تقطع شأفتها ، فاضطر العلماء إلى القيام بواجبهم وبحفظ سياج الملة والذب عن عقائد الإسلام والمسلمين ، والرد على كل طامة من تلك الطامات إلى أن اجتمع على كل موضوع ذخائر من الكتب والرسائل ، فالشيخ إمام العصر رحمه الله قد أزعجته هذه البلية فقام للقضاء عليها خير قيام ، وشمر عن ساعد الجدل لساناً وبناناً توجيهاً وهمةً ، فساحت بطحاء العلم بسيل من علومه ، وأنى بغرر أبحاثه ودرر تحقيقاته في تأليفه ، وجاء بدقائق العربية وأسرارها في ضمن شرح آيات التنزيل العزيز ، وجمع من روايات الحديث ما يتعلق بالرد عليها جمعاً مدهشاً بالغاً من مظان

بعيدة عن متناول أهل العلم ، فجمعها في صعيد واحد ، فأفرد رسالة في الأحاديث سماها "التصرح بما تواتر في نزول المسيح" أجمع رسالة ظهرت في موضوعها ، وأفرد كتاباً بديعاً في مسألة الإكفار بالإنكار من ضروريات الدين جمع فيها نقول الأعلام من ثنايا كتب وأسفار من كل فن مطبوع أو مخطوط ما يبلغ عددها إلى مئات ، وقد أحسن إلى الأمة الإسلامية بتأليف هذا الكتاب البديع ، ونقح فيه مدار النجاة ومناط الإيمان والكفر ، ونقح تلك المسائل الدقيقة التي طالما كانت مداحض للأفهام والأعلام ، وجاء بتنقيح مناط تلك الدقائق العلمية بأدلة من الآيات والأحاديث والآثار وقرر نقول جهابذة الأمة من الفقهاء والمتكلمين والمحدثين والمفسرين من أقدم عهد إلى عصره ، وقدمه إلى أكابر عصره والمحققين من أهل السنة ، فكلهم قرظوه وأثنوا عليه ثناءً بالغاً ، ووافقوه على تلك التحقيقات المنقحة ، وكل ذلك فعله لكي تتفق كلمتهم في ما عليه مناط النجاة الأخروية ، وفي مسألة الإكفار والتكفير ، وحقق فيه أن ضروريات الدين والإنكار عنها أو تأويلها كلاهما موجب للكفر ، فكان هذا الكتاب بتقريظاته وآراء جهابذة عصره كالإجماع على الموضوع ، ومن أجل هذا قدمه للقوم للتقريظ ، وكان حضرة المؤلف إمام العصر في غنى عن الثناء ، وكان بعيداً عن ذوقه وعلمه أن يشنوا على كتابه ، وإنما اضطر إلى جمع كلمتهم وإتفاق آرائهم وأنظارهم على المسألة ، وعزم لإصلاح آراء بعض من التبس عليه وجه الصواب في تلك المعضلات ، ولا أقول هذا عن حدس أو خرص وإنما سمعته من حضرتته رحمه الله ، فليكن أمام القارئ الكريم هذه الحقائق التاريخية لكي يقدرها في جذر قلبه . وبالجملية فهو أجمع كتاب وأبدعه وأهمه ظهر في هذا الموضوع ، وحقق فيه تلك المشكلات والمعضلات التي طالما أشكل على كثير من أهل العلم حلها .

وكذلك ألف رسالة باللغة الفارسية في شرح آية خاتم النبيين ، جاء بنفائس من أفكاره الرائقة ، وبما شرح الله له صدره من تحقيقات وهبية ولكنها دقيقة غامضة ، وألف في عقيدة حياة سيدنا المسيح بن مريم عليه السلام كتاباً بديعاً حافلاً سماه : ”عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام“ ، ثم زاد عليه بتعليقات سماها : ”تحية الإسلام“ ، فهذه إذن خمسة كتب في ما يتعلق بالرد على ”القاديانية“ والإلمام بشئ من مزايا هذا الكتاب وتعليقاته موضوع تقدمتي هذه وبالله التوفيق .

هذا الكتاب ”عقيدة الإسلام في حياة عيسى عليه السلام“ وسماه الشيخ أيضاً ”حياة المسيح بمتن القرآن والحديث الصحيح“ ، وأفادني رحمه الله بأن موضوع كتابي هذا : إثبات حياته بأدلة القرآن الكريم ، وإنما جاءت الأحاديث والآثار تبعاً لإيضاح الآيات ، لم يكن الغرض استيفاء الأحاديث والروايات في الكتاب ، فلا يظن أن الشيخ رحمه الله استوفى الآيات والروايات جميعاً كما يظنه كثير من أهل العلم ، وإنما استقصى الشيخ رحمه الله الروايات في رسالة ”التصريح“ كما سبق ، وإنما الغرض الوحيد شرح آيات من التنزيل العزيز ما يتعلق بحياته عليه السلام ، نعم إن الشيخ كان من دأبه في تأليفه أن يتوسع بكل ما له صلة بالمقام من غرر النقول ونفائس الأبحاث ، وكان إماماً في العربية وأسرارها ، لو سميناه ”سيبويه العربية وخلياتها“ لم نجازف مجازفة ، بل ربما يكون هذا التعبير أدق تعبير وأوفاه لإبراز هذه الناحية من علومه التي خفيت على كثير من أهل العلم وأرباب الفضل ، فجاء في كتابه بمسائل من علوم البلاغة والبيان والعربية ما يقضي العجب والخيرة من تغلغله في أمثال هذه العلوم وذوقه البديع وملكوته الراسخة في كشف هذه الحقائق ، وكلما أخذ أطالع له كتاباً في موضوع زاد إعجابي وحيرتي ، بل طالت دهشتي بأنه كيف حوى بكل ما له صلة بالبحث ، وكيف أتى بأبحاث رائقة من مظان لا يخطر ببال أحد أنه يكون

هناك علاقة بالموضوع ، وحق لي أن أتمثل بما كان يتمثل به حجة الإسلام الغزالي
بقول الشاعر :

ونادتنى الأشواق مهلاً فهذه * منازل من تهوى رويدك فانزلي
غزلت لهم غزلاً رقيقاً فلم أجد * لغزلي نساجاً فكسرت مغزلي
وحق لي أن أقول في حقه :

ولو أن ثوباً حيك من نسج تسعة * وعشرين حرفاً من علاه قصير
وكل محقق ناقد بصير إذا وقف على كتاب له في موضوع اضطر أن
يقف مطيته وبلقى عصاه ، ويقول :

فألقي عصاه واستقر به النوى * كما قرعينا بالإياب المسافر
أو يقول :

هل غادر الشعراء من متردم * أم قد عرفت الدار بعد توهم

قال المحقق الكوثري في "مقالاته" (١) : وفي "عقيدة الإسلام في حياة
عيسى عليه السلام" لمولانا الحبر الكشميري بسط القول في وجوه دلالة الكتاب
على ما عليه أصل الحق ، فليراجعها من شاء الإستزادة اهـ .

هذا الكتاب وتعليقاته قد أحصيت مآخذه ، فبلغت تلك الكتب والرسائل
التي نقل عباراتها ، أو أحال عليها من غير واسطة ثلاثمائة كتاب كل موضوع ،
وإن جاء استطراداً فترى فيها الإحالة على الكتب كأنه قضى حياتها المباركة فيه ،
وإذا جاءت نوبة الأخذ من الأناجيل وكتب العهد الجديد أو العهد العتيق
وشروحها الكبارى ، أو ما يتعلق بموضوع الرد فلا ترى كتاباً إلا وجاء ذكره ،
ولا ترى استنباطاً دقيقاً منها إلا وتجده هناك . ثم من العجيب المدهش أنه إذا

كانت كلمات مبشرة في كتاب واحد تتعلق بموضوع واحد فيلتقطها من سائر مجلداتها الضخمة ولا يدع شأواً لمسبق ولا مساعاً لأجد ، فهذا كتاب "دائرة المعارف" للوجدى أو للبستاني كأنها صفحة واحدة بين عينييه ، استقصى مطالعتهما ، فإذا كان شئ في أية مادة من المواد ينقله أو يحيل عليه ، وهذا "فتح البارى" وهذه "الفتوحات المكية" وما إلى ذلك من كتب ضخمة في مجلدات كبيرة لم يترك منها شيئاً يدور حول الموضوع ، ثم يأتي بغرر النقول من كتب لا تكون لها في الظاهر علاقة بالموضوع . فبالجملة كل موضوع يأتي بما له صلة من بعد أو قرب فيندهش المرء من هذا التبحر الخارق والتغلغل المدهش ، ثم هذا التنبيه والتفطن . ثم هذا التصبر للتصفح والبحث ، ثم هذه الحافظة المحيطة لا يمر عليها شئ إلا وتحوط به ، فسبحان واهب الفضائل والمزايا ، يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . ثم إنه إذا كان شئ لمعاصريه ينقله أو يحيل عليه ويثني على إفادته وإجادته بكل سماحة من غير نحس وإخمال ، ولو أخذت أسرد هذه الأمور بأمثلتها لطال البحث جداً ، والكتاب بين يدي كل باحث نظار إذا أجال فيه قداح فكرته شاهد ما أقول ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

ويقول شيخنا العلامة العثماني صاحب "فتح الملهم" في "فوائده التفسيرية على التنزيل العزيز" باللغة الأردوية: إن كتاب "عقيدة الإسلام" لإمام العصر الشيخ أنور شاه الكشميري كتاب لا نظير له في موضوعه ، ولم أقف على كتاب على هذا الموضوع ما يدانيه ، وقال في "فتح الملهم" (١) : وقد حقق معنى "التوفى" وفصل المباحث المتعلقة بحياة عيسى عليه السلام العلامة الشيخ الأنور في كتابه "عقيدة الإسلام" بما لا مزيد عليه فليراجع اه . وكان ذلك البحاث المحقق النظار الشيخ محمد زاهد الكوثرى من المعجبين بهذا الكتاب ،

وكذلك بكتاب "التصريح بما تواتر في نزول المسيح" ، وكنت قد قدمت الكتابين لفضيلته ، وضاع منه الأخير فطلبني من القاهرة وكنت في مضافات بمبائى من بلاد الهند فأرسلته مرة أخرى بالبريد ، ويقول في "مقالاته" (١) : بل لمولانا المحدث الكشميرى كتاب "التصريح بما تواتر في نزول المسيح" يسوق فيه سبعين حديثاً تدل على نزوله عليه السلام اه . ويقول في "مقالاته" (٢) : أعلى الله سبحانه منزلة العلامة فقيده الإسلام المحدث المحجاج الشيخ محمد الأنور الكشميرى فى غرف الجنان ، وكافأه مكافأة الدابن عن حريم دين الإسلام ، فإنه قمع القاديانية بحججه الدامغة ، وحال دون استفحال شر معتدليهم و متطرفيهم بالهند بتأليف كتب ممتعة فى الرد عليهم بلغات شتى ، وحقق فى كتابه "إكفار الملحدن" أمر إكفار هؤلاء وأمثالهم آه .

وقد استطرد للمناسبة والعلاقة عدة أبحاث نادرة هى فى غاية الأهمية أو هى من مسائل عويصة ، فمنها تعين الأوجج والمأجوج ، والبحث عن ذى القرنين ، وتحقيق موضع السد ، وهى مقالة تاريخية بديعة من خصائص هذا الكتاب ، ومنها تحقيق الكناية : هل هى حقيقة أو مجاز ؟ وهى من عيون مسائل علم البلاغة ترى فيه غرر النقول من أمهات الفن ومن أساطين هذا العلم ، ومنها بحث البشارة بسيد المرسلين وخاتم النبيين من الأناجيل والعهد العتيق وسيادة خاتم الأنبياء ﷺ ، ومنها تحقيق الدنيا وحدوث العالم ، وتحقيق أنه ليس فى هذا العالم علة ومعلول ، وإنما هو سبب ومسبب وشرط ومشروط ، وأن العالم كله من صنع الله وفعله ، وليس بين العالم وصانعه إلا مبادئ تكون بين الفعل وفاعله ، وكان الله ولم يكن معه شئ ، وقصيدة فى إسرائ النبي ﷺ ، وأثبت فيها رؤيته الله سبحانه وتعالى ليلة الإسرائ ، ومنها مسألة عرض الأعمال عليه ﷺ ، وأنه كعرض الأسماء

على الملائكة عرض إجمالى وليس بعلم محيط . ومنها تفسير آية ختم النبوة ،
وجاء فيه شئ ملخص مما بثه فى رسالته المفردة فيها بالفارسية فى خصائصه ^{عليه السلام} _{وسيدنا}
بغاية الحسن والإنسجام ، وما إلى ذلك من أبحاث بديعة وفوائد سامية تضرب
إليها أكباد الإبل .

* * *

ضمیمہ ”نفحۃ العنبر“

(امام العصر رحمہ اللہ کے فارسی میں دو اہم تاریخی مکتوب)

حکیم الامت حضرت مولانا اشرف علی تھانوی رحمہ اللہ - جیسا کہ ”نفحۃ العنبر“ میں عرض کیا گیا ہے - بسا اوقات حضرت امام العصر رحمہ اللہ سے بعض علمی و فقہی مشکلات کے بارے میں مکاتبت فرماتے رہے ہیں - چنانچہ کتاب ”اعلاء السنن“ جو حضرت حکیم الامت کی نگرانی میں جناب مولانا ظفر احمد صاحب عثمانی کی مرتب کردہ حدیث کی اہم کتاب ہے اور حنفی نقطہ نگاہ سے نہایت قابل قدر تصنیف ہے اس کی تالیف کے دوران ایک علمی و فقہی عقدہ پیش آیا تو حضرت حکیم الامت کے حکم سے جناب مولانا حبیب احمد صاحب نے حضرت شاہ صاحب سے - جب آپ ڈابھیل تشریف لے گئے تھے اور دارالعلوم دیوبند سے علیحدگی اختیار کر چکے تھے خط لکھ کر اس مشکل کا حل دریافت کیا تھا ، حضرت شاہ صاحب رحمہ اللہ نے اس کا جواب فارسی زبان میں تحریر فرمایا تھا - حضرت شاہ صاحب رحمہ اللہ علماء سے اکثر مراسلت فارسی میں کیا کرتے تھے یا پھر عربی میں - ہاں جن حضرات کو عربی و فارسی کا ذوق نہیں ہوتا تھا انکو اردو میں لکھتے تھے - الحمد للہ کہ حضرت حکیم الامت رحمہ کا وہ مکتوب اور اس کے جواب میں حضرت شاہ صاحب کا وہ تاریخی مکتوب دونوں مجھے حضرت امام العصر شاہ صاحب کے مسودات میں مل گئے تھے - اس مراسلت و مکاتبت کے شائع کرنے میں متعدد منافع ہیں :

۱ - حضرت شاہ صاحب جس زمانے میں دیوبند سے علیحدہ ہو گئے تھے لوگوں میں مشہور تھا کہ حضرت تھانوی رحمہ سے آپ کے تعلقات مکدر ہو گئے ہیں اور قلوب میں سابقہ کیفیت باقی نہیں رہی ہے - الحمد للہ اس مراسلت سے یہ سب وساوس ختم ہو جاتے ہیں اور دونوں بزرگوں کے خوشگوار تعلقات پر روشنی پڑ جاتی ہے ، اور ثابت ہو جاتا ہے کہ حضرت حکیم الامت کے قلب مبارک میں امام العصر حضرت شاہ صاحب کی طرف سے ذرہ بھر بھی تکدر نہ تھا -

۲ - حضرت حکیم الامت رحمہ اللہ اگرچہ شیخ الہند رحمہ کے شاگرد تھے اور اس حیثیت سے حضرت امام العصر کے استاد بھائی تھے لیکن باوجود اس کے آپ کا طبقہ حضرت شاہ صاحب کے طبقے سے اونچا تھا۔ اور جن اکابر نے حکیم الامت کو استفادہ کا موقع ملا تھا۔ حضرت شاہ صاحب ان سے مستفید نہوسکے تھے۔ لیکن باوجود اس تفاوت کے حضرت شاہ صاحب کی طرف مشکلات میں رجوع کرنا ان کی انتہائی قدر دانی ہے اور کمال حقانیت کا ثبوت ہے۔ نیز علماء ربانین کی جو خصوصیت ہے وہ پوری طرح اس مراسلت میں جلوہ گر ہے۔

۳ - اس مراسلت سے یہ بھی معلوم ہوتا ہے کہ علمی مشکلات کی کوئی انتہا نہیں اور عالم کتنا بھی محقق ہو پھر بھی بسا اوقات اس کے لئے اپنے علم و تحقیق کا دائرہ تنہا کافی نہیں ہوتا اور آخر تک استاذ و شیخ کی ضرورت رہتی ہے۔ اور کوئی کتنا ہی بڑا عالم کیوں نہ ہو پھر بھی بسا اوقات اسکو دوسرے کی رہنمائی کی حاجت ہوتی ہے اس لئے کسی بھی عالم کو خواہ وہ کتنا بھی فاضل ہو اپنے آپ کو ہر شخص سے مستغنی نہ سمجھنا چاہئے۔ حضرت حکیم الامت جیسی محقق اور یگانہ روزگار شخصیت بھی استفادہ و استفسار کی محتاج تھی۔

حضرت امام العصر کی وفات پر جو تقریر شیخ الاسلام حضرت مولانا عثمانی نے ڈابھیل میں فرمائی تھی اس میں اس حقیقت کا اظہار فرمایا تھا کہ : ہم یتیم ہو گئے بڑا صدمہ اسی کا ہے کہ اگر ہمیں کوئی مشکل پیش آئیگی تو ہم کہاں جائیں گے چنانچہ شب و روز کا یہ معمول میرے سامنے ہے کہ حضرت عثمانی رحمہ کس طرح علمی مشکلات کے متعلق صبح و شام استفسار کرتے رہتے تھے اور استفادہ کیا کرتے تھے۔ اسی حقیقت کی طرف قرآن حکیم نے اشارہ فرمایا ہے : (و فوق کل ذی علم علیم)۔

اس لحاظ سے کچھ غیر موزوں نہ ہو گا کہ حضرت تھانوی رحمہ اللہ کا مکتوب گرامی مع مفصل سوال نقل کر دیا جائے اور پھر حضرت شیخ کا جواب نقل کر دیا جائے۔ معلوم ہوتا ہے کہ حضرت شیخ کے جواب کے بعد پھر حضرت تھانوی نے کوئی اعتراض وارد کیا ہے پھر حضرت شیخ نے جواب دیا ہے ، یہ دوسرا جواب تو موجود ہے لیکن حضرت تھانوی کا وہ دوسرا مکتوب نہ مل سکا۔ نیز حضرت شیخ رحمہ کے مکتوب نمبر ۲ کا بعینہ فوٹو شائع کیا جاتا ہے تاکہ حضرت شیخ رحمہ اللہ کے خط نسخ و نستعلیق کا نمونہ بھی سامنے جلوہ گر ہو جائے۔ وبالله التوفیق۔

سوال اول : ”ہدایہ“ میں ہے : ”وإذا التقى الصفان من المسلمين والمشرکین فقتل مسلم مسلماً ظن أنه مشرک فلا قود علیہ ، وعلیہ الکفارة ، لأن هذا أحد نوعی الخطأ علی ما بیناه ، والخطأ بنوعیہ لا یوجب القود ویوجب الکفارة ، وكذا الدیة علی ما نطق به نص الكتاب“ .

نیز ”ہدایہ“ میں ہے : ”إذا شهد أربعة علی رجل بالزنا فأمر القاضی برجمه فضرب رجل عنقه ، ثم وجد الشهود عیباً فعلى القاتل الدیة . وفى القیاس : یجب القصاص لأنه قتل نفساً معصومة بغير حق . وجه الاستحسان أن القضاء صحیح ظاهراً وقت القتل فأورث شبهة ، ولأنه ظنه مباح الدم معتمداً علی دلائل مبیح ، فصار كما إذا ظنه حربياً وعلیہ علامتهم ، وتجب الدیة فی ماله لأنه عمد والعواقل لا تعقل العمد . وقال فی ”فتح القدير“ : من قتل انساناً علی ظن أنه حربی وعلیہ علامتهم ثم ظهر أنه مسلم فعلیہ الدیة فی ماله ، لأنه عمد والعاقلة لا تعقل العمد“ .

اب دریافت طلب یہ امر ہے کہ ”ہدایہ“ کی پہلی عبارت سے معلوم ہوتا ہے کہ قتل بناءً علی الخطأ فی الظن خطأ اور موجب کفارہ ودیت ہے۔ اور دوسری عبارت سے معلوم ہوتا ہے کہ قتل بناءً علی الخطأ فی الظن عمد اور موجب قصاص ہے۔ مگر شبہ کی وجہ سے قصاص ساقط ہو جاتا ہے۔ ان دونوں میں وجہ تطبیق کیا ہے اور مسائل مذکورہ میں باہمی فرق کیا ہے۔

سوال دوم : ”شرح سیر کبیر“ (ج ۳ ص ۲۱۵) میں ہے : ”ثم بین أنواع الخطأ ، فمن ذلك أن يعتمد بالرمیة حین رآه فی صف المشرکین وهو یظنه من المشرکین ، فإذا هو مسلم ، وهذا عمد فی الحقیقة لأنه قصد شخصاً بعینه وأصابه ، فأما ظنه فلیس بمنصل بفعله ، ولكنه خطأ شرعاً عرفنا

بالسنة وهو ما روى أن سيوف المسلمين اختلفت على اليمان أبي حذيفة وهم يرون أنه من المشركين فقتلوه فجعل رسول الله ﷺ الدية فترك ذلك لهم حذيفة“ .

اس کے متعلق سوال یہ ہے کہ جب اسکو قتل عمد تسلیم کر لیا گیا تو اب اسکو خطا کہنے کی اور دیت و کفارہ واجب کرنے کی کیا وجہ ہے ؟ رہی یہ بات کہ شریعت نے اسے خطا قرار دیا ہے تو اس پر شبہ یہ ہے کہ یمان کے قتل میں کفارہ کا حکم ثابت نہیں ، اور نفس دیت ممکن ہے کہ اس بنا پر ہو کہ آپ نے اسے قتل عمد قرار دیا ہو اور قصاص کو بوجہ شبہ کے ساقط کیا ہو جیسا کہ ”فتح القدیر“ و ”مداہدہ“ میں ہے : ”من قتل رجلاً على ظن انه جربى وعليه علامتهم ثم ظهر انه مسلم فعليه الدية في ماله، لانه عمد والعاقلة لاتعقل العمد“ پھر اس سے اس کے خطا ہونے پر استدلال کیونکر صحیح ہے .

سوال سوم : جب کوئی مسلمان دوسرے مسلمان کو جہاد کے موقعہ پر کافر سمجھ کر قتل کر دے تو دیت قاتل کے مال میں لازم ہوگی ، یا عاقلہ پر ، یا بیت المال میں . اگر اسے قتل خطا قرار دیا جائے تو عاقلہ پر لازم ہونی چاہئے ۔ حالانکہ قصہ قتل یمان سے معلوم ہوتا ہے کہ آپ نے بیت المال سے دیت دینا چاہا تھا اور اس سے معلوم ہوتا ہے کہ آپ نے اسے قتل عمد قرار دیا اور مجاہدین کو قاضی مخیطی کے حکم میں قرار دیا کیونکہ دونوں عامل للمسلمین ہیں ۔

* * *

مکرمی ! السلام علیکم - براہ مہربانی امور مذکورہ کے جواب شاہ صاحب سے لیکر روانہ فرمایا جاوے - عین عنایت ہوگی - ان کو براہ راست اس لئے نہیں لکھا گیا کہ معلوم ہوا ہے کہ ان کے مزاج میں خط کے جواب میں بہت تساہل ہے ، آپ کے توسط سے یہ فائدہ ہے کہ اگر وہ زبانی جواب بھی دیدیں گے تو

آپ اسکو ضبط کر کے روانہ کر سکتے ہیں ، ان سوالات کے جوابات کی سخت ضرورت ہے کیونکہ ”اعلاء السنن“ کا مضمون بلا ان سوالات کے حل کے مکمل نہیں ہو سکتا ۔ والسلام ۔

المکلف : حبیب احمد

* * *

از اشرف علی بمشفق قاری مولوی محمد یامین صاحب ۔ السلام علیکم ۔ یہ خط مولوی حبیب احمد صاحب نے میرے کہنے سے لکھا ہے ، ”اعلاء السنن“ کا ایک مقام اٹکا ہوا ہے ان سوالوں کے حل کے ساتھ اس بات کے لکھنے کی بھی ضرورت ہے کہ ان صورتوں میں حنفیہ کا مذہب کیا ہے ؟ آیا یہ عمد ہیں اور شبہ کے سبب قصاص ساقط ہو گیا ، اور دیت خاص مال قاتل میں واجب ہے یا یہ صورتیں خطا میں داخل ہیں اور اس لئے دیت و کفارہ دونوں واجب ہیں اور دیت عاقلہ پر ہے ؟ ان سوالوں کا جواب جناب شاہ صاحب سے لیکر بھیج دیا جاوے ۔ جواب کے لئے پیڈ لفافہ ملفوف ہے ۔ اگر آپکو شاہ صاحب کے دینے کا موقع نہ ملے تو مولانا احمد بزرگ صاحب کو یا میان حاج محمد بن موسیٰ کو دیدیجئے اور جواب مفصل ضروری نہیں مجمل کافی ہے ۔

جناب مستطاب ، ادام الله ظله .

السلام علیکم ورحمۃ اللہ و برکاتہ - قتل مسلم بظن حربی باجارت قرآن است ، و قوله : "الا خطا" استثناء متصل است زیرا کہ در ما قبل عنوان عمد نیست کہ استثناء منقطع باشد بلکه عنوان : "وما کان لمؤمن ان یقتل مؤمناً" هست کہ مراد ازان قتل بالاختیار است ، و قتل مسلم بظن حربی ہم باختیار است نص قرآن آنرا خطا قرار داده . حقیقت خطا در عرف فقہاء آن دیدیم کہ فاعل فعلی می کرد بے اختیار و بے فعلی دگر شد مانند آنکہ زد نشانه را رسید بر آدمی - و قتل مسلم بظن حربی اینگونه نیست بلکه همان کار کرد کہ می خواست ، ولہذا سرخسی میگوید کہ این قتل عمد بود - لیکن شروع اورا خطا نہاد ، لا جرم حنفیہ در اقسام قتل از اول جنایات این قسم را قسم مستقل نہادند و تصریح کردند کہ دیت درین قسم بر عاقلہ است . مسئلہ قتل مسلم بظن حربی و قتل بصورت التقاء صفین در "ہدایہ" یک مسئلہ است کہ دوبارہ ذکر کردہ ، و صاحب "کنز" بار دوم حذف کردہ چہ تکرار است .

و آنچه صاحب "احکام القرآن" بر بودن این استثناء متصل اعتراض کردہ کہ این قتل در زعم قاتل خطا نیست لا جرم استثناء منقطع باشد - در جواب آن گفتہ آید کہ چون در ذہن قاتل محظور است کہ اگر این مقتول مسلم بر آمدہ شرع آنرا خطا قرار دہد . پس برین تقدیر نزد و بے ہم خطا تواند بود و استثناء متصل قواعد بود چرا کہ مستثنی منہ قتل بالاختیار است نہ بالعمد .

پس نزول آیت در امثال قصہ قتل یمان موجب افراز این قسم گردید برخلاف قتل این و قتل مقتضی علیہ بالرجم کہ بے اجازت شرع و بے ضرورت است آن اقسام را عمد کہ بشبہ قصاص ساقط شود قرار دادند . قاتل مقتضی علیہ بالرجم بجز رقبہ هیچگونه عامل للمسلمین نیست بسر خود میکند . قاضی و جلاد خطا معروف در فقہ (کہ کارے می خواست شد ازان کارے دگر) نکرده اند ، ونہ داخل نص تحول از بیت المال تا عاقلہ در باب "من قتل خطا" ولم تعرف له عاقلہ" از "موطا" محمد" باید کہ چہ وسعت دارد . خطا قاضی و جلاد اگرچہ خطا معروف در فقہ نیست تا ہم اگر خطا فی القصد داشتہ آید نیابت از عامہ دارند بر خلاف قاتل مسلم بظن حربی کہ هیچگونه نیابت ندارد - نیابت از کسی چیز دگر است و عود نفع بسوئے و بے چیز دگر . والسلام .

بالی خدمت جناب صاحب لانا کشف علی صاحب

عبارت فتح القدير اين است وان قتله عمل بعد القضاء ثم وجد الشهود عبید
الى ان قال لا نعلم اظهرت الشهود عبید تبين ان القضاء لم يلح ولم يصح جناح
الدم ولى ان قال فصاير كمن قتل انسانا على ظن ان حيا وعلیه علا عنهم ثم
ظهر انه مسلم فعليه الدية في ماله لا ندم والعاقلة لا تعقل العمل وتجيب
في ثلاث سنين الى آخره انما صير فعلیه الدية في ماله راجع بسبب قاتل مقتول
باربع است نه بسبب قاتل مسلم بظن حربی بهتر آن بود که وعلیه بود وگفتند چنانکه در
عبارت بزيه از اینجا و عبارت عامه کتب واقع شده معذانه چنان است که مورد ندارد
و این بسبب و تجيب في ثلاث سنين تعرض کرده که سائله تمام شود ورنه در مجرّد نظیر جاریست
دين تخيم نه بود عبارت تبين الفائق و غيره اظهر است و در تبين فرق موبتین هم ذکر کرده
قتل مسلم بظن حربی نذر عقیقه خطا في القصد است و در تقسیم آن قتل چون آنرا داخل
خطا في القصد داشته اند همین تسمیه که مبنا احکام است زیاده یاد در شش است تا در
احکام از وجوب دینه بر عاقله و یا در مال قاتل تهاافت و اختلاف نرود سپس تعدد نظر
در شئی ذی شبهه ورنه ندارد و نیز عمد که بشبهه قعاص اندران ساقط شود
این از قتل این ذکر نه کرده اند و آنچه در براه و نیز قبیل فعل چنین است همچو استقرار خبری خبری است
سیاق عبارت او شان اندرین مقامی در تخریج نیست فی الجمله تشتت عبارت در شئی ذی شبهه
وزنه ندارد و در احکام هر چه خبری خبری نوشته اند قابل اعتنا است

محمد انور عفا الله عنه

مؤرخ اسلام ادیب زمانہ حضرت علامہ سید سلیمان ندوی رح کا حضرت شیخ رحمہ اللہ کے بارے میں ایک تاثر

”دین و دانش کا مہر انور ۳ صفر ۱۳۵۲ھ مطابق ۲۹ مئی ۱۹۳۳ء کی صبح کو دیوبند کی خاک میں ہمیشہ کے لئے غروب ہو گیا۔ یعنی مولانا محمد انور شاہ صاحب جانشین حضرت شیخ الہند رحمہ اللہ صدر المدرسین دارالعلوم دیوبند۔“

دو برس کی علالت بواسیر اور ضعف و نفاقت کے بعد ۵۹ برس کی عمر میں وفات پائی۔ مرحوم کا وطن کشمیر تھا مگر تعلیم سے فراغت کے بعد ایک مدت تک مدینہ منورہ میں اقامت کی پھر واپس آکر استاد کی خواہش اور اصرار سے دارالعلوم کی صدارت کی ذمہ داری قبول فرمائی جسکو شیخ الہند کے زمانہ جنگ میں ہجرت کے بعد سے سنہ ۱۹۲۷ء تک اس طرح انجام دیا کہ چین سے لیکر روم تک ان کے فیضان کا سیلاب موجیں مارتا رہا۔ ہند اور بیرون ہند کے سینکڑوں تشنگان علم نے اس سے اپنی پیاس بجھائی۔

مرحوم کم سخن لیکن وسیع النظر عالم تھے۔ ان کی مثال اس سمندر کی سی ہے جس کی اوپر کی سطح ساکن ہو لیکن اندر کی سطح موتیوں کے گراں قدر خزانوں سے معمور ہوتی ہے۔ وہ وسعت نظر قوت حافظہ اور کثرت حفظ ہیں اس عہد میں بے مثال تھے۔ علوم حدیث کے حافظ اور نکتہ شناس۔ علوم ادب میں بلند پایہ۔ معقولات میں ماہر۔ شعر و سخن سے بہرہ مند۔ زہد و تقویٰ میں کامل تھے۔ اللہ تعالیٰ انہیں اپنی نوازشوں کی جنت میں ان کا مقام اعلیٰ کرے

کہہ مرتے دم تک علم و معرفت کے اس شہید نے قال اللہ و قال الرسول کا نعرہ بلند کیا ۔

مرحوم کو سب سے پہلے سنہ ۱۹۰۶ء یا ۱۹۰۷ء میں دیکھا جبکہ وہ اور مولانا حسین احمد مدنی سرزمین عرب سے تازہ وارد ہند ہوئے تھے ۔ مدرسہ دارالعلوم دیوبند میں میری حاضری کی تقریب پر طلبہ اور مدرسین کا جلسہ ترتیب پایا جس میں انہوں نے میری عربی تقریر کے جواب میں تقریر فرمائی تھی پھر جب حاضری ہوئی رہی یا خلافت اور جمعیت کے جلسوں میں ملاقاتیں ہوتی رہیں ۔

سنہ ۱۹۲۷ء میں جب وہ پشاور کے اجلاس جمعیت العلماء کے صدر تھے میں بھی حاضر تھا ۔ حضرت مرحوم سے ملاقاتوں میں علمی استفادہ کے مواقع ملتے رہے ۔ ہر سوال کے وقت ان کی خندہ پیشانی سے محسوس ہوتا تھا کہ وہ سوال سے خوش ہوئے اہل کمال کی یہ بڑی پہچان ہے کیونکہ وہ مشکلات سے عبور کر چکنا ہے اور جب اس سے سوال کیا جاتا ہے تو شبہ کی اصل منشا کو سمجھ جاتا ہے اور جواب دیکر خوش ہوتا ہے ۔

مرحوم معلومات کے دریا ، حافظہ کے بادشاہ اور وسعت علمی کی نادر مثال تھے ۔

ان کو زندہ کتب خانہ کہنا بجا ہے ۔ شاید کوئی کتاب مطبوعہ یا قلمی ان کے مطالعہ سے بچی ہو ۔ میری تصنیفات میں سے ”ارض القرآن“ ان تک پہنچی تھی اس پر اپنی رضامندی ظاہر فرمائی ۔ مرحوم آخری ملاقاتوں میں زیادہ عربی نصاب کی اصلاح پر مجھ سے گفتگو فرمایا کرتے تھے ۔

(معارف)

ربیع الاول سنہ ۱۳۵۲ھ - اعظم گڑھ -

رأى مؤرخ الإسلام الأديب البارع العلامة السيد سليمان الندوى
فى الشيخ رحمه الله

(معرّب من الأرودية)

وقد أفلّ لغير رجعة فى تربة مدينة ديوبند ذلك الكوكب الأنور شمس
سماء الدين والعلم محمد أنور شاه الكشميرى خلف شيخ الهند (مولانا محمود
الحسن) المدرّس الأول بدار العلوم ديوبند ، وذلك فى صباح الثالث من
شهر صفر سنة ١٣٥٢ من الهجرة النبوية ، الموافق لـ ٢٩ مايو ١٩٣٣ م .

توفى الشيخ فى التاسع والخمسين من عمره بعد ما زال منه وأنهكه للغاية
داء البواسير الذى استمر به لمدة عامين .

كان مستقط رأس الشيخ رحمه الله منطقة كشمير غير أنه بعد إنهاء دراسته
أقام بالمدينة المنورة زمناً ما ، ثم عاد إلى بلاده (الهند) وتولى منصب المدرّس
الأول بدار العلوم ديوبند حيث رجا منه ذلك شيخه وألح عليه من أجله
فأدى هذا الواجب من عهد كفاح شيخ الهند واعتقاله (رحمه الله) إلى ١٩٢٧ م
بحيث أصبح سيل فيوضه يتدفق من الصين إلى الروم ، فشقى به مئات من
الظالمين غليلهم فى داخل الهند وخارجها .

كان الشيخ رحمه الله قليل الكلام ولكن واسع النظر فى العلم كمثل بحر
ترى على سطحه هادئاً مطمئناً لا حراك به ، غير أن باطن سطحه يزدهر
بكنوز من الآلى الثمينة الفاخرة . كان الشيخ من سعة الأفق وقوة الذاكرة
وكثرة الحفظ على درجة لم يكن يوجد له نظير فيها فى ذلك العصر . كان
حافظاً لعلوم الحديث عارفاً لأسرارها الغامضة متضلعا من العلوم العربية بارعاً

في المعارف العقلية ذا حظ من الشعر والفكاهة كاملاً في الزهد والتقوى ، فأعلى الله مقامه في جنات نعيمه حيث كان قد أعلى ذلك الشهيد — شهيد العلم والمعرفة — راية علم ما قال الله وقال الرسول ، إلى أن وافاه الأجل المحتوم .

وأول ما قابلته رحمه الله في عام ١٩٠٦ م أو ١٩٠٧ م حيث كان قد قدم حديثاً هو والشيخ حسين أحمد المدني من أرض المدينة المنورة إلى الهند، وذلك عندما زرت مدرسة دار العلوم ديوبند ، وقد علق الشيخ على كلمتي التي ألقيتها هناك باللغة العربية في نادي الطلبة والمدرسين الذي أقيم بمناسبة زيارتي لهذه المدرسة ، ثم كنت أشرف بزيارته عند حضوري لديه أو في مؤتمرات الخلافة وجمعية العلماء .

وفي عام ١٩٢٧ م لما كان الشيخ يرأس مؤتمراً لجمعية العلماء في مدينة "بشاور" كنت حاضراً هناك، وكانت تتاح لي فرص الاستفادة العلمية في مقابلاتي إياه رحمه الله، فكانت طلاقة وجهه عند كل سؤال يرد عليه تنم عن سروره بما ورد عليه من سؤال، وإن هذا لمن أجل ما يعرف به صاحب الكمال حيث يكون قد سبق له أن خاض مشا كل العلم وعبرها ، فهو يدرك مناشئ الأشكال في ذهن السائل ويفرح عند حله إياه .

كان رحمه الله بحر المعلومات ، سلطان الذاكرة نادرة زمانه في سعة العلم، وكان بحق مكتبة حية، قلما يكون قد فاتته قراءة كتاب مطبوع أو مخطوط، وقد وصل إليه من مؤلفاتي "أرض القرآن" فأبدى إعجابه به ، وكان أكثر ما يتحدث إلى في المقابلات الأخيرة عما يتعلق بإصلاح المنهج الدراسي للعلوم العربية .

من مجلة "المعارف"

نفحة العنبر

کے متعلق

جناب مستطاب محقق عصر حضرت علامہ مولانا شبیر احمد صاحب عثمانی رح

شیخ الحدیث جامعہ اسلامیہ ڈابھیل دامت برکاتہم کا ارشاد گرامی
اور تاثرات عالیہ

بسم الله الرحمن الرحيم
(حامداً ومصلياً)

برادر گرامی قدر مولانا محمد یوسف بنوری ! اللہ سبحانہ و تعالیٰ آپ کو
جزاء خیر دے اور اپنے فضل سے ”یرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم
درجات“ کا مصداق صحیح بنائے ، آپ نے ”نفحة العنبر“ لکھکر حضرت شاہ
صاحب قدس سرہ کی یاد تازہ کردی ، اور مشام جان کو معطر کردیا ، میں نے
اولا اس کو بعض مواضع سے یونہی کیف ما اتفق دیکھنا شروع کیا ، خیال تھا
کہ ایک آدمہ صفحہ دیکھکر پھر کوئی فرصت کا وقت مطالعہ کے لئے نکالوںگا ،
لیکن کتاب کے موضوع اور اسلوب جمیل نے مجھکو بالکل یہی طرف جذب کرلیا
پڑھتے وقت بلا مبالغہ یہ معلوم ہوتا تھا کہ گویا مرحوم کی تصویر سامنے کھڑی
ہے ، اور خود گویا علامہ مرحوم اپنے خاص لب و لہجہ اور طرز ادا میں اپنے
عقیدت کیشوں سے خطاب کر رہے ہیں ، مرحوم کی سوانح اگر ارادہ کیا جاتا
تو اس سے کہیں زیادہ ضخیم تیار ہو سکتی تھی ، لیکن حق یہ ہے کہ آپ نے
ان کی با برکات زندگی کے جن پہلوؤں کو نمایاں کیا ہے اور جن خصوصیات کی
طرف نہایت بلیغ اور موجز انداز میں اشارے کر دئے ہیں میرے نزدیک اس سے
آگے کچھ لکھنا ”سواد فی بیاض“ سے زیادہ وقعت نہیں رکھتا ، یعنی بسط و
تفصیل جس قدر چاہے کر لیجئے ، خلاصہ اور مآل پھر یہی رہے گا ۔

میں تو کیا چیز ہوں ، اپنے زمانے کے بڑے بڑے مبصر ناقدین بھی مرحوم
کو ”آیہ“ من آیات اللہ“ اور ”حجۃ اللہ علی العالمین فی زمانہ“ سمجھتے

رہے ہیں ، آپ نے جس شان سے ان کے علوم ، احوال ، فطری ملکات اور ہدی و سمیت کا تذکرہ کیا ہے وہ اس غرض کے لئے بالکل کافی ہے کہ اہل ذوق و معرفت ان کے آثار باقیہ سے مستفید ہونے کی طرف قلبی رغبت و شوق کا اظہار کریں اور علم و دیانت کی اس روح معید کے تذکار کا نقش اپنے لوح قلب سے مجھونہ ہونے دیں ۔

میرے خیال میں آپ کا یہ رسالہ بھی اوسى مرحوم کے کمالات کا ایک عکس اور اس کے آثار صالحہ میں سے ایک اثر قوی ہے ما شاء اللہ آپ کی علمی لیاقت ، ادبی قابلیت اور دینی صلاحیتوں کا میں پہلے سے معتقد تھا ، مگر اتنا نہیں جسقدر اس کتاب کے مطالعہ کے بعد ہو گیا ہوں ۔

بجز پر خلوص دعا کے اور کیا صلہ آپ کی محنت کا پیش کروں ، مرحوم کے نیازمند رفیقوں اور عقیدت مند اصحاب کے مہجور و محزون قلوب سے دعائیں نکلتی ہیں کہ تم نے ان کی تسلی کا ایک خاصہ مشغلہ مہیا کر دیا ، جبکہ مرحوم کی مفارقت سے بعض کی زبان حال یہ کہہ رہی تھی :

ہوئی مدت کہ دنیا سے مرا دل اٹھ گیا لیکن
ہنوز ایک شعلہ یاد رفتگان میں دل سے اٹھتا ہے

ہجوم درد و غم اس دود آہ دل سے ہے ثابت
ورود کارواں ہو تب دھواں منزل سے اٹھتا ہے

الہی فرقت مرحوم میں کیونکر بسر ہوگی
نہ دل اٹھتا ہے آفت سے نہ صدمہ دل سے اٹھتا ہے

ہمارے شعلہ غم کا یقین تم کو نہیں آتا
تمہیں کیونکر دکھائیں دل میں بجھتا ، دل سے اٹھتا ہے

شہیر احمد عثمانی عفا اللہ عنہ

۳ صفر ۱۳۵۶ ھ

رأى العلامة الشيخ مولانا شبير أحمد العثماني. شيخ الحديث
بمدرسة الجامعة الإسلامية في داهيل في كتاب

نفحة العنبر

(مغرب من الأردن)

بسم الله الرحمن الرحيم . حامداً ومصلياً ومسلماً .

أيها الأخ العزيز مولانا محمد يوسف البنوري ، إنك جددت لنا
ذكرى الشيخ قدس الله سره وعطرت أرواحنا بتأليفك الكتاب "نفحة العنبر"،
فجزاك الله خيراً وجعلك من أولئك الذين صادق فيهم قوله تعالى : (ويرفع
الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

إنني ابتدأت أولاً في تصفح الكتاب من مواضع اتفقت لي قراءتها منه
وكنت أرى تأجيل استيعاب قراءته إلى فرصة أخرى لولا أن جذبني موضوع
الكتاب وأسلوبه الجميل إلى درجة كان يخيل لي أثناء القراءة — ولا أبالغ —
أن صورة الشيخ ماثلة أمام عيني ، وأن العلامة المرحوم نفسه يقوم خطيباً فنبأ
نحن معشر العشاق المريدين فيمتعن بما خصه الله به من أساليب الإلقاء وطريق
لتوجيه الخطاب .

هذا وكان بالإمكان — إذا أريد — عرض حياة الشيخ المباركة في مجلدة
أضخم من هذا بكثير ، غير أنني أرى — والحق يقال — أن الكتابة في هذا
الموضوع بأكثر مما كتبت لن تعدو أن تكون سواداً في بياض بعد ما وضحت
من جوانب حياة الشيخ المباركة ما وضحت ، وأشرت إلى مزاياه بكل أسلوب
موجز بليغ ، فإنه مهما فصل الكلام وبسط فيه لن يؤول مغزاه إلا إلى ما ذكرته
أنت في الكتاب .

إن أجلاء المفكرين وجهابذة النقاد في عصرهم — فضلاً عن أمثالي —
كانوا يعتقدون في الشيخ أنه آية من آية الله وحقته على العالمين في زمانه ،
والأسلوب الذي اتخذته في عرض علوم الشيخ وملكاتهِ الفطرية ونحو

ذلك من الأحوال التي تتعلق بهديه وسمته كفى به أن يعمل على رغبة أهل الذوق والمعرفة في الاستفادة من تلك الآثار الخالدة التي خلفها الشيخ ، وأن لا يدعهم تنمحي عن صدورهم نقوش ذكرى تلك الروح السعيدة روح الديانة والعلم .

وكأن هذه الرسالة التي ألفتها لمرآة صافية تنعكس فيها كمالات الشيخ وأثر قوى من آثاره الصالحة ، وإنني قديماً كنت أعترف لك بالتفوق العلمي والأدبي وألمس فيك أهلية وصلاًحاً للأمور الدينية ، خير أن اعتقادي هذا لم يكن في درجة وصل إليها الآن بعد ما قرأت لك هذا الكتاب .

وماذا أستطيع أن أقدمه لك من الصلة على هذا المجهود سوى الدعوات التي ملؤها الإخلاص ، والتي يمثلها يدعو لك كثير من القلوب لهؤلاء المهجورين المحزونين من رفاق الشيخ المتوسلين وأصحابه المعتقدين حيث هيأت لهم شغلاً للعزاء والسلوة في الوقت الذي كان لسان حال بعضهم يقول فيه من مفارقة الشيخ (١) :

وإنني لطالما سئمت من الدنيا غير أنه ما زال الفؤاد في التهاب حتى الآن من ذكريات ذلك الحبيب الذي قد مضى لسبيله .

ومما يدلك على مكابدي الآلام والأحزان التي تألبت على هذا الذي تراه من أبخرة مرتفعة من في أثر التأوهات فإن الدخان لا يرتفع من المنزل إلا بعد نزول الركب فيه .

وكيف لي بهناء العيش (يا إلهي) بعد الذي مضى ؟ مع أن القلب لا يسلو عن الغرام ولا انجلاء للهموم عنه .

إن كنت في شك من النيران التي أشعلتها على الهموم فكيف أريها إياك فإنها لا تشتعل إلا في داخل القلب ولا تخبوا إلا هناك ؟ .

(١) ترجمته أبيات لشاعر هندي .

فهرس أبحاث الرسالة

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية .	ألف
مقدمة الطبعة الأولى في خطبة الكتاب وإفصاح باعث تأليف الرسالة والصدع بمآثر الشيخ إمام العصر الأنور رحمه الله بالإجمال .	٥
سلسلة نسبه .	١
نشأته وحياته الجمالية .	١
ذكر دار العلوم الديوبندية ، ونبذة من مآثر العارف المحقق النانوتوى والقطب المحدث الكنكوهى ، وبيان أنهما كانا فرقدى سماء فى دياجر الهند .	٦-٣
أعمال الشيخ بعد الفراغ وتأسيس المدرسة الأمينية بدهلى .	٧
عود الشيخ إلى كشمير وتأسيس معهد دينى .	٨
رحلته إلى الحرمين وتلاقيه مع صاحب "الرسالة الحميدية" .	٩
عزم تجريبه وتفريده .	١٠
افتتاح تدريسه بديوبند .	١١
تأهله بديوبند والإيماء إلى بركاته المثمرة بديوبند .	١٢

الموضوع	الصفحة
تعزله من ديو بند ورحلته إلى الجامعة الإسلامية بقرية دابهيل من بقاع الكجرات .	١٣
ذكر شفى من مآثر للكجرات التاريخية .	١٥
نشأة الجامعة الإسلامية ودعوة ناظمها حضرة الشيخ وبشراه .	١٦
بركات الشيخ فى الكجرات .	١٨
مرض الشيخ ووفاته بديو بند .	١٨
لغته نظر إلى مآثره .	٢١
صلاح فطرته من بدء نشأته .	٢٢
طفولته وبشارة بعض العرفاء بعاقبته السامية .	٢٣
عهدده بمطالعة الشروح وتصديده للإفتاء .	٢٤
استبحاره وحافظته ودقة نظره .	٢٤
ذكر شواهد منها وفوائد أخرى .	٢٦
كلمة ألقاها الشيخ الحبر العثماني فى خصائص الشيخ .	٣٣
دأبه فى مطالعة كتب القوم .	٣٦
الشيخ ودأبه فى حل مشكلات القرآن والتقاط فوائده من كلماته فيما يتعلق بالقرآن ، وشدة عنايته بالقرآن .	٣٦
فائدة فى تفسير قوله : "وامسحوا برؤوسكم الخ" من تحقيقاته ما يدل على وصول الشيخ إلى أقصى ذرى البحث والتحقيق .	٤٢
فائدة فى تفسير قوله تعالى : "قل فأتوا بالتوراة" من علوم الشيخ .	٤٦

الصفحة	الموضوع
٤٨	الشيخ والحديث .
٥١	خصائصه في شرح الأحاديث .
٥١	منها تعيين محط الفائدة وغرض الشارع وأمثلتها .
٥٤	ومنها عدم اعتداده بعموم العبارات .
٥٥	ومنها الجمع بين روايات الإمام لتطبيقها بالحديث .
٦١	ومنها عدم إناطة شرح الحديث بلفظ خاص والإغماض عن لفظه الآخر .
٦٦	بيان أن تلك الخصائص لم يصرح بها الشيخ بل أنا تنبّهت لها، نعم صرح ببعضها في بعض دروسه .
٦٩	تذييل هذا المبحث بواقعة للشيخ تدل على كماله وبراعته في الحديث .
٧٠	قدوم العلامة السيد رشيد رضا المصري بديوبند وتأثره من تغلغل الشيخ في مزايا الحديث .
٧٢	مقالة للشيخ ألقاها في حفلة انعقدت عند قدوم الفاضل المذكور وهي تحتوي فوائد علمية حديثة ونبذة من حال الشاه ولي الله المحدث الدهلوي .
٧٤	بيان تحقيق المناط وتخريج وتنقيحه .
٧٦	نبذة من حال الشيخ اسماعيل الشهيد والشيخ العارف النانوتوي والقطب الكنكوهي .
٧٨	أصول الأئمة الأربعة في شرح الأحاديث .
٧٩	مسألة المياه وحديث القلتين .

الموضوع	الصفحة
مسألة القراءة خلف الإمام .	٧٩
مسألة رفع اليدين والجمهور بالتأمين .	٨٠
نبذة من حال شيخ الهند مولانا محمود حسن .	٨١
الشيخ وأسانيده في الحديث .	٨٣
الشيخ والفقهاء وخصائصه فيه وغيرها من الفوائد المتفرقة .	٨٦
الشيخ وسعيه في خدمة المذهب الحنفي .	٩٢
درجة الشيخ في سائر العلوم العقاية والعلوم العربية وبعض فوائده ومكابدته في مطالعة زبر المحققين .	٩٣
ذكر آيتى التوراة بالعبرية في بشارة نبوة سيدنا خاتم الأنبياء عليه السلام	٩٥
أبيات للراقم في مآثر الشيخ .	٩٨
الشيخ وخصائص دروسه وشيوخ طريقته العذراء في القوم وغيرها من الفوائد .	١٠٠
الشيخ والتأليف وخوضه في الحقائق وذكر مؤلفاته وفوائده شتى .	١٠٥
تأليفه " فصل الخطاب في مسألة أم الكتاب " .	١١١
تأليفه " خاتمة الخطاب " و " عقيدة الإسلام " .	١١٣
تأليفه " تحية الإسلام في حياة عيسى عليه السلام " .	١١٤
تأليفه " إكفار الملحدين في ضروريات الدين " .	١١٦
تأليفه " التصريح بما تواتر في نزول المسيح " و " نيل الفرقدين " .	١١٧
تأليفه " بسط اليدين لليل الفرقدين " .	١٢٠

الصفحة	الموضوع
١٢٢	تأليفه "كشف الستر عن صلاة الوتر" .
١٢٤	تأليفه "ضرب الخاتم على حدوث العالم" .
١٢٦	تأليفه "مراقبة الطارم لحدوث العالم" .
١٢٧	تأليفه "سهم الغيب في كبد أهل الريب" .
١٢٨	تأليفه "كتاباً في الذب عن قرة العينين" .
١٢٩	تأليفه "خاتم النبيين" .
١٣٠	تأليفه "العرف الشذى لجامع الترمذى" .
١٣٣	تكملة وزيادة في مؤلفات الشيخ الأخرى .
١٣٩	الشيخ وأبحاثه وفوائده .
١٣٩	فائدة في تفسير قوله تعالى : "وإذا قال ربك الح" .
١٤٠	فائدة في عدم نسخ صلاة الليل بالكيفية .
١٤٢	فائدة في بيان التواتر وأقسامه .
١٤٤	فائدة في تقسيم الصحيح إلى أربعة أقسام .
١٤٥	فائدة في بيان محل الإيمان وبيان مراتبه مأخوذة من مذكرته المخطوطة .
١٤٦	فائدة في بيان أن الشريعة متوسطة بين التشبيه والتعطيل والرد على الفلاسفة وتنبيهات أخرى .
١٥٠	فائدة في بيان أن ما قاله الفلاسفة من عينية صفات الباري سفسطة .
١٥٣	فائدة في ذكر بعض معاني قوله تعالى : "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له الح" .

- فائدة طويلة في تعيين سد ذى القرنين والكشف عن بأجوج ومأجوج
١٥٧ وتعيين اسم ذى القرنين وعهده .
- ١٦٨ تلخيص ما ذكره الشيخ وتنبيهات مهمة من الراقم .
- فائدة من باب صدع الحقائق والصدع بمذاهب أهل الحق في حدوث
١٧٠ العالم وإشارات وتنبيهات مهمة في الرد على الفلاسفة .
- ١٧٦ الشيخ والشعر ونبوغه في شعره .
- ١٧٩ قصيدة للشيخ في نعت النبي ﷺ .
- ١٨٢ قصيدة له في مآثر العارف النانوتوى .
- ١٨٤ قصيدة له في مناقب القطب الكنكوهى .
- ١٨٥ قصيدة له في رثاء شيخه المحمود الديوبندى .
- ١٨٨ قصيدة له دينية وتاريخية وسياسية .
- ١٩٠ تنبيه من الراقم في الكشف عن الفصاحة ولطافة الخيال .
- ١٩٠ الشيخ وتعبيراته الأدبية .
- الشيخ والفتنة المرزائية وكشف دسائسها وبركات الشيخ في إطفاء هذه
١٩٤ النائرة وبيان أن الشيخ كان ربانى هذه الأمة بعهده .
- ٢٠٥ شيء من شعره مما يتعلق بهذه الفتنة .
- ٢٠٧ الشيخ ونبذة من هديه وشماله العامة .
- ٢١٦ مقالة تاريخية لبعض الأفاضل في مآثر الشيخ وفوائد جمة استطرادية .
- ٢٢٤ الشيخ وثناء أمائل العصر عليه .

الصفحة	الموضوع
٢٢٤	رأى حضرة شيخه الم محمود .
٢٢٥	رأى الشيخ حكيم الأمة التهانوى .
٢٢٦	رأى شيخ الإسلام العثماني .
٢٢٧	لطيفة بديعة في كلمة : "لم تر العيون مثله" .
٢٢٩	رأى حضرة الشيخ حسين أحمد المدني .
٢٣٠	رأى الشيخ المفتي محمد كفايت الله .
٢٣١	رأى الشيخ حبيب الرحمن مدير دار العلوم الديوبندية .
٢٣٢	رأى حضرة السيد سليمان الندوى .
٢٣٦	عبرات على ملزمة وفاة الشيخ وفذلكة لما أثره المذكورة السالفة .
٢٤٧	بشرى وروفا بوفاة الشيخ رحمه الله .
٢٤٨	وفاة الشيخ ومرأى أهل العصر .
٢٤٩	مرثية الشيخ محمد ادريس الكاندهاوى .
٢٥٠	مرثية الأديب الفاضل ميرك شاه الكشميرى .
٢٥١	مرثية الأديب البارع محمد يوسف الكاملغورى .
٢٥٤	مرثية العالم الفاضل محمد يامين السهارنفورى .
٢٥٤	قصيدتان للراقم في رثاء الشيخ رحمه الله .
٢٦٠	ختام الرسالة ومعدرة للجامع .
٢٦٩	زيادة وتكملة في ترجمة الشيخ رحمه الله .

الموضوع	الصفحة
التكملة الأولى : من " يتيمة البيان " .	٢٧٠
خصائصه البارعة .	٢٧٣
التكملة الثانية : من مقدمة " فيض الباري " .	٢٧٩
آدابه العامة في تدريس الحديث .	٢٨٣
خصائصه في تدريس " صحيح البخاري " .	٢٨٥
ميزته في شرح أحاديث الأحكام .	٢٨٧
مؤلفاته في الحديث .	٢٩٠
أسانيده في الحديث .	٢٩١
إجازة الشيخ محمود حسن الديوبندى .	٢٩٣
إجازة الفقيه المحدث الكنكوهي .	٢٩٤
إجازة الشيخ حسين الجسر	٢٩٦
التكملة الثالثة : من مقدمة " عقيد الإسلام " .	٢٩٨
اسمه ونسبه وولادته ونشأته الصالحة ودراسته العلمية .	٢٩٩
أعماله وأشغاله .	٣٠١
خصائصه وشئ من كلمات الأكابر والمعاصرين .	٣٠٣
تأليفه كتاب " عقيدة الإسلام " .	٣٠٦
ضميمة " نفحة العنبر " .	٣١٤
أشكل على الشيخ التهانوي مسألة في " الهداية " فطلب حله من الشيخ رح .	٣١٦

الصفحة	الموضوع
٣١٦	بيان عبارات " الهداية " و " السير الكبير " .
٣١٨	كتاب الشيخ التهانوى إلى الشيخ الأنور .
٣١٩	جواب الشيخ في حل المشكلة باللغة الفارسية .
٣٢٠	صورة كتاب آخر فوتوغرافية للشيخ في حل مشكلة وإيضاحها .
٣٢١	كلمة السيد سليمان الندوى على وفاة الشيخ بالأردوية .
٣٢٣	ترجمتها إلى اللغة العربية .
٣٢٥	تقريب للشيخ العثماني على " نفحة العنبر " باللغة الأردوية .
٣٢٧	ترجمته إلى اللغة العربية .

قطعه تاریخ تالیف نفحة العنبر

نتیجه فکر

جناب مستطاب مولانا مولوی حبیب اللہ صاحب استاذ جامعہ اسلامیہ ڈابھیل

کرد تالیف سیرتِ انور	خادمِ خاص حضرتِ انور
مولوی یوسف آنکہ در علمش	منجلی شد ز صحبتِ انور
نسخہ داد تا ہمہ خوانیم	حمدِ خالق ز مدحتِ انور
بست گلدستہ کہ مست شود	ہمہ عالم ز نکہتِ انور
صورتے بر کشید تا دانی	حق نما هست صورتِ انور
مشتی بنمود تا خرد داند	خرمنِ علم و حکمتِ انور
مشکبارست و ضو فگنِ دائم	نفحِ عنبر ز سیرتِ انور
گفت تاریخ او حبیب اللہ	عیسوی سال و ہجرتِ انور

فیضِ ہمرشتہ نفحۃ العنبر

۱۹

۶

۳۶

لامع النور سیرتِ انور